ما بين التخمة والمجاعة
إشكالية الغذاء في المجتمع المعاصر

التمهيد

عندما ننادي بأنه «ليس بالخبز وحده يحيا الانسان»، فاننا نعترف في الوقت نفسه بأنه لابد له من الخبز كي يبقى على قيد الحياة وحتى يسعى لاستكمال بقية متطلبات حياته المادية والاجتماعية والفكرية والوجدانية والروحية. وهكذا يلقي هاجس الغذاء ظله على الانسان منذ بداية الخليقة، وهكذا كانت المجاعات عميقة الأثر في مصير الحضارات على مر العصور في التاريخ، اذ تتفاعل آثارها لأبعد بكثير من تلك الفترة الزمنية التي يشح فيها الطعام ويفتقر البشر إلى ما يقيم أودهم. واحدى الكتابات الهيروغليفية القديمة تقول: «إني أبكي وأنا جالس على عرشي لهذه الطامة الكبرى. لقد أخلف النيل وعده بالفيضان سبع سنوات متوالية، فانحطت المحاصيل، وصار كل رجل لصا في نظر جاره، وأصبح الأطفال يصرخون من الجوع، والكبار عاجزين عن السير... لقد انتهى كل شيء». وفي العصور الحديثة أدت مجاعة البطاطس (البطاطا) في أيرلندا الى نزوح مليون ونصف مليون أيرلندي الى الولايات المتحدة، والى وفاة مليون آخر من الجوع، في وقت كان اجمالي عدد سكان أيرلندا فيه لا يتجاوز الثمانية ملايين. وعندما عمت المجاعة جمهورية أوكرانيا السوفيتية ـ والتي كانت سلة الخبز لروسيا القيصرية ولكثير من دول أوروبا ـ في حملة المزارع الجماعية في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن، نفق زهاء العشرة ملايين نسمة طبقا لأحد التقديرات. وحقائق المجاعة في أفريقيا ماثلة أمام أعيننا منذ أكثر من عشر سنوات في مختلف وسائل الاعلام، وبما لا يحتاج الى مزيد من التعليق.

ولقد طرحت قضية الغذاء في زمننا المعاصر من منطلقات متباينة، وبرؤى متناقضة. ويتزامن هذا

التباين والتناقض مع عدد من الظواهر التي هي من قبيل « اللامعقول » . فالسوق الأوروبية المشتركة لديها فائض هائل من المواد الغذائية يفوق العشرين مليون طن ، يكلف تخزينه زهاء الأربعة بلايين دولار سنويا . لقد زاد المخزون من الزبد في السنوات الخمس الأخيرة حوالي تسع مرات ، والمخزون من اللحوم ثلاث مرات . والصورة نفسها تتكرّر في الولايات المتحدة الأمريكية . وفي الوقت نفسه الذي يتراكم فيه هذا الفائض عاما اثر عام ، تنفق الدول الأوروبية والولايات المتحدة ما يربو على المئة بليون (مليار) دولار سنويا كدعم مالي لقطاع الزراعة والانتاج الحيواني ليستمر في انتاج المزيد من الغذاء ! وفي السنوات الأخيرة حقق عدد من الدول النامية ، التي كانت تشكو المجاعة منذ عقود معدودات ، انجازات رائعة في توفير الغذاء لمواطنيها ، بل وفي تصديره الى دول أخرى . والهند والصين وتايلاند نماذج لافتة لما حققته « الثورة الخضراء » في انتاج الغذاء . ان العالم غارق اليوم في فائض من الحبوب يقدر بحوالي ٤٠٠ مليون طن . وهكذا نجد الولايات المتحدة مثلا تنفق ستة بلايين دولار لدعم تصدير ذرة لا يتجاوز ثمنها ثلث هذا المبلغ ، ونسمع عن صفقة بيع السوق الأوروبية للزبد بعشر كلفته الى الاتحاد السوفييتي ، ونقرأ أن تايلاند تشكو من منافسة الولايات المتحدة « غير الشريفة » لها في أسواق تصدير الأرز العالمية .

ان كل هذا ، وغيره كثير من المفارقات المذهلة ، يحدث في وقت اهتز فيه ضمير العالم بأسره عندما شاهد برنامجا تلفزيونيا عن المجاعة في اثيوبيا . وكانت بشاعة الصورة كفيلة بأن تدفع شابا في شرخ الصبا ، لم يعرف عنه من قبل سوى غنائه الصاخب ، لقيادة حملة على نطاق عالمي لانقاذ مئات الألوف من الجياع في افريقيا من شبح الموت . وشاهدناه يقتحم في جرأة ، بلغت أحيانا حد الوقاحة ، قصور رؤساء الدول « الكبرى » ، ليثير فيهم بمواجهاته الفظة شعور الخجل ، وشهدناه يستثير نخوة الملايين من سكان الشمال المتخم بالطعام ، وعشرات الفنانين من زملائه ، ليهرع الجميع الى نجدة المنكوبين بشكل أو بآخر ، والى تقديم « المساعدات » الغذائية لجياع افريقيا[١] .

لقد كان أحد طروحات اشكالية الغذاء هو أنها نتيجة متوقعة ، ان لم تكن حتمية ، للزيادة المطردة في عدد سكان هذا الكوكب ، ولعجز البيئة عن انتاج غذاء كاف يفي باحتياجات معدلات تزايد عدد السكان المقلقة . وشهد مؤتمر السكان العالمي المنعقد في بوخارست ذروة تعالي صيحات التحذير من هذا الخطر الداهم من ممثلي دول الشمال ، واستنكار الدول النامية لهذا الطرح ورفضها له . ولاشك في أن عدد سكان هذه الأرض قد تضاعف من عام ١٩٥٠ . ومن المسلم به أن عددهم قد زاد بأكثر من بليون نسمة منذ عام ١٩٧٤ ، بل لقد أعلن يوم الحادي عشر من يوليو (تموز) عام ١٩٨٧ ، « يوم الخمسة بلايين نسمة » . ولكن المؤكد ، بالقدر نفسه ، هو أن الحد الأعلى النظري لقدرة هذا الكوكب على الوفاء باحتياجات من يسعون على أرضه تبلغ أضعاف أضعاف هذا العدد[٢] . فالمسألة اذن هي قدرتهم على « تأمين » احتياجاتهم من الغذاء ، وليست مسألة عجز موارد الأرض عن انتاج ما يحتاجونه منه . ولهذه الاشكالية الديموغرافية جوانب كثيرة معقدة ، مثل تباين معدلات زيادة السكان ، وغياب التناسق بين توزيعهم وبين قدرات المناطق التي يعيشون فيها على انتاج الغذاء ، وعلى التركيب العمري للسكان . ويبدو أن غياب التناسق بين توزيع البشر وقدرة المناطق التي يعيشون فيها على توفير الغذاء لهم هو الوجه الحقيقي للاعتبارات الديموغرافية في مناقشة

(١) Bob Geldof: Is That It? Sidgwick & Jackson, 1986
وقد نظم جيلدوف حفلين غنائيين تلفزيونيين على نطاق عالمي بلغ ريعهما ١٠٠ مليون دولار أمريكي ، مثلت حوالي ٥٪ من اجمالي قيمة المعونات المرسلة الى اثيوبيا .
(٢) في تقدير ورد في عدد ١٣/٦/١٩٨٧ لمجلة الايكونومست البريطانية أن الأرض قادرة نظريا على توفير الغذاء لعدد يبلغ ١٣٢,٠٠٠ بليون نسمة !!!

اشكالية « الغذاء ـ السكان » . والمسألة أوضح ما تكون في أفريقيا ، أرض المجاعات ، والتي تقاسي من أعلى معدلات لزيادة السكان . والطريف في الأمر هو أن هذا الخلل ستعاني منه أيضا بعض الدول المتقدمة ، لا عن طريق زيادة عدد صغار السن الذين لم يدخلوا بعد مجال العمالة المنتجة ، ولكن عن طريق زيادة أعداد المسنين الذين سيخرجون بدورهم من مجال الانتاج ليعولهم مجتمع المنتجين ! وعلى أية حال ، فلو استمر الوضع على ما هو عليه الآن في افريقيا ، فان احتياجاتها من استيراد الغذاء ستتضاعف ثلاث مرات لمجرد الحفاظ على مستويات استهلاكه في منتصف عقد السبعينيات . ولقد علق أحد المسئولين الأفريقيين في أسى على هذا الوضع قائلا : « حقيقة الأمر هي أن قول مالثوس[٣] كان صحيحا فيما يخص أفريقيا . فاليوم صار غذاء أطفالنا أسوأ من غذاء آبائهم عندما كانوا أطفالا مثلهم ، وهو أسوأ بكثير من أحوال أجدادهم . واذا لم نسيطر على مسألة الغذاء والسكان سنظل معتمدين على معونات الغذاء إلى الأبد[٤] » .

• • •

والمعونات بأشكالها المتباينة لم تصبح النمط المألوف في النهوض بما نسميه الآن « العالم الثالث » أو « الدول النامية » أو « الجنوب » (في مقابل العالمين « الأول والثاني » أو الدول « المصنعة » أو « الشمال ») الا بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وتحررت مستعمرات الشمال تدريجيا من ربقة الاستعمار السياسي لتصبح دولا مستقلة ذات سيادة ، تدير شئونها بنفسها وهي تواجه عجزا كبيرا في الموارد والكفاءات البشرية .

ولقد كانت الولايات المتحدة المصدر الرئيسي منذ عقد الخمسينات للمعونات الغذائية . وفي تقدير الكثيرين من الدارسين الأمريكيين أنفسهم أن المعونات لم تعكس أساسا نوايا انسانية بقدر ما كانت أداة لخدمة السياسات الخارجية والمصالح الاقتصادية للولايات المتحدة ، باعتراف الشخص المسئول عن قانون المعونة الغذائية (PL 480) الشهير باسم « الغذاء من أجل السلام » . فهو يرد دوافع المعونة الغذائية الى ضمان وصول المواد الاستراتيجية من الدول النامية الى الولايات المتحدة ، والتخلص من فائض الغذاء الذي يهدد بانخفاض أسعار الحاصلات الزراعية في الداخل والخارج[٥] . وبموجب هذا القانون تدفع البلدان التي تتلقى المعونة الغذائية ثمن هذه المعونة بعملتها المحلية . ولقد أتاح هذا الرصيد المتراكم من العملات المحلية داخل هذه البلدان فرصة نادرة لانفاقه بمعرفة الحكومة الأمريكية في خدمة أغراض سياستها الخارجية المشروعة ، بل و « غير المشروعة » أيضا في زعم الكثيرين . وفي مطلع عقد السبعينات سمح القانون الأمريكي باستخدامها لتمويل استثمارات شركات الولايات المتحدة في الدول التي تتلقى المعونة .

وفي منتصف الستينات بدأ برنامج مماثل للسوق الأوروبية المشتركة وللدوافع نفسها . وكان هذا بدوره الحل المنشود للتخلص من فائض الانتاج الزراعي الذي تدعمه السوق بأكثر من نصف ما تنفقه على دعم الأسعار وحماية المزارعين في دولها . ولقد بلغ هذا الدعم في العام الحالي مستويات لم يعد من الممكن معها استمرار هذه السياسة الزراعية

---

(٣) قال مالثوس في كتابه الذي صدر عام ١٧٩٨ ان « المجاعة تبدو وكأنها الخطر وأبغض موارد الطبيعة . فقوة السكان أعظم بكثير من قوى الأرض ومن مقدرتهم على توفير العيش . . . لدرجة أن الموت قبل الأوان يجب أن يصيب الجنس البشري ، بشكل أو بآخر » .

(٤) "North South Food Round Table On The Crisis In Africa, New York, March, 1985, Published By The Society For International Develop-ment.

(٥) John Macclung: "Dr. Spitzer Views Food Resources as Tool In Defending Nation's System", Foodstuff, 1975: 7.

المشتركة (Common Agricultural Policy) دون مراجعة جذرية . ولقد شهدنا رئيسة وزراء بريطانيا بعنادها المعروف تقف في وجه الأطراف الأخرى المشاركة في السوق لتعطل اعتماد موازنة السوق حتى تجرى مراجعة شاملة للسياسة الزراعية المشتركة للسوق ، ويعاد النظر في أمر الدعم الهائل الذي تقدمه السوق لانتاج مزيد من الغذاء لا حاجة لها به ، رضا للمزارعين في بعض دول السوق . كما شهدنا الولايات المتحدة الأمريكية تدعو الى نبذ سياسة دعم الانتاج الزراعي عندما غزت المنتجات الزراعية الأوروبية المدعومة السوق الأمريكية ، أو حينما حلت محل الواردات الأمريكية التقليدية من الغذاء الى بعض الدول التي انضمت حديثا الى السوق ، مثل أسبانيا . وكاد الأمر أن يصل الى حد اعلان حرب تجارية مدمرة بين الطرفين تتنافى مع مبدأ حرية التجارة الذي ينادي به المجتمع الرأسمالي في كل مناسبة . ودارت آخر جولة في حرب الأعصاب هذه في شهر أغسطس من العام الحالي حول تصدير « المكرونة » الايطالية الى الولايات المتحدة ! .

فماذا حققت هذه المعونة ؟ ان مصير هذه المعونة مرتبط بحكم الضرورة بالأوضاع الداخلية للدول التي تتلقاها . وفي دراسة للبنك الدولي لطرق توزيع المعونة بنظام البطاقات في بنجلاديش تبين أن أكثر من ربعها يذهب لرجال الشرطة والجيش وموظفي الحكومة ، وأن الثلث تقريبا تستأثر به الطبقة المتوسطة في ست مدن رئيسية ، وأن عشرها فقط ، أو أقل قليلا ، يذهب الى المطاحن التي تزود مخابز المدن باحتياجاتها من الطحين . ولم يكن نصيب الريف الذي تعيش فيه الأغلبية الساحقة من السكان سوى ثلث هذه المعونة . وهذه الصورة تتكرر ، وأحيانا بدرجات أكثر بشاعة ، في كل واحدة تقريبا من الدول التي تتلقى المعونة الغذائية . وفي تجارب الوطن العربي في أقطار مثل مصر أو السودان أمثلة صارخة ومعروفة لهذا النمط الذي تستميل به الدول التي تقدم المعونة الطبقة المتوسطة للناس الى جانب سياساتها .

لقد كانت للمعونة الغذائية مجموعة من الآثار السلبية البالغة الخطورة على الدول النامية . فهناك ، مثلا ، الآثار الصحية التي تكشفت مؤخرا لاستخدام الألبان المجففة كغذاء للكبار ، وما سببته لهم من أمراض واضطراب الجهاز الهضمي نظرا لعجز معداتهم ، بعد أن تجاوزوا مرحلة الطفولة ، عن هضم الألبان بسهولة . وهناك أمر أهم من هذا هو التبدل الخطير ، والذي يبدو أن لا رجعة فيه ، في العادات الغذائية وبصورة تؤصل الاعتماد على استيراد الغذاء . ومن أمثلة ذلك التحول من الاعتماد على الذرة أو الشعير أو غيرهما من مصادر النشويات الى القمح المستورد ، والتوقف عن صناعة الخبز منزليا ، والاعتماد على ما تقدمه مخابز مركزية من أنواع لم تكن مألوفة ، لا في الريف ولا في الحضر ، حتى سنوات معدودات خلت . ولقد أدت سياسة الغذاء « الرخيص » أيضا الى مزيد من النزوح من الريف الى الحضر والى تدهور أوضاع الانتاج الزراعي الوطني بشكل متزايد ، اذ أن تقديم الغذاء مجانا ، أو بأسعار منخفضة ، لا يتيح للفلاح أن يبيع انتاجه من الغذاء بأسعار تغطي تكلفة انتاجه وتقيم أوده وأود عياله . وهكذا تصبح الدولة المتلقية للمعونة في نهاية المطاف أسيرة لمقدمي المعونة بمثل ما يصبح « المدمن » أسير من يزوده بما لا يستغني عنه من المخدرات !! وليس لنا أن نتعجب ، اذن ، عندما نسمع سناتوراً أمريكياً يقول منذ ثلاثين عاما خلت ان نبأ اعتماد الناس على الولايات المتحدة في غذائهم كان نبأ طيبا بالنسبة له ، اذ أن الاعتماد الغذائي طريقة رائعة تجعل الناس يعتمدون عليك ، أي « يتعاونون معك[٦] » .

(٦) السناتور هيوبرت همفري ، عام ١٩٥٧

واذا ما كان الرأي السائد الآن هو أن معونات الغذاء لا يمكن الا أن تكون بمثابة « الاسعافات الأولية » في حالات المجاعة الصارخة ، فان النوع الآخر من المعونة هو ما يسمى في المحافل الدولية « المعونة الفنية » . وهي إعمال للمثل الصيني القائل بأنه من الأفضل أن تعلم الانسان الصيد عن أن تعطيه سمكة . وهكذا فان هدف المعونة الفنية هو مساعدة الدول التي تشكو من نقص الغذاء على ادارة مواردها بكفاءة واستغلال التقانات الحديثة المتوفرة لدى مقدمي هذه المعونة لانتاج ما يكفيها من الغذاء ، أو على الأقل لتقليص احتياجاتها من استيراد الغذاء الى أدنى حد ممكن . والمشكلة الجوهرية التي تواجه كل مشروعات المعونة الفنية هي : كيف تتعامل مع النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي القائم ؟ وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا أمر لا علاقة له بالمسائل « الفنية » ، مثل تحسين انتاجية الأرض أو استخدام المخصبات أو المبيدات الحشرية أو الفصائل العالية الانتاجية من بذور التقاوي . ولكن الحقيقة المرة هي أن تطبيق أي من هذه الوسائل الفنية يجب أن يتم من خلال نظام علاقات اقتصادية ـ اجتماعية معينة ، تتولى تحديد نمط توزيعها ومتابعة تطبيقها بكفاءة . والنمط السائد في كثير من المجتمعات النامية هو أن هناك عادة فئة تكون أقدر من غيرها على السيطرة على هذه العمليات وأن المزارع الصغير والفلاح رقيق الحال قلما يكونان من بين هذه الفئة . وهكذا تجد المعونة الفنية وأدواتها طريقها الى فئة صغيرة مهيمنة تستحوذ على عائدها ولا تحقق الغاية المرجوّة من توفير مزيد من الأمن الغذائي على مستوى المجتمع ككل . وفي مثال مشهور لمشروع البنك الدولي لحفر ثلاثة آلاف بئر للري لتحقيق زيادة انتاج الأرز في بنجلاديش ، تحولت كثير من الآبار ، عن الهدف الأصلي من حفرها وهو أن يستخدمها عشرات الزراع الأعضاء في تعاونية زراعية ، فصارت البئر ملكا خالصا لفرد واحد ، هو أحد أثرياء القرية الذي لم يكلفه الأمر سوى تقديم حفنة من الدنانير لبعض المسئولين الحكوميين ليستحوذ عليها ، وليبيع ماءها لبقية الزراع بالثمن الذي يحدده . ان رئيس البنك الدولي قد أعلن صراحة في اجتماع مجلس محافظي البنك في نيروبي ، عام ١٩٧٣ ، أن البنك لن يركز اهتمامه على اعادة توزيع الدخل والثروة ، وانما على زيادة انتاجية الفقراء والمساعدة على اقتسام أكثر تكافؤا لثمرات النمو . وسياسة البنك المعلنة صراحة في شأن التنمية الريفية هي أن من الأمور الأساسية في كثير من الدول أن يتجنب البنك معارضة قطاعات ذات نفوذ في المجتمع الريفي كي لا تقوم بتخريب برامج البنك من الداخل . ولكن ما يجري على أرض الواقع ، على الرغم من سياسة المهادنة المعلنة هذه ، هو في حقيقته تخريب حقيقي لأهداف مشروعاته في غالبية الحالات .

ان من عاش في المجتمع الريفي في أي من بلدان العالم الثالث ، ومن بينها الأقطار العربية ، يعرف من واقع تجربته الشخصية ، وأيا ما كان موقعه الاجتماعي ، أن الميسورين في الريف يوقعون جيرانهم من صغار الزراع في الدين ويستحوذون على أراضيهم ثم يؤجرونها لهم ليزرعوها لحسابهم دون أن يكون لصغار الزراع أمل في استعادة ملكيتها ثانية[٧] .

ومن أروع ما وصف به أمر المعونة الفنية للمجتمعات الريفية في الدول الفقيرة « مناجاة » كتبها الدكتور اسماعيل سراج الدين ، المصري المولد ، والذي يشغل حاليا منصب أستاذ الاقتصاد بجامعة جونز هوبكنز (Johns Hopkins) بالولايات المتحدة حين عمل « خبيرا » دوليا في بنجلاديش وضاق ضميره الحي وحسه المرهف بما عاناه أثناء قيامه بهذه المهمة ، اذ قال في سياق وصفه للصراع الاجتماعي الدائر :

(٧) كان هذا النظام ، الذي كان شائعا في الريف المصري حتى وقت قريب جدا ، يسمى في مصر « الفرولة » (من الفرق) .

« وسط هذا البحث عن الاجماع ، ومع ما يحيه من ألم ، ووسط هؤلاء الذين يتقاسمون المصير نفسه ، هناك مشورة أكثر من المستشارين ، ومستشارون أكثر ممن يتلقون المشورة ، بينما الأمر بالنسبة لقدر لا يستهان به هو أمر البقاء على قيد الحياة ، لا الحفاظ على ذاتية الفرد ، ولكن انقاذ اللحم والدم والعظام ، لهم ولمن يعولون . ووسط هذا الصراع الأساسي . بضراوته وجوهريته ، يأتي المنقذون ، يقتحمون الساحة في مظاهرة لافتة للأنظار . نحن السحرة الدوليون لعصرنا هذا ، الذين يملكون علاج كل داء ، والآتون للانقاذ . الا أننا يجب أولا أن نأكل وأن نستريح وأن نحتفل ، وسنتقدم بعد هذا الأفكار في كبرياء عمياء وتعاطف غبي ، لأننا نعلم . ولقد أتى علمنا ونحن نقاسي في أحلامنا ، ونحن نتصارع في مناظراتنا ومؤتمراتنا التي لا تنتهي . نعم ، لقد قاسينا . لقد تحملنا مخاطر الركوب عاليا في الجو ، والمرور عبر الجمارك ، والذهاب في سيارات جميلة مكيفة الى المزارع . كل هذا من أجل أن نؤدي واجبنا المقدس . اننا نأتي من كل فج - من « غيتو » مانهاتن ، من موسكو ، من بادان ، من ريف ديفون ، ومن نورماندي ، ومن تريتون . نعم ، نحن نعرف الأحياء الفقيرة في المدينة وفتات الريف » .

وهو يستطرد بعد هذا ليتحدث في صراحة قاسية عن جهل الخبراء الدوليين بمنظومة القيم وبالمعتقدات وبالعلاقات الاجتماعية ليختتم مناجاته بالعبارات التالية :

« عند هذه المرحلة ، التي يتضح فيها أننا جهلة ، يتحتم على دول مثل بنجلاديش ، كي نكون كرماء بالنسبة لدوافعنا ومشاعرنا ، أن تتحمل هي قوى اضافية ، علاقات الدخل والخرج فيها غير معروفة ، ولكنها بالقطع باهظة الكلفة . ان ما نفقده في هذه العملية هو قيمة الأمانة والموضوعية والنقاء(٨) » .

وهو يشير هنا الى أن الدول كثيرا ما تتلقى المعونة الفنية على هيئة قروض بشروط « ميسرة » . ورئيس البنك الدولي نفسه قد صرح بأن « ما ليس معروفا بصورة عامة ، وما أود تأكيده ، هو أن مرتبات العاملين في البنك لا يدفعها ، كلها أو جزءا منها ، دافع الضرائب الأمريكي(٩) » .

وبعيدا عن المواقف الشخصية ومعاناة الضمائر الحية ، يقول تقرير اللجنة المستقلة المعنية بالقضايا الانسانية الدولية عن المجاعة في افريقيا :

« لقد وقع عدد كبير جدا من مانحي المعونة في شباك نهج « نحن أدرى » . وقد يكون هذا نجدة للحكومات المانحة للهروب من المساءلات العامة التي تبدو بلا نهاية ، والتي تسبق العديد من مشروعات البناء في الوطن . أما في العالم الثالث فالعكس هو السائد . فلو توصل مانح للمعونة ووزير حكومي الى تفاهم حول مشروع ما ، سواء أكان سدا كهرومائيا يشرد آلاف الناس ، أو طريقا يشق الغابات ، فإن هناك عددا ضئيلا من القيود القانونية أو السياسية ، هذا ان وجدت . وكثيرا جدا ما كانت أفريقيا مختبرا لأوهام خبراء التنمية الأجانب(١٠) » .

وعلى الرغم من كل هذا ، فان المعونة الفنية قد أثبتت في أكثر من حالة ، وأكثر من موقع ، أنها يمكن أن تعود

---

(٨) Sirageldin, L: Thoughts On Life, No. 14, Dacca, Oct./Nov. 1975, Unpublished.

(٩) من تصريح في جريدة نيويورك تايمز ، ٣٠ ابريل ، ١٩٧٨ .

(١٠) المجاعة : هل هي كارثة من صنع الانسان ؟ ، الذي صدرت طبعته العربية عام ١٩٨٦ في القاهرة من اللجنة المستقلة المعنية بالقضايا الانسانية الدولية ، والتي يرأسها مشاركة الأمير الحسن بن طلال ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية والأمير صدر الدين أغاخان ، المفوض العام السابق للاجئين بالأمم المتحدة ومستشار الأمين العام للأمم المتحدة .

بالفائدة اذا ما أحسن المسئولون في الدول التي تتلقى المعونة استخدامها ، أو اذا ما قام على أمر الفريق أو الهيئة التي تقدم المعونة أناس مخلصون لقضية تنمية الدول النامية ، أكفاء علميا ، وقادرون على ادارة مشروعات التنمية بحزم وجدية .

وربما كانت المجموعة الاستشارية للبحوث الزراعية الدولية (CGIAR) من أبرز أمثلة المعونة الفنية الناجحة في مجال توفير الغذاء ، وذلك من خلال مراكز البحوث التي أنشأتها المجموعة ، مثل مركز المكسيك لأبحاث الذرة ، ومعهد أبحاث الأرز في الفلبين . ومن المعلوم أن الهند قد حققت من خلال « الثورة الخضراء » اكتفاء ذاتيا في المواد الغذائية الأساسية ، بل انها قد صدرت قدرا من فائض الحبوب فيها الى الاتحاد السوفييتي بعد أن كان الملايين يموتون جوعا فيها منذ ثلاثين أو أربعين عاما خلت . ومع ذلك فان التكنولوجيا الحديثة ليست كلها خيرا في جميع الحالات . فالفصائل الجديدة غزيرة الانتاج أكثر استهدافا من الفصائل التقليدية للأمراض ، اذ أن البذور التي تطورت في الموقع مع مرور الزمن تمثل عملية انتقاء « داروني » طبيعية . وتقليص رصيد البشرية من الفصائل المختلفة الى عدد قليل من فصائل البذور الجديدة يجعل نتائج تفشي وباء فيها أكثر خطورة بمراحل مما لو أصابت واحدة من التراث الغني من الفصائل المتنوعة الذي تراكم على مر آلاف السنين[١١] .

واستعمال الآلات الزراعية والاسراف في الميكنة لا يؤديان بالضرورة الى رفع كفاءة الانتاج ، فللميكنة آثار مدمرة على فرص العمل في الريف ، وهي وسيلة لزيادة سيطرة كبار الملاك وزيادة احتياجات الدولة النامية من أنواع الوقود المختلفة وهي الدول التي كثيرا ما تستورد احتياجاتها من النفط بكلفة ينوء بها كاهلها . ثم ان هذه الآلات الزراعية الحديثة تستورد عادة من البلاد المصنعة وتمثل عبئا اضافيا على مواردها من العملات الأجنبية أو احتياجاتها من القروض . وتجربة الزراعة الآلية في السودان مثال حي لادخال تكنولوجيا غير ملائمة في الزراعة في دولة نامية . فقد تأسست هيئة الزراعة الآلية ، وهي منظمة شبه حكومية ، لانتاج الحبوب على نطاق واسع . ولكن المؤسسة عجزت عن تحقيق هذا الهدف . وكانت النتيجة نوعا من الزراعة الآلية تميز بانخفاض الانتاجية ، والعجز المالي لبعض المستثمرين ، والتعدي على أراضي البدو الرحل وصغار المزارعين . وهكذا لم تكن الزراعة الآلية غير مربحة فحسب ، بل كانت مدمرة لأنماط زراعية تقليدية تحمي الأراضي الزراعية من تآكل التربة والزحف الصحراوي ، وتوفر قدرا من الأمن لسكان الريف . وهكذا لم تفد الهيئة غالبية أهل الريف ، اذ فقد الرعاة الرحل مراعيهم التقليدية ، مثل ما فقد الزراع أراضيهم . وبينما كانت هيئة الزراعة مستمرة في دفع الفوائد المستحقة على قروض شراء الآلات والمعدات واستخدام الخبراء ، كانت المزارع الكبيرة تفتقر لأية مزية انتاجية ، حتى فيما يتعلق بالقيمة المضافة عن كل عامل[١٢] .

وأخيرا ، فان انتشار استخدام المخصبات الكيماوية يفقد التربة قدرتها على تنشيط المواد العضوية فيها ، بل أنه قد تسبب في تلوث المياه الجوفية التي كثيرا ما تستخدم للأغراض البشرية[١٣] .

(١١) فرانسيس مور لابيه وجوزيف كولينز : صناعة الجوع ، في سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٦٤ ، ترجمة أحمد حسان ، صفحة ١٧٨ . وهذا الكتاب يظلت من أهم ما في المكتبة العربية المعاصرة من مراجع حول موضوع الأمن الغذائي ، على الرغم من مرور سبع سنوات على صدور الأصل باللغة الانجليزية .

(١٢) د . بارنيت : التكنولوجيا والسياسة الزراعية في السودان ، في « السياسات التكنولوجية في الأقطار العربية » ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، سبتمبر ١٩٨٥ ، ص ٣٧٠ .

(١٣) أصدرت السوق الأوروبية المشتركة في شهر أغسطس (آب) ، ١٩٨٧ ، تقريرا في شأن عدم صلاحية مياه الشرب في بريطانيا للاستهلاك الآدمي ، وكان ارتفاع نسبة أملاح النتريتات (Nitrites) بسبب الإسراف في استخدام المخصبات الكيماوية ، من بين ما استنكره التقرير ونبه الى خطورته على الصحة العامة في بعض المناطق الشرقية للجزر البريطانية .

ومن الطبيعي ـ والأمر كذلك ـ أن يبرز مفهوم التكنولوجيا « الملائمة » وأن تناقش أنواعها وصفاتها في اطار الزراعة في الدول النامية ، والفقيرة منها بالذات . فبينما كان الانسان يحتاج الى سعر (Calorie) واحد من الطاقة لانتاج غذاء قيمته الغذائية سعر واحد أيضا ، فان الزراعة المميكنة تحتاج الى ٢٤,٥ سعرا من الطاقة للآلات الزراعية لانتاج غذاء قيمته سعر واحد[١٤] . ويتحفظ كثيرون في الدول النامية على جهود الدول المصنعة في توفير تكنولوجيا ملائمة للدول النامية لأنهم يرون فيها دعوة للتخلف التكنولوجي والاكتفاء بتعديلات طفيفة على طرق الانتاج الزراعي التقليدية كثيفة العمالة . وهذه مسألة ما زال الحوار محتدما في شأنها ، مرتبطا بمفهوم طوباوي آخر ، هو مفهوم « التنمية البديلة » . ودون أن نخوض في هذه القضية الشائكة نكتفي هنا بالقول بأن التكنولوجيات الجديدة لكي تؤتي ثمارها لايمكن أن تنفصل في الواقع الاجتماعي الذي ستطبق فيه . ولكن الأمر اللافت للنظر هو أن في الدول المصنعة نفسها أصواتاً ، تتعالى يوما بعد يوم ، تنبه الى مخاطر استخدام المخصبات والمبيدات على نطاق واسع . وفي يوم البيئة العالمي للعام الحالي (٥ يونيو (حزيران) ١٩٨٧) ، أصدرت مجموعة من العلماء المهتمين بالموضوع « اعلان أوتاوا »[١٥] في كندا المعنون « من أجل نظام زراعي ابداعي وقادر على البقاء » . وفيه ينبهون الى الأخطار ، قريبة المدى وبعيدته ، لتقنيات الزراعة الراهنة على البيئات الحضرية والريفية ، وعلى البحيرات والأنهار وخزانات المياه الجوفية ، وعلى الحيوانات البرية . واستنكر البيان قيام دول مصنعة ، منعت استخدام المبيدات الحشرية ، أو قلصت استخدامها بدرجة كبيرة فيها ، بتصدير هذه المبيدات الى الدول النامية . وأشار البيان الى أن أخطار هذه المبيدات لا تقتصر على استخدامها وحده ، ولكن أيضا على البيئات التي تنتج فيها ، مشيرا الى حادثة مصنع المبيدات لشركة يونيان كاربايد في بوبال في الهند عام ١٩٨٤ والتي راح ضحيتها آلاف الموتى وعشرات الألوف من المصابين .

ان البيئة الطبيعية هي الخلفية التي تجري أمامها وقائع الحياة ، وبين الناس وبيئتهم علاقات تفاعل وثيقة حقا . ويعني هذا أن التغيرات في البيئة الطبيعية أو في أنماط الحضارة البشرية يؤثر كل منها في الآخر . ويأتي كل تغير في هذه العلاقة معه بنوع من اختلاف التوازن ، يستحث بدوره نوعا من الاستجابة من أي من الطرفين الى أن يتحقق توازن جديد . فاذا ما شكل الانسان وبيئته نسقا مغلقا فان آثار هذه التغيرات تكون عادة صغيرة وتدريجية ، تتشكل ببطء على امتداد أفق زمني طويل . الا أن مثل هذه الأنساق في عالمنا المعاصر لم يعد يعد نسقا مغلقا . والتكنولوجيات الجديدة التي تقتحم هذا التوازن التقليدي بفعل تأثيرات خارجية تكون عادة كمثل الهزات العنيفة ، لا التغيرات الطفيفة التدريجية . كما أن ادخال بعض هذه التكنولوجيات قد يكون أيسر من ادخال غيرها ، اذ قد يجد قبولا أكثر . ان هذه التفاعلات الصاخبة تؤدي الآن الى مستويات متفاوتة من اختلال التوازن بين الموارد الطبيعية وبين الناس . وربما كان هذا هو جوهر مشكلة التنمية الريفية في الدول النامية والأقل نموا في عالمنا المعاصر ، والتي هي في نهاية الأمر مسألة تحقيق توازن جديد يسمح باستمرار الحياة في هذه البيئة ، لا توازن يشترط تحقيقه نزوح البشر عن بيئتهم أو تعرضهم لأخطار جسام .

واذا ما كان من باب المكابرة انكار أن « الثورة الخضراء » قد حققت طفرات في انتاج الغذاء في بعض الدول النامية ، الا أننا لابد وأن نتذكر أنها قد جاءت معها بزيادات هائلة في احتياجات تلك الدول من الطاقة لتشغيل الآلات

---

(١٤) علي نصار : الامكانات العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٢ .

(١٥) Ifda Dossier, No. 59, May/June, 1987, PP. 72-73, International Foundation For Development Alternatives, Switzerland.

الزراعية وانتاج المخصبات ونقلها ، كما سبق وأن ذكرنا . وفي الطرف المقابل ، نرى أن أحد الأسباب الرئيسية لامتداد التصحر في دول المجاعة هو استخدام الأخشاب كمصدر أساسي للوقود فيها . هاتان الحقيقتان الواقعتان على طرفي نقيض تؤكدان أن هناك تفاعلا عميقا وحتميا بين الغذاء والطاقة ، وهما العنصران الجوهريان في بقاء الجنس البشري . ان هذه العلاقة التي أخرجت لنا مصطلح « متلازمة الغذاء ـ الطاقة » (Food-Energy Nexus) علاقة معقدة وحاسمة في الوقت نفسه . وما زالت التنمية الزراعية تجرى في كثير من الأقطار النامية وكأن الطاقة مازالت موردا زهيد الثمن ، ومازال تخطيط الطاقة فيها يجرى في شبه عزلة عن كثير من الاعتبارات الاجتماعية ـ الاقتصادية التي لا تبدو لأول وهلة وكأن لها دخلا في الموضوع . ويحدث هذا في الوقت الذي تتراكم فيه الشواهد على أن الاستجابات التكنولوجية التقليدية لمعالجة مسائل الغذاء والطاقة لم تعد ملائمة ، نظرا لأثارها الضارة على البيئة الطبيعية ولعواقبها الاجتماعية الوخيمة . ولقد دعا كل هذا جامعة الأمم المتحدة لأن تركز الاهتمام على هذه القضية وأن تبدأ منذ عام ١٩٨٢ برنامجا بحثيا في متلازمة « الغذاء ـ الطاقة » ينطلق من التسليم بأن انتاج الغذاء والطاقة واتاحتها عنصران استراتيجيان هامان في جهود التنمية اعتمادا على الذات . ويتوقع ، عندما ينتهي البرنامج بنهاية هذا العام ، أن تخرج عنه عدة بدائل عملية لتصميم أنظمة للغذاء والطاقة وتجربتها وتقويمها ، استنادا الى « نماذج » بيئية نمطية صالحة للتطبيق في ظروف بيئية وحضارية معينة .

ولقد اكتسبت القضية التكنولوجية بعدا جديدا في العقد الحالي مع ما تحققه الهندسة الوراثية من انجازات متتالية في تخليق كائنات دقيقة ذات صفات معينة ، أو فصائل من النبات والحيوان لها خصائص مطلوبة ، بحيث أصبحنا الآن على مشارف ثورة خضراء ثانية تتضاءل أمامها الثورة الخضراء السابقة . ان الأمر الآن ليس أمر تهجين الفصائل لتوليد فصائل ذات صفات جيدة ، بل انه أمر ادخال جينات (genes) ، أو مورثات ، لانتاج أنواع جديدة تماما من النبات والحيوان . ومازالت هذه التطورات في مراحل طفولتها الأولى في عالم النبات والحيوان ، الا أن هناك اجماعا الآن على أن العقد ، أو العقدين الآتيين سيشهدان طفرات مدهشة في الزراعة وتربية الحيوان . وكالعادة ، يحتدم الجدال الآن في الدول المصنعة حول مخاطر هذه المحاولات لايجاد أنواع وفصائل من الكائنات الدقيقة والنبات والحيوان لا عهد لنا بها من قبل ، ولكنها ذات خواص انتاجية فائقة . فهناك من يرى في هذه التجارب احتمالات قوية تهدد التوازن الايكولوجي اذا ما أفلت الزمام من يد الباحثين واتخذت هذه الكائنات الجديدة مسارا لا قبل لنا بالسيطرة عليه[١٦] ، خصوصا بعد أن أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة (Supreme Court) حكمها القاضي بامكانية منح براءات اختراع لهذه الكائنات الجديدة !

• • •

ولنعد بعد هذه الاستطرادة الطويلة الى البحث في أسباب اشكالية الغذاء في عالم اليوم . اذا ما سلمنا بضرورة تحقيق التوازن بين معدلات زيادة السكان وبين قدرات المناطق التي يعيشون فيها على توفير احتياجاتهم من الغذاء ، فهل يعني هذا بالضرورة أن الخلل في هذا التوازن هو السبب الرئيسي للمجاعات في عالمنا المعاصر ؟ اننا نواجه ، مرة أخرى ، عند محاولة الاجابة على هذا السؤال ، مزيدا من المتناقضات التي يزخر بها أي نظر مدقق في اشكالية الغذاء .

(١٦) بل لقد أنتج بالفعل مسخ حيواني له رأس ماعز وجسم شاة . ولقد خصصت مجلة الايكونومست ، البريطانية عدد ١٥ أغسطس ، ١٩٨٧ لحديث في الأخطار المحتملة والمترتبة لتطور التكنولوجيا الحيوية بمثل السرعة والانتشار في كل المجالات التي شهدناها خلال أقل من عقدين من السنين في تكنولوجيا الالكترونيات الدقيقة .

إن المشاهد هو أن مناطق الساحل الأفريقي ، التي عانت منذ العقد الماضي من الجفاف ومن الزحف الصحراوي ، قد صدرت كميات ضخمة من سلع زراعية حتى خلال أسوأ سنوات الجفاف . فالسفن الآتية بالمعونة الغذائية كانت تعود وهي محملة بالفول السوداني والقطن والخضروات واللحوم ، ربما تبلغ قيمته مئات الملايين من الدولارات . وخلال سنوات الجفاف ١٩٧٠ - ١٩٧٤ بلغت قيمة الصادرات الزراعية من بلدان الساحل الأفريقي ثلاثة أضعاف قيمة الحبوب المستوردة اليه لاطعام الجياع[١٧] ! والهدف من التصدير للدول النامية ، كما هو معروف ، هو الحصول على أرصدة من العملات الأجنبية تغطي احتياجاتها من المستوردات . وهذه المستوردات في كثير من الحالات سلع استهلاكية نشأ الطلب عليها من محاكاة نمط حياة أجنبي في البلاد المستوردة ، وبالذات لدى الطبقات المتوسطة والفئات الميسورة التي تريد أن تستمتع بالمبردات وأجهزة الفيديو والسيارات الأنيقة وأدوات الزينة التي تشاهدها في الدول المصنعة . وعندما حدثت مجاعة البنغال ابان الحرب العالمية الثانية ، ومات مليون ونصف مليون من السكان الجياع عام ١٩٤٤ ، سمحت الحكومة البريطانية بتصدير مئتي ألف طن من الأرز لتتحقق بهذا أرباح طائلة لتجاره . وعندما كان كثيرون يموتون جوعا في بنجلاديش اثر فيضانات عام ١٩٧٤ ، امتلأت مخازن الغلال بحوالي أربعة ملايين طن من الأرز لأن عمال الزراعة الذين تركتهم الفيضانات بلا عمل ، ومن ثم بلا مورد مال يشترون به حاجتهم من الطعام ، كانوا أفقر من أن يشتروه . وهكذا نجد أن استراتيجيات التنمية وأنماط الاستهلاك السائدة وتفاعلات القوى الاقتصادية - الاجتماعية ، الداخلية والخارجية ، تلعب دورا ليس من المبالغة في شيء أن نسميه دورا حاسما في تكييف أوضاع الغذاء وخلق « ندرة » في وقت تحولت فيه أنماط الزراعة التقليدية الى انتاج محاصيل للتصدير ، أو كانت الأولوية في الاستيراد لسلع استهلاكية ، أو حالت الأوضاع الاقتصادية لكثيرين في المجتمع الريفي دون حصولهم على الكفاف من الغذاء .

وليس من المعقول طبعا أن ننكر أن لتقلبات الطقس وللكوارث الطبيعية أثرا بالغا في انتاج الغذاء في كل مناطق العالم . فهذه العوامل الطبيعية قد أثرت في انتاج الاتحاد السوفييتي - الدولة العظمى - من الغذاء بمثل ما أثرت في انتاج دول تعتبر من أفقر دول العالم ، كما في الساحل الأفريقي أو اثيوبيا أو موزمبيق . واذا ما كان الجفاف هو أكثر ظواهر الطقس تأثيرا في أنتاج الغذاء على مستوى عالمي ، فإن السيول والثلوج تلعب هي أيضا دورها في خفض انتاج الغذاء في مناطق غير قليلة في العالم . وفي رأي عالم أمريكي ، مصري المولد ، في مقال نشر منذ عامين تحت عنوان مثير هو « الطبيعة هي التي تخلق الصحاري ، فلنتوقف عن لوم الرحل[١٨] » ، أن مشكلة الجفاف في منطقة الساحل الافريقي سببها تقلبات الطقس ، لا أفعال الانسان ، وأن محاولات معالجة هذا الوضع لابد وأن تقوم على أساس التسليم بأن هذا الواقع المادي الذي لا قبل للانسان بالسيطرة عليه لا يمكن تغييره . ولا أظن أن هناك من يقول بغير ذلك ، وانما الأمر المؤكد أيضا هو أن تجمعات بشرية غير قليلة قد اختارت العيش في الصحراء وعلى تخومها على امتداد العصور واتبعت نمطا للحياة يتوامم مع التقلبات العنيفة في الطقس . والدكتور الباز نفسه في مقاله يشيد ببراعة هؤلاء الناس وبالتوازن الذي نجحوا في تحقيقه لبيئتهم على امتداد آلاف السنين . ويبقى ، اذن ، السؤال الحائر اليوم : لماذا نرى هذه المشاكل الخطيرة والمستمرة للجفاف في التجمعات البشرية اليوم ؟

---

(١٧) فرانسيس مور لابيه وجوزيف كولينز ، المرجع السابق ، ص ص ١٠٤ - ١٤١ .

(١٨) Farouk El-Baz: "Nature Creates Deserts, So Let's Stop Blaming The Nomads", In The Washington Post National Weekly, December 2, 1985.

وفي محاولته الاجابة عن هذا التساؤل يقترح الدكتور الباز ثلاثة مداخل لمواجهة الوضع الراهن . أولها أن يستغل سكان الصحارى رصيد الكوكب من المياه الجوفيه التي تراكمت في الأزمنة الجيولوجية الممطرة . والأمر الثاني هو تحقيق مزيد من الفهم المتعمق للطريقة التي استغل بها سكان الصحارى مواردهم المحدودة لتوفير متطلبات حياتهم والسعي لاعادة اتباع هذه الطريقة . والأمر الثالث والأخير هو التسليم بأن دورات الجفاف والقحط قدر لا مفر منه .

وقد أثارت مقترحاته ردود فعل متفاوتة في الأساط العلمية العالمية ، قد لا يكون هذا هو السياق المناسب لمناقشتها تفصيلا . وقد نكتفي هنا بالقول بأن هناك خلافا في الرأي حول توصيته الأولى وشكوكاً حقيقية حول سلامة اقامة برامج تنمية قطرية أو اقليمية على أساس استغلال مصادر مياه جوفية ناضبة بطبيعتها[١٩] . أما مقترحه الثاني فيبدو كأنه يتجاهل العلاقة الجدلية بين الغذاء والسكان التي أشرنا اليها سابقا ، عن طريق رؤية لا تخلو من رومانسية الحنين الى ماض كانت مناطق الجدب تشكل فيها نسقا بيئيا مغلقا ، على نحو ما أشرنا إليه سابقا ، بينما هي اليوم أنساق مفتوحة ومعرضة لعدوان عدة عناصر سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، تكنولوجية . وربما كان أكثرها حدة هو تضاعف عدد سكان الساحل الافريقي منذ الخمسينات وتوقع تضاعفه مرة أخرى بنهاية القرن ، بالاضافة الى وجود عدة دول حديثة الاستقلال لا تخلو العلاقات بينها من التعقيدات التي قد تصل الى حد القتال وهي دول ذات حدود تعوق حرية الحركة التقليدية التي مكنت مجتمعات الرعاة الرحل من تحقيق توازن يتيح لها فرصة حياة مقبولة على الرغم من دورات تقلب الطقس والجفاف الناجم عنها . ان الحقيقة المرة هي أن تراث الماضي في التعايش مع الصحراء لم يعد صالحا اليوم لمواجهة مشاكل الواقع المعاصر بكل تعقيداته[٢٠] .

والجفاف يقع في أجزاء كثيرة من المعمورة كل عام ، ولكنه لا يؤدي بالضرورة الى المجاعة أو النقص الشديد في الغذاء . وفي السنوات الأخيرة تعرضت البرازيل والهند واندونسيا وكينيا للجفاف واستطاعت أن تواجه الموقف بوسائل مختلفة دون حدوث المجاعة ، وإن كان شمال البرازيل قد عانى في صيف هذا العام من جفاف خطير كانت له آثار عميقة . والواقع أن الجفاف في حد ذاته لا يحدد ما اذا كانت ستحدث مجاعة . والبلاد التي عانت من نقص الغذاء في السنوات الأخيرة في افريقيا (موزمبيق وأنجولا والسودان وتشاد واثيوبيا) بلاد ابتليت بالحروب والصراعات الداخلية .

والواقع أن الجفاف كلمة تفهم بمعان مختلفة بين الناس[٢١] . وأكثر هذه المعاني شيوعا هو أنه ظاهرة ميتيورولوجية . ولكن هناك بالمثل « جفافاً زراعياً » و « جفافاً هيدرولوجياً » والأول ظاهرة يمكن تعريفها بنسبة النقص في سقوط الأمطار مقارنة بمتوسط معدلات سقوطها على امتداد أفق زمني طويل ، وبالفترة التي يستمر فيها هذا النقص . وهناك تنويعات كثيرة على هذا التعريف الأساسي ، اذ أن الجفاف لا يحدث فجأة ، وليس من اليسير تحديد بدايته أو نهايته ، فلا أحد يقدر على التكهن بمدى خطورته قبل أن يحل يومه الأخير وتبدأ الأمطار في الهطول ثانية !

(١٩) وقد نتذكر هنا أن حضارة تدمر قد اندثرت عندما نضبت مواردها المائية .

(٢٠) انظر في هذا الصدد لهيد الدكتور أحمد أبوزيد في عالم الفكر ، العدد الثالث ، المجلد السابع عشر ، أكتوبر - ديسمبر ، ١٩٨٦ .

(٢١) M. H. Glantz: Drought In Africa, In Scientific American, June, 1987, Vol. 256, No. 6, PP. 34-40.

أما الجفاف الزراعي فأمر يتعلق بتوقيتات توفر المياه على طول فترة نمو المزروعات . وهو أمر لا يقل في خطورته عن اجمالي كميتها المتوفرة على امتداد فترة زمنية معينة ، قد تكون هي فترة نضج المحصول . ولقد طلعت علينا الصحف في منتصف شهر أغسطس ، ١٩٨٧ ، بأنباء انخفاض المحصول المتوقع من الغذاء في دول جنوب شرقي أسيا لتزامن فترة جفاف طويلة مع مرحلة احتياج المحصول للري . ولقد أثبت بعض الباحثين ان أحد أسباب القحط في الساحل الافريقي هو نقص الأمطار في شهر أغسطس ، والذي كان عادة أكثر شهور السنة امطارا .

أما الجفاف الهيدرولوجي فهو انخفاض معدلات سريان المياه في الجداول والأنهار عن حد أدنى معين ، ولمدة معينة من الزمن ، بما يعوق أنشطة تقليدية مثل الري أو توليد الكهرباء من مساقط المياه أو عند السدود ، ولقد كانت مصر منذ عامين مضيا على وشك الدخول في مرحلة جفاف هيدرولوجي بالغ الخطورة ، اذ انخفض رصيد السد العالي من المياه ومنسوبها أمامه بدرجة خطيرة ، هددت موارد المياه المتاحة للري وللاستخدامات الحضرية والصناعية ، بمثل ما هددت موارد مصر من الطاقة الكهربائية التي يوفر السد العالي القدر الأكبر منها حتى الآن . واقتضى هذا اعداد خطة طوارىء لخفض اجمالي استهلاكها من المياه بحوالي ١٠٪ .

• • •

أمام هذه الخلفية لاشكالية الغذاء في العالم المعاصر ، وبكل تعقيداتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، تشغل قضية الأمن الغذائي العربي بال كل مسئول عربي اليوم وفي الدراسات الورادة في هذا العدد من « عالم الفكر » الكثير من البيانات عن حجم المشكلة وتنوعاتها وتطوراتها مع مرور الزمن . ان في الوطن العربي اثنين من أهم أحواض الأنهار في العالم ، هما حوض وادي النيل في مصر وحوض دجلة والفرات في العراق ، ولكن فيه أيضا من الصحاري والمناطق شبه القاحلة ما يغطي أكثر من ٩٠٪ من اجمالي مساحته . ان أكثر من نصف ما نستهلكه من الخبز في مختلف ربوع الوطن العربي يأتي من الخارج . وقطاع الزراعة لم يسهم بأكثر من ٧٪ من اجمالي الناتج القومي العربي . ونحن ندفع اليوم حوالي خمسة وعشرين مليارا من الدولارات لنستكمل حاجتنا من الغذاء لحوالي ١٨٥ مليون نسمة . ويتوقع أن تزداد حاجتنا من استيراد الغذاء بحلول نهاية هذا القرن لننفق حوالي مئتي مليار دولار لغذاء زهاء ٢٩٠ مليون نسمة .

وفي ظل هذا الواقع شهدنا في العقود الأخيرة تحطم آمال عراض عقدتْ على تحويل قطر عربي ، مثل السودان ، الى سلة خبز للوطن العربي بأسره ، وشهدنا المملكة العربية السعودية تقدم دعما لزارعي القمح فيها يفوق أربعة أضعاف سعره في السوق العالمي ، وحتى أصبحت دولة مصدرة للقمح لمصر التي كانت تخزن غلال الامبراطورية الرومانية منذ ألفي عام ! وهكذا تتراكم التناقضات على الصعيد العربي ، وبمثل ما شهدنا على الصعيد الدولي ، والكل يسعى جاهدا لتحقيق الأمن الغذائي للوطن العربي باعتباره ضرورة استراتيجية ملحة لضمان بقاء هذه الأمة متماسكة ، متمتعة بالحد الأدنى الضروري من حرية الحركة واتخاذ القرار المصيري .

اسامة الخولي

***

واقع الأمن الغذائي العربي

محمد علي الفرا

مقـــدمة :

يعتبر موضوع الأمن الغذائي الهاجس الأكبر للوطن العربي في هذه الأيام ، فقد أولته وسائل الاعلام عناية خاصة ، وتناولته معظم الصحف والمجلات والدوريات العلمية بالبحث والدراسة . وعقدت له الندوات والحلقات في أكثر من بلد عربي ، وخصه المسئولون في كثير من الحكومات العربية بمزيد من الاهتمام ، حتى أصبح الأمن الغذائي حديث المتنورين ، والمتطلعين الى النهوض بالأوضاع الاقتصادية في الأقطار العربية ، وربما لا نكون مبالغين اذا قلنا بأن مشكلة الأمن الغذائي تأتي من حيث الأهمية والخطورة بعد مسألة الأمن السياسي ، علما بأن هناك تداخلاً بينهما وتأثيراً متبادلاً .

لقد بدأت بوادر هذه الأزمة تظهر منذ عقد السبعينات ، حينما أصبح الطلب على الغذاء يفوق العرض ، أو بعبارة أخرى أصبح استهلاك الاقطار العربية من الغذاء يفوق انتاجها المحلي منه ، واضطرت الى الاستيراد من الخارج لتغطية هذا العجز .

وفي أواخر عقد السبعينات تزايد العجز بشكل متسارع ، مما أدى الى اتساع الفجوة الغذائية ، والتي تعبر عن عدم قدرة الانتاج المحلي من تلبية الاستهلاك المتصاعد ، ورافق ذلك زيادة كبيرة في أسعار السلع والمنتجات الغذائية عالميا ، مما تسبب في زيادة الأعباء المالية التي تتحملها البلاد العربية من جراء دفع أثمان مستورداتها من الغذاء على حساب مشاريعها وخططها التنموية .

وعلى الرغم من أن مشكلة الغذاء اقتصادية في المقام الأول لأنها تعبر عن شكل من أشكال العلاقة بين العرض والطلب ، أو بين الانتاج والاستهلاك ، إلا أن لها أبعاداً متعددة ، ويهمنا منها هنا البعد الأمني ، ونظراً لما لهذا البعد الأمني من أهمية كبيرة فقد شاع استخدام مصطلح الأمن الغذائي بسبب الارتباط الوثيق بين كل

من الغذاء والأمن . فالغذاء أحد حاجات الانسان الضرورية التي تتمثل في ، المأكل والملبس والمسكن . ويعتبر الغذاء أهم هذه الحاجات ، فالانسان لا يستطيع الاستغناء عنه ، أو الصبر على الجوع . لقد عاش الانسان الأول عاريا دون ملبس ، ودون مأوى ، ولا تزال أقوام كثيرة تعيش اليوم في مجاهل افريقية ، تسير عارية أو شبه عارية ، وتتخذ من مكامن في الغابات والكهوف مساكن لها ، ولكنها رغم ذلك لا تستطيع الحياة بلا طعام .

الطعام ـ اذن ـ أول مقومات الحياة ، فإذا لم يتوفر بشكل يستطيع الناس الحصول عليه هاج الشعب ، وثار مما يؤدي الى قيام الاضطرابات والفوضى ، واختلال حبل الأمن في البلاد وهذا يذكرنا بالأحداث المؤسفة التي عمت بعض البلاد العربية على أثر ارتفاع بعض أسعار السلع الغذائية ، وبخاصة الخبز ولذلك فإن توفير الطعام للسواد الأعظم من الشعب بأسعار تناسب دخولهم ، يساعد على استتباب الأمن في البلاد .

ومن ناحية أخرى ، فإن الدولة التي لا تستطيع تأمين الطعام لشعبها من مصادر محلية ، تصبح عاجزة أمام الضغوط والتحديات التي تواجهها ، مما يعرض أمنها للخطر ، وحريتها للاستباحة واستقلالها للانتقاص .

ويهدف هذا البحث الى دراسة واقع الأمن الغذائي العربي من خلال مشكلة الغذاء ، واتجاهه في الأقطار العربية ، وتحليل العوامل المؤدية الى الأوضاع الحالية ، ومحاولة استشراف الآفاق المستقبلية .

مؤشرات المشكلة الغذائية في الوطن العربي :

هناك الكثير من المؤشرات التي تستدل بها على وجود مشكلة غذائية تعاني منها الأقطار العربية ، على الرغم مما يبدو من وفرة كثير من السلع والمنتجات الغذائية في معظم الأسواق العربية . ان وفرة السلع واقبال الناس على شرائها لا ينفي وجود المشكلة والتي تكمن في مصدر هذه السلع . فطالما أن مصدر الغذاء والذي يشكل قوت الشعب من الخارج فان ذلك يعتبر مؤشرا خطيرا ، لأن كل سلعة تستورد من الخارج لا يمكن التحكم في أسعارها ، وقد يصعب توفيرها في جميع الأوقات ، وربما تستخدم كوسيلة أو أداة للضغط على بلد من البلاد لحملها على اتخاذ موقف معين .

وعلى الرغم من أن الأقطار العربية لا تدخل في ما يسمى بنطاق أو حزام الجوع الذي شمل جهات كثيرة من الساحل الشرقي لافريقية ، والأراضي الافريقية جنوب الصحراء ، إلا أن بعض المناطق في أقطار عربية دخلت بالفعل في حزام المجاعة كأجزاء من السودان ، والصومال ، وموريتانيا ، واذا استمر الوضع على ماهو عليه الآن ، فان هناك أجزاء أخرى من الوطن العربي مرشحة للدخول في نطاق الجوع في المستقبل القريب . وعلى أية حال فاننا سنحلل فيما يلي بعض مؤشرات الأزمة الغذائية العربية .

١ ـ مستويات التغذية :

يقاس المستوى الغذائي عادة بمقدار ما يخص الفرد من سعرات حرارية في اليوم . والسعر الحراري (كيلو كالوري Kilogram Calorie) يعبر عن مقدار الحرارة اللازمة لرفع حرارة كيلو غرام من الماء درجة مئوية واحدة .

ومن المعلوم بأن كمية السعرات الحرارية التي يحتاجها جسم الانسان تتفاوت ، بحسب المناطق التي يعيش فيها ، وحسب فصول السنة ، وسن الانسان ونوعه ، ذكرا أو أنثى ، ونوع العمل الذي يزاوله ، وغير ذلك من أمور . وبناء عليه لا يمكننا تحديد عدد السعرات الحرارية التي نوصي بها لكل فرد بشكل مطلق . ولكن على الرغم من ذلك ، فان بالامكان وضع أسس عامة لمعرفة مستويات التغذية عالميا وأقليميا . فعلى سبيل المثال لو تأملنا في أرقام الجدول رقم (١) والذي يبين نصيب الفرد من السعرات الحرارية في الأقطار العربية لخرجنا بالملاحظات التالية :

١ ـ أن ما يخص الفرد من سعرات حرارية في معظم الأقطار العربية دون المستوى العالمي والبالغ ٢٦٦٥ سعراً حرارياً ، ودون المستويات في الأقطار المتقدمة ، ففي أمريكا الشمالية يبلغ نصيب الفرد نحو ٣٦٢٥ وفي أوروبا الغربية ٣٤٢٤ ، وفي الاتحاد السوفيتي ٣٤٢٦ .

٢ ـ يمكننا تقسيم الأقطار العربية بحسب السعرات التي يحصل عليها السكان الى ثلاثة مستويات :

أ ـ المستوى المرتفع ، وهو الذي يفوق المعدل العالمي ، ويشمل الأقطار : الامارات ، وليبيا ، والكويت ، وسوريا ، والسعودية ، ومصر .

ب ـ المستوى العالمي ، ويشمل أقطار : الجزائر ، والمغرب ، وتونس .

جـ ـ المستوى المنخفض ، ويشمل أقطار : موريتانيا ، والصومال ، والسودان ، واليمن الشمالي ، واليمن الجنوبي . وفي أقطار هذا المستوى تظهر مشكلة الغذاء بشكل واضح . ومع استمرار الوضع ، فان أجزاء من تلك الأقطار مرشحة للدخول في نطاق الجوع .

٢ ـ الصادرات والواردات الزراعية :

كان من نتيجة اتساع الهوة بين الانتاج والاستهلاك زيادة الاعتماد على الخارج لاستيراد ما تحتاجه الأقطار العربية من سلع ومنتجات غذائية ، وأدى هذا الى اختلال الميزان التجاري منذ مطلع السبعينات ، علما بأنه حتى عقد الستينات كانت معظم البلاد العربية مصدرة لكثير من السلع والمنتجات الزراعية والغذائية ، فاشتهرت سوريا بتصدير القمح الذي كان يزرع في منطقة حوران ، حيث اطلق عليها « أهراء روما » . واشتهر العراق بتصدير الشعير الجيد الى أوروبا ، وأشتهرت الجزائر بتصدير القمح الى البلدان الاوربية ، وبخاصة فرنسا . وفي الحرب العالمية الثانية ، استطاعت البلاد العربية مد جيوش الحلفاء بجميع حاجاتها من الطعام[1] .

ولأسباب ، سنأتي على ذكرها فيما بعد ، بدأت الأوضاع الزراعية تتغير ، ولم تعد الأقطار العربية مصدرة للسلع الغذائية بمستواها السابق نفسه . وشهد عقد السبعينات الأزمة على حقيقتها ، حيث أصبحت الواردات الزراعية تتفوق

---

١ ـ علي الفرا ، « مشكلة انتاج الغذاء في الوطن العربي » ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، سبتمبر (أيلول) ١٩٧٩ ، ص ٢٢٢

جدول رقم (١) نصيب الفرد في الأقطار العربية من السعرات الحرارية (١٩٨١ - ١٩٨٣)*

القطر	المجموع الكلي	من الخضراوات	من الحيوانات
الجزائر	٢٦٦٣	٢٣٤٤	٣٢٠
مصر	٣١٨٦	٢٩٦٠	٢٢٧
ليبيا	٣٦٧٨	٣٠٩٩	٥٧٩
موريتانيا	٢١٦٢	١٦٥٠	٥١١
المغرب	٢٧٠٦	٢٥١٧	١٨٨
الصومال	٢١٢٩	١٥٠٧	٦٢١
السودان	٢٢٤٦	١٨١٥	٤٣١
تونس	٢٨٣٧	٢٥٩٨	٢٤٠
الكويت	٣٢٨٨	٢٤٤٥	٥٤٢
السعودية	٣٠٤٨	٢٥٠٠	٥٤٨
سوريا	٣١٠٣	٢٦٦٧	٤٣٦
الأمارات	٣٦٢٥	٢٧٢١	٩١٣
اليمن الشمالي	٢٢١٤	١٩٨٥	٢٣٠
اليمن الجنوبي	٢٢٧٧	١٩١٥	٣٦٢
العالم	٢٦٦٥	٢٢٥٣	٤١٢

F.A.O. Production Yearbook, 1965. pp. 272

على الصادرات . ففي عام ١٩٧١ بلغت قيمة مستوردات البلاد العربية من السلع الزراعية والغذائية نحو ٢,٢ بليون دولار ، أما الصادرات فبلغت نحو ١,٦ بليون دولار ، وكان العجز آنذاك لا يتعدى ٥٦٠ مليون دولار[٢] .

ومنذ النصف الثاني من السبعينات أخذت الواردات من السلع الزراعية والغذائية تزداد بشكل كبير ، في حين كانت زيادة الصادرات تنمو بصورة متواضعة للغاية . ففي عام ١٩٨١ قفزت الواردات الى ٢٥,٧ بليون دولار ، والصادرات كانت في حدود ٣,٩ بليون دولار فقط . وترتب على ذلك زيادة في العجز الى حوالي ٢١,٨ بليون دولار ، أي انه في حين كانت زيادة الواردات بنحو اثنى عشر ضعفا في الفترة الممتدة من عام ١٩٧١ - ١٩٨١ ، فان الصادرات لم تزد إلا بنحو ٢,٤ ضعفا فقط . وبناء عليه زاد العجز في الفترة نفسها بنحو ستة وثلاثين ضعفا ، مما أدى الى اتساع الفجوة بين الواردات والصادرات .

وتميز عقد الثمانينات بالذبذبة في قيمة الواردات الزراعية ، فخفت حدة الزيادة . ففي عام ١٩٨١ بلغ مجموع مستوردات البلاد العربية نحو ٢٥,٧ بليون دولار ، وفي عام ١٩٨٣ انخفضت الى حوالي ٢٣,٥ بليون دولار ، ثم ارتفعت في عام ١٩٨٤ الى ٢٥,٢ بليون . وفي عام ١٩٨٥ انخفضت الى ٢٣,٢ بليون دولار . أما الصادرات فتعرضت هي الأخرى للذبذبة ، ففي عام ١٩٨٠ صدّرت الأقطار العربية ما قيمته ٣,٩ بليون دولار ، وانخفضت الى ٣,٧ بليون دولار في عام ١٩٨٢ ثم الى ٣,١ بليون دولار في عام ١٩٨٥ (أنظر الجدول رقم ٢ والشكل رقم ١) وبذلك وصل العجز الى أكثر من ٢٠ بليون دولار .

وبالنظر الى الجدول المذكور نرى فروقا واضحة بين الأقطار العربية من حيث قيمة وارداتها وصادراتها من السلع الزراعية والغذائية ، فالمملكة العربية السعودية استوردت أكثر من خمس (٢٠,٣٪) قيمة واردات جميع البلاد العربية ، وقد كانت معدلات نمو المستوردات في الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٤ متواضعة . وفي عام ١٩٨٥ مالت الى الانخفاض بنسبة ٣٪ .

وتحتل مصر المرتبة الثانية في قائمة المستوردات ، حيث استوردت في عام ١٩٨٥ نحو ١٨,٩٪ من مجموع قيمة مستوردات البلاد العربية . وشهدت الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥ زيادة كبيرة في الواردات بلغت ١٦٠٪ ، أي تضاعفت أكثر من مرة ونصف . وتحتل الجزائر المرتبة الثالثة ، وتساهم بنحو ١٢٪ تليها المغرب ٣,٨٪ .

وتعتبر الحبوب الغذائية أهم الواردات في قائمة السلع الزراعية والغذائية . ففي عام ١٩٨٥ استوردت البلاد العربية نحو ٣١,٧ بليون طن من الحبوب الغذائية ، بلغت قيمتها حوالي ٦,٣ بليون دولار أي حوالي ٢٧٪ من جملة الواردات الزراعية والغذائية ، ونحو ١٤,٦٪ من مجموع مستوردات العالم من الحبوب الغذائية .

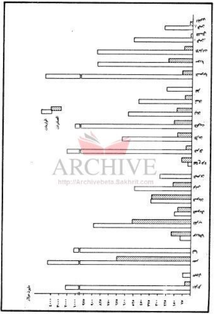
---

٢ - علي القرا ، « مشكلة الغذاء في الوطن العربي والأزمة الاقتصادية العالمية » ، الحلقة النقاشية السنوية الثامنة ، ديسمبر ١٩٨٤ - ابريل ١٩٨٥ ، المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ١٩٨٥ ، ص ١٢ .

جدول رقم (٢) واردات وصادرات البلاد العربية من السلع الغذائية (بما في ذلك الأسماك والثروة الغابية) *
١٩٨٠ - ١٩٨٥ (القيمة ١٠٠٠٠٠ دولار)

	الـــواردات						الصـــادرات					
	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥
الجزائر	٢٤٨٦٨	٢٣٢٣٣	٢٥٥١٢	٢٦٠٢٢	٢٤٢٩٤	٢٦٨٧٥	١٢٠٨	١٢٤٠	٧٢٢	٣٩٢	٤٩٨	٥٦٢
جيبوتي	٧٢٨	٧٤١	٩٠٦	٧٩٨	٨٦٦	٧٨٥	١					
مصر	٣٧٧٤٠	٤٢٧٠٩	٣٨١٦٦	٣٩٥٧٦	٤٤٣٤٣	٤٤٠٩٨	٦٧٧٩	٧٤١٣	٦٢٠٨	٧٢٧٢	٧٥٩٥	٦٨١٩
ليبيا	١٣٩٩٩	١٦٧٤٠	١٣٣٨٣	١٤٠٦٢	١٤٢٣٨	١٢٨٩٦			١٥	٦		
موريتانيا	٩٠٢	٩٩٤	١٢٥٢	١٣٩٠	١١٢٢	١٠١٢	٨١٨	١٣٧٦	١٢٦٨	٢٠٠٥	١٨٤٨	١٨٧٦
المغرب	١٠٨٥٣	١٤٤٠٤	٩٥٥٦	٨٤٩٧	٩٩٧٤	٨٨٨٦	٦٦٩١	٦٥١٨	٥٥٥٠	٥٧٢٨	٥٤٦٨	٥٣٣٥
الصومال	١٥٢٨	٢٠٩٨	١٨٦٢	١١٧٤	١٦٩١	١٥٤٤	١٢٥٣	١٥٢٧	٢٤١٢	٩٢١	٨٤٣	١٢٧٨
السودان	٤٠٩٩	٣٦٨١	٣١٠٦	٢٧٣٤	٢٥٢٦	٣٦٨٥	٥٥٢٢	٤٧٨٨	٤٩٢٣	٥٠٦٦	٦٠٩٦	٣٦١٤
تونس	٥٩٤٣	٧٢٢٩	٥٩٩٠	٦٠٢١	٤٨٠٠	٥٣٢١	١٦٧٢	٣٣٨١	١٨٦٠	١٢٦٣	١٧٢١	١٦٦٦
البحرين	٢٥٩٦	٣٦٣٣	٢٨٩٩	٣٠٠٩	٣٣٠٩	٢٨٦٢	٢٤١	٥٣	٣٩	٤٠	١٣٠	١٥
قطاع غزة	٣٩٦	٤٢٠	٢٩٧	٣١٨	٣٣٣	٣٢٩	٨٨٤	٧٥٣	١٠١٤	٨١٠	٩٩٦	٩٢٣
العراق	٢١٧٧٩	٢٢٣٩٦	٣٢٠٤٥	٢٠٨١٠	٢٥٠٥٠	٢٠٩٦٥	٢٠٥	٤٣٤	٥٥٦	٥٣٠	٤٤٨	٥٣٤
الأردن	٥٩١٩	٦٨٥٣	٧٥٤٠	٦٩٠٤	٧١٥٦	٩٣٦٥	٢٠١٣	٢٥٠٩	٢٠٨٧	١٥٣٤	١٤٣٢	١١٩٨
الكويت	١١٢٣٢	١٢١٩٥	١٢٨٣٩	١١٧٣٨	١٢٤٥٢	١١٥٨٨	١٢٥٠	١٩٣٧	١٨١٤	١٤٩٠	١٧٢٢	١٦٠٩
لبنان	٦٨٨٦	٧٢٥٨	٦٨٣٦	٦٤١٩	٦٦٤٨	٨٥٣٣	٢٦١٧	٢٠٦٣	١٩٢٠	١٧٣٧	١٣٩٢	١٢٥٩
عمان	٣١١٩	٣٨٦٠	٤٠٤٦	٤٢٧٢	٤٧٥٢	٤٨٧٨	٢٢٩	٤٥٤	٢٤٦	٢٩٩	٤٩٨	٥٤٤
قطر	٢٣٥١	٢٤١٤	٢٣٣٧	٢١٦٢	٢٦٣٢	٢٢٧٦						
السعودية	٤٨٦١٦	٥٧٦٩٢	٦٠٠٢٥	٥٢٨٤٠	٥٨٦٥٦	٤٧١٩٠	١١٣٢	١١٦١	١٠٤٨	٨٥٢	٩٦٤	٨٠٤
سوريا	٧٦٠٧	٩٦٨٣	٧٣٥٣	١٠٣٣٣	٩٠٨٣	٨٥٧٠	٢٨٤٨	٣٩٩٣	٢٩٠٨	٣٣٩١	٤١١٠	٣١٢٨
الامارات	٩٤١٣	١٠٣٤٢	٨٣٨٦	٨٨٨٦	٩٢٩٥	٨٦٣٣	١٩١٢	٢١٨٩	١٤١٣	١٢٥٩	١٢٦٥	٦٩٣
اليمن الجنوبي	٥٣٦٥	٥٧٨٩	٥٣٨٨	٤٩٢٣	٥٤٠٠	٥٢٨٦	١٩٠	١٤٠	١٢٩	١١٠	١١٢	٦٦
اليمن الشمالي	٢٥٤٩	٣٣٧٨	٣٣٦٠	١٩٨٨	٢٥٠٥	٢٤٩٩	٢٥١	١٩١	١٨٨	٢٧٨	١٦١	١٥٣
المجموع	٣١٨٥٣٩	٣٥٧٧١١	٣٤٢٧١٦	٣٢٥٨٩٤	٣٥١٨٨٨	٣٢٣٢٢٥	٣٩٤٤٧	٣٩٥٣٣	٣٧٠٤٥	٣٤٨٠٣	٣٦٩٨٧	٣١١٦٦

F.A.O. Production Yearbook, 1985, pp. 39-61

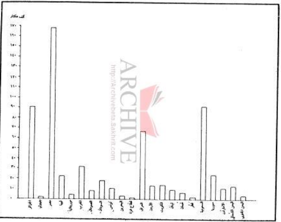


شكل رقم (١) قيمة واردات وصادرات الأقطار العربية من السلع الزراعية بما في ذلك الأسماك والثروة الغابية (عام ١٩٨٨)

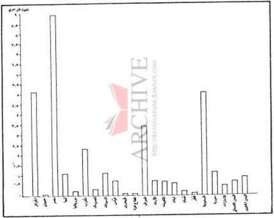
جدول رقم (٣) واردات وصادرات البلاد العربية من الحبوب الغذائية في عام ١٩٨٥ + صادرات صافية - واردات صافية*

	الوزن (١٠٠ طن متري)			القيمة (١٠٠٠٠ دولار)		
	واردات	صادرات	صافي	واردات	صادرات	صافي
الجزائر	٥٢٧٠٦		٥٢٧٠٦	٩٠٩٧٩		٩٠٩٧٩
جيبوتي	٥٥٤		٥٥٤	١٥٣٠		١٥٣٠
مصر	٨٩٠٣٥	١٦٦	٨٨٨٦٩	١١٦٨٣٠٥		١١٦٨٣٠٥
ليبيا	١٠٢٣٦		١٠٢٣٦	٢٢٥٢٢	٥٤٠	٢١٩٨٢
موريتانيا	١٢٩٧		١٢٩٧	٢٩٩٠		٢٩٩٠
المغرب	٢٢٦٩٨	٣٠	٢٢٦٦٨	٣٢٢٦٦	٩١	٣٢١٧٥
الصومال	٢٤٤٣		٢٤٤٣	٨٣٣٠		٨٣٣٠
السودان	١٠٨١٩		١٠٨١٩	١٨٢٥٠		١٨٢٥٠
تونس	٧٣١٦		٧٣١٦	١٠٥٤٤		١٠٥٤٤
البحرين	٨٧٠		٨٧٠	٢٧٠٥		٢٧٠٥
قطاع غزة	٥٨٤		٥٨٤	١٣٠٠		١٣٠٠
العراق	٣٣٨٤٧		٣٣٨٤٧	٦٦٩٣٠		٦٦٩٣٠
الأردن	٢٢٠٤	٢١٣	١٩٩١	١٢٨٦٨	١٢٩٥	١١٥٧٣
الكويت	١٨٢٥	٧٨٤	١٠٤١	١٤٤٣٠	٢٠٩٠	١٢٣٤٠
لبنان	٥٨١٦		٥٨٩٦	٩٤٠٠		٩٤٠٠
عمان	٢٠٢٥	٢٤٤	١٧٨١	٦٥٠٦	٨٠٣	٥٧٠٣
قطر	٩٦٨		٩٦٨	٢٤٦٢		٢٤٦٢
السعودية	٥٠٣٦٣	٥٣	٥٠٣١٠	١٠١٨٢٢	٥٠	١٠١٧٧٢
سوريا	١٠٨١١		١٠٨١١	٢٤٤٤٩		٢٤٤٤٩
الامارات	٤٣٧٣	١٩٣	٤١٨٠	١١٠١٠	٧١٩	١٠٢٩١
اليمن الشمالي	٦٥٤٠		٦٥٤٠	١٢٨١٠		١٢٨١٠
اليمن الجنوبي	٨٣٢٧		٨٣٢٧	٣٥٧٠		٣٥٧٠
المجموع	٣١٢٧١٧	٢١٨٣	٣١٠٥٣٤ −	٦٢٦٧٧٨	٥٥٨٨	٦٢١١٩٠ −
العالم	٢١٨١٠١٦	٢٢٣١١٤٥	+ ٥٠١٢٩	٢٥٦٥٣٢٤.	٣١٢٨٢٠٤	٤٢٧١٢٠ −

F.A.O. Trade Year Book, 1985, pp. 111-113



شكل رقم (٢) قيمة واردات الأقطار العربية من الحبوب الغذائية عام ١٩٨٥



شكل رقم (٣) وزن واردات الأقطار العربية من الحبوب الغذائية عام ١٩٨٥

ويمقارنة الواردات بالصادرات من الحبوب الغذائية ، نجد أن الصادرات في العام نفسه لا تزيد عن ٠,٧٪ من الواردات من حيث الوزن ، ونحو ٠,٩٪ من حيث القيمة .

وبالنظر الى الجدول رقم (٣) نجد أن الأقطار العربية الزراعية أكثر البلاد في العالم استيرادا للحبوب الغذائية ، مع أنه من المفروض أن تكون مصدرة وليست مستوردة .

وتأتي جمهورية مصر العربية في مقدمة الأقطار العربية المستوردة للحبوب الغذائية ، إذ بلغت نسبة مستورداتها حوالي ٢٨٪ من جملة مستوردات البلاد العربية من حيث الوزن ، ونحو ٢٧٪ من حيث القيمة ، تليها الجزائر ١٦,٦٪ ثم السعودية ١٥,٨٪ ، والعراق ١٠,٧٪ والمغرب ٧٪ ، والسودان وسوريا ، كل منها ٣,٤٪ . وبهذا تكون هذه الدول العربية الست قد استوردت نحو ٧٠٪ من مجموع مستوردات الوطن العربية من الحبوب الغذائية .

وتشكل الحبوب الغذائية كالقمح والشعير والذرة والارز ، غذاء رئيسيا للسكان في الأقطار العربية ، علاوة على استخدام بعضها كعلف للحيوان ، ويعتبر رغيف الخبز أهم مقومات الحياة في الوطن العربية ، ولذلك لابد من توفيره بأسعار مناسبة ليستطيع عامة الناس الحصول عليه .

ونظرا للعجز الكبير الذي يعانيه الوطن العربية من الحبوب الغذائية ، فإن المعونات الخارجية لكثير من الأقطار العربية من البلدان المتقدمة ، وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية ذات الفوائض الزراعية تأتي على شكل مساعدات غذائية وتعتبر الحبوب أهمها . وقد أخذت هذه المعونات في الزيادة المستمرة ففي عام ١٩٧٤ بلغ وزنها نحو ١,١ مليون طن متري وفي عام ١٩٨٣ وصلت الى حوالي ٢,٩ مليون طن متري ، أي زادت الى ما يقرب من ثلاثة أضعاف . وفي عام ١٩٨٣ حصلت مصر وحدها على نحو ٦٣٪ من مجموع هذه المعونات (انظر الجدول رقم (٤) .

جدول رقم (٤) حجم المعونات للبلاد العربية على شكل حبوب غذائية في عامي ١٩٧٤ ، ١٩٨٣*

الوحدة = ألف طن متري

القطر	١٩٧٤	١٩٨٣	القطر	١٩٧٤	١٩٨٣
الصومال	١١٠	١٨٩	المغرب	٧٥	١٤٢
السودان	٥٠	٣٣٠	تونس	١	١٦٠
موريتانيا	٤٨	٧١	لبنان	٢١	٦٩
اليمن الجنوبي	٣٨	٩	الاردن	٦٣	٤٠
اليمن الشمالي	–	٢٨	سوريا	٤٧	٢٨
مصر	٦١٠	١٨١٦	الجزائر	٥٤	٢

The World Bank, "World Development Report 1985" pp. 184-185

ان زيادة هذه المعونات تحمل الكثير من المخاطر والنتائج منها زيادة اعتماد البلاد العربية على ما تجود به الدول الأجنبية ، وبخاصة الكبرى ، من الطعام ، وبالتالي وقوع وطننا العربي للنفوذ والضغوط الأجنبية ، فعن طريق رغيف الخبز تستطيع تلك الدول ممارسة ضغط أكثر من أية وسيلة أخرى .

ويعتبر القمح أهم الحبوب الغذائية المستوردة في البلاد العربية ، ففي عام ١٩٨٥ استوردت الأقطار العربية نحو ٢١ مليون طن متري ، وبقيمة قدرها حوالي ٣٧٢٨ مليون دولار (٣,٧ بليون) . وبهذا تكون مستوردات الأقطار العربية من القمح ودقيقه قد بلغت نحو ٦٥,٧٪ من جملة وزن المستوردات العربية من الحبوب الغذائية ، وحوالي ٢٠,٣ من جملة المستوردات العالمية ، أي أن الوطن العربي استورد ما يزيد قليلا عن خمس واردات العالم من القمح ودقيقه ، فأصبح بذلك أكبر منطقة مستوردة في العالم لهذه السلعة الغذائية الهامة .

وتعتبر جمهورية مصر العربية أكثر أقطار الوطن العربية استيرادا للقمح ودقيقه ، ففي عام ١٩٨٥ استوردت نحو سبعة ملايين طن متري من القمح ودقيقه أي ما يوازي ٣٣,٥٪ من جملة مستوردات البلاد العربية . وكانت واردات مصر من هذه السلعة في حدود ثلاثة ملايين طن ، وبذلك تكون قد حققت زيادة قدرها نحو ضعفين ونصف في مدة لا تزيد عن ثماني سنوات (١٩٧٧ ـ ١٩٨٥) .

ويلي مصر من حيث كمية المستوردات من القمح ودقيقه ، الجزائر التي استوردت في عام ١٩٨٥ نحو أربعة ملايين وأربعين ألف طن ، أي حوالي ١٩,٣٪ من جملة المستوردات العربية وبهذا تكون الزيادة في الفترة ١٩٧٧ ـ ١٩٨٥ أكثر قليلا من الضعفين . أما العراق فتحتل المرتبة الثالثة في قائمة الدول العربية المستوردة للقمح ودقيقه حيث بلغت نسبتها ١١٪ ، تليها المغرب ٩,٨٪ ثم السودان ٤,٩٪ . وتستورد هذه الأقطار الخمسة : مصر والجزائر والعراق والمغرب والسودان مالا يقل عن ٧٨,٥٪ من جملة مستوردات الوطن العربي من القمح ودقيقه ، وهذا ما يدعو الى التأمل ، لأن هذه الأقطار تمتلك أكبر المساحات الزراعية (كما سنرى فيما بعد) ، وتشتمل على أخصب التربات في الوطن العربي .

لقد كانت مصر حتى عقد الستينات تكفي نفسها من القمح ولكنها اليوم من أكثر بلدان العالم استيرادا له ، حتى ان صادرات مصر من القطن والذي يعتبر غلة البلاد الاقتصادية الاولى لم تعد تكفي لسد العجز في مستورداتها من القمح ودقيقه . وكانت الجزائر حتى وقت قريب أكبر قطر في افريقية يصدر القمح لاوروبا ، وبخاصة فرنسا ، وكان هذا سببا في وقوع هذا البلد العربي فريسة للأطماع الإستعمارية الاوربية . ففي عام ١٨٣٠ افتعلت فرنسا أزمة مع الجزائر بسبب المماطلة في تسديد أثمان القمح واحتلت البلاد واستعمرتها . وانه لمما يدعو للنظر والتفكير أن المغرب والعراق والسودان أصبحت أقطارا تعتمد على واردات القمح من الخارج ، بعد أن كانت تصدر الحبوب الى مختلف بلاد العالم . حتى سوريا التي كانت قبل بضع سنين مصدرة للقمح أصبحت اليوم مستوردة له ، لقد استوردت في عام ١٩٨٥ نحو ٥٥٨ ألف طن منه (انظر الجدول رقم ٥ والشكلين رقم ٤ ، ٥) .

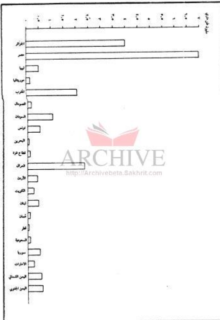
في عام ١٩٧٣ لم تزد واردات البلاد العربية من القمح عن ٧,١ مليون طن متري ، وفي عام ١٩٧٧ زادت الى نحو تسعة ملايين طن ، وفي عام ١٩٨٥[٣] وصلت كما رأينا الى ٢١ مليون طن أي انها زادت في الفترة ١٩٧٣ ـ ١٩٨٥ بنحو ثلاثة أضعاف .

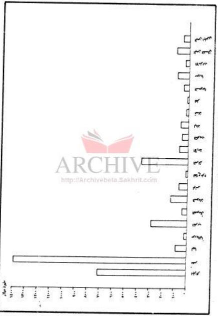
٣ ـ علي الفرا ، مشكلة انتاج الغذاء في الوطن العربي ، ، ص ١١٩ ـ ٢٠٠

جدول رقم (٥) واردات وصادرات البلاد العربية من القمح والدقيق في عام ١٩٨٥م
+ صادرات صافية
- واردات صافية

القطــــر	الوزن (١٠٠ طن متري)			القيمة (١٠٠٠٠ دولار)		
	واردات	صادرات	صافي	واردات	صادرات	صافي
الجزائر	٤٠٣٩٧		٤٠٣٩٧	٧١٦١٩		٧١٦١٩
جيبوتي	١١٨		١٨٨	٤٨٠		٤٨٠
مصر	٦٩٩٦٤		٦٩٩٦٤	١٣٩٢٠٠		١٣٩٢٠٠
ليبيا	٤٩٨٤		٤٩٨٤	٩٩٠٠		٩٩٠٠
موريتانيا	١٥٤٧		١٥٤٧	٢١٥٠		٢١٥٠
المغرب	٢٠٤٤٤		٢٠٤٤٤	٢٨٩٦٠		٢٨٩٦٠
الصومال	١٦٦٣		١٦٦٣	٤١٠٠		٤١٠٠
السودان	١٠٢٧٤		١٠٢٧٤	١٦٣٠٠		١٦٣٠٠
تونس	٤٨٧٠		٤٨٧٠	٢٠٨٠		٣٠٨٠
البحرين	٢٠٠		٣٠٠	٤٨٠		٤٨٠
قطاع غزة	٥٨٤		٥٨٤	١٢٠٠		١٢٠٠
العراق	٢٢١٦٧		٢٢١٦٧	٣٣٦٠٠		٣٣٦٠٠
الأردن	٣٨٩٢	٧١٣	٣١٧٩	٧١٥٧	١٢٩٥	٥٨٦٢
الكويت	٢٤١٢	٣٦٤	٢٠٤٨	٥٠٤٠	٢٠٠٠	٣٠٤٠
لبنان	٤٣٨٦		٤٣٨٦	٦٤٤٠		٦٤٤٠
عمان	٨٨٩	١٨١	٧٠٨	١٥٥٥	٤٥٠	١١٠٥
قطر	٣٩٨		٣٩٨	٧٥٧		٧٥٧
السعودية	١٥٨٥	٥٣	١٥٣٢	٤١٩٩	٥٠	٤١٤٩
سوريا	٥٥٢٥		٥٥٢٥	٩٤٨٥		٩٤٨٥
الامارات	٢٢٠٨	٤٢	٢١٦٦	٣٥١٠	١٢٩	٣٣٣١
اليمن الشمالي	٥٧٢٠		٥٧٢٠	١٠١٠٠		١٠١٠٠
اليمن الجنوبي	٢٦١٤		٢٦١٤	٥٥٣٠		٥٥٣٠
المجموع	٢٠٨٧٨١	١٧٥٣	٢٠٧٠٢٨	٣٧٢٨٨٢	٢٩٣٤	٣٦٨٩٤٨

F.A.O. Trade Year Book, 1985, 113-115ص


الجزائر
مصر
ليبيا
موريتانيا
المغرب
الصومال
السودان
تونس
البحرين
قطاع غزة
العراق
الأردن
الكويت
لبنان
عُمان
قطر
السعودية
سوريا
الامارات
اليمن الشمالي
اليمن الجنوبي



شكل رقم (٥) قيمة واردات الأقطار العربية من القمح ودقيقه عام ١٩٨٥

ان نظرة عامة وسريعة على مستوردات البلاد العربية من الغذاء ، تبين لنا زيادة هذه المستوردات سنويا . ويشير تقرير البنك الدولي لعام ١٩٨٥ بأن نسبة واردات البلاد العربية من الغذاء في عام ١٩٨٢ كانت على النحو التالي[٤]:

الصومال	٣٣ ٠/٠	من مجموع المستوردات من جميع السلع والبضائع .
السودان	٢٠ ٠/٠	".. .."
اليمن الشمالي	٣٢ ٠/٠	".. .."
مصر	٣١ ٠/٠	".. .."
المغرب	١٧ ٠/٠	".. .."
تونس	١٤ ٠/٠	".. .."
الاردن	١٨ ٠/٠	".. .."
الجزائر	٢١ ٠/٠	".. .."
ليبيا	١٨ ٠/٠	".. .."
السعودية	١٣ ٠/٠	".. .."
الكويت	١٥ ٠/٠	".. .."
الامارات	١٠ ٠/٠	".. .."

وبطبيعة الحال فإن الانخفاض النسبي لمستوردات البلاد العربية النفطية لا يدل على ارتفاع نسبة الاكتفاء الذاتي ، وانما بسبب كبر حجم مستورداتها من السلع الأخرى كالأجهزة والمعدات والآلات والكماليات ومختلف السلع الاستهلاكية . ان الذي يبعث على التفكير والتأمل هو ارتفاع نسبة المستوردات الغذائية في البلاد العربية الزراعية كمصر التي تشكل الواردات الغذائية فيها نحو ثلث مستورداتها الكلية . ولا شك في أن ذلك يكون على حساب المستوردات الأخرى التي قد تكون ضرورية لبرامج ومشاريع التنمية ، وعليه فإن العملات الصعبة التي تدخرها الدول العربية الزراعية الفقيرة ، تنفق على شراء الغذاء بدلا من انفاقها على المشاريع التنموية ، وهذا له أكبر الأثر على الأوضاع الاقتصادية في البلاد فيزيدها سوءا وتدهورا .

٣ ـ تدني مستويات الاكتفاء الذاتي :

كان من نتيجة زيادة الواردات الغذائية من الأقطار الخارجية انخفاض نسبة الاكتفاء الذاتي للبلدان العربية حتى وصلت في مجملها في عام ١٩٨٤ نحو ٦٠٪ وتختلف هذه النسبة بين الأقطار العربية ، فهي تصل الى أعلى من مستوى الاكتفاء الذاتي في السودان ١١٢٪ ، ولكنها تنخفض الى مابين ٧٥ ـ ٩٥٪ في كل من سوريا ، وتونس ، والمغرب ، والصومال ، وتصل الى أدنى مستوياتها في الأردن ، وبعض أقطار الخليج العربي حيث تتراوح النسبة مابين ١٠ ـ ٢٠٪[*].

٤ ـ The World Bank, "World Development Ban, Report 1985", pp. 194-195.

* ـ خالد محسين علي ، « ازمة الغذاء والعمل الاقتصادي العربي المشترك » ، الحلقة الثقافية العاشرة ، نوفمبر ١٩٨٦ ـ ابريل ١٩٨٧ ، المعهد العربي للتخطيط بالكويت ص ٩ (مطبوعة على الآلة الكاتبة) .

ووصل معدل التكلفة الصافية للواردات الزراعية ـ أي بعد خصم عائدات الصادرات الزراعية ـ للفرد في الوطن العربي في عام ١٩٨٤ نحو ١٠٢ دولار . ولكن هذا الرقم يرتفع عن ذلك كثيرا فيصل الى ٤٥٠ دولارا للفرد في الأقطار النفطية وهي الكويت ، والسعودية ، وقطر ، والامارات ، وعمان ، وليبيا .

وتعتبر التكلفة الصافية للواردات احدى المؤشرات الأساسية التي نحكم بها على ما وصل اليه الوطن العربي من اعتماد كبير على المستوردات الغذائية من الخارج لسد فجوة الغذاء المتزايد ، وعلى العكس من ذلك نجد أن نصيب الفرد من كلفة صافي الواردات الزراعية منخفضا في جميع أنحاء العالم ، ففي أوروبا ، يصل نصيب الفرد نحو ٦٨ دولاراً ، وفي افريقية ١٠ دولارات ، وفي اسيا ١٦ دولاراً . وبالنسبة للأقطار النامية صفراً ، أي تتساوى الواردات مع الصادرات . أما في أمريكا الشمالية ، والوسطى والجنوبية والاقيانوسية فقد تم تحقيق فائض كبير بلغ معدله ٥٠٠ دولار لكل فرد من السكان(٦) .

واذا علمنا بأن غالبية المستوردات الزراعية تتمثل في السلع الغذائية الأساسية كالحبوب والسكر والزيوت واللحوم والمنتجات الحيوانية لتبين لنا خطورة الوضع .

. جدول رقم (٦) نسبة الاكتفاء الذاتي للسلع الغذائية الرئيسية في الوطن

العربي وصافي الواردات منها في عام ١٩٨٤م*

السلعة	نسبة الاكتفاء الذاتي ٪		صافي الواردات (مليون طن)
	١٩٧٥	١٩٨٤	١٩٨٤
الحبوب	٧٠	٤٦	٤ر٣٠
القمح	٤٨	٣٤	٦ر١٩
الشعير	٩٢	٤٦	٤ر٥
الذرة البيضاء والدخن	١٠٠	١٠٠	—
الذرة الصفراء	٨٠	٥٠	١ر٤
الارز	٨٢	٥٦	١ر٩
السكر	٣٢	٣١	١ر٤
الفواكه والخضروات	١٠٤	٩٥	٥ر١
الزيوت والمحاصيل الزيتية	٦٠	٣٨	١ر٦
اللحوم	٨٤	٧٠	١ر٣
الالبان	٧٠	٥٣	—
البيض	٨٨	٨١	٢ر٠

* خالد حسين علي : أزمة الغذاء والعمل العربي المشترك . المعهد العربي للتخطيط الحلقة النقاشية العاشرة . الكويت ٢٥ ابريل ١٩٨٧ ص ٣ .

٦ ـ المرجع نفسه .

جدول رقم (٧) الأهمية النسبية للأقطار العربية في الفجوة الغذائية بحسب السلع الغذائية للفترة ١٩٨١ - ١٩٨٣*

القطر	الحبوب	البطاطا	البقوليات	التمر	الفواكه	السكر	الزيوت	اللحوم	الاسماك	البيض	الالبان
الاردن	٥ر٢	٥ر٨	٦٢ ر٣	(٨٧ر٢٧)	(٦ر٠٧)	٦٦ر٢	٢٧ر١	٢٩ر٢	٣٥ر٥	(٢١ر٢٦)	٤٤ر٢
سوريا	٦٨ر٢ /	١٢ر٠	(٨ر٣٣)	١٤ر١٤	١٠ر٤٩	٨٦ر٩	٤٣ر٢	٢٩ر١	٠٤ر٨	٠٥ر٠	٥١ر٤
العراق	٧ر٥	٣١ر٥	١١ ر١٠	١٢ر٢٢	(١٢ر٤٧)	٩ر٣٢	٩ر٢٤	١٢ر٠١	٢ر٩٨	(١٤ر٥٣)	٥٥ر٤
لبنان	٢ر٢٢	٦ر٦٠	١٢ر٠٩	٢ر٣٣	(١١٢ر٨١)	٢ر٥٥	٢ر٩٦	٢ر٣٣	١ر١٨	(١ر٩٦١)	٢ر٦٤
اليمن الجنوبي	٠ر٧٢	٠ر٢٤	٠ر٤٥	١ر٣٣	٦ر٥٦	١ر١٢	١ر٢٢	٠ر٦٠	(٢ر٤٧)	١ر٥٢	١ر٦٧
اليمن الشمالي	٢ر٢٠	(٠ر٢٧)	٠ر٢٧	٢ر٨٤	٢٢ر١٨	٢ر٣٢	١ر٣٦	٣ر٨٢	٢ر٢٩	٦ر٦٢	٢ر٦١
الامارات	٦ر١٦	٥ر٥٤	٢ر٧٢	٤٠ر٠٣	٨٩ر٢١	٢ر١٠	٢ر٧١	٩ر٠٠	٦ر٢٧	١٠ر٥٥	٣ر٥٦
البحرين	٠ر١٥	٢ر١٨	٠ر٢٤	٢ر٦١	١١ر٠٩	٠ر١٩	٠ر٤٥	٠ر٤٠	١ر١٨	١ر٠٩	٠ر٥٦
السعودية	١٩ر١٨	٢١ر٣٢	٩ر٣١	٨ر١٧	٢٦٢ر٩٠	١٢ر٢٩	١١ر٢٨	٢٢ر٩٠	٩ر٠٦	٦ر٠٦	١٨ر٤٧
عمان	٠ر٦٨	٠ر٤٠	٠ر٣٦	٢ر١٩	١١ر٩٥	٠ر٥٤	٠ر٣٢	٢ر٣٦	١٠ر٤٧	٢ر١٢	٢ر٢٩
قطر	٠ر٣٦	٠ر٠٥	٠ر٥٨	٢ر٢٨	٢ر٦٩	٠ر٣٥	٠ر٣٤	٠ر٩٤	٠ر٩٩	٢ر٤٨	٠ر٨٩
الكويت	١ر٥٥	٢ر٣٢	٢ر٥٩	٦ر٨٣	٢٣ر٨٨	١ر٦٤	١ر٢١	٨ر٣٧	٨ر١٠	٨ر٠٢	٣ر٨٣
تونس	٢ر٦١	٤ر٠٦	(٨ر٥٨)	٤ر٠٨	(٩ر١٢٣)	٥ر٧٧	٥ر١٩	١ر٢٨	٥١ر٨٦	—	٥ر٥١
الجزائر	٢٣ر٨٠	٦١ر٢٨	٢١ر٩٠	٢ر٥٣	[illegible]	[illegible]	١٦ر٤٢	٢ر٤٨	٢ر٩٤	٤٠ر٢١	٢٣ر٤٩
ليبيا	٢ر١٢	٠ر١٩	٥ر٢٩	٠ر٤٤	١١ر٢٠	٢ر٦٤	٤ر٤٤	٧ر٠٣	١١ر٤٠	١ر٣٤	٥ر٦٨
مصر	٢٢ر١٢	(١٥ر٠٥)	٢٨ر٤٩	(٢٥ر١٨)	(٤٤ر٦٩)	١١ر٢٨	٤١ر٢٤	١٣ر٤٧	٨١ر٣٦	٨ر٦٢	١٠ر١٢
المغرب	٩ر٨٥	(١ر٠١)	(١ر٧٦)	(١٥ر٢٤٧)	(٩٩ر٢٥)	٦ر٩٢	١٣ر٢٠	٠ر٢٤	(٤٤ر٧١)	—	٣ر٩٢
جيبوتي	٠ر١٤	٠ر٥٤	—	٠ر٠٢	٠ر١٩	١ر٠٨	—	٠ر٠٤	—	٠ر١٩	٠ر٢٥
السودان	٠ر٣٦	—	٢ر٣٢	(٣ ر٠)	(٠ر٧٨)	٥ر٢٤	(٤ر١٩)	(١ر٥٠)	٠ر٠٩	٠ر٠٣	١ر١٥
الصومال	٠ر٧٥	٠ر٠٤	٠ر٠٧	٠ر١٦	١١ر٥٨	٠ر٦٥	٠ر٩٤	٣ر٠٠	٣ر٠٢	—	١ر٠٥
موريتانيا	٠ر٧٧	٠ر٦٨	—	٠ر٢٠	٠ر٢٣	١ر٢٦	١ر٣٦	(١ر٣٨)	(١ر٠٥)	—	٠ر٨١
الوطن العربي	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

- القيمة بين القوسين تدل على فائض في الانتاج

المنظمة العربية للتنمية الزراعية ـ الكتاب الاحصائي التحليلي ، الخرطوم ١٩٨٦ ، العدد الثالث ص ٣٣٢١ عن عبدالعظيم محمد مصطفى ، أزمة الزراعة العربية والعمل الاقتصادي العربي المشترك ، المعهد العربي للتخطيط في الكويت ، ١١ ابريل ١٩٨٧ ص ٢ .

جدول رقم (٨) الهيكل التركيبي للفجوة الغذائية بالأقطار العربية
١٩٨١ - ١٩٨٣*

القطر	الحبوب	البطاطا	البقول	الخضر	الفواكه	السكر	الزيوت	اللحوم	الأسماك	البيض	الألبان	أخرى	الجملة
الأردن	٣١ر٠١	٢ر٨١	٢٦ ر ١	٩ر١٢	٢ر٦٦	١٦ر٠٣	٤ر١٩	٢٧ر١٢	٢ر٠٩	١١ر١٩	٩ر٥٥	١٢ر٨٧	١٠٠
سوريا	١٥ر٢٥	٠ر٢٠	١٩ ر ٢	١ر٧٤	٦ر٢٢	٢٠ر٢٠	٥ر٤٦	١١ر٥٥	٢ر١٢	(٢ر١٣)	١٠ر٩٤	٢٢ر١١	١٠٠
العراق	٢٥ر٠٠	٠ر٢٥	٤٣ ر ١	٠ر٢٠	٠ر٦٦	٢ر٥٥	٥ر٢١	١٧ر٦٤	٠ر١٤	١ر٢٩	٦ر٥٥	٣٠ر٩٢	١٠٠
لبنان	٢٤ر٦٦	١ر٨٨	٧٠ ر ٦	٠ر٩١	١٨ر٨٠	٨ر٥٣	٩ر٣٤	٢٢ر٠٥	٠ر٢٤	٠ر٣٩	١٣ر٨٧	٢٨ر٩٩	١٠٠
اليمن الجنوبي	٢٥ر٧٤	٠ر٦٨	٤٦ ر ٠	٢ر٢٢	٥ر٠٠	٩ر٩٣	١٠ر١٣	١١ر٦٢	٢ر٣٠	١ر٥٢	١٩ر٣١	٩ر٠٣	١٠٠
اليمن الشمالي	٢٢ر٤٧	٠ر٠٤	١١ ر ٠	٢ر١١	١٢ر٦٥	٢ر٨٦	٢ر٨٠	١٤ر٦٤	٠ر٩٩	٢ر٤٩	١٢ر٠٦	١٩ر٨٧	١٠٠
الإمارات	١٢ر٢٥	١ر٠٦	٠٩ ر ١	٩ر٥٦	١٩ر٢٩	٤ر٧٨	٥ر٢٩	٢٦ر١٥	١ر٧٠	٢ر٧٢	١٠ر٠١	٥ر٨٠	١٠٠
البحرين	٢ر٨٩	٠ر٣٣	٧٦ ر ٠	٧ر٢٥	٤ر٥١	١ر٧٨	٣ر٦٠	١٩ر٦٦	١ر٣٦	٠ر٥٦	٢ر٩٩	٤٣ر٥١	١٠٠
السعودية	٣١ر٢٧	٠ر٢٣	٠٠ ر ٣٠	١ر٦٠	٣ر٤٦	٤ر٥١	٢ر٥٣	٢١ر١٥	١ر١٠	٢ر٢٧	٧ر٠٨	٢٢ر٤٦	١٠٠
عمان	١٦ر٤٩	٠ر٩٥	١٤ ر ٠	٥ر٥٥	١٠ر٩١	٣ر١٧	٢ر٢٢	١٦ر٠١	٢ر٣٠	١ر٦٧	١٢ر٨٨	٣٤ر٤١	١٠٠
قطر	١٤ر٢٨	٠ر٢٧	٠ر٦٠	٢ر١٦	٤ر٥٠	٢ر٤٠	٣ر٥٢	٢٢ر٩٣	٠ر١٣	٢ر٣١	٨ر٣٢	٤٠ر٠٦	١٠٠
الكويت	١١ر٣٦	١ر٣١	٠ر٩٣	١١ر٢٢	٩ر١٣	٢ر١٠	٢ر٠٤	٢٧ر٥٨	١ر٢٩	١ر٤١	٩ر٩٤	٢٠ر٤٦	١٠٠
تونس	٧١ر٠١	١ر٠٣	(١ر٣٨)	٢٧ر٠٣	١٢ر٩٤	٢٤ر٥٥	٢٧ر١٤	١٩ر٦٤	١٢ر٢٩	(٢ر٠٠)	٢٠ر٠٦	١٩ر٣٢	١٠٠
الجزائر	٤٠ر١٢	٢ر٨٥	٢ر٥٤	٠ر٢٢	١ر٠٢	١١ر٢٥	٦ر٩٢	٢ر٢١	٠ر٢٢	٢ر٢٢	١٥ر١٤	١٠ر٨٩	١٠٠
ليبيا	٢٠ر١٤	٠ر١٣	١ر٣٢	٠ر٢٠	٢ر٢٠	٥ر٩١	٩ر٦٩	٤١ر٤٧	٢ر١٤	٠ر٢٨	٩ر١٢	٧ر٢٥	١٠٠
مصر	٥٢ر١٣	١ر٠٠	١ر٨٨	(١ر١٣)	(١ر٠٩)	٢ر٠٢	١٢ر٥٤	١٢ر٠٣	١ر٩٤	٠ر٥٦	٦ر١٥	١٨ر٢٣	١٠٠
المغرب	٥٢ر١٠	٠ر٠٥	١ر٨٤	(١٩ر٢٥)	(٩ر١٢)	١٢ر٨٧	٨ر٥٥	٢ر٢٩	٤٣ر٣٢	—	٢٠ر٠٤	(١ر٦١)	١٠٠
جيبوتي	١٩ر٣٠	٠ر٦٧	— —	٠ر٢٦	٠ر٤٤	٢٢ر٠٦	— —	٤ر٩١	— —	١ر١٥	١٢ر٢١	٣٢ر٩٠	١٠٠
الوطن العربي	٣٥ر١٥	٠ر٧٦	١ر٣٤	١ر٢٦	٣ر٥٥	٩ر٤٣	٥ر٥٦	١٦ر٦٤	١ر٠٢	١ر٠٨	٩ر٩٢	١٥ر٠٨	

القيمة بين قوسين تدل على فائض في الانتاج .

المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، المرجع السابق ص ١٣ .

بالنظر الى الجدول رقم (٦) نرى بأن معدلات الاكتفاء الذاتي لمعظم السلع الغذائية في الوطن العربي هبطت في الفترة مابين عام ١٨٧٥ وعام ١٩٨٤ . وكانت الحبوب الغذائية أكثر من غيرها تدنيا حيث بلغت نسبة الهبوط في الفترة نفسها بحوالي ٣٤,٣٪ وهي نسبة عالية جدا وكذلك هبطت نسبة الاكتفاء الذاتي للزيوت والمحاصيل الزيتية بالمقدار نفسه تقريبا .

ولا شك في أن نسب الاكتفاء الذاتي ستتدنى كثيرا اذا حدث وارتفعت مستويات الدخول في البلاد العربية ، نظرا لأن الاكتفاء الذاتي مرتبط أشد الارتباط بمستويات الدخول . ومن المعلوم بأن مستويات الدخل في البلاد العربية تتراوح مابين ٧٠٠٠ - ٢٢٠٠٠ دولار في البلاد العربية النفطية الغنية (ليبيا والكويت والسعودية وقطر والامارات وعمان) . وفي هذه الأقطار وصل متوسط قيمة الطلب الفردي على المنتجات الزراعية في عام ١٩٨٤ نحو ٧٠٠ دولار . وفي الأقطار ذوات الدخل المتوسط (١٠٠٠ - ٣٠٠٠ دولار) وهي الجزائر وتونس وجيبوتي والعراق والبحرين والاردن وسوريا ولبنان بلغت حصة الفرد ٣٠٠ دولار . وهي تهبط الى ١٦٠ دولار في مجموعة الأقطار ذات الدخل المنخفض (٣٣٥ - ٧٠٠ دولار) وتشمل المغرب والسودان واليمن الشمالي واليمن الجنوبي والصومال وموريتانيا ومصر[٧] .

ولو فرضنا أن مستوى الطلب على المنتجات الزراعية وصل في معدله على مستوى الأقطار العربية الى ٥٠٠ دولار للفرد فإن الاكتفاء الذاتي في هذه الحالة سينخفض من ٦٠٪ الى ٣٣٪ فقط[٨] .

وعلى أية حال فإن العجز أو ما يطلق عليه بالفجوة الغذائية بالنسبة لمختلف السلع يختلف من قطر الى آخر فبالنسبة للحبوب نجد أن كافة الدول العربية تعاني من فجوة في هذه السلعة . فمصر تبلغ نسبتها في فجوة الحبوب نحو ٢٣,٦٪ من جملة فجوة الوطن العربي في الفترة ١٩٨١ - ١٩٨٣ و ١٥,٥ للجزائر و ٨,٥٩ للمغرب . أما بالنسبة للحوم فتحتل السعودية المركز الأول (نحو ٣٤٪) تليها مصر ١٣,٤٪ ثم العراق ١٢٪[٩] (انظر الجدول رقم ٧) .

أما فيما يتعلق بالهيكل التركيبي للفجوة الغذائية في الأقطار العربية في الفترة ١٩٨١ - ١٩٨٣ فإن الحبوب تسهم بنحو ٣٤,٥٪ من اجمالي قيمة الفجوة الغذائية العربية ، في حين تمثل اللحوم ١٦,٦٪ ، والألبان ١٠٪ ، والسكر ٩,٤٪ والزيوت النباتية ٥,٦٪[١٠] (انظر الجدول رقم ٨) .

عوامل ساهمت في واقع الأمن الغذائي العربي

لا شك في أن هناك عدة عوامل مسئولة عن واقع الأمن الغذائي العربي ، وما وصل اليه وضع انتاج الغذاء بصفة عامة . وبما أن معظم السلع الغذائية منتجات زراعية ، فإن نظرة سريعة للأحوال الزراعية في الوطن العربي ، توضح لنا جوانب كثيرة عن واقع الأمن الغذائي العربي .

---

٧ - المرجع نفسه ، ص ٢ - ٣ .

٨ - المرجع نفسه .

٩ - عبد العظيم محمد مصطفى ، « ازمة الزراعة العربية والعمل العربي المشترك » الحلقة النقاشية العاشرة ، نوفمبر ١٩٨٦ - ابريل ١٩٨٧ ، المعهد العربي للتخطيط ص ١١ (مطبوعة على الآلة الكاتبة) .

١٠ - المرجع نفسه ، ص ١٤ .

بعض الملامح والمؤشرات الزراعية في الوطن العربي :

١ ـ المساهمة في قوة العمل والناتج الاجمالي المحلي :

على الرغم من الأوضاع السيئة للزراعة في الوطن العربي ، إلا أن الزراعة لا تزال أهم القطاعات الاقتصادية في الأقطار العربية من خلال مساهمتها في قوة العمل ، وفي كل من الدخل القومي ، والناتج الاجمالي المحلي .

ففيما يختص بقوة العمل نلاحظ من احصائيات كل من منظمة الأغذية والزراعة ، وتقرير البنك الدولي بانه على الرغم من انخفاض نسبة العاملين في الزراعة في الفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٨٢ ، إلا أن الزراعة لا تزال تحظى بنسب مرتفعة ، وهذه ولا شك احدى السمات البارزة لاقتصاديات الأقطار النامية والمتخلفة ، ذلك أن القطاع الزراعي يتحمل أكثر مما ينبغي من قوة العمل ، لضعف القطاعات الاقتصادية الأخرى واختفاء بعضها . وينتج عن هذا أنواع مختلفة من البطالة ، وانخفاض الانتاجية للعمال الزراعيين .

وعلى أية حال فإن نسبة العاملين في الزراعة في الأقطار العربية تتراوح مابين ٨٢٪ و ٧٤٪ لكل من موريتانيا ، والصومال ، والسودان ، واليمن الشمالي . وتتراوح النسبة مابين ٦٠٪ ، ٥٠٪ كما في سلطنة عمان ، والسعودية ، واليمن الجنوبي ، والمغرب ، ومصر أما في كل من الجزائر ، وسوريا ، والعراق ، وتونس فتتراوح النسبة بين ٤٩٪ الى ٣٠٪ وتنخفض النسبة الى مابين ٣٠٪ في كل من الأردن وليبيا ولبنان[١١] [١٢] .

أما بالنسبة للناتج الاجمالي فلا تزال الزراعة تسهم بنصيب كبير فيه (انظر الجدول رقم ٩) .

من الجدول رقم (٩) نلاحظ بأن مساهمة الزراعة في الناتج الاجمالي المحلي كانت عالية في عام ١٩٦٥ إذ تراوحت مابين ٧١٪ في الصومال و ٤٥٪ في السودان الى ٥٪ في ليبيا . وفي عام ١٩٨٣ انخفضت هذه النسبة الى ٥٠٪ في الصومال و ٣٤٪ في كل من السودان وموريتانيا الى ٢٪ في السعودية و ١٪ في الكويت .

وعلى العموم فان القطاع الزراعي لازال يسهم بنسب عالية في كل من الصومال ، والسودان وموريتانيا ، واليمن الشمالي ، ومصر ، وسوريا ، والمغرب . وتنخفض هذه النسبة في الأقطار النفطية وبخاصة ليبيا والسعودية والكويت .

ويلاحظ بأن نمو الناتج الاجمالي المحلي للقطاع الزراعي أصبح شديد التغير ، وهو أمر يكشف إلى حد ما عن الأولويات بالنسبة للسكان . ومن الجدول رقم (١٠) يمكننا ملاحظة الاختلافات الكبيرة في أرقام النمو بين الفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ ، والفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٨٢ ، وتبين الأرقام بأن النمو في القطاع الزراعي في معظم أقطار الوطن العربي كان بطيئا اذ تراوح مابين ٦,٣٪ في لبنان الى ٠,٦ في الصومال وذلك في الفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ . وفي الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٨٢ تراوحت معدلات النمو بين ٤,١٪ في السودان الى ١,٠٪ في المغرب . أما المعدلات المرتفعة نسبيا لكل من ليبيا ١٠,٥٪ والسعودية (٥,٦٪) والكويت (٥,٥٪) فتعبر عن اهتمامات حكومات تلك الأقطار مؤخرا بضرورة ايجاد تنمية زراعية توفر للبلاد ولو بعض ما تحتاجه من عناصر غذائية .

---

١١ ـ The World Bank, op. cit.

١٢ ـ F.A.D. Production Yearbook 1985

جدول رقم (٩) نسبة مساهمة القطاعات الاقتصادية الرئيسية في الناتج الاجمالي المحلي*

القطر	الزراعة		الصناعة والتعدين		والخدمات	
	١٩٦٥	١٩٨٣	١٩٦٥	١٩٨٣	١٩٦٥	١٩٨٣
الصومال	٧١	٥٠	٦	١١	٢٤	٣٩
السودان	٥٤	٣٤	٩	١٥	٣٧	٥١
موريتانيا	٣٢	٣٤	٣٦	٢١	٣٢	٤٥
اليمن الشمالي	...	٢١	...	١٧	٠	٦٢
مصر	٢٩	٢٠	٢٧	٣٣	٤٥	٤٧
المغرب	٢٢	١٧	٢٨	٣٢	٤٩	٥١
تونس	٢٢	١٤	٢٤	٣٦	٥٤	٥٠
لبنان	١١	...	٢١	...	٦٧	...
سوريا	٢٩	١٩	٢٢	٢٥	٤٩	٥٥
الاردن	...	٨	...	٣١	...	٦١
الجزائر	١٥	٦	٢٤	٥٤	٥١	٤٠
العراق	١٨	...	٤٦	...	٣٦	...
عمان	٦١	...	٢٣	...	١٦	...
ليبيا	٥	٢	٦٣	٦٤	٣٣	٣٤
السعودية	٨	٢	٦٠	٦٦	٣١	٣٢
الكويت	....	١	٧٣	٦١	٢٧	٣٨

The World Bank, "World Development Report 1985," pp. 178-179.

جدول رقم (١٠) معدل نمو الناتج الاجمالي المحلي والقطاعات الاقتصادية الرئيسية*

القطر	نسبة نمو الناتج الاجمالي المحلي		نسبة نمو القطاع الزراعي		نسبة نمو القطاع الصناعي		نسبة نمو قطاع الخدمات	
	* ١٩٦٠ – ٧٠	** ١٩٧٠ – ٨٢	* ١٩٦٠ – ٧٠	** ١٩٧٠ – ٨٢	* ١٩٦٠ – ٧٠	** ١٩٧٠ – ٨٢	* ١٩٦٠ – ٧٠	** ١٩٧٠ – ٨٢
الصومال	١ر٠	٨ر٢	٦ر٠	[illegible]	٤ر٣	–	٢ر٤	–
السودان	٠ر٢	٦ر٣	٢ر٢	١ر١	١ر٧	٨ره	–	٥ر٨
موريتانيا	٧ر٦	٢ر٠	٤ر١	٣ر٤	١ر١٤	٥ر٣	٤ر٧	٢ره
اليمن الشمالي	–	٥ر٨	–	٦ر٢	–	١٣ر٦	–	٢ر١١
مصر	٢ر٤	٤ر٨	٢ر٩	٠ر٢	٤ر٥	٨ر٣	٤ر٧	١١ر٧
المغرب	٤ر٤	٠ر٥	١ر٢	١ر١	٤ر٢	٥ر٣	٤ر٤	٣ر٦
تونس	٢ر٤	٠ر٧	٠ر٢	٦ر٢	٩ر١٠	٠ر٨	٦ر٢	٦ر٧
لبنان	٩ر٤	–	٦ر٢	–	–	٥ر٤	–	٨ر٤
سوريا	٦ر٤	٨ر٨	٤ر٤ ×	٢ر٢ ×	٢ر٩ ×	٦ر١٦ ×	٢ر٦ ×	٥ر٩ ×
الاردن	–	٢ر٩	٠ر٥	٢ر٦	٩ر٩	٥ر١٢	٤ر٦	٤ر٩
الجزائر	٢ر٤	٦ر٦	٠ر١	٢ر٩	٦ر١١	٠ر٧	١ر١	٤ر٦
العراق	١ر٦	–	٥ر٧	–	٢ر٤	٢ر١١	٢ر٨	٢ر٨
ليبيا	٤ر٢٤	٤ر٢	٢ر٢	٥ر١٠	–	٢ر١	–	٣ر١٧
السعودية	–	٨ر٩	–	٦ر٥	–	٩ر٨	–	٤ر١٢
الكويت	٧ر٥	١ر٢	–	٥ر٥	–	٨ر٢	–	٦ر٩

The World Bank, "World Development Report 1984", pp. 220-221

× ارقام عام ١٩٧٨

* بعض الأرقام لعام ١٩٦١ ـ ١٩٧٠ .

** بعض الأرقام لعام ١٩٧٠ ـ ١٩٨١ .

وتبين أرقام الجدول المذكور نفسه عن أنه على الرغم من اتساع الفجوة بين النمو الزراعي ، والنمو الصناعي في عقد السبعينات ، إلا أنها أخذت تضيق نوعا ما بعد ذلك كما تشير بعض الأرقام .

ويوضح لنا الجدول أيضا بأن النمو الزراعي في الأقطار العربية كان على ثلاثة مستويات تقريبا ، فالأول منها كان النمو فيه بطيئا كما في المغرب والاردن ، والمستوى الثاني كان متوسطا كما في مصر وموريتانيا واليمن الشمالي وتونس والجزائر . أما المستوى الثالث فهو مرتفع نسبيا ويشمل الأقطار النفطية التي اهتمت مؤخرا بالتنمية الزراعية مثل ليبيا والسعودية والكويت ، ولكن المعوقات الزراعية في هذه الأقطار محدودة[١٣] .

٢ ـ الأراضي الزراعية :

تعتبر الأرض الزراعية ، ونوعية استغلالها ، ومستوى انتاجيتها من المؤشرات الهامة التي نستدل بها على المستوى الزراعي في أي قطر من الأقطار .

ومن الجدول رقم (١) والذي يبين مساحات الأراضي واستعمالاتها في الوطن العربي نخرج بالملاحظات التالية :

١ ـ تبلغ مساحة اليابس في الوطن العربي نحو ١,٣٥٠,٩١١,٠٠٠ هكتارا أي نحو ١٠,٣٪ من جملة مساحة اليابس في العالم .

٢ ـ وعلى الرغم من هذه المساحة الكبيرة إلا أن نصيب الوطن العربي من الأراضي الزراعية منخفض جدا حيث لا يتعدى ٣,٦٪ من مجموع المساحات الزراعية في العالم ، وربما كان سبب ذلك أن مالا يقل عن ٧٠٪ من مساحة الوطن العربي يقع ضمن النطاق الصحراوي .

٣ ـ أما المساحات التي تحتلها المحاصيل الدائمة فلا تتعدى ٤,٣٥ مليون هكتار أو حوالي ٤,٣٪ من جملة المساحات التي تشغلها المحاصيل الدائمة في العالم .

٤ ـ تبلغ نسب الأراضي التي تحتلها المحاصيل الدائمة نحو ٨,٢٪ فقط من جملة الأراضي الزراعية ، وهذا يعني أن حوالي ٩١,٨٪ من الأراضي الزراعية العربية لا تستغل بشكل منتظم ، وانما تترك في كثير من فصول السنة ، وأحيانا لسنين طويلة بورا وبدون زراعة .

وعليه يمكن القول بأن حوالي ٠,٣٢٪ فقط من مساحة الوطن العربي يستغل في الزراعة بشكل دائم .

٥ ـ كان النمو في مساحات الأراضي الزراعية في الوطن العربي متواضعاً للغاية في الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٨٤ ، إذ كان النمو لا يتعدى ١٪ فقط في حين كان النمو على المستوى العالمي نحو ٣٪ أما بالنسبة للأراضي الزراعية التي تحتلها المحاصيل الدائمة ، فقد حقق الوطن العربي زيادة في الفترة نفسها بلغت حوالي ١١,٤٪ في مقابل ٦,٦٪ للعالم .

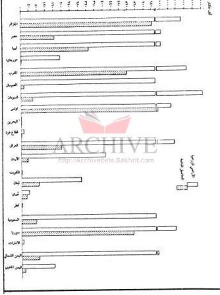
١٣ ـ محمد علي الفرا ، « مشكلة الغذاء في الوطن العربي والأزمة الاقتصادية العالمية » مرجع سابق ، صفحة ٣٣ .

جدول رقم (١١) الأراضي الزراعية في الأقطار العربية (١٩٧٤ - ١٩٨٤)*

الوحدة : ألف هكتار

القطر	المساحة الكلية	١٩٧٤ - ١٩٧٦		١٩٨٣		١٩٨٤	
		الأراضي الزراعية	المحاصيل الدائمة	الأراضي الزراعية	المحاصيل الدائمة	الأراضي الزراعية	المحاصيل الدائمة
الجزائر	٢٣٨١٧٤	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
مصر	٩٩٥٤٥	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ليبيا	١٧٥٩٥٤	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
موريتانيا	١٠٢٥٢٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
المغرب	٤٤٦٣٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
الصومال	٦٢٧٣٤	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
السودان	٢٣٧٦٠٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
تونس	١٥٥٣٦	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
البحرين	٦٢	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
قطاع غزة	٣٨	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
العراق	٤٣٣٩٧	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
الأردن	٩٧١٨	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
الكويت	١٧٨٢	١	[illegible]	١	[illegible]	[illegible]	[illegible]
لبنان	١٠٢٣	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
عمان	٢١٢٤٦	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
قطر	١١٠٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
السعودية	٢١٤٩٦٩	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
سوريا	١٨٤٠٦	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
الإمارات	٨٣٦٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
اليمن الشمالي	١٩٥٠٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
اليمن الجنوبي	٣٣٢٩٦	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
المجموع	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
العالم	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
نسبة الوطن العربي بالنسبة للعالم	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

F.A.O. Production Year book, 1985, pp. 47-58


الجزائر
مصر
ليبيا
موريتانيا
المغرب
الصومال
السودان
تونس
البحرين
قطاع غزة
العراق
الأردن
الكويت
لبنان
عمان
قطر
السعودية
سوريا
الامارات
اليمن الشمالي
اليمن الجنوبي

جدول رقم (١٢) الأراضي المروية في الأقطار العربية (١٩٧٤ - ١٩٨٤)*
الوحدة : ألف هكتار

	١٩٧٤ - ٧٦	١٩٨٠	١٩٨٢	١٩٨٤
الجزائر	٢٤٤ ف	٢٥٣	٢٨٠ ف	٢٩٨
مصر	٢٧٩٩	٢٤٤٧	٢٤٧٠ ف	٢٤٧٤ ف
ليبيا	٢٠٠ ف	٢٢٥	٢٢٧ ف	٢٣٢
موريتانيا	٧ ف	٨ ف	٨ ف	٨ ف
المغرب	٤٢٦	٥١٠ ف	٥٢٠ ف	٥٢٠ ف
الصومال	١٢٠ ف	١٢٥ ف	١٣٠	١٣٠ ف
السودان	١٧٤٣	١٦٠٠ ف	١٧٠٠	١٧٠٠ ف
تونس	١٤٣ ف	١٥٦	١٧٨	٢١٠ ف
البحرين	١	١	١ ف	١ ف
العراق	١٥٧٢ ف	١٧٥٠ ف	١٧٥٠ ف	١٢٥٠ ف
الاردن	٣٦ ف	٣٧	٣٨	٣٨ ف
الكويت	١	١	١ ف	١ ف
لبنان	٨٦	٨٦ ف	٨٦	٨٦ ف
عمان	٣٤ ف	٣٨	٣٨ ف	٤٢ ف
السعوديه	٣٧٦	٣٩٠ ف	٤٠٠ ف	٤١٠ ف
سوريا	٥٤٧	٥٣٩	٥٥٥	٦١٧
الامارات	٥	٥	٥رف	٥ ف
اليمن الشمالي	٢٣٠	٢٤٥ف	٢٤٥ ف	٢٤٥ ف
اليمن الجنوبي	٥٧ ف	٦٠ ف	٦٠ ف	٦٢ ف
المجمـــــوع	٨٦٠٧	٨٤٧٦	٨٦٩٢	٨٨٢٩
العالـــــم	١٨٨٤٧٤	٢١٠٩٧٤	٢١٥٤٥٤	٢١٩٧١٥
نصيب الوطن العربي بالنسبه للعالم	٦ ر ٤ ٪	٠ ر ٤ ٪	٤ر٠	٠ ر ٤

F.A.O. Production Yearbook, 1985,p.59

أما بالنسبة للأراضي الزراعية المروية ، أي التي تروى من الأنهار أو الآبار أو العيون ونحو ذلك من الأراضي التي لا تعتمد على مياه الأمطار الساقطة ، فقد بلغت مساحتها نحو ٨,٨ مليون هكتار أو حوالي ٤٪ فقط من مساحة الأراضي المروية في العالم ، وبنحو ١٦,٥٪ من جملة الأراضي الزراعية في البلاد العربية (انظر الجدول رقم ١٢) .

وفي الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٨٤ كان النمو في مساحات الأراضي الزراعية في الوطن العربي متواضعا للغاية ، اذ لم تزد نسبة هذا النمو عن ٢,٥٪ في عشر سنوات ، في حين أن معدل الزيادة على المستوى العالمي للفترة نفسها كان في حدود ١٦,٥٪ (انظر الجدول رقم ١٢) .

ومن المعلوم بأن معظم الأراضي الزراعية المروية توجد في مصر والتي تساهم بنحو ٢٨٪ من جملة الأراضي المروية في الوطن العربي ، يليها العراق ١٩,٨٪ والسودان ١٩,٢٪ ، أي أن هذه الأقطار الثلاثة تستأثر وحدها بنحو ٦٧٪ من مساحة الأراضي الزراعية المروية في الوطن العربي . وسبب ذلك وجود الأنهار في هذه الأقطار كالنيل وروافده في مصر والسودان ، ودجلة والفرات في العراق .

٣ ـ انتاج الغذاء :

تستخدم مؤشرات انتاج الغذاء كدلالات على واقع الأمن الغذائي في العالم . والجدول رقم (١٤) يبين هذه المؤشرات بالنسبة لأقطار الوطن العربي . ومنها نرى تحسن الانتاج الغذائي في كثير من الأقطار العربية وبخاصة السعودية وتونس والسودان والاردن والجزائر .

وقد شهد قطاع الحبوب الغذائية نموا كبيرا في معظم البلاد العربية وبخاصة في السعودية ويبدو أن هذا التحسن كان نتيجة الاحساس الذي تولد عند كثير من المسئولين في الأقطار العربية بضرورة العمل لرفع الانتاج الغذائي ، وتحسين الأوضاع الزراعية . فعلى سبيل المثال قفز انتاج القمح في المملكة العربية السعودية من ١٥٠ ألف طن الى نحو مليوني طن في عام ١٩٨٦ . وقد تبنت معظم الأقطار العربية سياسة الدعم للمشاريع الزراعية ، وبخاصة انتاج الغذاء . وقد تركزت سياسة الدعم على النهوض بهياكل البنية الأساسية كمشاريع الري والصرف واستصلاح الأراضي كما حدث في السودان والعراق وليبيا وتونس والجزائر . وفي منطقة الخليج العربي تركز الاهتمام في انتاج مختلف أنواع الخضروات لتقليل الاعتماد على الخارج والوصول في النهاية لمرحلة الاكتفاء الذاتي . وقد حققت بعض أقطار الخليج العربية وبخاصة السعودية فائضا في انتاج كل من القمح والخضروات .

ولكن على الرغم من تحسن مؤشرات انتاج الغذاء في الوطن العربي بمعدلات عالية نسبيا ، الا أنها تعكس في الوقت نفسه الرغبة في الوصول الى المستويات العالمية . فمن المعلوم بأن انتاج الغذاء في الوطن العربي دون المعدلات العالمية . فلو نظرنا الى انتاج الحبوب الغذائية في الأقطار العربية لخرجنا بالملاحظات التالية (انظر الجدول رقم ١٥ والشكل رقم ٨) .

١ ـ تبلغ مساحة الأراضي المزروعة بالحبوب الغذائية في الوطن العربي في عام ١٩٨٥ نحو ٢٦,٢ مليون هكتار ، أي حوالي ٣,٦٪ من مساحة الأراضي المزروعة بالحبوب الغذائية في العالم ، ونحو النصف (٤٩,٢٪) من جملة الأراضي الزراعية في الوطن العربي :

جدول رقم (١٣) مؤشرات انتاج الغذاء في الأقطار العربية*
١٩٧٩ ـ ٨١ = ١٠٠

القطر	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٥
الجزائر	٩٢ر٨٩	١٠٧ر٤٤	٩٩ر٦٧	١٢٧ر٢٨
مصر	٩٩ر٤١	٩٩ر٣٧	١٠١ر٢٢	١١٧ر٩١
ليبيا	١٠٥ر٦٥	١٠٠ر١٨	٩٤ر١٧	١٢٠ر١٣
موريتانيا	٩٦ر١٣	٩٨ر٧٦	١٠٥ر١١	١٠١ر٨١
المغرب	١٠٤ر٩١	١٠٥ر٨٥	٨٩ر٢٤	١١٨ر٥٣
الصومال	٩٦ر٣٩	١٠١ر٤٧	١٠٢ر١٥	١٠٣ر٦٥
السودان	٩٠ر١٦	٩٧ر٦٢	١١٢ر٢٢	١٢٤ر٥٥
تونس	٩٢ر٢٩	١٠٦ر٠٤	١٠١ر٦٦	١٢٥ر٣٢
العراق	٩٨ر٠٠	١٠١ر٢٢	١٠٠ر٢٨	١١٧ر٦٣
الاردن	٧٦ر٠٠	١١١ر٢٦	١١٠ر٧٤	١٢٦ر٣٨
لبنان	٩٣ر٦٨	١١٣ر٥٨	٩٣ر٧٤	١٠٩ر٠٦
السعودية	١١٢ر٣٦	١٠١ر١١	٨٦ر١٠	٢٦٤ر٧٤
سوريا	٦١ر٠١	١٠٧ر٦٠	١١١ر٣٩	١١٧ر٦٥
اليمن الشمالي	٩٥ر٤١	٩٩ر٦٦	١٠٤ر٩٣	١٠٨ر٩٣
اليمن الجنوبي	١٠١ر٤٠	٩٨ر٤١	١٠٠ر١٩	١٠٠ر٧٦
العالم	٩٨ر٢٨	٩٩ر١٦	١٠٢ر٥٤	١١٣ر١٢

F.A.O. Production Yearbook 1985, pp. 77-78

جدول رقم (١٤) مؤشرات انتاج الحبوب الغذائية في الأقطار العربية*
١٩٧٩ ـ ٨١ = ١٠٠

القطـــر	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٥
الجزائر	٧٩ر٥٦	٦٨ر١٢	٩٩ر٧٦	١٢٨ر٧١
مصر	١٠١ر٠١	١٠٠ر١١	٩٨ر٨٧	٩٦ر٦١
ليبيا	٩٥ر٧٥	٩٨ر٤١	١٠٥ر٨٤	٨٤ر٠٠
موريتانيا	٦٥ر٥٦	٩٢ر٤٢	١٤٢ر٠٢	٧٩ر٧٥
المغرب	١١٩ر٠١	١٢٧ر٤٦	٥٣ر٥٣	١٢٢ر٧٩
الصومال	٩٢ر٣٩	٩٠ر٩٣	١١٦ر٦٨	١٢٢ر٦٢
السودان	٧٢ر٣٥	٩٣ر٤١	١٣٣ر٢٤	١٣٩ر٤٦
تونس	٨٥ر١١	١٠٣ر٧٦	١١١ر١٣	١٦٦ر٦٦
العراق	٦٤ر٢٥	١٢٧ر٤٠	١٠٨ر٣٥	٦٧ر٤٠
الاردن	٧٢ر٧١	٢٢١ر٥٠	٧٤ر٧٨	١٣٦ر٨٦
لبنان	١١٧ر٩٠	١١١ر٩٩	٧٠ر١٠	٤٨ر٤٠
السعودية	١١٣ر٣٢	٨٨ر١٩	٩٨ر٤٨	١٥١ر٥٠
سوريا	٥٢ر٩٧	١٢٨ر٣٠	١١٣ر٧٤	٧٧ر٢٩
اليمن الشمالي	١٠٠ر٨٤	٩٩ر٤٨	٩٩ر٦٨	٦٣ر٤٦
اليمن الجنوبي	١٠٥ر٠٤	١٠٤ر٧٣	٩٠ر٢٣	٨١ر٠٧
العالـــم	٩٨ر٩٤	٩٨ر٨٢	١٠٢ر٢٤	١٠٧ر٢٤

F.A.O. Production Yearbook, 1985, pp. 9s-96

٢ ـ بلغت نسبة زيادة الأراضي المزروعة بالحبوب الغذائية في عام ١٩٨٥ عن عام ١٩٧٩ ـ ٨١ نحو ١٥,٢٪ علماً بأنها في العام ١٩٨٤ انخفضت بنسبة ٥,١٪ . وعلى أية حال فمن المعلوم بأن الأراضي التي تزرع بالحبوب تختلف من عام لآخر بحسب كمية الأمطار الساقطة . لأن الحبوب في الوطن العربي تعتمد في معظمها على مياه الأمطار .

٣ ـ ومن حيث الانتاجية ـ أي مقدار ما يغله الهكتار الواحد من الحبوب ـ نجد أن معدلات الانتاجية في الأقطار العربية دون المستوى العالمي بكثير . ولا يشذ عن ذلك سوى مصر التي تصل فيها الانتاجية الى ٤٣٧٣ كيلو غراماً لكل هكتار في عام ١٩٨٥ ، وربما كان من أهم أسباب ذلك أن زراعة القمح في مصر تعتمد على الري من نهر النيل في حين أن زراعته في البلاد العربية الأخرى تعتمد على مياه الأمطار المتذبذبة من عام لآخر ، وكذلك يرجع ارتفاع الانتاجية الى خصوبة تربة مصر الطميية ، وزراعة الأنواع الممتازة من القمح والتي تعطي محاصيل وفيرة . وعلى العموم فإن معدل انتاجية الحبوب الغذائية في الوطن العربية بلغت في عام ١٩٨٥ نحو ١٣٧٦ كيلو غراماً لكل هكتار ، وهي دون المستوى العالمي اذ وصلت الى ٥٥٪ فقط من الانتاجية العالمية ، وتعادل ٣٥,٨٪ من معدل الانتاجية في الأقطار المتقدمة ، و ٨١٪ من معدلها في الأقطار النامية . وعليه تكون انتاجية الوطن العربي من الحبوب الغذائية أقل انتاجية في العالم .

٤ ـ وفيما يتعلق بكمية الانتاج ، فقد أنتج الوطن العربي نحو ٣١,٥ مليون طن في عام ١٩٨٥ أي بزيادة قدرها نحو ٢٧,٢٪ عن انتاج عام ١٩٧٩/٨١ . ويسهم الوطن العربي بنحو ١,٧٪ من انتاج العالم من الحبوب الغذائية .

٥ ـ بلغت نسبة زيادة الانتاج في الحبوب الغذائية في البلاد العربية للفترة ١٩٧٩/٨١ ـ ١٩٨٥ نحو ٢٧,٢٪ ، وكانت أعلى من معدلات الزيادة العالمية والتي بلغت في الفترة نفسها حوالي ١٥,٦٪ ، وكانت معظم الزيادة التي حققها الوطن العربي في عام ١٩٨٥ حيث تفوق الانتاج عن العام الذي قبله بنحو ٤٧,٧٪ واذا استمرت هذه الزيادة على الوتيرة نفسها فإن هناك أملاً كبيراً في تخفيف الفجوة في الحبوب الغذائية .

ويعتبر القمح أهم الحبوب الغذائية ومنه يصنع رغيف الخبز الذي يشكل قوام الحياة في البلاد العربية ، على الرغم من اعتماد بعض الأقطار العربية على الذرة . ولكن كلما تقدم المستوى المعيشي زاد الاعتماد على القمح ليس فقط لصنع الخبز وانما لعمل كافة أنواع الحلويات والمعكرونة .

ويبين الجدول رقم (١٦) انتاج القمح والمساحات التي يشغلها والانتاجية ومنه نستنتج ما يلي :

١ ـ بلغت المساحة المزروعة بالقمح في البلاد العربية نحو ٨,٨ مليون هكتار ، أي حوالي ٣٤٪ من المساحة المخصصة لزراعة الحبوب ، وعليه يكون القمح أكثر أنواع الحبوب الغذائية انتشارا في الوطن العربية .

ويساهم الوطن العربي بنحو ٣,٨٪ من المساحة التي يشغلها القمح .

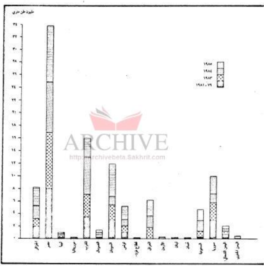
٢ ـ وفي عام ١٩٨٥ أنتج الوطن العربي ١١,٨ مليون طن متري من القمح ، أي حوالي ٣٧,٣ من كمية الحبوب التي أنتجها في العام نفسه ، ونحو ٢,٣٪ من جملة الانتاج العالمي من القمح .

وقد حقق الوطن العربي نموا في الانتاج في الفترة ١٩٧٩/٨١ ـ ١٩٨٥ بمقدار ٣٢,٧٪ ، وكانت معظم الزيادة في عام ١٩٨٥ حيث زاد الانتاج عن العام الذي قبله بنحو ٢٩٪ .

جدول رقم (١٥) انتاج الحبوب الغذائية والمساحات التي تشغلها وانتاجها في الأقطار العربية*
١٩٧٩ - ١٩٨٥

القطر	المساحة (الف هكتار)				الانتاجية (كيلو غرام لكل هكتار)				الانتاج (الف طن متري)			
	١٩٧٩ - ٨١	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٧٩ - ٨١	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٧٩ - ٨١	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥
الجزائر	٢٩٩٩	٢٢٥٨	٢٢٥٥	٢٥١٤	٦٩٣	٥٥٠	٦٣٦	٨٦٨	٢٠٤٣	١٢٩٢	١٨٧٨	٢٠٨٨
مصر	٢٠٠٧	٢٠١٣	١٩٥١	٢٠٥١	٤٠٦١	٤٢٢٤	٤٠٦٤	٤٢٢٣	٨١٤٩	٨٣٠١	٨٩١٦	٨٦٦٨
ليبيا	٤٣٨	٥٥٩	٤٧٤	٤٠٧	٤١٩	٧٥٧	٨٨٠	٧٣٨	٤٢٥	٤١٨	٤٧٧	٤٢٥
موريتانيا	١٢٩	١١٧	٨٨	٩٣	٣٨٩	٢٤٩	٢٨١	٥٢٢	٤٩	٢٩	٢٤	٤٧
المغرب	٤٤١١	٤٥٩٠	٥٠١٦	٥٥٩٣	٨١٢	٦٨٠	٨٤٦	١٠٦٢	٣٨٤٢	٣٨٧٦	٣٣٥٤	٤٨٧٨
الصومال	٤٦١	٦٠٥	٦٠٥	٥٥٨	٥٠٥	٥٩٤	٥٩٤	٥٩٤	٣٠٦	٢٥٩	٣٥٩	٥٥١
السودان	٥٥٢٩	٥١١٩	٤٨٤٣	[illegible]	٦١٨	٤٥٢	٦٩٦	٧٢٢	٣٠٣٢	٢٢١١	١٨٨٦	١٩٥٤
تونس	١٤١٦	١٣٣١	١٤٦٣	١٨٠٩	٨١٠	٨٨٨	٧٥٥	١١٢٦	١١٤٢	٩٥٦	١٠٦٠	٢١١٤
قطاع غزة	٢	٢	٢	٢	١١٤٦	٢٠٩٩	٢٨١٣	٢٤١٢	•	٦	•	•
العراق	٢٩٥٩	٢٤٨١	١٠٨٨	١٩١٢	٨٢٥	٧٣٧	١٠١٢	٧٢٨	١٥٠٤	١٨٢٢	١٠٩٣	١٤٩٢
الأردن	١٦٥	١٥٣	١١٦	١٥٠	٥٠٥	٦٦١	٨٢٨	٤٢٢	٩١	١٥١	٦١	١٢
لبنان	٢٨	١٣	٢٠	٢٩	١٧٩٤	١٨٤١	١٦٦٨	١٦٤٢	٤١	٢٧	٢٤	٤١
عمان	٩	١	١	١	٩٣٢	١٧٩٤	١٩٠٠	١٧٨٥	٢	١	٢	٥
السعودية	٢٨٨	٤٦٩	٥٥٥	٧٣٠	٧٨٣	٢١٢٦	٣٥٥٥	٢٨٤٩	٣٠٤	٤٩٦	١٥١٣	١٨١٧
سوريا	٣٦٤٣	٣٥١٤	[illegible]	٤٩٩٣	١١٧٣	٩٥٨	٦٨٦	١٠٩٠	٣٠٩٩	٢٧٦٦	١٥٥٥	٢٤٦٥
اليمن الشمالي	٨٢٩	٨٢٦	٦٣٣	٦٨٣	٥٥٦	٢٢٦	٦٠٨	٨٧٦	٤٩٢	٣٧٣	٢٨١	٥٨٠
اليمن الجنوبي	٧٧	٦٢	٦٦	٦٦	١٤٤٤	١٦٦٣	١٦٦٣	١٧٧٤	١٢٢	١١٥	١١٥	١١٤
المجموع	٢٢٩٥٨	٢٢٢٣٥	٢١٦٠١	٢٦٢١٤	١١٥٠ر٧	١٢٥٥	١٢٢٢ر٥	١٢٧٩ر٥	٢٨٨١٦	٢٢٨٤٥	٢٤٢٧٦	٣١٥٨٥
العالم	٧٢١١٤٧	٧١٣٧٢٢	٧٢٥٤٦٩	٧٢٩٥١٨	٢١٩٩	٢٣٠٢	٢٤٨٧	٢٥١٣	١٥٩٤٠٧٠	١٦٢٣٩٩٣	١٨٠٣٩٨٥	١٨٤١٠٠٦
نصيب الوطن العربي بالنسبة للعالم	٣ر١	٣ر٢	٣ر٢	٣ر٦	٥٢ر٠	٥٤ر٠	٤٩ر٠	٥١ر٠	١ر٨	١ر٤	١ر٣	١ر٧

F.A.O. Production Yearbook 1985, pp. 101-109.

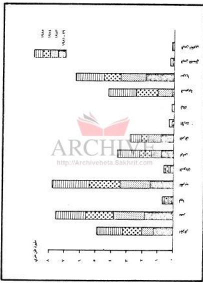


شكل رقم ٨ انتاج الحبوب الغذائية في الأقطار العربية ١٩٧٩ - ١٩٨٧

جدول رقم (١٦) انتاج القمح والمساحات التي يشغلها وانتاجيته في الأقطار العربية* ١٩٧٩ - ١٩٨٥

القطر	المساحة (الف هكتار)				الانتاجية (كيلو غرام لكل هكتار)				الانتاج (الف طن متري)			
	١٩٧٩ - ٨١	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٧٩ - ٨١	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٧٩ - ٨١	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥
الجزائر	١٩٤٣	١٤٠٢	١٥٥٢	١٦٠٠	٥٦٤	٥٧٤	٦٤٦	٧٥٠	١٢٢٠	٧٩٠	١٢٠٠	١٥٥٠
مصر	٥٨٧	٥٥٥	٥٦٥	٥٩٨	٣٣١٨	٣٦٠٠	٣٦٦٣	٣٣٣٣	١٨٦٤	١٩٩٦	١٨١٥	١٨٧٤
ليبيا	٢٥١	٢٥٨	٢٥٢	٢٣٤	٦٩٧	٨٥٦	٧٦٥	٥٤٦	١٧٥	٢١٠	١٨٤	١٢٧
موريتانيا			١	١	٥٦٨	٩٩٦	١٠٠٠	٧٧٦			١	
المغرب	١٧٧٣	١٥٥٦	١٥٥٦	١٩١٩	٨٩٢	١٠٦٤	١٠٧٣	١٣٥١	١٥٠٠	١٦٢٠	١٩٨٩	٢٦٠٠
الصومال	٤	٤	٤	٤	٣٣٤	٣٦٨	٣٦١	٣٦١	١	١	١	١
السودان	٢٠٦	١٢٠	١٤٣	٤٨	١٠٠٠	١٠٥٥	١١٥٠	١٦٥٦	٢٠٦	١٤١	١٦٨	٧٩
تونس	٨٨٧	٩٣٠	٩٠٠	١٠٣٣	٩٤٤	٦٦٥	٧٩٠	١٣٥٥	٨٣٧	٦١٨	٧١١	١٤٠٠
قطاع غزة	١	١	١	١	٢٢٢٢	٢٠٠٠	٢٢٠٦	٢٢٠٦	٢	٣	٢	٢
العراق	١٦١٥	١١٩١	٥١٣	١٠٠٢	٣٠٢	٣٠٦	٥٦٦	٥٦٠	٤٩١	٤٨٦	٢٧١	٥٨٠
الأردن	١١١	١١١	٦١	٩١	٦٠٤	١٠٥٥	٣٣٤	١٠٦٠	٦٧	١١٦	٥٠	١٠٠
لبنان	٢٦	١٩	١٥	١١	١٢٦٠	١١٧٦	١٢٠٠	١٠٧١	٣١	٢٠	١٨	١٥
عمان					٦٦٣	٢٢٢٨	٢٣٥٨	٢٢٢١		١	١	١
السعودية	٣١	٢٢٨	٣٠٨	٣٥٠	٢٢٤١	٤٠٢٢	٤١٦٥	٤٠٥١	١٦٠	٨٥٨	١٤٠٢	١٧٠٠
سوريا	١٣٨٣	١٤٤٠	٨٠٨	١١٤٦	١٥٩٨	١٣٢٤	١٣٢١	١٤٥٧	١٨٩٨	١٩١٢	١٠٦٨	١٧١٤
اليمن الجنوبي	٦٥	٦٦	٦٠	٦٠	١٠١٨	٩٥٢	١٢٣٥	٩٥٢	٦٥	٢٤	٢٢	٤٠
اليمن الجنوبي	١٢	١٠	١٠	١٠	١٦٥٥	١٥٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠	٢١	١٥	١٥	١٥
المجموع	٨٤٢٦	٨٠٩٤	٧٧٧٢	٨٨٥٣	١٠١٩١٠ر	١٠١٦٨ر	١٠١٢ر	١٠٥٥ر	٨٨٨٢	٩٢٥٢	٩١٢٤	١١٦٩٠
العالم	٢٢٨٥١٧	٢٣٠٥٩٠	٢٢١٥٩٠	٢٢٠٠٦٦	١٨٨٣	٢١٤٦	٢٢٣١	٢٢١٢	٤٤١٢١٣٧	٤٩٤٢٣٧	٥١٣٤١٢	٥١٠٠٢٨
نصيب الوطن العربي بالنسبة للعالم ٪	٥ ر ٣	٥ ر ٣	٦ ر ٣	٨ ر ٣	٥٤ر١	٥٤ر١	٦٩ر١	٦٩ر١	٢	٨ ر ١	٧ ر ١	٢ ر ٢

F.A.O. Production Yearbook, 1985, pp. 110-111



شكل رقم (٩) انتاج القمح في الأقطار العربية ١٩٧٩ - ١٩٨٥

وعلى الرغم من أن الزيادة التي حققها الوطن العربي في انتاج القمح زادت عن مستوى الزيادة العالمية والتي بلغت في الفترة نفسها نحو ١٥٪ إلا أن نصيب الوطن العربي في انتاج القمح من جملة الانتاج العالمي لا تزال منخفضة إذ لا تزيد كما قلنا عن ٢,٣٪ . ولا يزال هناك مجال واسع أمام الأقطار العربية كي تزيد من انتاج القمح اذا كانت جادة في ردم الفجوة بين الاستهلاك والاستيراد .

٣ ـ أما فيما يتعلق بالانتاجية ، فلا تزال متدنية عن معدلات العالمية ، ففي عام ١٩٧٩ / ٨١ ارتفعت حتى وصلت الى نحو ٧٠٪ من الانتاجية العالمية ، وحوالي ٩٢,٤٪ من معدل الانتاجية في الأقطار النامية ، ونحو ٥٨,٦٪ من معدل الانتاجية في البلاد المتقدمة ، كالولايات المتحدة الامريكية ، وأقطار القارة الاوربية . وبناء عليه تكون انتاجية الأرض من القمح في البلاد العربية أقل من أية منطقة أخرى من مناطق العالم ، وربما كان السبب أن معظم القمح الذي يزرع في البلاد العربية يعتمد على مياه الأمطار وهي تتذبذب كمية وفصلية من عام لآخر ، كما أن زراعة القمح لا تزال تمارس بطرق بدائية ، علاوة على فقر التربة وحاجتها الى التسميد . وتحظى مصر بأكبر انتاجية للقمح حيث يزرع على الري الدائم من نهر النيل ، علاوة على تهجين سلالات جديدة من القمح الذي يتميز بانتاجيته المرتفعة . وتأتي السعودية بعد مصر من حيث الانتاجية . وقد استطاعت السعودية تطبيق أحدث الوسائل التكنولوجية في زراعة القمح .

أسباب أخرى :

هناك عوامل كثيرة تساهم في واقع الأمن الغذائي العربي ، وتساعد على تدهور الأوضاع الزراعية ، وتعمل على تدني الانتاج الغذائي . ولعل من أهم هذه العوامل : معدلات النمو العالية للسكان في البلاد العربية ، وارتفاع مستويات الدخل ، والهجرة من الريف الى المدن والتصحر ، وقلة الاستثمارات في القطاع الزراعي ، والمعوقات الطبيعية . وبطبيعة الحال فان المقام لن يسمح لنا بتحليل جميع هذه العوامل بشكل مفصل ، ولكن ولأجل استكمال البحث سنحاول معالجتها بشكل مقتضب .

فيما يتعلق بالزيادة السكانية فإن الوطن العربي يحظى بأعلى نسبة في معدلات النمو ، فهي لا تقل عن ٣٪ في العام (انظر الجدول رقم ١٧) .

من الجدول رقم (١٧) نجد بأن هناك عشر دول عربية تتراوح فيها نسبة الزيادة الطبيعية السكانية مابين ٣ ـ ٣,٧٪ سنويا وهي سوريا والأردن وقطاع غزة والعراق والجزائر وليبيا والكويت وعمان والسعودية والسودان . أما باقي الدول العربية ـ فيما عدا لبنان حيث تبلغ نسبة الزيادة ٢,٢٪ ـ فتتراوح الزيادة الطبيعية فيها ما بين ٢,٥ ـ ٢,٩٪ . . وبناء عليه فان عدد سكان الوطن العربي سيتضاعف في مدة لا تزيد عن ٢٥ سنة . ومن المتوقع ان يصل سكان الاقطار العربية عام ٢٠٠٠ نحو ٢٩٠,٤ مليون نسمة علما بأن عددهم في منتصف عام ١٩٨٤ قدر بحوالي ١٨٦,٩ مليون نسمة اي بزيادة قدرها ٥٥,٤٪ في مدة لا تزيد عن خمسة عشر عاما ونصف .

ولاشك في أن زيادة سكان الوطن العربي بهذه النسبة العالية ، والتي تفوق المعدلات العالمية دون ان يقترن بهذه الزيادة نمو مواز ومساو على الأقل في انتاج الغذاء سينتج عنه تفاقم الازمة الغذائية ، وزيادة الاعتماد على الخارج .

جدول رقم (١٧) أعداد السكان ومعدلات الزيادة الطبيعية ومؤشرات انتاج الفرد من الغذاء في أقطار الوطن العربي*

القطر	أعداد السكان تقدير منتصف ١٩٨٤ بالمليون	نسبة الزيادة الطبيعية	المدة اللازمة التي يتضاعف فيها عدد السكان	تقدير أعداد السكان عام ٢٠٠٠ بالمليون	الدخل الفردي بالدولار عام ١٩٨٢ م	مؤشر انتاج الفرد من الغذاء ٧٤ – ٧٦ = ١٠٠ ٨١ – ٨٣
جيبوتي	٠ ر ٣	٢ ر ٦	٢٧ سنة	٠ ر ٤	—	—
الصومال	٥ ر ٢	٢ ر ٦	٢٦ سنة	٧ ر ٦	٢٩٠	٧٢
السودان	٢١ ر ١	٣ ر ٠	٢٣ سنة	٣٣ ر ١	٤٤٠	٩٤
موريتانيا	١ ر ٨	٢ ر ٨	٢٥ سنة	٣ ر ٠	٤٣٠	١٠١
اليمن الجنوبي	٢ ر ١	٢ ر ٨	٢٥ سنة	٣ ر ٣	٤٧٠	٨٤
اليمن الشمالي	٥ ر ٩	٢ ر ٧	٢٦ سنة	٩ ر ١	٥٠٠	٨١
مصر	٤٧ ر ٠	٢ ر ٧	٢٦ سنة	٦٥ ر ٨	٦٩٠	٩٢
المغرب	٢٢ ر ٦	٢ ر ٩	٢٤ سنة	٣٢ ر ٣	٨٧٠	٨٩
تونس	٧ ر ٠	٢ ر ٦	٢٧ سنة	٩ ر ٦	١٣٩٠	٨٢
لبنان	٢ ر ٦	٢ ر ٢	٣١ سنة	٤ ر ١	—	١٢٤
سوريا	١٠ ر ١	٣ ر ٧	١٩ سنة	١٧ ر ٩	١٦٨٠	١٢٩
الأردن	٣ ر ٥	٣ ر ٧	١٩ سنة	٦ ر ١	١٦٩٠	١٠٧
قطاع غزة	٠ ر ٥	٣ ر ٦	١٩ سنة	١ ر ٠	—	—
الجزائر	٢١ ر ٤	٣ ر ٢	٢١ سنة	٣٦	٢٣٥٠	٨٢
العراق	١٥ ر ٠	٣ ر ٤	٢٠ سنة	٢٤ ر ١	—	١١٠
عمان	١ ر ٠	٣ ر ٦	١٩ سنة	١ ر ٩	٦٠٩٠	—
ليبيا	٣ ر ٧	٣ ر ٣	٢١ سنة	٦ ر ١	٨٥١٠	٨٤
السعودية	١٠ ر ٨	٣ ر ٠	٢٣ سنة	١٨ ر ٤	١٦٠٠٠	٣٤
قطر	٠ ر ٣	٣ ر ٥	٢٢ سنة	٠ ر ٤	٢١٨٨٠	—
البحرين	٠ ر ٤	٢ ر ٦	٢٧ سنة	٠ ر ٦	٩٢٨٠	—
الكويت	١ ر ٦	٣ ر ٢	٢٢ سنة	٢ ر ٩	١٩٨٧٠	—
الإمارات	١ ر ٥	٢ ر ٥	٣١ سنة	٢ ر ٣	٢٣٧٧٠	—

— 1984 World Production Data Sheet Population, Reference Bureau, Washington, 1984.

— The World Bank, "World Development Report 1985".

وبالنظر الى العمود الاخير من الجدول المذكور نرى بأن مؤشر انتاج الفرد من الغذاء قد انخفض في معظم الاقطار العربية ، مع انه كان من المفروض ان يرتفع ليتمشى مع الزيادة السكانية .

واذا اقترنت هذه الزيادة السكانية بارتفاع مستوى الدخل ـ كما حدث في الاقطار النفطية ـ فإن الطلب على الغذاء سيزداد مما يجعل الفجوة الغذائية تتسع ، ويتعرض واقع الامن الغذائي العربي لمزيد من الخطر .

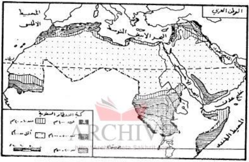
ومنذ النصف الثاني من هذا القرن شهدت الاوضاع الزراعية تدهورا ملحوظا . وقد شهد هذا التدهور مستوى خطرا في عقد السبعينات مما ادى الى تدني الانتاجية الزراعية على نحو ما شرحنا من قبل ، وتتعرض الزراعة لكثير من التحديات والمعوقات مثل تخلف الطرق والاساليب والتقنيات المستخدمة في العمليات الزراعية . ولا تزال الزراعة تمارس في معظم البلاد العربية بطرق بدائية ، ووسائل اولية . وفي الريف العربي ترتفع نسبة الامية ، وتختفي كثير من الخدمات والمرافق اللازمة لحياة السكان مما يجعل الفقر والجهل والمرض يتفشى في كثير من المناطق الزراعية في الوطن العربي ، وللنهوض بأحوال الريف العربي يتطلب الوضع كثيرا من الاستثمارات اللازمة لبناء الأطر والبنيات والهيكلية في المناطق الريفية كالطرق ووسائل النقل والاتصال والخدمات والمرافق الصحية والتعليمية . علاوة على استثمارات تلزم لتطوير الوسائل والتقنيات الزراعية ، وتدريب المزارعين على تطبيق احدث الطرق والوسائل ، والانفاق على المستلزمات الزراعية كالاسمدة ، والآلات الزراعية ، والى جانب هذه المعوقات البشرية هناك محددات طبيعية تتمثل في المناخ والتربة والمصادر المائية . فالاقطار العربية تقع على العموم في نطاق المناطق الحارة ، وشبه الحارة ، ومعظم اراضي الوطن العربي يقع ضمن المناطق الجافة وشبه الجافة ، حيث تغطي الصحاري نحو ٧٠٪ من المساحة ، وتقل كمية الامطار الساقطة عليها عن ٢٥٠ ملليمترا سنويا . وبصفة عامة فان نحو ٧٤٪ من اراضي الوطن العربي يقل فيها المعدل السنوي لسقوط الامطار عن ١٠٠ ملليمتر ، و١٠٪ تتراوح الامطار فيها ما بين ١٠٠ ـ ٢٥٠ ملليمترا ، ٥٪ يبلغ نصيبها من ٢٥٠ ـ ٤٠٠ ملليمتر . اما نسبة الاراضي التي تحظى بتساقط يتراوح ما بين ٤٠٠ ملليمتر فاكثر فلا تزيد عن ١١٪ ، وهي التي تسمح بقيام زراعة مطرية[١٤] .

ويبدو ان معظم تربات الوطن العربي من النوع الصحراوي الفقير ، وتشكو نقصا في النتروجين والفسفور ، ولذلك فانها في حاجة باستمرار الى الاسمدة النتروجينية والفسفورية . ومن اهم العوامل المحدودة والمعوقة للاستفادة من التربة في البلاد العربية انها رقيقة ولا يزيد سمكها عن ٩٠سم ، مما يجعلها غير قادرة على الاحتفاظ بالرطوبة الكافية لنمو المحاصيل على مدار السنة ، ولذلك تحتاج الى مداومة الري ، وهذا يتطلب استهلاك كميات كبيرة من الماء . وتتميز التربة في البلاد العربية بارتفاع نسبة محتوياتها من كربونات الكالسيوم والجبس والذي يكثر في اسفل التربة . وحينما تُروى التربة يتحلل الجبس ، ويتركز في بعض الامكنة مما يؤدي الى تكوين سطح غير متناسق يعرقل عمليات الري .

وعلى اية حال فان بالامكان استصلاح الأرض واعدادها للزراعة ، ولكن ذلك يتطلب رؤوس أموال وامكانيات يعجز عنها غالبية المزارعين في الوطن العربي ، ولذلك تظل التربة عاملا يحسب حسابه في أثناء الزراعة .

---

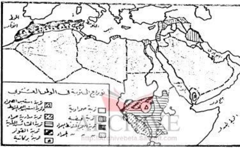
١٤ ـ صبحي القاسم ، نظرة تحليلية في مشكلة الغذاء في البلاد العربية ، مؤسسة عبدالحميد شومان ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص ١٧٦ .



شكل (١٠) كمية الأمطار الساقطة سنويا في الوطن العربي

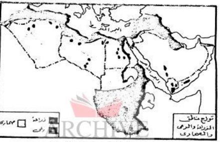
عن محمد علي الفرا ، مشكلة انتاج الغذاء في الوطن العربي ،

مرجع سابق



الشكل رقم (١١) التربة في الوطن العربي

عن محمد علي الفرا مرجع سابق ص ١٣٠



شكل رقم (١٩) استخدام الأراضي في الوطن العربي

عن محمد علي الفرا ، مرجع سابق ص ١٢٩

وبصرف النظر عن الامطار فان المصادر المائية تتمثل في المياه الجوفية ، ومياه الانهار والعيون ، وهي محدودة في الوطن العربي اذ لا تزيد كمية المياه التي يمكن استغلالها للزراعة حتى عام ٢٠٠٠ عن ٢٤٧٨٧٥ مليون متر مكعب (١٥) ولكن بالامكان تقنين استخدام هذه الكمية بتطبيق وسائل الري الحديثة مثل طريقة الري بالتنقيط التي توفر نحو٦٠٪ من الكمية المستخدمة بالطرق التقليدية . وتطبيق الطرق الحديثة يحتاج ايضا الى رؤوس الأموال .

والتصحر من اهم الاخطار التي تواجه الزراعة في الوقت الحاضر ، وتساهم في زيادة ازمة الغذاء ، وتعرض الأمن الغذائي للخطر . وقد اظهرت بعض الدراسات على ان حوالي ٣٥٧ ألف كم ، من الأراضي الزراعية والقابلة للزراعة في الوطن العربي ، اي لنحو ١٨٪ من مساحتها الكلية والبالغة حوالي ١,٩٨ مليون كم٢ اصبحت واقعة تحت تأثير التصحر (١٦) . والتصحر معناه زحف الصحراء وتقدمها نحو الأرض الزراعية ، وشيوع المظاهر الصحراوية في المناطق الزراعية ، ومن المعلوم بأن للتصحر أسبابا عديدة لعل منها ما يطرأ على المناخ من ذبذبات تؤدي الى قلة الامطار ، وجفاف النباتات ، وهبوب الرياح المحملة بالاتربة والغبار . ولكن العوامل البشرية هي المسئولة في المقام الأول عن التصحر ، وهي عديدة منها سوء استغلال الارض ، والرعي الجائر ، وقطع الاعشاب والاشجار والشجيرات ، وتطبيق الوسائل الزراعية غير المناسبة .

وكان من نتيجته تدهور الأوضاع الزراعية ، وتخلف الريف ، وانخفاض دخول العاملين في الزراعة ، وزيادة الهجرة من الارياف الى المدن . وبطبيعة الحال فان العناصر البشرية المهاجرة تتمثل في الفئات الشابة القادرة على العمل والعطاء والانتاج مما يرفع من نسبة كبار السن والافراد غير المنتجين ، ويزيد من معدلات الاعالة ، ويخفض من مستويات الانتاجية الزراعية . ولا تقتصر هذه المؤثرات السلبية على الريف الذي يخسر دوما افضل قواه البشرية المنتجة ، بل ينعكس ذلك على المدن حيث يزداد الضغط على مرافقها وخدماتها ، وتتولد بذلك الازدحامات والاختناقات المرورية ، وترتفع الكثافات السكنية ، وتنشأ الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والأمنية . وفوق هذا وذاك يزداد العجز في انتاج الغذاء ، لأنه كلما نمت المدن زادت الحاجة الى الطعام .

ولقد كان لتلك الهجرات البشرية المستمرة انعكاسات سلبية خطيرة فيها تباين مستويات الدخول بين المهاجرين والمقيمين ، وانتشار ظاهرة مدن الصفيح او العشيش على حواف المدن الكبرى ، والتي تشكل مراكز خطيرة على الامن والاستقرار ، وتبعث على توتر الاحوال ، علاوة على شيوع كثير من الظواهر والعادات السيئة بين سكانها .

ولو نظرنا الى الجدول رقم (١٧) والذي يبين السكان الحضر ونموهم في اقطار الوطن العربي لوجدنا بأن البلاد العربية شهدت في الفترة ما بين ١٩٦٥ ـ ١٩٨٣ أعلى نسبة تحضر في العالم ، وان نمو السكان الحضر بفضل الهجرة المستمرة من الريف الى المدن عالية جدا ، وقد ارتبط بذلك ظهور مدن كبرى في الوطن العربي . ويوجد في الوقت الحاضر ما لايقل عن ثماني عشرة مدينة في الوطن العربي يزيد عدد سكانها عن نصف مليون نسمة(١٧) .

---

١٥ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٠٠ .

١٦ ـ محمد الخش : « التصحر وتأثيره على الامن الغذائي » ، عالم الفكر ، المجلد السابع عشر ، العدد الثالث ـ اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٦ ، ص٥٩ .

١٧ ـ World Bank, op. cit., pp. 216-217.

جدول رقم (١٨) السكان الحضر ونسب نموهم في اقطار الوطن العربي

القطر	السكان الحضر: ٪ من مجموع السكان ١٩٦٥	٪ من مجموع السكان ١٩٨٣	معدل النمو السنوي ٪ ١٩٦٥ – ٧٣	معدل النمو السنوي ٪ ١٩٧٣ – ٨٣	النسبة المئوية لسكان الحضر: في المدن الكبرى ١٩٦٠	في المدن الكبرى ١٩٨٠	في المدن التي يزيد سكانها عن نصف مليون ١٩٦٠	في المدن التي يزيد سكانها عن نصف مليون ١٩٨٠	عدد المدن التي يزيد سكانها عن مليون نسمة ١٩٦٠	عدد المدن التي يزيد سكانها عن مليون نسمة ١٩٨٠
الصومال	٢٠	٣٣	٦ر٦	٥ر٥	..	٣٤	٠	٠	٠	٠
السودان	١٣	٢٠	٦ر٢	٥ر٥	٣٠	٣١	٠	٣١	٠	١
موريتانيا	٧	٢٥	١٦	٦ر١	..	٣٩	٠	٠	٠	٠
اليمن الجنوبي	٣٠	٣٣	٣ر١٢	٣ر٥	٦١	٤٩	٠	٠	٠	٠
اليمن الشمالي	٦	١٨	٩ر٢	٨ر٨	..	٢٥	٠	٠	٠	٠
مصر	٤١	٤٥	٣	٢ر٩	٣٨	٣٩	٥٣	٥٣	٢	٢
المغرب	٣٢	٤٣	٤	٤ر٦	١٦	٢٦	١٦	٥٠	١	٤
تونس	٤٠	٥٤	٤ر١	٣ر٧	٤٠	٣٠	٣٠	٣٠	١	١
لبنان	٥٠	٧٨	٦ر٢	١ر٦	٦٤	٧٩	٦٤	٧٩	١	١
الاردن	٤٧	٧٣	٤ر٧	٤ر٨	٣١	٣٧	٠	٣٧	٠	١
سوريا	٤٠	٤٨	٤ر٨	٤ر٦	٣٥	٣٣	٣٥	٥٥	١	٢
الجزائر	٣٨	٤٦	٢ر٥	٥ر٤	٢٧	١٢	٢٧	١٢	١	١
العراق	٥٠	٦٩	٥ر٧	٥ر٣	٣٥	٥٥	٣٥	٧٠	١	٢
عمان	٤	٢٥	١٠ر٥	١٢ر٦	..	..	..	..	..	..
ليبيا	٢٩	٦١	٨ر٩	٨ر١	٥٧	٦٤		٦٤		١
السعودية	٣٩	٧١	٨ر٤	٧ر٤	١٥	١٨		٣٣		٢
الكويت	٧٥	٩٢	٩ر٣	٧ر٨	٧٥	٣٠				
الامارات	٥٦	٧٩	١٦ر٧	١١ر٢	..	..	..	..	..	..

The World Bank, "World Development Report 1985", pp. 216-217.

الأمن الغذائي والعمل العربي المشترك :

الأمن الغذائي مسئولية قومية وعربية في المقام الأول لعدة أسباب منها ان جميع الاقطار العربية تشكو عجزا واضحا ومتناميا في انتاج الغذاء ضمن حدودها السياسية ، وان الاستثمارات المطلوبة للنهوض بالاوضاع الزراعية بصفة عامة ، ورفع طاقة الانتاج الغذائي بصفة خاصة تفوق قدرات الاقطار العربية ذات المقومات الزراعية ، علاوة على ان هذه الاقطار مثقلة بالديون الاجنبية وأعبائها .

وقد حظيت الزراعة بكثير من مشاريع التعاون على المستوى الاقليمي العربي منذ قيام جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥ وحتى الان . ونحن لا نود الخوض بالتفصيل في محاولات العرب للتعاون في المجالات الاقتصادية ، ولكن سنبرز بعض اوجه هذا التعاون واشكاله .

لقد قسم أحد الباحثين مراحل العمل الاقتصادي العربي الى ثلاث مراحل بحسب طبيعة الوسائل والأهداف[١٨] :

١ ـ المرحلة الأولى منذ نشأة الجامعة العربية ١٩٤٥ ـ ١٩٦٤ .
٢ ـ المرحلة الثانية منذ ١٩٦٤ ـ ١٩٨٠ .
٣ ـ المرحلة الثالثة منذ ١٩٨٠ ـ ١٩٨٧ .

ففي المرحلة الأولى نص ميثاق الجامعة العربية على ان من بين اغراض الجامعة التعاون في المجالات الاقتصادية . وفي عام ١٩٦٢ وقعت خمس دول عربية اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية . وفي المرحلة الثانية اصبح الهدف تحقيق التكامل الاقتصادي ، واقامة السوق العربية المشتركة والتي انشئت بالفعل في عام ١٩٦٤ . وفي عام ١٩٦٨ تم انشاء الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي . وفي عام ١٩٧٠ انشئت المنظمة العربية للتنمية الزراعية . وكان هذا بمثابة اول اعتراف بالمكانة التي تحتلها الزراعة في الاقتصاد العربي ، وضرورة العمل العربي المشترك للنهوض بالاوضاع الزراعية .

وتبدأ المرحلة الثالثة عقب انعقاد مؤتمر القمة العربي الحادي عشر في عمان عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية ، والذي تبنى فيها المؤتمر ميثاق العمل الاقتصادي القومي ، وثيقة عقد التنمية العربية ، وثيقة استراتيجية العمل الاقتصادي العربي .

وفي عام ١٩٨٠ تم اعداد برامج الامن الغذائي العربي من قبل المنظمة العربية للتنمية الزراعية والتي تضمنت اكثر من ١٥٠ مشروعا *تزيد كلفتها عن ٣٣ بليون دولار موزعة على ثلاثة عشر قطرا عربيا . وفي عام ١٩٨٣ انشأ* المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي فريق عمل مشتركا خاصا بالمشروعات العربية المشتركة في مجال الامن الغذائي ، كذلك انشأ المؤسسة العربية لضمان الاستثمار في الاقطار العربية[١٩] .

---

١٨ ـ عبد العظيم محمد مصطفى ، مرجع سابق ، ص ١٨ ـ ٢١ .
١٩ ـ خالد محسن علي ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

وعلى الرغم من برامج ومشاريع التعاون العربي في المجالات الاقتصادية سابقة الذكر ، وغيرها مما لم نأت على ذكرها لكثرتها ، الا ان المردود الفعلي لها دون المستوى بكثير ، وان سلبياتها اكثر من ايجابياتها بسبب طبيعة كل عمل عربي مشترك ، والذي يصطدم دوما بالنزاعات والخلافات العربية مما يجعل معظم الاتفاقات العربية حبرا على ورق .

الخلاصـــــة :

يشمل الوطن العربي مساحة كبيرة لا تقل عن ١٣,٥ مليون كيلو متر مربع ، أو مايوازي ١٠,٣٪ من مساحة يابس الكرة الارضية ، وتمتد اراضيه من مياه الخليج العربي شرقا ، وحتى شواطىء المحيط الاطلسي غربا ، وبذلك يضم نحو سبعين درجة طولية ، ويبلغ امتداده نحو سبعة الاف كليومتر . وتبدأ حدود الوطن العربي من تركيا شمالا حتى وسط افريقية جنوبا ، بحيث يشتمل على نحو ٤٠ درجة عرضية . وبذلك يتفوق الوطن العربي من حيث المساحة على قارة اوروبا بكاملها بل ومساحة الولايات المتحدة الامريكية .

وبفضل هذا الامتداد الواسع للوطن العربي تتنوع المظاهر التضاريسية ، وتتباين الانماط المناخية ، وتتعدد الموارد الطبيعية ، مما يشجع على قيام انشطة بشرية متنوعة ومتكاملة . ولكن على الرغم من هذه الامكانيات التي يتمتع بها الوطن العربي الا ان التخلف لا يزال السمة البارزة المميزة له . فالانسان العربي لم يستثمر الموارد الطبيعية بشكل يحقق الرفاهية لمجتمعه . وتسهم الخلافات والنزاعات العربية في تعطيل كل محاولات التعاون والتكامل الاقتصادي بين الاقطار العربية .

ونتيجة للاوضاع الاقتصادية والسياسة المتردية لاقطار الوطن العربي ، فقد برزت في العقدين الاخيرة مشاكل كثيرة اصبحت تهدد الامة العربية في حياتها وبقائها . وبعيدا عن السياسة ومشاكلها ، فان الأمن الغذائي يعتبر اخطر مشكلة يعاني منها الوطن العربي . ومن الناحية الاقتصادية يمكن القول بأن المشكلة تكمن في زيادة الفجوة بين العرض والطلب . فزيادة استهلاك الاقطار العربية للطعام يفوق نسب زيادة الانتاج داخل حدود الوطن العربي . وتقدر نسبة الزيادة في انتاج الغذاء بنحو ٢٪ سنويا ، بينما يزداد الطلب عليه بنحو ٥٪ ، مما يجعل الفجوة في حدود ٣٪ ، ونتيجة لنمو الفجوة الغذائية فان نصف حاجة الوطن العربي من الطعام اصبح يستورد من الخارج ، مما جعل المنطقة العربية اكبر منطقة في العالم مستورده للغذاء .

وتتصدر الحبوب الغذائية قائمة المستوردات الغذائية للبلاد العربية ، ويعتبر القمح اهم الحبوب الغذائية المستوردة ، حيث تبلغ نسبة الاكتفاء الذاتي منه في الوطن العربي في عام ١٩٨٤ نحو ٣٤٪ فقط ، وعلى اية حال فقد اصبحت البلاد العربية اليوم مستوردة لكل انواع السلع الغذائية .

وعلى الرغم من ان مشكلة الغذاء اقتصادية ، الا ان لها ابعادا اخرى كثيرة وبخاصة البعد الأمني والسياسي . ولذلك فالمسألة ليست بهذه البساطة ، ولايعبر عنها ـ كما يظن البعض ـ بالعجز الناجم عن تفوق الواردات على الصادرات . صحيح ان بعض الدول العربية يشكل عبء هذا العجز في انتاج الغذاء مشكلة اقتصادية له الا ان البعض يستطيع دفع ثمن مستورداته من الغذاء دون مشقه . ان المشكلة في المقام الأول مشكلة انتاج غذاء من مصادر محلية اكثر من كونها ازمة غذاء . وجوهر المشكلة يتلخص في ان الغذاء سلعه غير مرنة لا يمكن استبدالها او الاستغناء عنها ولو الى

حين . ولهذا السبب فان نقص الغذاء او ارتفاع اسعاره كفيل بتوليد الكثير من المشاكل الامنية كالفوضى والاضطرابات واختلال حبل الامن في البلاد . كما ان الاعتماد المتزايد على الخارج لتلبية حاجات الوطن العربي من الغذاء مسألة خطرة ، فكثيرا ما يستخدم الغذاء كسلاح تضغط به دول الفائض الغذائي ـ وهي دول كبرى ـ على الدول المستوردة لتذعن لرغباتها ، وتنفذ مخططاتها . ومما يؤكد هذا القول ان وكالة المخابرات المركزية الامريكية كلفت خبراءها وضع تقرير بناء على طلب من وزير الخارجية الاسبق « هنري كيسنجر » عشية انعقاد المؤتمر العالمي حول التغذية في مدينة روما عام ١٩٧٤ .

وقد جاء في التقرير مايلي :

« ان نقص الحبوب في العالم من شأنه ان يمنح الولايات المتحدة سلطة لم تكن تملكها من قبل . . انها سلطة تمكنها من ممارسة سيطرة اقتصادية وسياسية تفوق تلك التي تمارسها في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية »[٢٠] .

ومن اجل مواجهة هذا التحدي الخطير الذي يفرضه الامن الغذائي العربي ينبغي تعاون وتضافر كل الشعوب العربية لوضع استراتيجية غذائية موحدة تضع في اعتبارها النقاط التالية [٢١] :

١ ـ انتاج الغذاء مسئولية قومية .
٢ ـ تنمية الموارد المائية وصيانتها واستغلالها مسئولية عربية .
٣ ـ التعاون العربي في صناعة المستلزمات الزراعية .
٤ ـ التعاون العربي في بناء الأطر الهيكلية والبنيات التحتية .
٥ ـ الاصلاح الزراعي على المستوى العربي .
٦ ـ استثمار جزء من الايرادات النفطية في تنمية القطاع الزراعي وبخاصة فيما يتعلق بانتاج الغذاء .

ولكن الاهم من هذا كله يجب علينا ان نعمل لتصفية النفوس والنوايا وان نؤمن بالمصير الواحد ، وان العدو لا يفرق بيننا مهما حاولنا التمسك والدفاع ضمن حدودنا الاقليمية الضيقة . وليكن شعارنا « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

صدق الله العظيم

***

٢٠ ـ محمد علي الفرا ، « مشكلة انتاج الغذاء في الوطن العربي » مرجع سابق ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .
٢١ ـ محمد علي الفرا ، « نحو استراتيجية موحدة لمواجهة مشكلة الانتاج العربي من الغذاء » ، شؤون عربية ، الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، كانون الثاني / يناير ١٩٨٢ ، ص ٧١ ـ ٧٧ .

اقتصاديات الزراعة في الأقطار العربية وأثرها على توفير الغذاء

صديق عبد المجيد صالح *

ركزت معظم الدراسات الزراعية العربية في العقد الجاري على مسار مسألة الغذاء العربي . واتفقت هذه الدراسات على اتساع الفجوة الغذائية نتيجة لزيادة الاستهلاك بمعدلات تفوق نمو الإنتاج،الأمر الذي دفع الدول العربية إلى الاعتماد على استيراد الغذاء لسد تلك الفجوة ، ومن المتوقع أن ترفع القيمة النقدية للفجوة الغذائية في عام ١٩٩٠م إلى ٢٧ مليون دولار بزيادة ٦٠٪ عن قيمة الفجوة سنة ١٩٨٢م ، أي بمتوسط ٧,٥٪ سنوياً في تلك الفترة . إلا أن الرقعة القابلة للزراعة يستغل منها الآن أقل من ربع تلك الأراضي . كما لم تحقق البرامج القطرية الزراعية المنفردة التطور المتوقع في الإنتاج الغذائي الذي يمكن من تقليل الاعتماد على واردات الغذاء من خارج الوطن العربي .

وتهتم هذه الدراسة بسرد العوامل الاقتصادية التي يمكن أن تفسر ظاهرة الجمود وعدم التطور في إنتاج الغذاء في الوطن العربي مع إمكانية توظيف تلك الأدوات عملياً لزيادة وتطوير إنتاج الغذاء العربي .

وعليه يعرض الجزء الأول من الدراسة حجم المشكلة الغذائية والتطور المؤسس لتشخيص إطار المشكلة وتوجيه الوعي القومي لها . لتنتقل الدراسة بعد ذلك لقراءة موارد القطاع الزراعي في الوطن العربي . ثم تلخص الدراسة السياسات الاقتصادية المهمة التي يمكن أن تفسر المسألة الإنتاجية من هيكلية واقتصادية عامة ، وتقنية وعمالة وتمويلية واستثمارية وتسعيرية وتخزينية وتسويقية وتجارية تمهيداً لتوظيف اقتصاديات الزراعة ، ووسائلها المؤثرة في الإنتاج الغذائي وإمكانية التوسع الزراعي لتوفير المحاصيل الغذائية المهمة والإنتاج الحيواني . وتخلص الدراسة إلى برنامج عملي لتنسيق وتنفيذ السياسات الزراعية التي يمكن أن تقلل من التبعية الاقتصادية .

* الناظرة الاقتصادية بمعهد الكويت للأبحاث العلمية .

المسألة الغذائية

شهد عقد السبعينات زيادة في استهلاك الغذاء في العالم العربي بمتوسط ٥,٣٪ سنويا ، بينما نما الإنتاج الزراعي بأقل من نصف الاستهلاك (أي بمعدل ٢,٢٪ أي بفارق ٣,١٪ سنويا . أما بيانات مطلع الثمانينات فقد حدت بالدارسين والمهتمين بأمر الغذاء في العالم العربي إلى التحذير المعلن بأن الوضع الغذائي في الدول العربية أصابه التدهور الشديد ، نتيجة لزيادة الاستهلاك الغذائي بمعدلات لم يسبق لها نظير ، في حين اتسم الإنتاج الغذائي العربي بالجمود وعدم التطور[1] . كما قدرت بعض الدراسات[2] نمو الفجوة الغذائية حتى عام ١٩٨٤م بـ ٣,٥٪ سنويا . وهذا عبارة عن الفرق بين متوسط نمو الطلب على الغذاء بمعدل ٤,٦٪ سنويا ومتوسط نمو الإنتاج الزراعي المقدر بـ ٢,٥٪ في السنوات (١٩٧٥ ـ ١٩٨٤م) . وهذه الأرقام ربما عبرت عن سقف مشكلة الغذاء إذا أخذنا في الاعتبار كوارث الثمانينات مثل مجاعة (١٩٨٣ ـ ١٩٨٤م) في السودان والصومال . ويتفاءل بعض الدارسين بالانفراج في حدة هذه الأزمة منذ منتصف العقد الحالي نتيجة لتحسن الظروف البيئية وبخاصة الأمطار في موسمي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦م و (١٩٨٦م ـ ١٩٨٧م) في السودان . إلا أن أخبار المجاعة في مطلع العام الحالي ١٩٨٧م تفيد بأن ما يقارب الثلاثة ملايين من سكان الصومال مهددين بشبح المجاعة . وعليه تصبح حالة التبعية الغذائية كما هي في الوطن العربي . ويظهر ذلك جلياً في نسبة ارتفاع الواردات إلى الناتج المحلي الإجمالي حيث ارتفعت تلك النسبة من ٧٧٪ في عام ١٩٧٥م إلى ٨٦٪ في عام ١٩٨٠[3] وازداد هذا الوضع سوءا مع مطلع العقد الحالي حتى أصبحت الأقطار العربية كافة ، ما عدا السودان ، مستوردة صافية للمنتجات الزراعية بعد أن كانت خمس دول إضافية أخرى مصدرة للمنتجات الزراعية حتى أوائل العقد المنصرم ، هي مصر والمغرب والصومال وموريتانيا وسوريا[4] . وخطورة هذا الخلل المستمر في الميزان التجاري للمنتجات الزراعية قد يؤثر مباشرة على النمط الاستهلاكي البلدخي غير المدعم بالموارد الاقتصادية المطلوبة لمقابلة تلك السلع . وخير دليل على ذلك إعلان مصرف صقلية ـ بانكودي سيشيليا الايطالي حيث تصدرت الجمهورية العربية اليمنية والأردن قائمة أكثر بلدان العالم استهلاكاً فوق طاقاتها في عام ١٩٨٥م حتى بلغت نسبة الاستهلاك قياسا مع المورد ١٢١,٩٪ لليمن و ١١٥,٨٪ للأردن[5] وعليه تحققت مقولة أدبيات أزمة الغذاء في الوطن العربي حيث « أصبح العالم العربي أكثر مناطق العالم الرئيسة اعتمادا على مصادر الغذاء الأجنبية »[6] . ويجمع الباحثون على أن أزمة الغذاء في الوطن العربي وصلت إلى حد باتت تهدد أمن واستقرار المنطقة صحيا واقتصاديا وسلوكيا وسياسيا . وإذا استمر هذا الوضع لما عليه من اعتماد متزايد على الغذاء المستورد ، فإن مشكلة عصرية مهمة ولدت بعد

---

(١) دراسة المنظمة العربية للتنمية الزراعية حول « مسار اقتصاد الغذاء في الدول العربية » جامعة الدول العربية ، الخرطوم ١٩٨١م .

(٢) انظر مثلا د . خالد محسين علي « أزمة الغذاء والعمل الاقتصادي العربي المشترك » المعهد العربي للتخطيط بالكويت في الحلقة النقاشية العاشرة نوفمبر ١٩٨٦م ـ ابريل ١٩٨٧م .

(٣) انظر مثلا دراسة المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، السياسات الزراعية العربية :
التقرير الشامل ، الخرطوم ، نوفمبر ١٩٨٣ صفحة ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٤) لمتابعة الميزان التجاري للمنتجات الزراعية يمكن مراجعة دراسة د . خالد محسين علي ـ مرجع سابق ـ ١٩٨٧م .

(٥) احصائيات مصرف صقلية ـ بانكودي سيشيليا ـ الإيطالي الخميس ٧ مايو ١٩٨٧ م وما ورد في جريدة الوطن بالعدد رقم ٤٣٨٧ في ٨ مايو ١٩٨٧م بالصفحة التاسعة ، الكويت .

(٦) انظر مثلا منتدى الفكر العربي في سلسلة الحوارات العربية عن « الأمن الغذائي العربي » عمان في أغسطس ١٩٨٦ ودراسي المنظمة العربية و د . خالد محسين علي . مرجع سابق .

حادثة تشرنوبيل في السادس والعشرين من ابريل لعام ست وثمانين وتسعمائة وألف من الميلاد ، أدت إلى تلوث بعض المواد الغذائية المستوردة بالإشعاع الذري . وتحدثنا أجهزة الإعلام عن وصول بعض تلك المنتجات الزراعية الملوثة للأسواق العربية . وإذا تسربت تلك المواد للمستهلكين ربما تواجه الأقطار العربية آثارا سلبية تعيق برامج بناء رأس المال البشري ، كأهم عنصر في تنفيذ المشروعات التنموية المرغوبة لتنفيذ الأمن الغذائي .

وتقديرا لحجم مشكلة الغذاء وتوفيره في العالم العربي ، فقد أنشئت المنظمة العربية للتنمية الزراعية في عام ١٩٧٠م تبعها بستة أعوام توقيع معظم الدول العربية على اتفاقية إنشاء الهيئة العربية للاستثمار والإنماء الزراعي . ولتطوير الأبحاث الزراعية تم إنشاء المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والأراضي القاحلة .

ونتيجة للتدهور المستمر في المسألة الغذائية فقد اهتمت معظم مؤتمرات القمم العربية والمجالس الإقليمية بالأزمة الغذائية وقد أقر مؤتمر قمة عمان في عام ١٩٨٠م ميثاق العمل الاقتصادي العربي واستراتيجية العمل المشترك ، تبع ذلك إصدار اتفاقية التبادل التجاري العربي في فبراير ١٩٨١م . وقد انعقدت فيما بعد مؤتمرات وندوات مهمة اختصت فقط بمسألة الغذاء ، مثل انعقاد ندوة منتدى الفكر العربي حول الأمن الغذائي في الدول العربية والعالم الثالث في عمان في الفترة من ٨ - إلى ١٠ فبراير ١٩٨٦م . وكذلك اجتماع وزراء المال والزراعة العرب في عمان في سبتمبر سنة ١٩٨٦م والخاص ببحث الأمن الغذائي العربي .

ولما كان اهتمام جل هذه المؤتمرات بمسألة الغذاء في الوطن العربي ، فقد اتجهت معظم جهود الباحثين في هذا المضمار إلى دراسات الأمن الغذائي وبخاصة دراسات تقدير الفجوة الغذائية وتوقعاتها حتى نهاية هذا العقد . وقد أوصت تلك الدراسات إلى الحد من الفجوة الغذائية الخطيرة ، ورفع درجة الاكتفاء الذاتي والاعتماد على توفير الغذاء . ومن هذا السفر القصير المتجه صوب ضرورة توفير الغذاء في العالم العربي ، نكون قد حددنا إطار عجز موضوع دراستنا .

إلا أن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع الخطير من حجم أزمة الغذاء لا شك متعددة وأحياناً متشعبة ، وتجمع هذه الأسباب عادة ضمن الظروف البيئية أو العوامل الفنية أو السياسية ، أو الاجتماعية أو الاقتصادية . وإيفاء لصدر موضوع دراستنا فإننا سنهتم بموضوع اقتصاديات الزراعة في الوطن العربي ، والمسببات التي أدت إلى أزمة الغذاء حتى نتمكن من حصر وتقليب المسببات المؤثرة ، والتي يمكن أن تساعد عملياً في توفير الغذاء . أما إفرادنا للأسباب غير الاقتصادية ، فسيعتمد أساساً على مدى تداخل تلك الأسباب في اقتصاديات الزراعة ، وإلى أي درجة يمكن أن تساهم تلك الأسباب في توفير الغذاء . وبدءاً لا بد من طرح بعض معطيات وحقائق الموارد المساعدة للقطاع الزراعي في العالم العربي .

موارد القطاع الزراعي

تمثل أرض الوطن العربي عشر (١٠٪) الرقعة الأرضية في العالم ويقطن في تلك البقعة ما يقارب الـ ٣,٦٪ من إجمالي سكان الكرة الأرضية حسب تعداد ١٩٨٣م . وهناك ٥٣٪ من تلك النسبة ينضوون تحت سن العمل

جدول رقم (١)

القوى العاملة ونسبتها في الزراعة من (١٩٦٠ ـ ١٩٨٠)

الدولــــة	نسبة السكان في سن العمل (١٥ ـ ٦٤)		نسبة القوى العاملة في الزراعــة		متوسط النمو السنوي للقوى العاملة (٪)	
	١٩٦٠	١٩٨٠	١٩٦٠	١٩٨٠	٦٠ ـ ٧٠	٧٠ ـ ٨٠
الدول العربية ذات الدخل المنخفض :						
الصومــــال	٥٤	٥٤	٨٨	٨٢	١,٧	٢,٣
موريتانيــا	٥٣	٥٢	٩١	٨٥	٢,٢	٢,٣
الســـودان	٥٣	٥٣	٨٦	٧٢	٢,٢	٢,٣
الدول العربية ذات الدخل المتوسط :						
مصدرة للبترول :						
مستوردة للبترول :						
اليمن الشمـــالي	٥٤	٥٢	٨٣	٧٥	١,١	١,٤
مصـــر	٥٥	٥٧	٥٨	٥٠	١,٩	٢,٢
اليمـن الجنوبي	٥٢	٥١	٧٠	٤٥	١,٤	١,٣
المغــــرب	٥٣	٥١	٦٢	٥٢	١,٦	٢,٩
سوريــــا	٥٢	٤٨	٥٤	٣٣	٢,١	٢,٩
تونـــــس	٥٣	٥٥	٥٦	٣٤	٠,٧	٢,٩
الأردن	٥٢	٥١	٤٤	٢٠	٢,٨	٢,٩
لبنـــــان	٥٣	٥٥	٣٨	١١	٢,١	٣,٠
الجزائــــر	٥٢	٤٩	٦٧	٢٥	١	٣,٥
الدول العربية ذات رأس المال الفائض (مصدرة للبترول) :						
العــــراق	٥١	٥١	٥٣	٤٢	٢,٩	٢,٩
السعوديـــة	٥٤	٥٢	٧١	٦١	٣,١	٣,٥
ليبيـــــا	٥٣	٥١	٥٣	١٩	٣,٦	٣,٥
الكـــويـــت	٦٣	٥٢	١	٢	٧,٥	٤,١
الامــــارات	-	٥٣	-	-	-	-

المصدر : البنك الدولي ، تقرير عن التنمية في العالم ١٩٨٢م ، ملحق مؤشرات التنمية الدولية وملحق السياسات الزراعية العربية في التقرير الشامل للمنظمة العربية للتنمية الزراعية ، جامعة الدول العربية ، نوفمبر ١٩٨٣م ، الخرطوم .

ـ : معناها لا يتوفر هذا الرقـــم .

وقد قدرت دراسة مجلس الوحدة الاقتصادية العربية نسبة العاملين بالقطاع الزراعي حوالي ٥٣٪ من إجمالي القوى العاملة العربية حسب تعداد ١٩٨٣م[٧] . وهذه النسبة تفوق المتوسط العالمي للعمالة الزراعية المقدر بـ ٤٤٪ لنفس العام .

ويفصل الجدول رقم (١) توزيع القوة العاملة حسب أقطار الوطن العربي مقسمة إلى ثلاث مجموعات : دول ذات دخل منخفض (كالصومال وموريتانيا والسودان) ودخل متوسط ودخل عالٍ (كالعراق والسعودية وليبيا والكويت والامارات) ، حسب العرف المتبع في دراسات البنك الدولي والمنظمة العربية للتنمية الزراعية في العالم العربي . والمتتبع لتلك الأرقام يجد أن متوسط نسبة القوى العاملة في الزراعة في الدول العربية ذات الدخل المنخفض تفوق المتوسط العام بما يزيد عن ٧٧٪ بينما تقل حتى عن المتوسط العالمي للعمالة الزراعية بالنسبة لمجموعة الدول العربية ذات الدخل المتوسط والفائض في عام ١٩٨٠م . وربما أن نسبة العاملين في القطاع الزراعي تتفاوت بين البلدان العربية الأقل نمواً والدول النفطية الغنية ، إلا أن درجة تركز معظم السكان الزراعيين لا تتبع هذا النمط فمثلاً يتمركز ٢٤,٧٪ من السكان الزراعيين في الوطن العربي في مصر ثم ١٦,٦٪ في السودان و١٢,٢٪ في المغرب و١٠,٩٪ في الجزائر و٦,٤٪ في السعودية .

وتقدر مساحة الأراضي الزراعية في الوطن العربي بحوالي ٦٠,٣ مليون هكتار زرعت ما يقارب ٦٠٪ منها بالمحاصيل النباتية (حوالي ٣٥,٧ مليون هكتار) في عام ١٩٨٢م ، وتمثل الأراضي المروية ما يقارب الـ ٣٠٪ من رقعة المحاصيل النباتية أي ١٧,٤٪ من إجمالي الأراضي الزراعية العربية بما يقارب ٤,٢٪ من الأراضي المروية في العالم ونجد ٧٠٪ من تلك الأراضي المروية محصورة في أربعة أقطار عربية هي مصر وتحتوي على ٢٧,٩٪ من تلك المساحة ، والسودان ١٨,١٪ والعراق ١٧,٢٪ وسوريا ٥,٧٪ .

ويبين الجدول رقم (٢) المساحة المحصولية لأهم مجموعات نباتية في الوطن العربي في الفترة من ١٩٧٠ لغاية ١٩٨٠م . حيث نجد أن ٦٢,٦٪ من الرقعة المزروعة من المجاميع النباتية في الوطن العربي قد زرعت بالحبوب ، تليها الفاكهة حوالي ١١,٣٪ ثم البذور الزيتية ٧,٢٪ ، البقوليات ٣,٥٪ ، الألياف ٣,٢٪ ، الدرنات ٠,٨٪ ، السكريات ٠,٧٪ وبقية الـ ٤,٢٪ تمثل محاصيل أخرى غير مصنفة في التركيب المحصولي أعلاه .

وهناك أيضاً ـ أمطار موسمية : شتوية في المغرب وتونس والجزائر وليبيا ولبنان وجبال الحجاز ومنطقة العسير في السعودية ، وربيعية في سوريا والعراق ، وصيفية في اليمن الشمالي والجنوبي والصومال والسعودية ، وخريفية في السودان واليمن الشمالي والعراق والصومال وتلك الأمطار تساعد في الزراعة المطرية والمراعي .

وتحتوي مساحة المراعي على ٢٥٥ مليون هكتار تشكل ٢٣٪ من مساحة البر العربي أي ما يعادل ١٠٪ من مساحة الأراضي الرعوية في العالم[٨] . وتضم المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية معظم المراعي . وتستحوذ هذه المراعي

---

(٧) الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي ، والتقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ١٩٨٤ وأيضا دراسة الدكتور غانم الخالدي ، السياسات الزراعية في الوطن العربي وامكانات التنسيق والتكامل في قطاع الزراعة ، عمان ، ابريل ١٩٨٦م .

(٨) التقرير الاقتصادي العربي الموحد سنة ١٩٨٤م ، صفحة ٤٧ ، ودراسة الدكتور غانم الخالدي سنة ١٩٨٦م ، صفحة ٤ .

على ٣٪ من مجمل رؤوس الماشية في العالم ، أي ما يقارب ٣٧,٦ مليون رأس ، نصيب السودان وحده يفوق ٥١٪ أي حوالي ١٩,٣ مليون رأس ، الصومال ١٠,٦٪ أي ٤ مليون رأس ، مصر ٦,١٪ أي ما يعادل ٢,٣ مليون رأس ثم الجزائر ٣,٧٪ أي حوالي ١,٤ مليون رأس .

جدول رقم (٢)
جملة الرقعة المزروعة لأهم المجموعات المحصولية في الوطن العربي في الفترة (١٩٧٠ - ١٩٨٠)

(ألف هكتار)

المجموعات	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠
الحبوب	٢٠٨٢٠ر٠٨	٢٢٢٢٧ر١٧	٢٤٢٥٦ر١٧	٢٣٤٢٠ر٠٨	٢٢٢٧٩ر٧٥	٢٣٠٣٠ر١٦	٢١٠٩٨ر٧٨
الدرنيات	١٣٥ر٧٨	٢٧١ر٩٨	٢٩٠ر٧٤	٢٨١ر٣٧	٢٧٥ر٨٠	٢٩٩ر٧٣	٢٥٠ر٣٢
البقوليات	١٢٢٧ر٦٤	١٣٦٦ر٨٤	١٥٢٣ر١٩	١٣٢٦ر٤٥	١٣٦٥ر٥٠	١١٩٠ر٧٧	١٢٧٦ر٥٨
البذور الزيتية	١١٧٥ر٠٤	١٨٧٠ر٨١	٢٦٣٥ر٧٤	٢٥٢٩ر٢٥	٢٩٠٧ر١٧	٢٦٥٥ر٠٤	٢٥٨٧ر٢٢
الخضر	٩٧٠ر٠٦	١١٩٠ر٠٢	١٣٢٨ر٤٤	١٣٩٩ر٠٦	١١٦٩ر٦٦	١٤٨١ر٩٢	١٣٢٤ر٦٠
الألياف	١٥٧٢ر١٩	١٢٩٣ر٤٠	١٢٠٦ر٨٢	١٢٩٩ر٨٤	١٢٢٧ر٢٦	١١٧٦ر٤٧	١١٦١ر٨٠

المصدر : المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، جامعة الدول العربية ، الكتاب السنوي للإحصاءات الزراعية ، المجلد رقم (٢) ، سبتمبر ١٩٨٢م ، الخرطوم .

ويتفق الباحثون في أدبيات الاستثمارات العربية على أن الاستثمارات في قطاع الزراعة في الوطن العربي لم تنل العناية الكافية(٩) . وقد تدنت نسبة الاستثمارات في القطاع الزراعي للاستثمارات الكلية في التنمية العربية من ١١,٩٪ في الفترة من (١٩٧٠ - ١٩٨٠م) إلى متوسط ٩٪ في الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٥م ، رغم تداخل الرقمين وذلك لأن معظم استثمارات السبعينات قد نفذت في النصف الأول من ذلك العقد . وعليه يعزو بعض المحللين تدني معدل نمو القطاع الزراعي في الوطن العربي إلى النسبة المنخفضة من الاستثمارات في هذا القطاع .

وربما كان هذا سببا من مجمل الأسباب التي أدت إلى ضعف القطاع الزراعي وبالتالي عدم توفير الغذاء المطلوب في الأقطار العربية . إلا أننا نرى أن أداء القطاع الزراعي ، يرتبط بالسياسات الاقتصادية العامة في الدول العربية بالإضافة إلى بعض المؤشرات الاقتصادية والعوامل غير الاقتصادية المساعدة في تطوير هذا الأداء . وتعني بقية الدراسة بتحليل ومقارنة تلك السياسات .

(٩) أنظر مثلا د . محمد السماني ، الأمن الغذائي والتعاون العربي ودور الصناديق العربية في التنمية الزراعية ، مجلة المهندس العربي العدد الثالث ١٩٨٣م وه . عبد الصاحب علوان ، التخطيط الانمائي والأمن الغذائي في الوطن العربي في الأمن الغذائي العربي ، منتدى الفكر العربي ، ندوة عمان فبراير ١٩٨٦ م وه . غانم الخالدي ابريل ١٩٨٦م ، مرجع سابق .

السياسات الاقتصادية في القطاع الزراعي بالوطن العربي

نقصد بالسياسات الاقتصادية الموجهة للقطاع الزراعي مجمل القوانين والأدوات ذات الطابع الاقتصادي المتخصص لإنجاز أهداف معينة . وربما تكون هذه الأدوات السياسية مستقلة أو مرتبطة نسبيا بتلك الأهداف . والافتراض الضمني لهذا المعنى أن الأهداف المراد تحقيقها ، والأدوات الموظفة لإنجاز تلك الأهداف واضحة ، ومحددة ومعروفة لدى متخذي القرار والتنفيذيين معا . أما درجة وفعالية تلك الأدوات في الوصول إلى أي من الأهداف المطلوبة التي قد يتم تحليلها من وقت لآخر ، بدراسة أقرب المؤشرات والغايات الوسيطة ذات العلاقة الارتباطية بتلك الأدوات ومتابعة الخطوات الوسيطة لإنجاز الأهداف المحددة شرط ظرفي لدراسة تأثير تلك الوسائل في المدى القصير والمدى الطويل لتحقيق الأهداف المحددة[١٠] . وغالبا ما تحدد تلك الأهداف بمشاريع أو برامج اقتصاديات الزراعة الموظفة لتوفير الغذاء . وعليه سنستعرض السياسات في إطار مجموعة السياسات المتعلقة بالإنتاج والأخرى المساعدة والمتعلقة بالاستهلاك .

أولاً : السياسات المتعلقة بالإنتاج :

وتشمل هذه السياسات : ـ

١ ـ مشاريع هيكلية وبرامج اقتصادية زراعية .
٢ ـ سياسات تقنية لتحسين الإنتاج .
٣ ـ سياسة العمالة الزراعية .
٤ ـ سياسات تمويلية .
٥ ـ سياسات سعرية زراعية .
٦ ـ سياسة التخزين الزراعية .
٧ ـ سياسات تسويقية .
٨ ـ سياسات مساندة أخرى .

وسنفصل أهم النقاط والموضوعات الإنتاجية حسب السياسات المفردة أعلاه .

١ ـ البرامج الهيكليـــة :

مما لا شك فيه أن نمو وإنتاجية القطاع الزراعي يتأثر إيجاباً بالسياسات الخاصة بالبنية الأساسية للقطاعات المختلفة : الزراعي والصناعي والخدمي ، كما يتأثر بسياسة توفير عناصر الإنتاج وتكلفتها وسياسة توزيع الاستثمارات والسياسات السعرية .

---

(١٠) د . صديق عبد المجيد ، تحديد المؤشرات والغايات الوسيطة في التخطيط التنموي ، جامعتي الخرطوم وهامبرج ، مارس ١٩٨٥م .

وبما أن برامج البنية الأساسية تختلف من قطر لآخر في الدول العربية إلا أننا سنأخذ نسبة الاستثمارات الزراعية المستهدفة والمنفذة فعلاً كمؤشر لتنمية القطاع الزراعي . كما سنتابع معدلات نمو الإنتاج واستخدام الأراضي الزراعية كمعايير اقتصادية عامة .

من الملاحظات والسمات العامة في هذه الدراسة ذكرنا أن قطاع الزراعة في الوطن العربي لا ينال أولوية من الاستثمارات في برامج التنمية الاقتصادية . ولتأكيد هذه الملاحظة نجد أن نسبة الاستثمارات الزراعية من الاستثمارات الكلية تمثل فقط ٨,٤٪ كأقل نسبة بين القطاعات الأخرى في خطط التنمية خلال الفترة (١٩٧٦ - ١٩٨٠م)[١١] .

بينما تختلف نسبة الاستثمارات الزراعية بين قطر وآخر . حيث تتراوح نسبتها ما بين ٣٧٪ في اليمن الديمقراطية و ٢٦٪ في السودان و ١٨٪ في الأردن و ١٦٪ في تونس والمغرب و ١٤٪ في اليمن الشمالي وسوريا و ١٢٪ في ليبيا و ١٠٪ في مصر ، بينما تصل إلى ٨٪ فقط في السعودية . بينما تراوحت نسبة الاستثمارات الكلية إلى إجمالي الناتج المحلي بين ١٩,٥٪ في المغرب و ٢١٪ في اليمن الجنوبي و ٢٢٪ في السودان و ٢٥٪ في تونس و ٢٩٪ في سوريا و ٣٠٪ في مصر والسعودية و ٣٥٪ في الأردن الى ٤٧٪ في اليمن الشمالي و ٤٨٪ في الجزائر ، بمتوسط ٣٠,٧٪ في العالم العربي في الفترة من ١٩٧٣ إلى ١٩٨٠[١٢] . وإذا تمعنا في مصادر تمويل الاستثمارات في الدول العربية نجد تزايد الأهمية النسبية للتمويل الأجنبي حيث زاد عن ٥٠٪ من إجمالي الاستثمارات ، وبالأخص الدول العربية التي تعتمد أساساً على الزراعة حيث يشكل التمويل الأجنبي ما يقارب الـ ٦٠٪ من الاستثمارات الزراعية ، فالسودان مثلاً يحصل على ٦٦٪ من جملة استثماراته الزراعية من الخارج ، تليه جمهورية اليمن الديمقراطية حيث يشكل التمويل الأجنبي للزراعة ٥٥٪ والصومال ٥٢٪ أما الدول النفطية فهي تعتمد على مصادرها الذاتية كليا كما هو الحال في السعودية والجزائر وليبيا .

وحتى هذه الاستثمارات الزراعية الضئيلة تنخفض نسبة تنفيذها ، إذ لم يتعد نسبة التنفيذ الفعلي للاستثمارات الزراعية المستهدفة الـ ٦٨٪ في العالم العربي بشكل عام . وحتى هذه النسبة المتدنية تنخفض إلى ٥٠٪ في دولة تعتمد على الزراعة بصفة أساسية كالصومال وفي سوريا ٥٠,٩٪ فقط في الفترة من ١٩٧٠ وحتى ١٩٨٠[١٣] . وهذا الأداء دليل آخر على إهمال القطاع الزراعي في الوطن العربي . ومن الأسباب المرجحة لضعف وانخفاض معدل نسبة تنفيذ الاستثمارات الزراعية أن خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الدول العربية طموحة وتطمح بآمال غير موضوعية ، وعليه تشكل تلك الأهداف غير الواقعية أرضية وفرضيات غير مدروسة . أضف الى ذلك قلة الدراسات والخلفيات الضرورية لإعداد الخطة . ويساعد ضعف الأداء وشح الإمكانات الفنية والبشرية والمادية على تنفيذ ومراجعة الخطة . وقلما نجد قطراً يلتزم بمسار برنامج خطة التنمية فالتعديل الدوري وإهمال بعض المشاريع وضعف المتابعة أمثلة متكررة ، فالخطة الخمسية والسداسية المعدلة لثلاثية دورية في السودان منذ ١٩٧٠م مثال لذلك .

---

(١١) لمتابعة هذه النسب يمكن أن يرجع القارىء لكتاب المنظمة العربية للتنمية الزراعية حول « برنامج الأمن الغذائي العربي » الجزء الأول في استراتيجية وبرامج الأمن الغذائي العربي ، الخرطوم ١٩٨٠م ، صفحة ٨٦ . أو د . غانم الحافظي ، مصدر سابق لسنة ١٩٨٦م في صفحة ٣٧ .

(١٢) نفس المصدرين السابقين : أنظر صفحة ٨٥ في مرجع ١٩٨٠م وصفحة ٣٨ في مصدر ١٩٨٦م .

(١٣) نفس المصدرين السابقين : أنظر صفحة ٨٦ في مرجع ١٩٨٠م ، وصفحة ٣٩ في مصدر ١٩٨٦م .

جدول رقم (٣)

الاستثمارات الكلية والزراعية في خطط التنمية الاقتصادية للدول العربية بالمليون دولار في الفترة (١٩٨٠ - ١٩٨٥).

الدولة	فترة الخطة	الاستثمارات الكلية	الاستثمارات الزراعية	نسبة الزراعة الى الكلية: للدولة	نسبة الزراعة الى الكلية: للدول العربية
الجزائر	١٩٨٠–١٩٨٤	١٠٤٢٩١	١٢٢٧٤	١١ر٧٦	١٦ر١٥
العراق	١٩٨١–١٩٨٥	١٢٥٤٤٨	٢٢٧٠	١ر٧٥	٣ر٧٠
الامارات	١٩٨١–١٩٨٥	–	–	–	–
السعودية	١٩٨٠–١٩٨٥	٢١٠٩٦٠	١١٦٦٩	١٠ر٢٧	٢٢ر٨٠
قطر	–	–	–	–	–
الكويت	١٩٨١–١٩٨٦	٢٨٨٤٠	٢١١	٠ر٧٣	٠ر٣٣
ليبيا	١٩٨١–١٩٨٥	٥٧٠٦٢	٨١٤١	١٤ر٢٧	١٢ر٧٠
الأردن	١٩٨١–١٩٨٥	١٠١٦٦	٧١٩	٧ر١١	١ر١٢
البحرين	١٩٨٢–١٩٨٥	٣٠٢٩	٩٣	٣ر٠٧	٠ر١٥
تونس	١٩٨٢–١٩٨٦	١٦٠٠٠	٢١٧٠	١٣ر٥٦	٣ر٣٩
سوريا	١٩٨١–١٩٨٥	٢٥٨٥٨	٤٣٨٢	١٦ر٩٥	٦ر٨٤
عمان	١٩٨١–١٩٨٥	٩٦١١	٢٨٦	٤ر٠١	٠ر٦٠
لبنان	١٩٧٨–١٩٨٢	٣٣٨٤	–	–	–
مصر	١٩٨٠–١٩٨٤	٢٨٥٧٦	٥١٤٣	١٨ر٠٠	٨ر٠٢
المغرب	١٩٨١–١٩٨٥	٢١٤٤٣	٢٧٩٦	١٧ر٧٠	٥ر٩٢
جيبوتي	١٩٨٢–١٩٨٤	٢٩٥	١٥	٥ر٠٨	٠ر٠٢
السودان	١٩٨٠–١٩٨٣	٢٦٨٥	٦٥٥	٢٤ر٣١	١ر٠٢
الصومال	١٩٨٢–١٩٨٦	١١٩١	٢٩٧	٢٣ر٣٣	٠ر٦٢
موريتانيا	١٩٨١–١٩٨٥	١٥٨٩	٤٤٠	٢٧ر٦٩	٠ر٦٩
اليمن الشمالي	١٩٨٢–١٩٨٦	٦٢٤٤	٩٨٤	١٥ر٧٦	١ر٥٤
اليمن الجنوبي	١٩٨١–١٩٨٥	١٤٧١	٢٥٣	١٧ر٢٠	٠ر٣٩
اجمالي	١٩٨٠–١٩٨٥	٦٦٨٢٠٠	٦٤٠٩٨	٩ر٥٩	١٠٠

المصادر: الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي، التقرير الاقتصادي العربي الموحد، ١٩٨٢، صفحة ٢٢٦.
المنظمة العربية للتنمية الزراعية، مصدر سابق سنة ١٩٨٣م، صفحة ١٤٦. د. غانم الخالدي، مصدر سابق سنة ١٩٨٦م، صفحة ٢٩.

وعمليا يهمل مبدأ الميزة المقارنة في توجيه الاستثمارات للموارد . فالجدول رقم (٣) يبين الاستثمارات المستهدفة في خطط التنمية الاقتصادية للدول العربية في الفترة من ١٩٨٠ م - الى ١٩٨٥ م . بما أن الاستثمارات الزراعية ما زالت ضئيلة ولم تصل الى ١٠٪ بعد من اجمالي الاستثمارات ، الا أن عدم الكفاءة في تلك الاستثمارات تتضح جليا من العمود الأخير في ذلك الجدول حيث نجد الاستثمارات الزراعية توجه الى الدول التي لا تتوفر فيها الموارد الطبيعية للزراعة ، بينما نجد نسبا ضئيلة جدا للاستثمارات الزراعية في دول تتوفر فيها نسبيا الموارد الطبيعية للزراعة كاليمن الجنوبي والصومال وموريتانيا ، حيث تبلغ النسبة لكل بلد أقل من ١٪ . وحتى الأقطار الغنية بالموارد الطبيعية كالسودان والعراق تبلغ نسبة الاستثمارات الزراعية فيها ١,٠٢٪ و ٣,٧٪ على التوالي ، وتعد تلك النسب ضئيلة ومتدنية مقارنة بالموارد الطبيعية . وهذا أيضا دليل على تواضع التنمية الزراعية في الوطن العربي .

فالموارد الطبيعية الزراعية تشمل الأراضي الصالحة للزراعة والمياه : الأنهار والأمطار والمجاري . والمساحة الجغرافية الكلية للدول العربية ١٣٩٦ مليون هكتار . وأكبر مساحة في الدول العربية هي السودان والجزائر والسعودية وليبيا .

تمثل الرقعة القابلة للزراعة من المساحة الجغرافية للوطن العربي ١٤,٢٪ وتزرع حوالي ٢٣٪ من تلك المساحة القابلة للزراعة حسب إحصاءات ١٩٨٠ م . [14] ويعد السودان والجزائر والعراق والمغرب أكبر الأقطار العربية من حيث مساحة الرقعة الزراعية . والرقعة الزراعية تشمل أراضي مطرية ومروية وبور (متروكة) . وتبلغ رقعة الأراضي المطرية ٧٩٪ من جملة المساحة المزروعة . وتبلغ رقعة الأراضي المروية ٢١٪ من جملة المساحة المزروعة ، بينما تبلغ الأراضي البور حوالي ٧٠٪ من الرقعة القابلة للزراعة في الوطن العربي . ففي السودان نجد أن نسبة الأرض المتروكة تزيد عن الـ ٩٠٪ من الأرض القابلة للزراعة بينما هي ٢٢,٤٪ في تونس .

وتبلغ مساحة المراعي ١٨,٣٪ من المساحة الجغرافية الكلية وأكبر الدول من حيث مساحة المراعي :- السعودية وموريتانيا والجزائر والصومال والسودان . ومعظم مراعي الدول العربية تقع في المناطق الصحراوية التي تقل فيها الأمطار عن ١٠٠ مم سنويا . وتجد المراعي الصحراوية في الجزائر والسعودية بينما نجد المراعي الطبيعية الجيدة في مناطق السافانا في الصومال والسودان .

أما مساحة الغابات فتمثل حوالي ٩,٦٪ من المساحة الجغرافية الكلية . وأكبر الأقطار العربية من حيث مساحة الغابات هي السودان وموريتانيا والصومال والمغرب والجزائر . وتغيب تماما سياسة تنمية وحفظ الغابات في الوطن العربي .

ويتضح من العرض الاحصائي للموارد العربية الزراعية اعتماد الزراعة والمراعي على الأمطار . فالصومال وتونس وموريتانيا والجزائر والأردن وسوريا تزيد نسبة مساحة الزراعات المطرية فيها عن ٩٠٪ ، بيد ان أهم الدول العربية من حيث مساحة الأراضي المطرية هي الجزائر والسودان وسوريا وتونس والمغرب ، الأمر الذي يجعل الانتاج

(١٤) أنظر مثلا دراسة المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، برامج الأمن الغذائي العربي ، الجزء الثاني ، الموارد الطبيعية ، والتقرير الشامل لسنة ١٩٨٣م .

جدول رقم (٤)
معدلات نمو الناتج المحلي الاجمالي والزراعي
في الدول العربية في الفترة (١٩٧٠ - ١٩٨٠)

(الناتج المحلي بملايين الدولارات)

الدولة	الناتج المحلي الاجمالي			الناتج الزراعي				
	١٩٧٠	١٩٨٠	معدل النمو	١٩٧٠	٪	١٩٨٠	٪	معدل النمو
الصومال	٧٨٢	١١٣٠	٣ر٤	٤٨٦	٦٢	٦٧٨	٦٠	٣
موريتانيا	٤٠٠	٤٩٠	١ر٧	١٤٤	٣٦	١٤٧	٢٦	-١ر١
السودان	٥٢٣٠	٧١٩٠	٤ر٤	٢٢٨٤	٤٤	٢٧٣٢	٣٨	٢ر٦
اليمن الشمالي	١٤٠٨	٢٦١٠	٩ر٢	٦٢٦	٤٤	٧٥٧	٢٦	٣ر٧
مصر	٨٨١٩	٢٢٩٧٠	٧ر٤	٣٤٤٤	٣٦	٥٢٨٣	٢٣	٢ر٧
اليمن الجنوبي	—	٥٤٠	—	—	—	٧٠	١٣	—
المغرب	٨٧٧٤	١٧٩٤٠	٦ر٥	٢٩١٩	٣٣	٣٢٢٩	١٨	٨ر٠
سوريا	٤١٩٤	١١٩٠٠	١٠ر٠	٨٣٤	٢٠	٢٥٨٠	٢٠	٢ر٨
تونس	٣١٤٠	٧٣٠٠	٧ر٥	٦٢٠	٢٠	١٣٤١	١٧	٤ر٩
الاردن	—	٣١٩٠	—	—	—	١٢٥	٨	—
الجزائر	١٧٩٤٧	٣٢٧٩٣	٧	١٩٧٨	١١	٣١٩٢	٦	٢ر١
العراق	١٢٥٠٣	٣٥٨١٠	١٢ر١	٢٨٨٥	٢٣	٢٥٠٧	٧	-٤ر١
السعودية	٢٨٧١٨	١١٥٤٣٠	١٠ر٦	٥٢	٠ر٢	١١٥٤	١	٢ر٥
ليبيا	٢٠٧٤١	٣٢٠٩٠	٤ر٢	١٨٠	٠ر٩	٦٤٢	٢	١١ر١
الكويت	١٩٤٩٦	٢٧٢٩٠	٢ر٥	—	—	—	—	٧ر٤
الإمارات	—	٣٠٠٢٠	—	—	—	٣٠٠	١	—
اجمالي	١٣٢١٥٤	٣٤٩٦٩٣	١٠ر٢	١٦٢٣١	١٢ر٣	٢٣٦٦٧	٦ر٨	٣ر٨

المصادر : البنك الدولي ، تقرير التنمية العالمية ١٩٨٢ م

المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، مرجع سابق ، نوفمبر ١٩٨٣ م ، صفحة ٤٦ ، ٤٧ .

الزراعي العربي معرضا وبصورة مباشرة الى معدل سقوط الأمطار ، وعليه تزداد المخاطر في تقدير توقعات الانتاج وتخطيط السياسات ورسم الخطط للتنمية الزراعية في المدى الطويل . وعليه تصبح سياسات رفع الانتاجية أو تبديل التركيب المحصولي وتنوعه في الخطط الزراعية لا يقيني ، ويعتمد بصورة مباشرة على مدى معرفة صحة التوقعات بمعدلات سقوط الأمطار . الا أن ذلك لا يقلل من أهمية استقراء ومتابعة المعلومات التاريخية عن الانتاجية الزراعية للهكتار وللفرد وتحليل معدلات نمو الانتاج الزراعي فهذه المعلومات ضرورية لقياس وتخطيط أداء القطاع الزراعي .

ونتبع الأسلوب المعروف في أدبيات الاقتصاد الزراعي لقياس أداء القطاع الزراعي . فالمعايير الأساسية لتحليل أداء معدلات نمو الانتاج الزراعي ومتوسط دخل القطاع الزراعي عادة تشمل مساهمة القطاع الزراعي في الناتج المحلي الاجمالي ومعايير الانتاجية والقيمة المضافة ومعدلات نمو الانتاج الزراعي،ومتوسط دخل الزراعيين ومعايير استقرار الانتاج والتصدير . وسنلخص هنا بعض تلك المؤشرات كما ورد في دراسات أخرى متخصصة في هذا المجال .(١٥)

الجدول رقم (٤) يلخص معدلات نمو الناتج المحلي الاجمالي والزراعي للأقطار العربية في الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٨٠ م . ومن هذا الجدول يتضح الدور الهامشي للقطاع الزراعي من حيث مساهمته في الناتج المحلي الاجمالي باستثناء الصومال والسودان ، إذ تبلغ مساهمة القطاع الزراعي في الناتج المحلي الاجمالي ٦٠٪ في الصومال و ٣٨٪ في السودان .

ويلخص العمود الأخير من الجدول رقم (٤) اتجاهات نمو القطاع الزراعي البالغة فقط ٣,٨٪ كمتوسط لتلك الدول في الفترة (١٩٧٠ - ١٩٨٠ م) ويختلف معدل النمو في نفس الفترة من قطر لآخر حيث تبلغ أعلى نسبة في ليبيا حوالي ١١,١٪ ثم سوريا ٨,٢٪ ثم الكويت ٧,٤٪ وسالبة في العراق حوالي - ٤,١٪ وموريتانيا - ١,١٪ .

وربما لهذا السبب ينخفض دخل السكان الزراعيين مقارنا بمتوسط الدخل العام للسكان في الوطن العربي . يوضح الجدول رقم (٥) أن متوسط دخل السكان الزراعيين في سنة ١٩٨٠ م حوالي ١٢٪ فقط من دخل السكان العام . وفي دراسة جامعة أخرى نجد أن متوسط دخل العامل الزراعي منسوبا لمتوسط نصيب الفرد من القوى العاملة في الوطن العربي يعادل ١٣٪ فقط . (١٦) وهذا يعني أن نصيب الفرد من السكان الزراعيين بالنسبة للناتج المحلي الاجمالي أقل بكثير من نصيب الفرد من العاملين بالقطاعات غير الزراعية . ولهذا المؤشر دلالة سياسية مهمة بالنسبة لتوزيع الدخول . فالفروق الدخيلة الواضحة بين السكان الزراعيين وغيرهم سيؤدي الى تقوية عوامل الطرد من القطاع الزراعي ، لانخفاض متوسط دخل العامل الزراعي ، وبالتالي يستمر التدهور في نمو القطاع الزراعي اقتصاديا ، مما ينعكس سلبا على النمو الاقتصادي العام في معظم الدول العربية . وبما أن السكان الزراعيين وبخاصة المزارعون يقل نصيبهم من العائد الزراعي المنتج وبخاصة في الدول الزراعية . ومعنى ذلك أن العبء الضريبي على السكان الزراعيين في تلك الدول يفوق بقية السكان . ونقرأ من نفس الجدول رقم (٥) أن متوسط نصيب الفرد من

---

(١٥) انظر مثلا دراسة المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، مصدر سابق سنة ١٩٨٣م . صفحة ٩٤ - ١١٩ . الدكتور بكار توزاني « مساهمة في دراسة الاكتفاء الغذائي في العالم العربي » في الأمن الغذائي العربي ، عمان فبراير ١٩٨٦م . د . غانم الخالدي ، مصدر سابق ابريل سنة ١٩٨٦م .

(١٦) المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، الكتاب السنوي للاحصاءات الزراعية ، المجلد الثالث ، ١٩٨٣م . والتقرير الشامل للمنظمة العربية للتنمية الزراعية ، مصدر سابق ، نوفمبر ١٩٨٣ ، صفحة ٩٧ .

جدول رقم (٥)

متوسط دخل السكان الزراعيين لمتوسط الدخل العام في الدول العربية في عام ١٩٨٠

(١) القطر	(٢) متوسط نصيب الفرد من السكان بالدولار	(٣) متوسط نصيب الفرد من السكان الزراعيين بالدولار	(٤) متوسط دخل الزراعي منسوبا للمتوسط العام
الصومال	٢٢٢	١٦٧ر٩	٧٥ر٦٪
موريتانيا	٣٠٠	٩٤ر٢	٣١ر٤٪
السودان	٤٠٣	٢٠٠ر٠	٤٩ر٦٪
اليمن الشمالي	٤٤٠	١٦٦ر٤	٣٧ر٨٪
مصر	٥٤٣	٢٢٣ر٩	٤١ر٢٪
اليمن الجنوبي	٢٨٤	٥٥ر١	١٩ر٤٪
المغرب	٨٩٠	٢٧٨ر٢	٣١ر١٪
سوريا	١٤٣٧	٥٣٨ر٦	٣٧ر٥٪
تونس	١١٤٦	٤٠٢ر٧	٣٥ر٦٪
الاردن	٩٨١	٢٠٩ر٦	٢١ر٤٪
الجزائر	٢١٥٢	٢٣٤ر٥	١٠ر٩٪
العراق	٢٧٠٥	٥٦٢ر٧	٢٠ر٨٪
السعودية	١٣٧٩٦	٢٢٩ر٣	١ر٧٪
ليبيا	٩٨٨٦	١٣٧٥ر٣	١٣ر٦٪
الكويت	٢٠٠٩٦	—	—
الإمارات	٢٨٧٨٢	١٥٠١ر٠	٥ر٢٪
المتوسط *	٢٢١٤	٢٦٧	١٢ر١٪

* بالنسبة للدول الواردة بالجدول فقط حيث يبلغ اجمالي الناتج المحلي والاجمالي نحو ٣٥٥,٧٧ بليون دولار والناتج المحلي الاجمالي الزراعي ٢٣,٨٧ بليون دولار في حين بلغ اجمالي عدد السكان ١٦٠,٧٢٥ مليون نسمة والسكان الزراعيون نحو ٨٩,٣٨٧ مليون نسمة .

المصدر : المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، مصدر سابق نوفمبر ١٩٨٣ م ، صفحة ٩٥ .

جدول رقم (٦)

متوسط الناتج المحلي الاجمالي الزراعي للهكتار من الأراضي الزراعية في الدول العربية في عام ١٩٨٠

القطر	متوسط نصيب الهكتار بالدولار
الصومال	٦٢٦ر٠
موريتانيا	٦٥٢ر٣
السودان	٢٦٥ر٣
اليمن الشمالي	٤٩٩ر٦
مصر	٢١٦٤ر٤
اليمن الجنوبي	١٣٧٦ر٥
المغرب	٦٢٤ر١
سوريا	٤٥٢ر٩
تونس	٢٦٢ر٩
الاردن	٤٣٨ر٠
الجزائر	٣١٨ر٥
العراق	٤٣٥ر٩
السعودية	١٠٤٤ر٦
ليبيا	٢٥٠ر٢
الإمارات	١٢٠٥٢ر٢
المتوسط	٥٢٧

المصدر : المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، مرجع سابق ، نوفمبر ١٩٨٣ م ، صفحة ٩٩ .

السكان الزراعيين حوالي ٢٦٧ دولارا في عام ١٩٨٠ م أي حوالي ٥٠٪ فقط من متوسط انتاجية الهكتار من الأراضي المزروعة في عام ١٩٨٠ م في الوطن العربي كما يتضح من الجدول رقم (٦) . وتقل انتاجية الهكتار في معظم الدول العربية عن هذا المتوسط كما يتضح من نفس الجدول رقم (٦) . بينما تزيد انتاجية الهكتار عن المتوسط العام (٥٢٧ دولارا) في سبعة أقطار فقط هي : مصر ، اليمن الجنوبي ، الامارات ، السعودية ، موريتانيا ، الصومال والمغرب .

ويعكس هذا المؤشر اختلاف متوسط انتاجية الهكتار في حالة الزراعة الكثيفة من الزراعة الخفيفة . فكما هو متوقع فان انتاجية الهكتار في الحالة الأولى أعلى من الحالة الثانية . ويعزى ذلك الى سياسة استخدام الأراضي الزراعية بين الأقطار العربية وسنستعرض سياسة تكثيف عناصر الانتاج في الباب التالي .

٢ ـ سياسات تقنية لتحسين الانتاج

لقد ناقشنا في الباب السابق العوامل الطبيعية والبيئية والاقتصادية في الدول العربية . وهذه العوامل تمثل المعطيات الأساسية التي تحدد نوعية التكنولوجيا الزراعية المقبولة لضمان تحسين إنتاجية الأرض وعوامل الانتاج الزراعي الأخرى ، ولا بد من دراسة وإخضاع التقنيات المتعددة في مراكز البحوث العلمية الزراعية قبل تعميمها حقليا .

وتمتاز الأقطار العربية بضعف القدرات العلمية والمالية والمؤسسية اللازمة لتقوية ورفع كفاءة مراكز البحوث العلمية الزراعية . وتدل الدراسات التطبيقية العالمية على الأثر الايجابي للبحوث والدراسات العلمية في رفع الانتاجية وتطور النمو الزراعي . وهذا ـ أيضا ـ عامل مهم آخر ربما يفسر أسباب تخلف القطاع الزراعي القطري في البلدان العربية . ولهذا السبب وحده نجد أن معظم الزراعيين يتفقون في أن الأقطار العربية مازالت تتبع أنماطا زراعية غير مدروسة في أغلب الأحيان بالاضافة الى الممارسات السلبية في تقنية الزراعة المتبعة حقليا وبخاصة الموارد المائية . ويظهر اثر ذلك جليا في ملوحة التربة والمياه الجوفية ونضوب المياه وانجراف التربة واضمحلال الغابات الطبيعية وانقراض الثروة الحيوانية . ولا يغيب عن الذهن مشكلة الزحف الصحراوي المتفاقمة منذ مطلع الثمانينات وبخاصة في السودان والصومال .

ومن أهم مستلزمات الانتاج التي يوجد قصور كمي ونوعي في استخدامها في الانتاج الزراعي الأسمدة الكيميائية والآلات الزراعية والمبيدات والتقاوي المنتقاة والسلالات والأعلاف المركزة .

فباستثناء مصر ولبنان نجد أن الدول العربية فقيرة في استخدامها للأسمدة الكيميائية كوسيلة لتطوير انتاجية الأرض . ويعد ارتفاع تكاليف الأسمدة ونقلها وترحيلها وتخزينها ـ بالاضافة الى انخفاض وعي المزارعين في استخدام الأسمدة ، وقصور أجهزة البحث لمعدلات استخدام التقنية المطلوبة من الأسمدة ـ العوامل الرئيسة لتفسير تلك الظاهرة .

وفي مجال الميكنة الزراعية نجد أن معدل الكثافة الآلية من الجرارات تقدر في المتوسط بحوالي ثلاثة جرارات لكل ألف هكتار من الرقعة الزراعية في الوطن العربي[١٧] . وتعد هذه الكثافة الآلية محدودة جدا لمعظم الدول التي تعتمد على

(١٧) الأرقام محسوبة من منظمة الأغذية والزراعة والمنظمة العربية للتنمية الزراعية ، مصدر سابق ، عام ١٩٨٣م ، جدول (٥٣) صفحة ١٤٧ .

القطاع الزراعي مثل السودان والمغرب وسوريا . ومن الأسباب التي أدت الى محدودية استخدام الآلات الزراعية : عدم قدرة المزارعين على اقتناء تلك الآليات ، عدم توفر قطع الغيار وغلاء الصيانة ،وضعف البنية الأساسية ،ونقص الكوادر الفنية ،وعدم استواء سطح التربة وصغر الحيازات الزراعية وتبعثرها .

ولما لم تتوفر القدرات والامكانات الفنية والمالية لمراكز البحث فقد قل استخدام السلالات الملائمة عالية الانتاجية كما ندر وجود الأصناف المقاومة للأمراض والملائمة للظروف البيئية في الوطن العربي عموما أو حتى قطريا .

تكاد تنعدم الصناعات الزراعية التحويلية كمصانع الألبان والخضراوات والفاكهة في بعض الدول العربية ، وضعف هذه الصناعات سيضعف القطاع الزراعي ويقلل من فرص تطويره من تقليدي الى قطاع انتاجي حديث . ومن مسببات ضعف هذه الصناعات نقص المواد الأولية والخامات الصناعية الأساسية ، وضعف البحث في مجال التصنيع الزراعي ، ونقص الأيدي العاملة الفنية والعادية ، وارتفاع تكلفة الانتاج مع تدني مستوى الجودة مما يضعف ميزتها التنافسية ، بالاضافة الى التخلف الصناعي العام الذي يمثل معظم الوحدات الانتاجية للصناعات الزراعية في الدول العربية .

وهنالك أيضا - ارتفاع نسبي في معدل كثافة عنصر العمل في الزراعة في بعض الدول العربية الزراعية مثل موريتانيا ومصر واليمن الجنوبي والشمالي والصومال والسودان . وتجد في هذه الدول - أيضا - ارتفاع نسبة عدد العمال للجرار الواحد . والعامل الأخير يفسر لنا جزئيا انخفاض انتاجية العامل الزراعي في تلك الدول مقارنا ببقية الدول العربية .

الا أن مسألة انخفاض انتاجية العامل الزراعي تفسرها اجمالا سياسة العمالة الزراعية والتي ستناقش في الباب أدناه .

٣ - سياسة العمالة الزراعية

تؤثر سياسة العمالة الزراعية على نسبة ٥٣٪ من اجمالي القوى العاملة في الوطن العربي حسب احصاءات عام ١٩٨٣ م . وقد بلغ معدل نمو العمالة الزراعية في الوطن العربي ٠٢ ,٪ فقط بينما انخفضت نسبة العمال الزراعيين للعمالة الكلية من ٥٨٪ في عام ١٩٧٠ م الى ٥٣٪ في عام ١٩٨٣ م . ويعزى هذا الانخفاض الى أسباب عدة من أهمها غياب سياسات واضحة للعمالة الزراعية في الوطن العربي ، والهجرة المتزايدة قطريا من الريف الى الحضر وقوميا من دول ذات أجور متدنية (دول طرد العمالة الزراعية) الى دول جذب العمالة وذات أجور عالية ، وكذلك النقص في الكوادر الفنية المتخصصة ، وانخفاض الخبرات والمهارات الزراعية ، وتدني معدل الوعي لدى معظم المزارعين مع ارتفاع نسبة المزارعين كبار السن في معظم الدول .

ولما لم تكن هنالك سياسات عمالة زراعية قومية واتفاقات توظيف ، وانتقال العمالة الزراعية بين الدول ، فإن الأرقام تعكس نمطا مضاداً حيث يوجد اتجاه نحو زيادة وتوسع في استخدام العمالة الزراعية في الدول المستوردة للعمالة حيث نجد معدل النمو السنوي للعمالة الزراعية من بداية السبعينات الى مطلع الثمانينات ٨,٥٪ في الامارات

و ٣,٧٪ في الكويت و ٣,٢٪ في السعودية و ٣٪ في الجزائر . بينما أصبح انخفاض معدل نمو العمالة الزراعية في نفس تلك الفترة في لبنان بمعدل ٦,٤٪ والعراق ٣,٥٪ واليمن الجنوبي ٢,٣٪ ومصر ٣,٠٪ . وعليه نجد أن معظم الدول التي يشكل القطاع الزراعي نشاطا أساسيا في اقتصادياتها قد فقدت جزءا من عنصرها الانتاجي لدول تشكل الزراعة نشاطا هامشيا في اقتصادياتها . وهذا سبب آخر يؤدي جزئيا الى الاستمرار في تدهور القطاع الزراعي وتدني انتاجيته .

أما ما تبقى من عمال زراعيين ومزارعين في حقول تلك الدول المطاردة للعنصر الانتاجي ، وبخاصة صغار المزارعين الذين يعانون من مشاكل أخرى قد تعوق انتاجية حيازتهم . وسنعرض بعضا من تلك الأسباب في الأبواب القادمة .

٤ - سياسة التسليف الزراعي

يواجه المزارع في الوطن العربي صعوبات متنوعة تتعلق بالتمويل الزراعي في مراحل مختلفة من مراحل العملية الزراعية وقد تتباين هذه الصعوبات من دولة لأخرى ، الا أن هنالك بعض المشاكل المشتركة . فتعقيد وصعوبة شروط الاقراض من بعض الهيئات الاقراضية ، مثال للدول ذات الدخول المتدنية . فمثلا نجد أن طلب ضمانات عقارية لمنح قروض أو التأخير في الاستفادة منها نتيجة لسلحفائية الاجراءات ظاهرة عادية في الصومال والجمهورية العربية اليمنية . وهنالك أيضا محدودية السيولة النقدية والاعتمادات المصرفية التي تقلل من قدرة الهيئات المقرضة والتوسع في عرض قروض طويلة الأجل . فالسلفيات قصيرة الأجل قاسم مشترك بين معظم الأقطار العربية . ونستدل على تلك الظاهرة بحجم القروض قصيرة الأجل لمجمل القروض التي يمنحها البنك الزراعي المتخصص . فتبلغ تلك النسبة ٦٦٪ في سوريا وحوالي ٧٥٪ في السودان . أضف الى ذلك ضآلة تلك السلفيات حيث لا تزيد القروض القصيرة الأجل في تمويل زراعة المحاصيل الزراعية عن ٣٠٪ من تكاليف إنتاج تلك المحاصيل . بينما انعدمت القروض طويلة المدى في عام ١٠٧٧ م تقريبا.

لذلك نجد عدم جدوى تلك المؤسسات في تنمية ومساعدة الانتاج الزراعي . ومن المشاكل الأخرى ارتفاع أسعار الفائدة وبالتالي تكلفة تلك القروض مع قلة عدد مصارف الاقراض الزراعي وضعفها وشمولها لجمهور المزارعين .

ولعجز الأقطار منفردة في تذليل تلك الصعاب مع شح الامكانات المالية وضعف الحوافز الانتاجية العامة ، يبقى أمام هذه الدول التنسيق أو تدعيم دور المنظمة العربية للتنمية الزراعية ـ ، أو الشركات العربية الانمائية ، لربط الاقراض الزراعي بجدوى المشاريع وميزتها المقارنة على مستوى الاقطار . ولرفع كفاءة تلك البرامج لا بد من مراجعة وتوظيف الحوافز الاقتصادية المؤثرة في الانتاج الزراعي ، كالسياسات التسعيرية والتي ستناقش في الباب التالي .

٥ - السياسات التسعيرية

تعد الأسعار والسياسات التسعيرية في أدبيات الاقتصاد الزراعي من أهم العوامل الاقتصادية لتوجيه الموارد وكفاءة استخدامها في العمليات الانتاجية المختلفة . وغالبا ما نجد جمهور المنتجين مطالبين بأسعار مجزية لمنتجاتهم الزراعية . وبما أن تلك الأدبيات نفسها تسجل درجات مرونة عرض على المحاصيل الزراعية تقل عن الواحد ؛

فإن هنالك دراسات في الوطن العربي رصدت درجة مرونة عرض عالية في حالة بعض المحاصيل الغذائية المنتجة محليا[١٨] ، مما يجعل الاهتمام بسياسات تسعير المنتجات الزراعية من أهم الأدوات السياسية في توفير المحاصيل والمنتجات الغذائية في الوطن العربي . ولن يتأتى ذلك بقوى العرض والطلب السوقية فقط بل ربما يقتضي الأمر ضرورة التدخل الحكومي لتعديل أسعار بعض السلع المنتجة محليا لتوجيه الموارد واستخدامها بكفاءة عالية لتوفير الغذاء . وفي دراسات سابقة للباحث نجد أن القطاع الزراعي في الدول النامية ، وبخاصة تلك الدول التي تعتمد على الزراعة كمصدر مهم في النشاط الاقتصادي ، يعد أهم محصل للعملة الصعبة . الا أن حكومات تلك الدول تشترك في سياسات فرض ضرائب عالية ومتعددة أحيانا على القطاع الزراعي . كما تتبع معظم تلك الدول سياسات ضريبية غير مباشرة وذلك بتسعير عملاتها المحلية بأكثر من سعر الصرف الحقيقي أو السعر السائد للمنتجات غير الزراعية ، مما ينجم عنه ضريبة اضافية غير مباشرة فوق الضرائب الدخلية والسعرية المباشرة الأخرى . ويتحمل المزارع بالتالي ذلك العبء . وعليه يقل صافي دخل المزارع (العائد من قيمة الانتاج ناقصا قيمة الضرائب المتحصلة) عندما يصرف دخله بالعملة المحلية . ولما أكدت بعض الدراسات مرونة الانتاج للسعر في تلك الدول (السودان ومصر والصومال) فهذا يعني التدهور الآني لانتاجية المزارع ، وفي بعض الحالات كان رد فعل المزارعين الامتناع عن تسويق المنتجات الزراعية بوساطة الدولة وأحيانا ترك الحقول والبحث عن نشاط آخر يقل فيه العبء الضريبي . وكل هذا يعني فقدان الدولة لمزيد من قاعدة الضرائب وتناقص في المنتجات التي تسوق بوساطة الدولة ، وبالتالي نضب في العملات الحرة وفقدان لرأس المال البشري المدرب في القطاع الزراعي من زراع ، وعمال زراعيين ، واختصاصيين فبدلا من تشجيع المزارع وتقديم أسعار مجزية وحوافز إنتاجية أو حتى المحافظة على سعر السوق الحر لتلك المنتجات وتقليل الضرائب وتخفيف قوانين الدولة وفك هيمنة الجهاز البيروقراطي غير الحقلي في العملية الانتاجية ، تصر معظم الدول الزراعية في الوطن العربي تطبيق سياسات زراعية برهنت عمليا فشلها . فقد أدت مجمل تلك السياسات الى توزيع غير متكافىء للدخول بين عناصر الانتاج ، قبض فيها المزارع المنتج أقل عائد بين العناصر الاخرى ، وحصل الجهاز البيروقراطي والقطاع الحضري على دعم استهلاكه من العائد الزراعي . ويوافق جمع من الاقتصاديين على ضرورة تدخل الدولة لتعديل أسعار بعض السلع المنتجة محليا بغرض تشجيع المزارعين وبالتالي توفير تلك السلع لخدمة برامج الأمن الغذائي . الا أن بعض الاقتصاديين يحذر من احتمال حدوث آثار سلبية لتلك السياسات التي قد تؤدي الى تشوهات سعرية في القطاعات غير الزراعية وبالتالي ربما تقرأ عناصر الانتاج اشارات تسعيرية تؤدي الى استخدام غير كفء للموارد الاقتصادية . والعبرة في نجاح السياسات أو فشلها يعتمد على أولوية برامج الدولة والمنفعة الاجتماعية لانجاز تلك البرامج . أما نجاح السياسات التشجيعية فيحتاج لعوامل مساندة لا بد من توفيرها قبل تطبيق تلك السياسات مثل العوامل التسويقية والتخزينية والتي تفتقدها الدول العربية الزراعية كما هو الحال في السودان حينما فشل الجهاز التسويقي وضاقت الطاقة التخزينية لخزن الذرة في موسمي ١٩٨٥/١٩٨٦ م و ١٩٨٦/١٩٨٧ م .

(١٨) انظر مثلا دراسات معهد أبحاث سياسات الغذاء العالمية في واشنطن رقم ٢٩ في ديسمبر ١٩٨١ للدكتور ثرانت سكوبي ورقم ٤٢ في نوفمبر ١٩٨٣م للدكتور جواشيم فون براون وهارتويل دي هين عن السياسات الزراعية في مصر ودراسات الدكتور صديق عبد المجيد صالح في ١٩٨٣ - ١٩٨٦ ومؤسسة سيلمناوون لعام ١٩٨٢ والبنك الدولي لعام ١٩٨٦ - ١٩٨٧م عن الزراعة في السودان .

وعمليا ابتدعت معظم دول العالم الثالث ، ودول السوق الأوربية المشتركة ، وأمريكا الشمالية أسلوب تشجيع المزارع وبأسعار أرضية ، تفوق سعر السوق الحر للمنتجات الزراعية مع تسهيلات ضمان بيع وتخزين للانتاج .

وهذا الاسلوب الاقتصادي ليس بجديد في العالم . فهو ـ أيضا ـ يعد من صلب سياسات الاتحاد السوفياتي الزراعية . وقد برهن هذا الأسلوب عمليا مع بعض السياسات الأخرى المكملة على تحقيق الأهداف المرجوة منه . وأمام أعيننا الآن تجربة دول السوق الأوربية المشتركة ، فيما يسمى بالسياسات الزراعية المشتركة حيث أدت تلك السياسات إلى تخزين مئات الملايين من أطنان الغذاء .[١٩] ويمكن الاستفادة من تلك التجارب في مجال السياسات الزراعية والتبادل السلعي بين الدول العربية حسب المناطق ، كدول مجلس التعاون الخليجي كوحدة مع دول المغرب العربي ودول التكامل الاقتصادي الأخرى كنواة عملية لانجاز متطلبات العمل العربي الاقتصادي المشترك . ولما لم تكن أهدف هذه الدراسة تعني باستنباط أنجح السبل العملية والواقعية لانجاز السوق العربية المشتركة ، مسترك ذلك جانبا لدراسة متخصصة لاحقة لنستعرض الآن بعض ملامح السياسات التسعيرية الزراعية في الوطن العربي .

٦ ـ سمات وملامح السياسات التسعيرية العربية

تتفق معظم الدول العربية الزراعية في سمات وملامح نجملها في الآتي :

١ ـ غالبا ما تحافظ الدول العربية على الأسعار المزرعية النقدية لمدة طويلة لغير صالح المنتجين ، وربما تعدل تعديلا طفيفا في حالات أزمات العرض المؤقتة مثل عجز الانتاج المحلي لمحصول غذائي مهم . وهذا يعني أولا الانخفاض المستمر في السعر الحقيقي للمزارع نسبة لارتفاع معدلات التضخم في العالم العربي والتي بلغت في المتوسط السنوي ١٣,٢٪ في الفترة ١٩٧٠م ـ ١٩٨٠ م) .[٢٠] وثانيا تؤدي تلك السياسة إلى وجود تفاوت بين أسعار المحاصيل الزراعية المحليه ونظيرتها العالمية مما يخلق حافزا لدى المزارعين لترك الزراعة .

٢ ـ يهمل التنفيذيون عادة تكاليف الانتاج الفعلية وتوفير العائد المحفز للمنتج في معادلة تحديد أسعار المنتجات الزراعية في معظم الأقطار العربية . ففي السعودية تعتمد الحكومة على النظرية التنافسية الحرة في تسعير (المدخلات والمخرجات الزراعية ،)وتتبع تونس إلى حد ما نظرية العرض والطلب في تسعير بعض المنتجات الزراعية ، وأحيانا أخرى تعتمد على تكاليف الانتاج في تحديد أسعار بعض المنتجات الغذائية الرئيسة . بينما تهمل تماما تكاليف الانتاج والحوافز الانتاجية في تسعير معظم المحاصيل الغذائية في مصر والسودان .

٣ ـ التوجه الأساسي في سياسة تسعير المنتجات الغذائية في أغلب الدول العربية يخدم أغراض البيروقراطية والمستهلكين في القطاع الحضري ويعد هذا العامل أساسيا في انخفاض الأسعار الحقيقية المستمر لتلك المحاصيل . وكذلك نجد أن الحكومة تهتم بجباية نصيب الأسد من عائد المحاصيل التصديرية على حساب المزارع . ففي السودان يحصل المزارع على أسعار متدنية للذرة والقمح وبعض المنتجات الزراعية الأخرى ، بينما ينعم المستهلك في القطاع الحضري بدعم

(١٩) انظر مثلا دراسة د . صديق عبد المجيد ود . خالد عثمان « سياسات الأسعار واستراتيجية السلع الضرورية » . المؤتمر الاقتصادي السوداني ، الخرطوم ، يناير ١٩٨٦م .

(٢٠) حسب متوسط التضخم من ملحق مؤشرات التنمية الدولية من تقرير البنك الدولي عن التنمية في العالم لعام ١٩٨٢م .

أسعار المنتجات الغذائية المقابلة ، أضف إلى ذلك الضرائب المباشرة المتزايدة على المحاصيل الزراعية وغير المباشرة المتضخمة بوساطة أسعار صرف العملات بالقنوات الرسمية حيث بلغت أكثر من ٤٠٪ للقمح والسكر وحوالي ٣٠٪ للصمغ العربي ، وما يقارب الـ ٢٠٪ للسمسم والفول السوداني ، وبقية المحاصيل النقديه . وكذلك الحال بالنسبة للأسعار الحقيقية المتدنية للمزارع المصري وبخاصة بعد الارتفاع الجنوني في تكاليف الانتاج حيث أن نسبة الزيادة في أجور العمال الزراعيين بلغت الـ ٥٠٪ بالنسبة لبعض المحاصيل الرئيسة مثل القمح والأرز والقصب والبصل . كما أن الأسعار المزرعية تقل عن الأسعار التصديرية مع وجود وارتفاع الضريبة غير المباشرة على القطاع الزراعي . وكل هذه الأسباب أدت إلى انخفاض الهامش الربحي للزراع . وفي موريتانيا يبلغ نصيب الوسطاء ٣٤٪ من سعر المستهلك للمواد الغذائية على حساب المنتج الذي يحصل على ٤٢٪ . بينما تحدد الحكومة أسعار المنتجات الغذائية لصالح المستهلك في الحضر . وكذلك الحال في الصومال حيث يضجر منتجو المحاصيل النباتية من السياسة التسعيرية الموجهة لصالح المستهلك في القطاع الحضري على حساب المزارع .

٤ - تشترك معظم الدول الزراعية العربية في عدم الربط بين السياسات التسعيرية للمنتجات الزراعية ، وسياسات أسعار مدخلات الانتاج الزراعي من ناحية ومن ناحية أخرى في عدم الربط بين أسعار المنتجات الزراعية ، والسياسات التسعيرية العامة ، مما يخلق تشوهات في الأسعار الحقيقية للمنتجات الزراعية .

٥ - تتحكم معظم الدول العربية بأسعار المحاصيل التصديرية والغذائية في فرض ضرائب أحيانا على تلك المحاصيل ، وترك تحديد أسعار محاصيل أخرى لقوى العرض والطلب في السوق الحر ، وبخاصة المنتجات الحيوانية والفاكهة والخضراوات كما هو الحال في مصر وسوريا والسودان والمغرب والسعودية والامارات . مما يؤدي ذلك إلى انخفاض نسبي في دخل منتجي المحاصيل التصديرية والغذائية الأمر الذي يخلق حافزا لدى الزراع للتحول الى زراعة المحاصيل الأخرى مما يفقد الحكومة أيضا مصدرا من مصادر ايراداتها .

٦ - تعلن بعض الدول الأسعار الرسمية للمحاصيل الزراعية في بدء موسم الحصاد بدلا عن بدء موسم الزراعة ، كما هو الحال بالنسبة للقمح والشعير في العراق والقمح في السودان .

٧ - تعتبر معظم الدول العربية متلقية أسعار المنتجات الغذائية وليس محددة لها . وباستثناء سياسة التعريفات الجمركية والحماية والحواجز غير الجمركية ، فإن معظم أسعار صادرات وواردات تلك المنتجات تحدد بعلاقات عالمية خارجة عن نطاق تأثير الأقطار العربية منفردة . ففي حالة انعدام التنسيق بين الدول العربية وفعالية السوق العربية المشتركة تصبح معظم الأقطار عرضة للضغوط الاقتصادية والسياسية من الدول المؤثرة في إنتاج وتسويق المنتجات الغذائية .

بدأت حاليا بعض الدول سياسات تسعيرية تشجيعية لبعض المحاصيل الغذائية . وهذه السياسات تهدف إلى تشجيع التوسع في زراعة محاصيل محددة تعرض الحكومة في ضوء ذلك أسعارا أرضية أو ضمانا سعريا يفوق سعر الجملة ، أو سعر السوق الحر ومثل هذه السياسة متبعة في الأردن حيث تعلن الحكومة عن أسعارها التشجيعية لشراء القمح . ولما لم يزد هذا السعر إلا بنسبة ضئيلة عن سعر السوق ، فانه لم يخلق الحافز الضروري لاقبال المزارعين على التوسع المرجو . ولكن يمكن معالجة ذلك برفع السعر إلى الدرجة التي تخلق الحافز لانجاز هذا الهدف المهم والمطلوب

لمقابلة احتياجات الغذاء . كما أن السودان قد بدأ منذ موسم ١٩٨٦ م في إعلان السعر التشجيعي للذرة مما خلق فائضا قياسيا لموسمي ١٩٨٦ م و ١٩٨٧ م إلا أن الطاقة التخزينية القصوى في السودان تقل عن مشتريات الحكومة . بينما لم تنفذ الاتفاقية التجارية لتسويق الذرة بين السودان والسعودية في ذلك الموسم ، وقد ساعدت تلك الاتفاقية من قبل على خلق حوافز هائلة للمنتج السوداني حتى الربع الأول من الثمانينات .

إلا أن تعميم سياسات الأسعار التشجيعية في الوطن العربي ، لا بد أن تكمل برفع الطاقة التخزينية وتنسيق السياسات التسويقية بين الدول العربية . ونناقش تلك السياسات في البابين التاليين .

٧ ـ سياسة التخزين الزراعي

لضمان فعالية الأسعار التشجيعية لزيادة الانتاج في بعض المحاصيل الغذائية تفترض ضمنا وجود طاقة تخزينية لاستيعاب تلك المحاصيل ، أو حتى لخزن بعض المنتجات القابلة للتقلبات السعرية ، وربما الاحتفاظ بمخزن استراتيجي ، تحسبا لتقلبات العرض المفاجيء نتيجة للصراع العربي الاسرائيلي أو الحرب العراقية ـ الايرانية أو المقاطعة الغذائية كما حدث للجمهورية العربية المتحدة في ديسمبر عام ١٩٦٤ م عندما امتنعت واشنطن عن بيع القمح لمصر نقدا وبالدولار .(٢١) أو لتقلبات السوق العالمي أو لكارثة كيميائية ... الخ .

فالمخزون الغذائي مهم حتى في الظروف العادية التي يستورد فيها الوطن العربي أكثر من نصف احتياجاته من الحبوب الغذائية كما هو الحال في مطلع الثمانينات . وحتى ضمان استقرار السوق المحلي وتقليل المضاربات في الغذاء تحتاج فيه الدول لمخزون غذائي .

أما المخزون الاستراتيجي من الغذاء فهو ضرورة إن لم يكن فرض عين في الوطن العربي . فالتاريخ الحديث يذكرنا بالكوارث الطبيعية من الجفاف ، والتصحر اللذان زادا من المجاعة في السودان في عامي ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ م وهنالك امتداد عمر المجاعه الآن في الصومال ، كما أن هنالك منتجات زراعية مشبعة بالاشعاع الذري بدأت تزور السوق العربي الغني منها والفقير والحروب الاقليمية والصراع العربي الاسرائيلي يزيدان من مخاطر إعاقة الامدادات الغذائية .

ولما كانت هذه المخاطر مشتركة فإن دراسة المنظمة العربية للتنمية الزراعية بهذا الشأن تصبح مهمة جدا ولمواجهة احتياجات الوطن العربي من المخزون الاستراتيجي الغذائي في الوطن العربي . ولمواجهة ذلك مع مرور الزمن يمكن تخصيص صوامع الغلال الحالية لبعض الحبوب المهمة كالقمح ودراسة الطاقة القصوى وبرامج إنشاء الصوامع القطرية ، واستغلالها ضمن سياسة المخزون الاستراتيجي العربي .

كما ويمكن الانطلاق من سياسات التخزين الحالية في الأقطار العربية كدعم القدرات التخزينية في الأردن والتوسع في البرنامج الأردني، لإنشاء الثلاجات والمستودعات المبردة للتوسع في الطاقة التخزينية لأكثر من الستة الاشهر المستهدفة في الأردن . كما ويمكن تخصيص الطاقه التخزينية في تونس والمغرب والجزائر للزيتون أكثر منه للحبوب على أن يتم

(٢١) د . ابراهيم سعد الدين وآخرون ، دعم الأغنياء ودعم الفقراء ، كتاب الأهالي رقم (٥) ، ابريل ١٩٨٥م .

التوسع في صوامع الغلال السعودية والسودانية حيث تتبع السعودية سياسة توفير مخزون يكفي البلاد لمدة ستة أشهر كما يمكن تشجيع القطاع الخاص في الدول العربية إلى تخزين الخضراوات واللحوم والألبان والبيض وتنسيق تلك السياسات بين دول مجلس التعاون الخليجي . ولاشك أن التنسيق في العمل العربي المشترك سيسهل من تنفيذ السياسات السابقة إذا تم توحيد السياسات التسويقية بين الدول العربية في المجموعات الجغرافية ، مثل دول مجلس التعاون الخليجي والعراق ، ودول المغرب العربي ، ودول التكامل الزراعي الافريقية (مصر وليبيا والسودان والصومال) ودول تكامل أخرى كسوريا ولبنان والأردن . بحيث تقلل الإجراءات المكتبية والروتينية من حرية مرور السلع وتسويقها ، كما انها تحد من الغاء الرسوم الجمركية عن السلع والمنتجات العربية ، واعتماد واستيراد الأسمدة والكيميائيات من الدول الزراعية العربية فقط ، وتوجيه الاستثمار العربي المشترك على مستوى القطاع العام والخاص في البرامج التي تخدم الأمن الغذائي وعلاقه .

والسياسات التسويقية لابد أن تؤثر وتتأثر بسياسات التجارة الخارجية الزراعية المستعرضة أدناه .

٨ ـ سياسات التجارة الخارجية الزراعية

بما أن الدول العربية تستورد حوالي ٤٠٪ من احتياجاتها الغذائية من خارج الوطن العربي حسب إحصاءات عام ١٩٨٤ م . وتستورد ما يزيد عن نصف احتياجات الحبوب الغذائية وما يقارب الـ ٧٠٪ من احتياجات القمح ، فإن هذا يعني زيادة الاعتماد على العالم الخارجي . ويظهر ذلك جليا من ارتفاع درجة الانفتاح في الاقتصاد العربي حيث ارتفعت قيمة الصادرات والواردات إلى الناتج المحلي من ٧٧٪ في عام ١٩٧٥ إلى ٨٦٪ في عام ١٩٨٠ م بما يعادل متوسط نمو سنوي يزيد عن الـ ٢,٣٪ . كما يزيد الميل المتوسط للاستيراد من ٢٨٪ إلى ٣١٪ في خلال تلك الفترة بمعدل متوسط سنوي يبلغ ٢,٢٪ كما يتضح من الجدول رقم (٧) . ونجد أن ٦٠٪ من الأقطار العربية تفوق متوسط معدل الميل للإستيراد حتى تصل النسبه إلى أكثر من ٩٠٪ لثلاث دول عربية . وهذا يعني تصدير التضخم العالمي للأسواق العربية وزيادة في التبعية الاقتصادية .

ونلاحظ ـ أيضا ـ ارتفاع اسعار الغذاء في جميع الدول العربية وبخاصة الزراعية منها حيث بلغت الزيادة السنوية في هذه الأسعار خلال الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٨ م حوالي ٢٣,٤٪ في اليمن الشمالي و ١٥,٣٪ في سوريا و ١٤,٨٪ في السودان و ١٤,٤٪ في الأردن . ويعزو بعض الدارسين ارتفاع أسعار الغذاء في الدول العربية إلى زيادة الطلب على السلع الاستهلاكية وزيادة الانفاق الحكومي في القطاعات غير الزراعية وأحيانا غير المنتجة ـ وأيضا ـ إلى ضعف وتدهور التبادل التجاري بين الدول العربية . ويبرز هذا الضعف في تعامل الدول العربية الفردي في التجارة الخارجية وهذا ـ أيضا ـ مجال للعمل الجماعي بين الدول العربية لتنسيق وتنظيم تعاملها مع الأسواق الأجنبية .

من التحليل السابق لنمو درجة الاعتماد على الأسواق الأجنبية لتوفير احتياجات الغذاء ، نجد أن أكثر من ٥٠٪ من الحبوب الغذائية (وبخاصة القمح) تستورد من خارج الوطن العربي كما يحصل الفرد العربي على ٥٩٪ من الطاقة الحرارية (كالورى) من الحبوب الغذائية في عقد السبعينات كما يتضح من الجدول رقم (٨) . حيث يحصل الفرد في اليمن الشمالي على ثلاثة ارباع طاقته الحرارية من الحبوب ويحصل أكثر من ٤٥٪ من المستهلكين في الوطن العربي على

جدول رقم (٧)

الميل المتوسط للاستيراد ودرجة الانفتاح الاقتصادي للاقطار العربيه

في عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٠ م

القطر	١٩٧٥		١٩٨٠	
	الميل المتوسط للاستيراد ٠/٠	درجة الانفتاح ٠/٠	الميل المتوسط للاستيراد ٠/٠	درجة الانفتاح ٠/٠
الاردن	٨٣	١٠١	٩٧	١٠٣
الامارات	٣٣	١٠٤	٣١	١٠٣
البحرين	١٢٠	٢٦١	٩٩	١٨٤
تونس	٣٣	٥٣	٤٣	٦٨
الجزائر	٤٨	٨٥	٣٦	٨١
جيبوتي	٨٦	٩٦	٤٣	٤٧
السعوديه	١١	٨١	٢٣	٩٦
السودان	٢٤	٣٤	٢٣	٣٢
سوريا	٣٠	٤٧	٤١	٥٠
الصومال	٢٢	٣٥	٢٤	٣٠
العراق	٣١	٨٥	٢٨	٨٥
عمان	٣٢	١٠١	٣٣	٩٦
قطر	١٨	٨١	٤٤	٩١
الكويت	٢٠	٩٢	٢٢	٨٣
ليبيا	٢٨	٧٦	٢٧	٨٥
مصر	٣٠	٤٠	٤١	٦٠
المغرب	٢٩	٤٦	٢٨	٤٣
موريتانيا	٤٨	٩٠	٤٧	٨١
اليمن الشمالي	٢٦	٢٧	٣٥	٣٥
اليمن الجنوبي	٦١	١٧٧	١٣١	١٦٩
جملة الدول العربيه	٢٨٠	٧٧	٣١	٨٦

٪ للميل المتوسط = (الواردات / الناتج المحلي بسعر السوق) × ١٠٠

درجة الانفتاح = (الواردات + الصادرات) / الناتج المحلي بسعر السوق

المصدر : المنظمه العربيه للتنميه الزراعيه ، مصدر سابق ، نوفمبر ١٩٨٣ ، صفحه ١٨٧ ـ ١٨٨ .

أكثر من ٦٠٪ من طاقتهم الحرارية من الحبوب الغذائية . ولما كانت هذه النسبة متزايدة لبعض تلك البلدان فإن الحبوب الغذائية تشكل مصدرا مهما للغذاء في الوطن العربي .

فالسؤال الملح الآن هل تطور الانتاج الغذائي وبخاصة الحبوب الغذائية بدرجة أهميتها لتوفير الغذاء للمواطن العربي من داخل الوطن العربي . وهذا هو موضوع الجزء التالي .

ثانيا : الإنتاج الغذائي

يلخص الجدول رقم (٩) النمو الغذائي في الأقطار العربية في الفترة من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٢ وقد اعتبرت سنة ١٩٧١ م سنة الأساس للمقارنة . ويتضح من هذا الجدول أن جميع الدول المسجلة في الجدول باستثناء تونس قد سجلت نموا في الإنتاج الغذائي يساوي أو يزيد عن الإنتاج الزراعي . ونسبيا نجد أن معدل نمو الإنتاج الغذائي للفرد أقل من معدل نمو السكان لمعظم هذه الدول ماعدا ليبيا وسوريا والسودان وتونس . وهذه الدول الأربع الاخيرة تمثل حوالي ٢٣,٥٪ من سكان الوطن العربي . وهذا يعني أن نمو الإنتاج الغذائي المحلي لأكثر من ثلاثة أرباع سكان الوطن العربي سالبا منذ مطلع السبعينات .

وإذا تتبعنا الرقم القياسي لإنتاج الغذاء العام في الوطن العربي بما في ذلك الإنتاج الحيواني في الجدول رقم (١٠) نجد تحسنا نسبيا في فترة المقارنة من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٢ م بالنسبة لسنة الأساس ١٩٧١ م حيث بلغ ٣,١٪ . وهذا لا يعني تحقيق الاكتفاء الذاتي لأن سنة الأساس لم تكن عام اكتفاء ذاتي . كما أن درجة التحسن النسبي في الرقم القياسي لإنتاج الغذاء في الفترة من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٢ م مقارنا بعام ١٩٧١ م يرجع أساسا لتحسين الإنتاج الحيواني بينما تراجع إنتاج المحاصيل النباتية والحبوب في تلك الفترة مقارنا بسنة الأساس . وحتى التحسن العام في تلك الفترة يعد محدودا لقلة من الدول مثل المملكة العربية السعودية وسوريا وتونس وليبيا والجزائر ، حيث نجح برنامج تحسين تربية المواشي في تلك الدول ، ويظهر ذلك جليا من الأرقام القياسية حيث بلغت حوالي ١٤٢٪ و ١٢٨٪ و ١٠٦٪ في تلك الفترة لتلك الدول على التوالي .

وهنالك تحسن أيضا في السودان واليمن الجنوبي حيث بلغ الرقم القياسي حوالي ١٠٥٪ في السودان و ١٠٢٪ في اليمن الجنوبي .

وكما ذكرنا آنفا أن إنتاج الحبوب منخفض بينما استيراد الحبوب الغذائية مرتفع الأمر الذي جعل الاستهلاك العربي من الحبوب الغذائية يزيد عن ضعف الانتاج العربي للحبوب الغذائية . وربما تزيد هذه النسبة عن الضعف اذا زادت نسبة استعمال الحبوب في انتاج اللحوم في الوطن العربي . وتمثل محاصيل القمح والأرز والشعير الحبوب الأساسية في الوطن العربي ، حيث يستعمل الشعير والذرة أساسا كعلف لانتاج اللحوم .

جدول رقم (٨)

النسبة المئوية للحبوب من الطاقة (كالوري) وللبروتين الحيواني من جملة البروتين في عقد السبعينات

القطر	النسبة المئوية للحبوب	النسبة المئوية للبروتين الحيواني
الأردن	٦٤	١٩
الإمارات	٤٣	٤٦
البحرين	٥٤	٣٧
تونس	٥٢	٢٢
الجزائر	٦٠	١٦
جيبوتي	٦٥	٣٤
السعودية	٦٦	٢٤
السودان	٥٩	٢٦
سوريا	٥٧	١٩
الصومال	٥٣	٣٨
العراق	٦١	١٧
عمان	٥٩	٣٧
قطر	٥١	٤٩
الكويت	٤٨	٤٣
لبنان	٥٧	٢٨
ليبيا	٤٨	٣٢
مصر	٦٩	١٤
المغرب	٦٧	١٩
موريتانيا	٥٨	٤٧
اليمن الشمالي	٧٥	١٧
اليمن الجنوبي	٦٣	٣٥

المصدر : المنظمة العربية للتنمية الزراعية : مستقبل اقتصاد الغذاء في الدول العربية (١٩٧٥ - ٢٠٠٠) ، الخرطوم ، ودراسة مسار اقتصاد الغذاء في الدول العربية ، ١٩٨٠ . والتقرير الشامل ، ١٩٨٣ .

جدول رقم (٩)
النمو الزراعي والغذائي في الدول العربية للفترة
١٩٧٢ - ١٩٨٢ م

القطر	١٩٧١	النمو الزراعي في الاعوام (١٩٧٢-١٩٨٢)	النمو الغذائي في الاعوام (١٩٧٢-١٩٨٢)	النمو في الانتاج الغذائي لكل مواطن (١٩٧٢-١٩٨٢)
ليبيا	١٠٠	٢١٠	٢١٤	٧ر١٦٧
سوريا	١٠٠	١٧٦	١٩٥	٨ر١٤٩
السودان	١٠٠	١١٠	١٢١	٥ر١٠٢
تونس	١٠٠	١١٨	١١٧	٥ر١٠٣
العراق	١٠٠	١١٤	١١٤	٤ر٩٤
مصر	١٠٠	١٠٧	١١٠	٨ر٩٤
الجزائر	١٠٠	١٠٦	١٠٦	٥ر٨٧
الاردن	١٠٠	١٠٤	١٠٤	٣ر٨٤
اليمن الشمالي	١٠٠	١٠١	١٠٠	٣ر٨٩
لبنان	١٠٠	٩٦	٩٩	٨ر٩٢
المغرب	١٠٠	٩٧	٩٧	٤ر٨١

المصدر : د . بكار لوازق ، مصدر سابق ، فبراير ١٩٨٦ م صفحة ٢٩ .

جدول رقم (١٠)

الرقم القياسي لانتاج الغذاء

القطر	الغذاء ١٩٧٢–١٩٨٢	الحبوب ١٩٧٢–١٩٨٢	المحاصيل ١٩٧٢–١٩٨٢	١٩٧٢–١٩٨٢
الجزائر	٨٧ر٥	٨٤ر٤	٨١ر٢	١٠٥ر٦
مصر	٩٤ر٨	٩١ر٤	٩٤ر٢	٩٧ر٥
ليبيا	١٦٧ر٧	٣٤٦ر٨	١٧٢	١٢٧ر٥
موريتانيا	٨٠ر٨	٧١	٨٢ر٩	٨٠ر٥
المغرب	٨١ر٤	٦٦	٧٧ر٩	٩٦ر٩
الصومال	٨١ر٢	٩٧ر٧	٨٠ر٤	٨١ر٢
السودان	١٠٢ر٥	١١٠ر٨	٩٠ر٤	١٠٥ر٣
تونس	١٠٢ر٤	١١٦ر٥	١٠٦ر٨	١٣٠ر٧
العراق	٩٤ر٤	٩٨ر٦	٩٣ر٧	٩٣ر٥
الاردن	٨٤ر٢	٤٧ر٨	١٨٤ر١	٩١ر٧
لبنان	٩٢ر٨	١٠٤ر٧	٩٤ر٢	٨٨ر٥
السعوديه	٦٣ر١	٩٦ر٦	٩٢ر٣	١٤١ر٧
سوريا	١٤٩ر٨	١٦٥ر٢	١٢٧	١٣٥ر٤
اليمن الشمالي	٨٩ر٢	٦٩ر١	٨٦ر٧	٩٤ر٩
اليمن الجنوبي	١٠٠ر٨	٩٩ر٦	٩٦ر٤	١٠١ر٩
المتوسط	١٠٢ر١	٩٢ر٧	٩٨ر١	١٠٦ر٦

المصدر : د . بكار ابوزاق ، مرجع سابق ، أغسطس ١٩٨٦ ، صفحة ٥٥ .

جدول رقم (١١)

القمح (بآلاف الاطنان) ١٩٨٢

القطر	الانتاج	الاستيراد	التصدير	الاستهلاك الكلي	الاستهلاك لكل فرد بالكيلوغرام
تونس	١٠٠	٥٩٩	–	٩٩٥ر١	٢٤٢
ليبيا	١٦٠	٥٦٥	٢	٧٢٣	٢٢٥
الجزائر	٢٠٠ر١	٠٤١ر٣	–	٢٤١ر٤	٢١٢
العراق	٩٠٠	٩٢٠ر١	–	٨٢٠ر٢	٢٠١
مصر	٠١٧ر٢	٥٠٣ر٥	–	٥٢٠ر٧	١٧١
سوريا	٥٤٤ر١	٥٢ر٢	٥ر١٠	٥٦٨ر١	١٦٢
المغرب	٨٢٤ر١	٦٢٧ر١	–	٤٥١ر٣	١٦٠
لبنان	٢٣	٣٦٤	–	٣٨٧	١٤٣
قطر	–	٥٧	–	٥٧	٥ر١٤٢
الكويت	–	٢٥٢	٥ر٤١	٥ر٢١٠	١٤٠
الاردن	٢٠	٥ر٤٠١	٥ر١	٤٢٠	١٢٠
السعودية	٤٠٠	٧٤٤	١٢	١٣٠ر١	١١٧
اليمن الجنوبي	١٥	١٩٧	–	٢١٢	١١١
الإمارات العربية	١	١٢٨	٨	١٢١	١١٠
اليمن الشمالي	٦٧	٥٣٢	–	٥٩٩	١٠٠
عمان	١	٨٤	١٢	٧٢	٧٢
موريتانيا	–	١٠٠	–	١٠٠	٥١
السودان	١٥٠	٥٧٢	–	٧٢٢	٣٧
الصومال	–	٥ر١٨٠	–	٥ر١٨١	٥ر٢٥
الوطن العربي	٠٦٤ر٩	٩٠٠ر١٦	٦ر٨٧	١٢٥ر٢٦	٧ر١٥٠

المصدر : د. بكار توزاني ، مرجع سابق ، أغسطس ١٩٨٦ ، صفحة ٥٩ .

جدول رقم (١٢)
الارز بآلاف الأطنان في عام ١٩٨٢م

القطر	الانتاج	الاستيراد	التصدير	الاستهلاك	الاستهلاك بالكيلوغرام لكل فرد
مصر	٢٫٢٨٧	–	٢٦	٢٫٦٦١	٥١٫٤
العراق	٢٥٠	٣٦٠	–	٦١٠	٤٣٫٦
المغرب	١١	٥	–	١٦	٠٫٧
موريتانيا	٩	٧٥	–	٨٤	٤٩٫٤
السودان	٨	٣٨	–	٤٦	٢٫٣
الصومال	٥	٩٠	–	٩٥	١٨٫٦
الجزائر	–	١٨	–	١٨	٠٫٩
ليبيا	–	٥٣	–	٥٣	١٦٫٥
تونس	–	٤	–	٤	٠٫٦
الاردن	–	٤٦	–	٤٦	١٣٫١
لبنان	–	٣٠	–	٣٠	١١٫١
الكويت	–	٩٨	١٥	٨٣	٥٥٫٣
عمان	–	١١٥	١	١١٤	١١٤
قطر	–	١٣	–	١٣	٣٢٫٥
السعودية	–	٤٧٠	٣	٤٦٧	٤٨٫٦
سوريا	–	٥٧	–	٥٧	٥٫٨
الإمارات العربية	–	١٠٠	٢٥	٧٥	٦٨٫٢
اليمن الشمالي	–	٢٤	–	٢٤	٤
اليمن الجنوبي	–	٦٠	–	٦٠	٢١٫٦
المجموع	٢٫٥٧٠	١٫٦٥٦	٧٠	٤٫١٥٦	٢٤٫٤

المصدر : د. بكار توزاني ، مرجع سابق ١٩٨٦م ، صفحة ٦٠ .

ثالثا : محصول القمح

بلغ متوسط انتاج القمح في الوطن العربي ٩ مليون و ١٥٩ ألف طن في الفترة من ١٩٧٥ - الى ١٩٨٠ وانخفض الانتاج إلى ٩ مليون و ٦٤ ألف طن في عام ١٩٨٢م (٢٢) بينما سجل الاستهلاك الكلي في عام ١٩٨٢م حوالي ٢٦ مليون و ١٣٥ ألف طن من القمح . وعليه تكون الدول العربية مستوردة لأكثر من ٦٥٪ من القمح لمواجهة الاستهلاك . وقطريا تستهلك دول المغرب العربي بالاضافة للعراق ومصر وسوريا أكثر من متوسط معدل استهلاك الفرد العربي كما يتضح في الجدول رقم (١١) .

وبما أن القمح من المحاصيل التي تزرع في الأراضي المروية في الوطن العربي فبتحسين كفاءة الري المتوفرة ، وتحسين البذور والتقاوي مع سياسات الأسعار التشجيعية للمنتجين في دول المغرب العربي ، ومصر وسوريا ولبنان والسعودية ، يمكن تقليل درجة الاستيراد الى النصف . ومع تطبيق السياسات التكنولوجية في الخبز والنتجات القمحية الأخرى مع فرض ضريبة استهلاك يمكن تقليل الاستيراد بمعدل أكبر .

رابعا محصول الأرز

يتضح من الجدول رقم (١٢) أن الدول العربية تنتج حوالي ٦٠٪ من استهلاكها ، حيث بلغ متوسط انتاج الأرز ٢ مليون و ٦٠٠ ألف طن في الفترة من ١٩٧٥ الى ١٩٨٠م وانخفض الانتاج في عام ١٩٨٢م الى ٢ مليون و٥٧٠ ألف طن . بينما بلغ الاستهلاك الكلي في نفس العام ٤ مليون و ١٥٦ ألف طن . وباستثناء مصر ، تنتج بقية الدول العربية ٢٨٣ ألف طن فقط ، ويبلغ انتاج العراق وحدها ربع مليون طن وتنتج بقية الأربع دول (المغرب ، موريتانيا ، السودان والصومال) فقط ٢٣ ألف طن .

فباستثناء الدول المكتفية ذاتيا (مصر والعراق) تعتمد بقية الدول على استيراد الأرز لمقابلة الاستهلاك المحلي وبخاصة في دول الخليج العربي . وكما هو الحال في النمط الاستهلاكي للدول العربية فان الأرز يمكن استبداله بحبوب أخرى اذا وجهت السياسات السعرية والغذائية لهذا الهدف .

أما اللحوم والأسماك والبيض فينتج العالم العربي مايقارب ٧٩٪ من الاستهلاك الكلي ، كما يتضح من الجدول رقم (١٣) . وباستثناء موريتانيا والسودان ، تستهلك الدول العربية أكثر مما تنتج من لحوم وأسماك وبيض . حيث نجد أن موريتانيا تنتج أكثر من استهلاكها من السمك بينما يكتفي السودان ذاتيا من اللحوم .

---

(٢٢) منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو) ، والكتاب السنوي للانتاج ، ١٩٨٢ . والأمانة العامة لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، ابريل ١٩٨٦م .

جدول رقم (١٣)
انتاج واستهلاك اللحم والسمك والبيض (بالكيلو غرام في السنة)

	الاستهلاك	الانتاج	الفرق
الامارات العربية	١٤١	١ر٨٠	٩ر٦٠-
قطر	٥٧	٢ر٢٠	١ر٣٧-
السعودية	٧ر٦٠	١ر٢٥	٦ر٣٥-
الكويت	٥ر٦٩	٤٢	٥ر٢٧-
عمان	٦ر١٢٠	١٠٠	٦ر٢٠-
العراق	٣ر٣٣	٧ر١٣	٦ر١٩-
ليبيا	٣ر٦٢	١ر٤٥	٣ر١٧-
الاردن	٢٦	٤ر١٤	٦ر١١-
مصر	٢٤	٣ر١٧	٦ر٦ -
الجزائر	٥ر١٨	٨ر١٢	٧ر٥ -
اليمن الشمالي	٩ر٢٧	٥ر٢٢	٤ر٥ -
المغرب	٩ر٢٧	٧ر٢٢	٨ر٤ -
اليمن الجنوبي	٢ر٤٩	٧ر٤٤	٥ر٤ -
سوريا	١ر٣٣	٥ر٢٩	٦ر٣ -
الصومال	٦ر٤٠	٣ر٤٠	٣ر٠ -
تونس	٢ر٣٠	٣٠	٢ر٠ -
السودان	٢ر٢٥	٢ر٢٥	صفر
موريتانيا	٧ر٤٧	٧ر١١٥	٦٨ +
الوطن العربي	٣٢	٢ر٢٥	٨ر٦ -

المصدر : د . لوزاق ، مرجع سابق ، أغسطس ١٩٨٦م ، صفحة ٦٤ .

وبالنسبة لتربية المواشي والأغنام فان الاستثمار وتحسين المراعي ، وتنسيق السياسات التسويقية ربما تسد من درجة العجز (المقدرة بـ ١٨٪) اذا تمت الاستفادة القصوى من مواشي السودان والصومال وموريتانيا وأغنام تلك الدول بالاضافة الى ليبيا وسوريا . كما أن التحسن في انتاج الدجاج في الوطن العربي قد ساعد على تقليل تلك الفجوة الغذائية . وهذا ايضا ينعكس على انتاج البيض في العالم العربي . أما انتاج الأسماك في العالم العربي فهو مطمئن حيث ينتج ٦,٥ كغم أعلى من متوسط استهلاك الفرد المقدر بـ ٦,٢ كغم . ويأتي أكثر من نصف الانتاج من المغرب وموريتانيا ومصر .

ملاحظات ختامية :

تدعم هذه الدراسة خلاصة سائر الدراسات التطبيقية في أدبيات الأمن الغذائي العربي من تردي الوضع الغذائي العربي ، وارتفاع درجة الاعتماد خارج خريطة الوطن العربي ، لمواجهة الطلب على المحاصيل الغذائية المختلفة . وقد أمنت الدراسة على أهمية الحبوب الغذائية لقوت المواطن العربي اذ يحصل الفرد في المتوسط على حوالي ٦٠٪ من الطاقة الحرارية من الحبوب . الا أن نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب الغذائية قد هبطت بما يقارب ٧٠٪ في النصف الأول من السبعينات الى أقل من ٥٠٪ في أوائل الثمانينات . كما أن القمح يعد أهم محصول في مجموعة الحبوب الغذائية للمواطن العربي . وحتى نسبة الاكتفاء الذاتي من القمح قد بلغت فقط ٣٣٪ في عام ١٩٨٤م مما يزيد من درجة الاعتماد على قطاع الاستيراد لمواجهة الاستهلاك المحلي ، وبالتالي يجعل الوطن العربي عرضة للتبعية للدول المنتجة لتلك السلع الغذائية .

الا أن ٢٣٪ فقط من الرقعة القابلة للزراعة قد استغلت في الوطن العربي . وهذا يعني أن هنالك امكانية للتوسع في الزراعة ، وكذلك رفع إنتاجية الأرض القابلة للزراعة وانتاجية المزارع اذا طبقت السياسات المشجعة لذلك .

وبما أن هنالك برامج قطرية تنموية ومحاولات جادة من بعض الدول للتوسع الزراعي والاكتفاء الذاتي ، وأحيانا زيادة التصدير الا أن تلك الدول وبخاصة الزراعية منها تواجه مشكلة تمويل ذاتي لتلك المشاريع ، الأمر الذي حدا بتلك الأقطار الاعتماد على مصادر التمويل الأجنبية لتنفيذ أو تحديث بعض تلك المشاريع . وبالتالي تزداد درجة الارتباط والتبعية المالية للدول الممولة . وعليه تصبح مشكلة الاعتماد على المصادر خارج الوطن العربي في استيراد الغذاء أو استيراد عناصر الانتاج من مخصبات ، ومبيدات وماكينات ، ورأسمال نقدي سمة مشتركة لدول الوطن العربي ولتقليل تلك الواردات وبالتالي درجة الاعتماد والتبعية الاقتصادية لابد من اعداد وتنفيذ برنامج على المدى البعيد يكون واقعيا وفق الامكانات العربية المتاحة ينطلق من البرامج الاقتصادية الحالية . وهذا يعني تنسيق السياسات وفق برامج الدول في المجموعات الحالية كدول مجلس التعاون الخليجي ودول المغرب العربي واحياء ميثاق التكامل أو الاخاء بين دول حوض النيل وليبيا وتنسيق البرامج بين سوريا ولبنان والأردن وربما العراق اذا تعذر عمليا التنسيق بين دول مجلس التعاون الخليجي والعراق واليمنين . كما يمكن الاستفادة من الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي لادارة وتوفير الموارد لانجاز البرنامج الغذائي الموحد بالتعاون مع المنظمة العربية للتنمية الزراعية . كما ويمكن تثمين دور القطاع

الخاص العربي في انجاز بعض البرامج سريعة التنفيذ ، والعائد مع ضمان اصدار قانون استثمار عربي موحد يسمح بحرية تنقل المال العربي بأقل نسبة من القوانين والاجراءات الروتينية . وخلق فرص استثمارية مدروسة أوسع في قطاعات اعادة التصدير والكيماويات والأسمدة وصناعة الغذاء . وعلى الدول المستقبلة ان تولي البرامج الهيكلية المساعدة في الانماء الزراعي أولوية وكذلك على تلك الدول أن توفر وتوسع في مراكز البحوث الزراعية على أن تقدم لها المؤسسات العربية المالية قروضا ميسرة في هذا المجال .

واذا تم الاعداد لذلك من كل مجموعة من المجموعات الاقليمية في الوطن العربي يمكن :

١ ـ اقرار مبدأ التخصص الانتاجي حسب الميزة النسبية لكل اقليم أو قطر .

٢ ـ اعطاء اهمية خاصة للتوسع في مساحة محاصيل الحبوب الى ٤٧,٤ مليون هكتار في المرحلة الأولى . على أن تمتد تلك المساحات الى ٩٠,٦ مليون هكتار لتصل المستوى الأمثل المقدر في دراسة متخصصة لعام ١٩٨٤م (٢٣) .

٣ ـ اذا ارتفعت الأراضي المزروعة في الوطن العربي تباعا بالتوسع في زراعة المحاصيل لتبلغ ٦٩,٥ مليون هكتار في المرحلة الأولى والى ١١٢,٥ مليون هكتار لتصل المستوى الأمثل المقدر لنفس العام ١٩٨٤م ، فلابد من تحسين انتاجية الأراضي بتحسين البذور ، والتقاوي وتطبيق البحوث الزراعية المتطورة .

ولتحقيق ذلك ، لابد من تحفيز المنتج باستخدام أسعار تشجيعية تفوق أسعار السوق الحر لتلك المحاصيل الغذائية .

٤ ـ التركيز على التوسع في محصول القمح بادخال الأصناف عالية الانتاجية قصيرة العمر وتطبيق أسعار أرضية ، لتشجيع المزارع الاهتمام بذلك المحصول . ولابد من سياسات أخرى مساندة محفزه للمنتج في التسويق والترحيل والتخزين .

٥ ـ تقليل تحكم الأجهزة البيروقراطية في المحاصيل . بحيث تدخل الحكومة فقط كمشتر منافس ان لم تكن الحكومة مشتريا مشجعا .

٦ ـ عدم خلط سياسة دعم المستهلك الحضري والجهاز البيروقراطي بسياسة الأسعار التشجيعية والمحفزة للمنتج .

---

(٢٣) انظر مثلا الدكتور يعقوب سلمان ، مفهوم الفجوة الغذائية وواقعها الراهن في البلدان النامية ـ ملخص ، في الأمن الغذائي العربي ، عمان ، فبراير ١٩٨٦م .
والمنظمة العربية للتنمية الزراعية ، مرجع سابق ، ١٩٨٣م .

٧ ـ أن تعطى الأقطار العربية الزراعية أولوية لتطوير البنية المؤسسية والخدمات للمزارع مع دعم مراكز البحوث الزراعية والحيوانية والتكنولوجية .

٨ ـ الاهتمام بمراكز المعلومات والاحصاءات الزراعية في الدول العربية ، وربطها بالمنظمة العربية للتنمية الزراعية لتوفير المعلومات والاحصاءات المطلوبة لتقدير تنبؤات معقولة في الانتاج والاستيراد على المستويين القطري والقومي .

٩ ـ رفع حجم التبادل التجاري بين الدول العربيةوبخاصة في مجال السلع الغذائية . وتقليل القيود الحمائية والجمركية حتى ترتفع النسبة من الحجم الحالي المقدر بـ ١٠٪ فقط من اجمالي حجم التجارة العربية . ويمكن مقايضة مدخلات الانتاج أسمدة ومبيدات ومعدات زراعية ووسائل تصنيع ومواد بترولية من الدول العربية الغنية مع المنتجات الزراعية والحيوانية مع الدول العربية الزراعية الأخرى .

وكل هذه الملاحظات ربما تساعد في تنفيذ مفهوم السوق العربية المشتركة ورفع درجة الوعي بالاعتماد على القدرات والامكانات العربية الى أقصى حد ممكن .

* * *

الأمن الغذائي في الوطن العربي

"قضايا وبدائل"

صبحي القاسم

اصبح ضعف البلدان العربية لتأمين الأحتياجات الغذائية الأساسية لسكانها من مواردها الذاتية من القضايا المقلقة لجميع فئات الناس من مواطنين عاديين ومسؤولين . ولقد تفاقمت مشكلة تأمين الغذاء منذ بداية السبعينيات ، عندما بدأت فاتورة الغذاء المستورد بالارتفاع عاما بعد عام وعندما بدأت البلدان المصدرة للمواد الغذائية تلوّح باستعمال تلك المواد كسلاح بباع بسعرين السعر المادي والسعر السياسي . ولم يأت هذا التطور المتعلق بحياة الشعوب العربية نتيجة عجز ذاتي للموارد المالية والبشرية والطبيعية ، ولكنه جاء نتيجة عدد من العوامل والتطورات السلبية التي أدت الى احداث الخلل الكبير بين ما يستهلكه السكان وبين ما تنتجه الموارد من غذاء . وبفعل هذا الخلل فقد أصبحت البلدان العربية أكبر منطقة عجز غذائي تتنافس عليها القوى الطامعة مستغلة بذلك الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تمر بها المنطقة العربية في هذه المرحلة من تاريخها .

وسنتناول في هذه الورقة بالتحليل قضايا ضعف الأمن الغذائي العربي بمختلف أبعادها ، مشيرين الى مواطن الضعف والقوة والى البدائل المتوافرة التي تعالج حدة المشكلة على الصعيدين المحلي والقومي . والقضايا التي نقترح تحليلها هي :-

أولا - تفاوت حدة مشكلة العجز الغذائي بين البلدان العربية .

ثانيا - البعد السكاني والأمن الغذائي حتى عام ٢٠٠٠ .

ثالثا - معضلة المواد الغذائية الأساسية : الحبوب ، اللحوم ، الزيوت ، الحليب ومنتجاته .

رابعا - ضعف السياسات الزراعية العربية .

خامسا - ضعف الموقف التفاوضي العربي امام الدول المصدره للغذاء .

سادسا ـ ضعف التكامل الزراعي العربي .

سابعا ـ ضعف مستويات الإنتاجية للموارد ، وضعف مستويات التقنية والجهود العلمية لزيادة الانتاج .

أولا : تفاوت حدة مشكلة العجز الغذائي بين البلدان العربية :

تتفاوت البلدان العربية فيما بينها في كم المواد الغذائية التي تستوردها ونوعها وقيمتها . وعلى الرغم من أن جميع البلدان العربية تهتم بمشكلة العجز الغذائي وتحاول ايجاد الحلول لها ، الا أن تفاوت حدة المشكلة بين بلد وآخر ينعكس بطبيعة الحال على مدى اهتمام كل بلد بهذه المشكلة . فقد استوردت المملكة العربية السعودية على سبيل المثال مواد غذائية بلغ معدل صافي قيمتها في الثمانينيات حوالي ٤,٥ بليون دولار سنويا ، وهو أعلى قيمه لمستوردات الغذاء بين البلدان العربية . ولكن قيمة هذه المستوردات شكّلت ٥ بالمئة فقط من قيمة صادرات المملكة لتلك الفترة . وتمثّل السعودية مجموعة البلدان العربية المصدرة للبترول التي تتصدر قائمة البلدان المستوردة للمواد الغذائية ، ولكن هذه المستوردات لم تشكل إلا نسبة قليلة نسبيا من قيمة مجمل صادراتها الإجمالية . والصورة للبلدان العربية هي على النحو التالي :ـ

البلد أو البلدان	نسبة صافي وارداتها من المواد الغذائية الى صادراتها الاجمالية بما في ذلك الصادرات الغذائية
ـ السعودية ، الكويت ، الإمارات ، قطر	٤ الى ٥ بالمئة
ـ ليبيا ، عمان ، المغرب ، السودان	٦ الى ١٠ بالمئة
ـ تونس ، العراق ، الجزائر	١٣ الى ١٥ بالمئة
ـ سوريا	٢٧ بالمئة
ـ لبنان ، اليمن الجنوبي	٤١ الى ٤٦ بالمئة
ـ الأردن	٥٦ بالمئة
ـ مصر	٦٨ بالمئة
ـ البحرين ، اليمن الشمالي	أعلى من ٨٥ بالمئة

المصدر : احتسبت الأرقام من كتب المنظمة العربية للتنمية الزراعية / جامعة الدول العربية ، الخرطوم . وهي الكتاب السنوي للأحصاءات الزراعية للأعوام ١٩٨٤ و ١٩٨٥ .

وأما توزيع البلدان العربية وفق قيمة مستورداتها السنوية من المواد الغذائية للفترة ١٩٨٠ الى ١٩٨٤ فقد كانت على النحو التالي :-

القيمة بالمليون دولار	البلد أو البلدان
٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠	السعودية
٢٠٠٠ الى ٢٥٠٠	مصر ، الجزائر
١٠٠٠ الى ١٥٠٠٠	ليبيا ، العراق
٧٠٠ الى ٨٥٠	الكويت ، دولة الإمارات
٤٠٠ الى ٦٠٠	لبنان ، اليمن الشمالي ، سوريا ، الأردن
٢٠٠ الى ٣٠٠	المغرب ، اليمن الجنوبي ، قطر ، البحرين ، تونس ، عمان
٥٠ الى ١٠٠	السودان ، جيبوتي
بلدان تزيد صادراتها الغذائية عن وارداتها بمعدل ١٠ الى ٥٠ مليون	موريتانيا ، الصومال

المصدر : احتسبت الأرقام من كتب المنظمة العربية للتنمية الزراعية / جامعة الدول العربية ، الخرطوم وهي الكتاب السنوي للاحصاءات الزراعية للأعوام ١٩٨٤ و ١٩٨٥ .

والأرقام الواردة أعلاه ، لا تشمل استيراد البلدان العربية من المواد الزراعية من بذور وأسمدة وكيماويات ومنتجات زراعية أخرى لا تدخل بالغذاء مباشرة وهي تشكل من الأرقام الواردة أعلاه نسبة تتراوح بين ٢٠ الى ٥٠ بالمئة . وبعبارة أخرى ، فقد بلغ صافي مستوردات البلدان العربية من المواد الغذائية ما معدله ١٦ ألف مليون دولار للفترة ١٩٨٠ الى ١٩٨٤ ، بينما بلغ صافي المستوردات من المواد الزراعية (غذاء + منتجات زراعية ومدخلات زراعية) ما معدله ٢٦ ألف مليون دولار للفترة نفسها .

ان الصورة التي نريد نقلها الى القارىء هي أن تفاوت حدة المشكلة يؤثر على الجدية التي يتناول بها كل بلد عربي مشكلة العجز الغذائي فيه . فنظرة بلد ما يستورد من الغذاء ما قيمته ٤ الى ١٠ بالمئة من مجمل صادراته تختلف عن نظرة البلد الذي تستنزف مستورداته من الغذاء أكثر من ٤٠ بالمئة من صادراته ، أي من الفائض التجاري الذي يتمتع به . ولعل هذه الصورة هي أحد العوامل التي جعلت البلدان العربية تتلكأ في المعالجة الجدية لمشكلة العجز الغذائي سواء بصورة منفردة أو بصورة مجموعات . أما البدائل أو المشاهد المستقبلية لهذا الوضع فسنطرحها عندما نتحدث عن قضايا تكامل الجهد العربي ، سواء في موقفها مع مصدري الغذاء أو في جهودها المشتركة في تكامل الإمكانيات البشرية والمالية والموارد الطبيعية . ولكن قبل أن نترك هذا الموضوع ، لا بد لنا من طرح قضية البيئة السياسية (الجو السياسي) السائدة بين البلدان العربية وأثر ذلك على امكانية تحقيق مشهد التكامل العربي . ولا بد لنا أن نطرح أيضا متطلبات توجّه البلدان العربية الغنية بأموالها لتتكامل مع تلك البلدان الغنية بمواردها الطبيعية . إننا لا زلنا في مرحلة توجيه اللوم الى هذه الجهة أو تلك لتقصيرها في تناول قضية التكامل بصورة جدية . ولكن الوقت قد جاء لتحليل المعوقات التي تواجه

هذا التكامل بدءا بدور الدولة والقطاع الخاص وأزمة الثقة بين البلدان العربية وانتهاء بأدوات ووسائل تجسير الفجوة بين الممكن وغير الممكن وبين التمنيات والواقع .

ثانيا : البعد السكاني والأمن الغذائي منذ عام ١٩٦٥ وحتى عام ٢٠٠٠ :

لم تكن في سنة ١٩٦٥ مشكلة تذكر بالنسبة لتأمين الغذاء ، اذ كانت بعض البلدان تنتج العديد من السلع الفائضة عن احتياجات سكانه مثل العراق وسوريا والسودان والمغرب . وكان البعض الآخر يستورد القليل مثل مصر ودول الخليج والأردن . وبعبارة أخرى ، كان هناك توازن مقبول بين ما تنتجه الموارد وبين ما يستهلكه السكان من غذاء . وقد بلغ عدد السكان حينئذ حوالي ٩٥ مليون نسمة مع تقدم السنين ، بدأ الخلل يظهر تدريجيا بين احتياجات أعداد السكان المتزايدة وبين ما تنتجه الموارد من غذاء . وقد زاد من الخلل تعاظم دخل الفرد العربي في معظم أقطاره مما أدى الى زيادة الإقبال على استهلاك كميات أكبر ونوعيات منتخبة من السلع الغذائية مثل اللحوم ومنتجات الحليب والفواكه .

وعلى الرغم من تنبه بعض البلدان للأبعاد المستقبلية للمشكلة والقيام بمشروعات كبيرة في بلاد مثل مصر (السد العالي) والمغرب (السدود ومشاريع الري) والجزائر ، الا أن المشكلة تفاقمت . ونستطيع ايجاز الوضع بصورة مبسطة بأن نقول إن البلدان العربية لم تحسن التخطيط المتوازن بين الزيادة المتوقعة في استهلاك المواد الغذائية وبين الزيادة التي يحققها القطاع الزراعي في الانتاج . ومما زاد من حدة المشكلة أن معظم الدول أخذت على عاتقها (ولاسباب سياسية واجتماعية واقتصادية) مسؤولية تأمين الغذاء لملايين الناس الذين بدأوا يتجمعون في المدن بعد أن هجروا الريف . وبعد عشرين عاما فقط ، أي في عام ١٩٨٤ ، ارتفع عدد السكان الى الضعف تقريبا ، اذ أصبح ١٩٨٥ مليونا موزعين على مجموعات البلدان العربية على النحو التالي :-

المجموعة	عدد السكان بالمليون (١٩٨٤)	النسبة المئوية الى المجموع
- مصر والسودان والصومال وجيبوتي	٨٣	٣٩
- المغرب والجزائر وموريتانيا وليبيا وتونس	٥٥	٣٠
- اليمنين والسعودية وعمان والإمارات وقطر والكويت والبحرين	٢٦	١٤
- العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين	٣١	١٧
المجموع	١٨٥	١٠٠

تُرى ماذا حدث بالفعل بعد أن تضاعف عدد السكان بهذه السرعة . ان الاحصاءات المتوافرة تشير الى ان البلدان العربية بمجموعها أصبحت أكبر منطقة عجز غذائية في العالم ، إذ أصبحت تعتمد على الخارج بما يبلغ قيمة ٤٥ بالمئة من مجمل ما تحتاجه من مواد غذائية . ويتحدث الكثيرون عن عظم قيمة المستوردات التي بلغت بمعدلها السنوى

فوق العشرين بليون دولار امريكي في منتصف الثمانينات . ولكن الأمر ليس بالقيمة المادية لهذه المستوردات ، إذ أن البلدان العربية تستورد السلاح ووسائل النقل ومنتجات التقنية الأخرى باضعاف اضعاف تلك القيمة . إن المواطن العربي يشعر أن بمقدور البلدان العربية انتاج كميات أكبر بكثير مما تنتجه الموارد المتاحه في الوقت الحاضر ، والمواطن العربي يشعر أيضا بأن التقليل من التبعية الغذائية لهو أيسر من التقليل من التبعيات الأخرى في مجال التقنيات . ومن هنا تكوّن رأي عام عربي له أبعاده الاجتماعية والسياسية والنفسية في أن البلدان العربية مقصّره بصورة كبيرة في توفير الغذاء من مواردها المحلية . ولنأخذ مثلا صارخا على مثل هذا التقصير الذي حدث عبر عشرين عاما من التاريخ الحديث . إن الانسان العربي يعتمد بصورة رئيسية على الخبز عندما يفكر بأمنه الغذائي . وفي منتصف الستينات (١٩٦٤ ـ ١٩٦٦) ، بلغ استهلاك القمح في الوطن العربي ما معدله ١٢ مليون طن سنويا من القمح ، وقد انتجت البلدان العربية حينئذ ما معدله ثمانية ملايين طن من مواردها المحلية ، أي بمعدل ٦٦ بالمئة من الاحتياجات . أما في النصف الأول من الثمانينات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٤) ، فقد بلغ استهلاك القمح ما معدله ٢٦ مليونا بينما بلغ انتاج البلدان العربية حينئذ ما معدله تسعة ملايين طن سنويا أي بمعدل ٣٥ بالمئة فقط من مجمل الاحتياجات . واذا استمر الحال على ما هو عليه الآن فإن عدد سكان البلدان العربية عام ٢٠٠٠ (حوالي ٢٩٠ مليون نسمة)[١] سيحتاجون الى حوالي ٤١ مليون طن من القمح . واذا استمرت زيادة الانتاج من القمح بالمعدلات السابقة وهي مليون طن اضافي كل عشر سنوات تقريبا ، فان الوطن العربي سيستورد ٣٠ مليون طن من القمح في عام ٢٠٠٠ ، اي انه سيصبح يعتمد على الخارج لتامين ٧٥ بالمئة من احتياجاته السنوية .

هكذا يبدو واقع ومستقبل أحد المشاهد للأمن الغذائي ، تُرى ما هي البدائل لتغير صورته المستقبلية . نلخص الاجابة على هذا السؤال في طرح ثلاثة بدائل هي :

١ ـ انخفاض نسبة تزايد السكان التي يبلغ معدلها الحالي ٢,٩ بالمئة سنويا بصورة تدريجية . إن فرص تحقيق هذا البديل ضئيلة وخصوصا في المستقبل القريب ، واذا بدأت البلدان العربية بخطة لتنظيم زيادة عدد السكان بمعدل يقل نصفاً بالمئة مثلا كل خمس سنوات ، فإن عدد السكان سيصبح على النحو التالي :ـ

عدد السكان في كل عام وفق معدل الزيادة الحالية (المشهد (١) ، ووفق الزيادة المحسوبة على الإنخفاض في نسبة الزيادة بمعدل نصف بالمئة كل خمس سنوات (المشهد (٢)) .

عدد السكان عام ١٩٨٤	عدد السكان عام ١٩٩٠		عدد السكان عام ١٩٩٥		عدد السكان عام ٢٠٠٠	
	المشهد (١)	المشهد (٢)	المشهد (١)	المشهد(٢)	المشهد(١)	المشهد(٢)
١٨٥	٢٢٠	٢١٦	٢٥٣	٢٤٠	٢٩٢	٢٦٠

(١) — World Development Report, 1986. The World Bank. Oxford University Press.
— World Population Prospects, 1982. United Nations.

ويتبين من الصورة المستقبلية للمشهد رقم (٢) (وهو تناقص نسبة زيادة عدد السكان بمعدل نصف بالمئة كل خمس سنوات) أن مجموع السكان سيصبح ٢٦٠ مليون نسمة بدلا من ٢٩٢ ، وسيؤدي ذلك الى تناقص احتياجات السكان من القمح بمقدار خمسة ملايين طن في عام ٢٠٠٠ ، وهذا يعني أن كمية المستوردات ستصبح ٢٥ بدلا من ٣٠ طن . والاستنتاج أن هذا البديل اذا تحقق لن يغير مستقبل الأمن الغذائي الى صورة ايجابية أو مقبولة .

٢ ـ أما البديل الثاني فهو انخفاض معدلات استهلاك الفرد من القمح : يبلغ معدل استهلاك الفرد من القمح سنويا حوالي ١٤٠ كغم وهو ضعف ما يستهلكه الفرد في دول أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية . إن أي انخفاض في استهلاك القمح سيصاحبه ارتفاع في استهلاك مواد أخرى مثل الارز والبطاطا واللحوم والخضار ، وهي سلع باستثناء الخضار تعاني البلدان العربية من عجز في انتاج ما يكفيها منها .

هذا بالاضافة الى أن أي تغيير في النمط الغذائي يحتاج الى تغيير جذري في السياسات التموينية والى حملات توعية لتغيير النمط الاستهلاكي من القمح الى البطاطا مثلا كمصدر للطاقة الغذائية . وملخّص القول أن تحقيق هذا البديل يواجهه صعوبات اقتصادية واجتماعية تتعلق بدخل الفرد والسياسات التموينية والنمط الغذائي ، وهي صعوبات لا يستطيع المرء استشراف مدى أثرها على انخفاض استهلاك المواد الغذائية بصورة عامة والقمح بصورة خاصة على المدى القصير .

٣ ـ زيادة الانتاجية : ان المعدلات الحالية لانتاجية القمح متدنية ، وبلغت ٥٥ بالمئة فقط من المعدلات العالمية للفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ ، اذ بلغ معدل انتاجية القمح في البلدان العربية للفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ مقارنة بمعدلات اخرى على النحو التالي :ـ

ـ معدل البلدان العربية	كغم للهكتار	١١٣١
ـ اوروبا الغربية	كغم للهكتار	٤١١٣
ـ المكسيك	كغم للهكتار	٣٩٣٩
ـ تركيا	كغم للهكتار	١٨٦٤
ـ الولايات المتحدة	كغم للهكتار	٢٤٣٢
ـ معدل العالم	كغم للهكتار	٢٠٣٧

ان هذا البديل هو أكثر البدائل امكانية للتحقيق على الأمدين القصير والبعيد . اننا لا نقصد بزيادة الانتاجية زيادة المساحة المزروعة بالقمح بل الزيادة الرأسية لانتاجية وحدة الأرض المزروعة . ويتحقق ذلك عن طريق تغيير جذري في السياسات الزراعية والتقنيات والطرق والموارد المستعملة في انتاج القمح . ولا يتسع المكان هنا للدخول بتفاصيل الأبعاد المختلفة لزيادة الانتاجية ولكننا نلخصها بما يلي : ـ

١ ـ تحديد أسعار منتجي القمح من الأسعار المدعومة للمستهلك وبعبارة أخرى فان دعم الحكومة للمستهلك بتقديم سلعة القمح بأسعار مخفضة ينبغي أن لا يكون على حساب المنتج للقمح .

٢ ـ التوجه الى انتاج القمح بالبيئات المناسبة التي تسمح باستعمال التقنيات الحديثة . ان الزراعة التقليدية في الأراضي الهامشية والبعلية لن تؤدي الى زيادة ملموسة في الأنتاجية لأنها لا تسمح باستعمال التقنيات الحديثة من بذور محسنة وتسميد .

٣ ـ تكثيف الجهود العلمية وتقويتها لتصل الى واحد بالمئة على الأقل من قيمة القمح الذي تحتاجه البلدان العربية .

وباعتبار أن قيمة القمح الذي تستهلكه البلدان العربية يصل الى حوالي ستة بلايين دولار في العام (اذا كان سعر القمح يساوي ٢٢٥ دولاراً للطن) فإنّ مخصصات البحث العلمي والتطوير لهذه السلعة تصل الى ٦٠ مليون دولار في العام . ان التقديرات الحالية لمخصصات البحث العلمي والتطوير لمادة القمح لا تتجاوز ١٠ بالمائة من الحد الأدنى الذي ينبغي أن يخصص وفق المؤثرات العالمية .

ثالثا : معضلة المواد الغذائية الأساسية :

تستورد البلدان العربية ما يزيد عن مائة نوعٍ من المواد الغذائية ، نُصنفّها تحت مجموعتين : أولهما المواد الغذائية الأساسية وهي التي تدخل بصورة رئيسية في غذاء الإنسان العربي سواء من حيث تزويده بالطاقة الغذائية أو بمتطلبات النمو والصحة . وتتمثل هذه المواد بخمس مواد أو مجموعات من المواد الغذائية هي الحبوب ، السكر ، الزيوت النباتية ، اللحوم ، الحليب ومنتجاته . وثانيهما المواد الأخرى غير الرئيسية وهي التي تشكل باقي المواد الغذائية . والمعضلة التي تواجه البلدان العربية تتمثل في العجز الكبير القائم في توفير المواد الأساسية من مواردها المحلية . وقد كان معدل العجز في عدد من المجموعات الرئيسية وغير الرئيسية خلال فترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ في مجموع البلدان العربية على النحو التالي :

المادة أو مجموعة المواد	معدل العجز القائم بين ما تنتجه وتستهلكه البلدان العربية خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ بالمليون طن		
	معدل/ الانتاج	معدل الاستهلاك	نسبة العجز ٪
ـ القمح	٩,٠	٢٦,٠	٦٥,٠
ـ الشعير	٤,٥	٩,٠	٥٠,٠
ـ الذرة الصفراء	٤,٠	٧,٥	٤٧,٠
ـ الأرز	٢,٥	٤,٠	٣٨,٠
ـ مجموعة الحبوب (الأربعة أعلاه + أخرى)	٢٤,٥	٥٠,٥	٥١,٥
ـ السكر	١,٥	٤,٥	٦٧,٠
ـ اللحوم الحمراء	١٩,٠	٢٣,٥	١٩,٠
ـ اللحوم البيضاء	٨,٥	١٣,٥	٣٦,٠
ـ الزيوت النباتية			
ـ الحليب ومنتجاته			
ـ الخضروات	٢١,٥	٢٢,٠	٢,٠
ـ الفواكه	١٠,٥	١١,٠	٢,٥

المصدر : احتسبت من الأرقام الرسمية الواردة من كتب الأغذية والزراعة الدولية ، روما . وهي كتاب الانتاج السنوي وكتاب التجارة السنوي للأعوام ١٩٨٢ و ١٩٨٤ .

وتشكّل قيمة صافي المستوردات من المواد الغذائية الرئيسية ٧٣ بالمئة من مجمل صافي مستوردات الغذاء في البلدان العربية وهي موزعة على النحو التالي :

	الحبوب	اللحوم	الألبان ومنتجاته	الزيوت النباتية	السكر	المجموع	باقي المواد الغذائية
- نسبة المستوردات الى المجموع	٣٨	٩	١٠	٧	٩	٧٣	٢٧

وتتوزع المستوردات لكل مادة أو مجموعة من المواد بالنسبة المئوية على مجموعات البلدان العربية على النحو التالي :

مجموعة البلدان	نسبة مستوردات المجموعة من كل مادة أو مجموعة من المواد الى المجموع من نفس المادة					
	الحبوب	اللحوم	الألبان ومنتجاته	الزيوت النباتية	السكر	قيمة المستوردات بالمليون دولار
١ - مصر والسودان والصومال وجيبوتي	٦٣	٩	٨	١١	٩	٢٦٤٠
٢ - المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا	٥٠	٤	١٨	١٣	١٥	٣٠٩٧
٣ - اليمن الشمالي واليمن الجنوبي والسعودية وعمان والامارات وقطر والكويت والبحرين	٤٧	٢٠	١٨	٧	٨	٣٩٨٥
٤ - العراق وسوريا ولبنان والأردن	٤٨	١٧	١١	٧	١٦	٢١٤٧
مجموع قيمة المستوردات من السلعة	٦١٢٢	١٥٢٣	١٧٢٢	١١٠٣	١٤٠٠	١١٨٧٠

المصدر : الكتاب السنوي للإحصاءات الزراعية ، ١٩٨٥ . المنظمة العربية للتنمية الزراعية/ جامعة الدول العربية ، الخرطوم .

والمعضلة التي تواجه البلدان العربية في تأمين المواد الأساسية لها بعدان رئيسيان : أولهما استحالة تأمين البلدان العربية لتلك المواد من مواردها المحلية في ظل الظروف والمعطيات الحالية . وتتمثل الظروف والمعطيات بما يلي :

أ ـ تدني انتاجية الموارد بصورة لا تتناسب وامكانيات الموارد .
ب ـ ضعف التكامل الزراعي المبني على استعمال البيئات الزراعي بالدرجة المثلى .
جـ ـ ضعف استعمال التقنيات والمدخلات الحديثة في الانتاج الزراعي .
د ـ ضعف الحوافز والسياسات الزراعية التي تشجع الانتاج .

ولنأخذ مشهدا وهو أن البلدان العربية قد فرض عليها حصار للمواد الغذائية وأرادت أن تنتج المواد الأساسية من مواردها وفق مستويات الانتاجية والمعطيات الحالية ، فان انتاج ما تستهلكه البلدان العربية من الحبوب فقط وفق مستويات الانتاجية الحالية يتطلب مساحات من الأرض على النحو التالي :

المـادة	معدل الاستهلاك بالمليون طن للفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤	معـدل الانتاجية (كغم/للهكتار)	المساحة المطلوبة لانتاج الكمية المستهلكة بالمليون هكتار
ـ القمح	٢٦,٠	١١٣١	٢٣,٠
ـ الشعير	٨,٨	٧٢٠	١٢,٠
ـ الذرة الصفراء	٧,٥	٢٦١٦	٣,٠
ـ الأرز	٤,٠	٥١٣٢	٠,٨
ـ أخـرى	٤,٠٢	٦٧٢	٦,٠
المجموع	٥٠,٥		٤٤,٨

المصدر : احتسبت من الأرقام الرسمية الواردة في كتب منظمة الأغذية والزراعة الدولية ، روما . وهي كتاب الانتاج السنوي وكتاب التجارة السنوي للأعوام ١٩٨٢ و ١٩٨٤ .

يتبين من الأرقام أعلاه أن البلدان العربية تحتاج الى ٤٤,٨ مليون هكتار لانتاج كامل متطلباتها من الحبوب فقط . وهذه المساحة تزيد بنسبة ١٥ بالمئة على مجمل معدل جميع المساحات التي تزرع سنويا في جميع البلدان العربية (بلغ مجمل مساحات الأراضي المزروعة بجميع المحاصيل ريا ومطريا في جميع البلدان العربية للفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ ما معدله ٣٨ مليون هكتار سنويا) .

ولو افترضنا أن انتاج البلدان العربية هو ضعف المستويات الحالية بالنسبة للقمح والشعير والحبوب والذرة والحبوب الأخرى ، فان المساحة المطلوبة تكون نصف المساحة المطلوبة تقريبا أي حوالي ٢٢ مليون هكتار . وهذه المساحة تشكل ٥٨ بالمئة من المساحات المزروعة سنويا في البلدان العربية . تُرى هل بامكان البلدان العربية مضاعفة انتاجها من هذه السلع أم أن ذلك يندرج تحت المعجزات . والجواب هو بالطبع نعم . أي أنه بامكان البلدان العربية

مضاعفة الانتاج ، اذ أن العديد من البلدان العربية مثل مصر والسعودية التي تزرع القمح ربما تنتج القمح على سبيل المثال بمستويات تصل ثلاثة الى أربعة أضعاف معدل مستوى الانتاج لمجموعة البلدان العربية . كما أن بلدا مثل تركيا التي تزرع السواد الأعظم من قمحها مطريا تنتج القمح بمستويات ثلاثة الى أربعة أضعاف معدل مستويات مجموعة البلدان العربية التي تزرع قمحها تحت المطر .

أما البعد الثاني لهذه المعضلة فيكمن في توافر ما تحتاجه البلدان العربية من غذاء تحت سيطرة بلدان قليلة في العالم التي قد تلجأ الى استعمال الغذاء كسلاح اقتصادي أو سياسي . فمثلا لقد شهد التاريخ القريب لأسعار القمح العالمية تذبذبا كبيرا ، ففي منتصف السبعينات وصل سعر الطن من القمح حوالي ٢٥٠ دولارا بعد أن كان سبعين دولارا في نهاية الستينات ، ثم هبط سعر القمح الى حوالي ١٢٠ دولارا أو أقل في منتصف الثمانينات ، وهذا يدل على أن أسعار السلع الرئيسية هذه لا توحي بالأمن والاطمئنان .

ومرة أخرى نعود الى البدائل المتوافرة للتغلب على المعضلة أو التخفيف من حدتها لدرجة عدم الخطر ، والجواب يكمن في العديد من البدائل التي سنطرحها تحت القضايا الأخرى نظرا لتداخلها .

رابعا : ضعف السياسات الزراعية العربية :

انشغل أصحاب القرار في البلدان العربية بالعديد من القضايا السياسية والاجتماعية والأمنية في الداخل والخارج خلال ربع القرن الأخير . ولم تأخذ قضية التوازن بين زيادة الطلب على المواد الغذائية من ناحية ، وخطط توفيرها من المصادر المحلية من ناحية أخرى الأولوية التي تستحقها . واتجه معظم أصحاب القرار العرب الى اعطاء الأولوية للمشاريع الصناعية والتجارية ومشاريع البنية التحتية ، مما أدى الى تعاظم الفجوة بين الانتاج المحلي من الغذاء وكميات الغذاء المطلوبة لسد احتياجات تجمعات الناس في المدن والريف على حد سواء . ونتحدث هنا بصورة خاصة عن البلدان التي تمتلك موارد زراعية كبيرة مثل العراق وسوريا والجزائر وتونس ومصر والسودان ، الى آخر القائمة . وعلى الرغم من ظهور مؤشرات التطورات السلبية التي تنذر بوجود الفجوة في وقت مبكر ، إلا أن العديد من صانعي القرار العرب قد فوجئوا بتطور مشكلة نقص الغذاء المتوافر من المصادر المحلية . وأصبح كل صاحب قرار نتيجة هذا الوضع أمام خيارين هما إما التوجه الى تنمية مصادره المحلية لزيادة انتاج الغذاء وتوفير المؤسسات والخطط اللازمة لنهضة زراعية مكثفة ، وإما التوجه الى سدّ الفجوة المتعاظمة عن طريق استيراد المواد الغذائية . وبما أن توفير الغذاء للسكان هو ضرورة أساسية لحياة الناس والاستقرار الداخلي ، فلقد لجأ أصحاب القرار الى الخيار الممكن والأسرع لتلبية الاحتياجات ، وهو الاستيراد من الخارج . ومنذ بداية السبعينات والبلدان العربية في سباق له بعدان . البعد الأول هو توفير الغذاء للسكان من المصادر المحلية والاستيراد ، والبعد الثاني هو تنمية المصادر المحلية للوصول الى أعلى درجة من الاكتفاء الذاتي من المواد الغذائية . وخلال الخمس عشرة سنة الماضية ، اتبعت البلدان العربية سياسات زراعية متفاوتة بل ومتناقضة مع الأهداف المعلنة . وقد قامت المنظمة العربية للتنمية الزراعية في الخرطوم بدراسات مستفيضة للتعرف الى واقع السياسات الزراعية نلخّص ملامحها الرئيسية وآثارها السلبية والايجابية على الأمن الغذائي العربي بما يلي :

١ ـ اضطرت معظم البلدان العربية الى استيراد المواد الغذائية التي تنقصها من الخارج بالأسعار الجارية ، كما اضطرت لطرح تلك المواد في الأسواق بأسعار تتناسب وذوي الدخل المحدود من السكان . وفي كثير من الأحيان كانت تلك الأسعار منافسة للمنتج المحلي مما اضطر معظم المنتجين الى الابتعاد عن انتاج السلع التي تستوردها الدولة وتطرحها بأسعار لا تشجع المنتج المحلي على منافستها ، بل ليس بمقدوره منافستها حتى لو أراد . وكان على رأس هذه السلع المستوردة القمح والذرة الصفراء واللحوم الحمراء ومنتجات الحليب والزيوت . ومما زاد الطين بلة أن بعض البلدان العربية لجأت الى طرح السلع المستوردة بأسعار مدعومة من الدولة ، أي بأسعار أقل من الأسعار الدارجة في الداخل والخارج . اننا لا ننادي في أن لا تدعم الدولة أسعار المواد الأساسية من الغذاء ، أو أن لا تقدمها بأسعار قريبة من دخل المستهلك ، ولكننا ننادي بأن لا يكون الدعم للمستهلك على حساب المنتج المحلي .

٢ ـ لجأت العديد من البلدان العربية الى الاحتفاظ بملكية وادارة أفضل الموارد الزراعية من أراض ومياه ومدخلات ، وطلبت من المزارعين العمل في تلك الموارد تحت شروط غير مشجعة للانتاج . وقد أدت هذه السياسة الى عزوف المزارع عن بذل أقصى جهده أو أفضل ما عنده من جهد واستثمار ، لأن الحوافز المعروضة له لم تكن مشجعة . فالمزارع لا يملك الأرض ولا يملك القرار بما يزرع وبما لا يزرع ، وكان المطلوب منه أن يزرع سلعا لا تعطيه دخلا مجديا في ظل السياسات السعرية المفروضة من الدولة . وقد تنبهت بعض البلدان لخطورة مثل هذه السياسات وتعلمت بعضها الدروس . ورأينا في بداية الثمانينات كيف أقبل المنتجون في المملكة العربية السعودية على زراعة القمح في ظل الحوافز التي وضعتها الدولة هناك ، وكيف عزف عن انتاج القمح معظم المزارعين في بلدان أخرى لم تقدم حوافز قريبة من تلك التي في السعودية . اننا لا ننادي بأن تقوم كل دولة بتقليد ما حصل في السعودية ، ولكننا نسوّق ما حصل هناك كمثل لسلوك المزارع أو المنتج في ظل سياسة الحوافز . والدرس المستفاد هنا هو ان المنتج يحتاج الى حوافز لتطبيق سياسة الدولة . وقد تكون هذه الحوافز كبيرة أو صغيرة ، ولكن ينبغي أن تكون مجدية للمنتج في ظل الظروف الاقتصادية السائدة داخل البلد وخارجه .

٣ ـ لجأت معظم البلدان العربية الى تنويع انتاجها الزراعي من مختلف المحاصيل والمواد الغذائية الأخرى داخل حدودها السياسية بغض النظر عما اذا كانت البيئة الزراعية مناسبة لهذا المحصول أو ذاك ، أو اذا كان الانتاج اقتصاديا أم لا . فقد سعى كل بلد عربي لانتاج المواد الغذائية من موارده المحلية متخذا بذلك سياسة انتاج « حبة السمسم حتى الجمل » وهي السياسة المقلدة للسياسة الصناعية في انتاج « الابرة حتى الطائرة » . ان البيئات الزراعية تتفاوت في مدى صلاحيتها لانتاج هذا المحصول أو ذاك . فاذا أردنا الحصول على أعلى انتاج للحمضيات أو التفاح ، علينا زراعة كل نوع في البيئة المناسبة والأفضل أن نزرعها في البيئة المثالية . ان مراجعة سريعة لما يزرع في البلدان العربية تبين مدى تنوع المحاصيل التي يجري انتاجها دون أي اعتبار لمدى صلاحية الموارد لتلك المحاصيل . وهذا الموضوع يرتبط ارتباطا وثيقا بضعف التكامل الزراعي بين البلدان العربية .

٤ ـ لجأت بعض البلدان العربية وأهمها السودان الى انتاج محاصيل صناعية للتصدير للحصول على العملات الصعبة ، وخصصت لذلك أفضل مواردها بغض النظر ان كان ما يزرع في تلك الموارد هو أفضل الممكن . فقد انشأت

بريطانيا مشروع الجزيرة في السودان لانتاج القطن لخدمة صناعاتها ، واستمرت الدولة الوطنية بالسياسة نفسها مع بعض التغيير الطفيف في النمط الزراعي . اننا نرى أن الصناعات التي ارتكزت على تلك المحاصيل لم تتقدم داخل البلد ، بل تدهور ما كان مزدهرا منها في وقت ما ، وأصبح الهدف الأساسي من زراعة المحاصيل الزراعية هو تصديرها كمواد خام وبأسعار غير مجدية للاقتصاد الوطني بدلا من أن تكون مواد خام لصناعات وطنية .

خامسا : ضعف الموقف التفاوضي العربي أمام البلدان المصدرة للغذاء :

ستبقى البلدان العربية في ظل ضعف التكامل الزراعي وفي ظل الأنماط الزراعية الحالية ، وفي ظل ضعف النهضة الزراعية وتباطؤ البلدان العربية في توفير متطلبات تلك النهضة من تقنية حديثة وسياسات زراعية حافزة للمنتج ، ستبقى في وضعها الحالي أي كمنطقة عجز غذائي تتنافس عليها الدول المصدرة للغذاء . واذا أخذنا بالمشهد الواقعي في استمرار البلدان العربية لاستيراد الغذاء ، فانه من الممكن تحسين موقف البلدان العربية التفاوضي للحصول على ما تحتاجه من مواد غذائية بشروط أفضل . ان الشروط التي نتحدث عنها هي تنظيم عملية الاستيراد بشكل يسمح بقيام نهضة زراعية ، وفي الوقت نفسه ، يسمح باستمرار تأمين الغذاء الذي تحتاجه البلدان العربية مرحليا بشروط أفضل لحين الوصول الى النهضة الزراعية المنشودة .

وفي ظل عصر التكتلات الاقتصادية الذي نعيشه اليوم ، فاننا نتساءل لماذا لا تلجأ البلدان العربية ضمن مجموعات لها مصالح مشتركة ، في تنظيم عملية الحصول على الغذاء من مصادر خارجية بشروط أفضل وفي ظل اتفاقيات تؤمن الغذاء الأساسي للسكان وتضمن الحد الأدنى من استقرار الأسعار والشروط المناسبة . اننا نعلم باتفاقيات ثنائية لتأمين القمح مثلا من هذه الجهة الخارجية أو تلك ، ولكننا نعلم أيضا مدى تعرّض تلك الاتفاقيات بصورة سلبية للأجواء السياسية والاقتصادية العالمية المتغيرة . ان هذا الجانب من الأمن الغذائي العربي يحتاج الى الكثير من التنسيق ، وهو يندرج تحت باب التمنيات النظرية اذا ما طالبنا بوجود موقف عربي موحد . ان الأمر الذي ندعو اليه هنا هو موقف مجموعة من البلدان في الحصول على ما تحتاجه من غذاء بصورة آمنة وضمن اتفاقيات يتبادل فيها طرفا المعادلة مصالح مشتركة . وقد تكون الاتفاقية بين مجموعة بلدان عربية ومجموعة عربية أخرى ، أو مجموعة بلدان عربية ودول أو مجموعة دول غير عربية .

سادسا : ضعف التكامل الزراعي العربي :

ان كاتب هذه الورقة يؤمن بأن البلدان العربية قادرة على التخلص من شبح ضعف الأمن الغذائي اذا ما اتبعت هذه البلدان سياسة التكامل الزراعي . والتكامل الزراعي الذي نتحدث عنه له ثلاثة أبعاد .

أولها : التكامل في الموارد الطبيعية والمالية والبشرية في انتاج الغذاء ، وهناك دراسات عديدة تبين جدوى هذا التكامل وامكانية وصول البلدان العربية ليس فقط الى وضع تؤمّن فيه جميع احتياجاتها من الغذاء ، بل الى وضع يمكنها فيه من التصدير أيضا .

وثانيها : التكامل الزراعي العربي في التبادل التجاري الزراعي ضمن سوق زراعية عربية مشتركة تفتح فيه الأسواق العربية أبوابها للمنتجات الزراعية العربية .

وثالثها : التكامل في توفير متطلبات النهضة الزراعية المنشودة عن طريق تطوير التقنيات الحديثة وادخالها في الانتاج وعن طريق توفير المدخلات الزراعية من مصادر ذاتية وخارجية تعود على الجميع بالمصلحة المشتركة .

ان التكامل الزراعي الذي نتحدث عنه هنا لا يعني أن تقوم الدولة الغنية ماليا بتقديم هبات للدول التي تمتلك الموارد الطبيعية دون مقابل ، ولا يعني أن البلدان العربية التي تمتلك الموارد تبقى صاحبة القرار في كيفية استعمال تلك الموارد . ان التكامل الزراعي الذي نتحدث عنه هو تكامل المصالح الاقتصادية التي تأخذ وتعطي فيه الأطراف المعنية في آن واحد .

ان البدائل المتاحة للبلدان العربية هي إما الاستمرار في المسيرة الحالية من الاعتماد على مصادر خارجية لتأمين الغذاء مع كل ما تنطوي عليه هذه المسيرة من مخاطر للأمن الغذائي ، وإما مراجعة الذات العربية والبحث عن المعوقات التي تقف أمام التكامل الزراعي وايجاد الآليات والمعادلات الواقعية التي تسمح بعلاقات صحية ترى فيها جميع الأطراف مصلحة لها . لقد كُتب الكثير عن هذا الموضوع ، وجاء الوقت لتكثيف الجهود لايجاد معادلات ومسارات تمكّن البلدان العربية من التقدم في المسيرة الطويلة للتكامل العربي الزراعي .

سابعا : ضعف مستويات الانتاج للموارد ، وضعف مستويات التقنية والجهود العلمية لزيادة الانتاج :

ان الدارس لمستويات الانتاجية للموارد الزراعية في البلدان العربية ، يخرج باستنتاجين : أولهما وجود تفاوت كبير بين مستويات الانتاجية لمحصول ما ، إما داخل البلد الواحد للمورد نفسه ، أو بين البلدان العربية فيما بينها . وثانيهما أن مستوى انتاجية الموارد العربية بصورة عامة هو دون مستوى الحدود الممكنة . ان مستويات الانتاجية هي في النهاية حصيلة الموجودات المحلية والقومية من سياسات زراعية وجهود علمية وادارة موارد ومدى توافر الحوافز الى آخر قائمة كل الأعمال التي تتعلق بالانتاج . وسنبيّن في عرضنا هذا أن بعض الأفراد بل وبعض البلدان قد تمكّنت من الحصول على مستويات عالية من الانتاجية ، وهذا ينفي التهمة عن المزارع العربي في أنه مقصّر أو أنه متأخر . فعندما تتوافر العناصر اللازمة للانتاجية العالية ، فان الأرض تعطي والمزارع يجتهد ويعمل وينتج . والمطلوب اذن هو تعميم الانجازات الفردية المتميزة لتصبح أكثر شيوعا بين المزارعين على المستوى الوطني ، ومن ثم على المستوى القومي .

المستويات القياسية النظرية والمستويات القياسية المحققة والمعدلات الوطنية للإنتاجية :

من المعروف أن لكل محصول امكانية قياسية نظرية ، وهي أعلى انتاج يمكن للمحصول انتاجه في حالة توافر جميع العناصر بصورة مثالية ومتكاملة في البيئة التي يزرع فيها المحصول . وهناك تنافس عالمي للوصول الى هذا المستوى القياسي النظري . وهناك المستوى القياسي الذي جرى تحقيقه في العالم ، وهو أعلى مستوى حققه المزارع بصورة موثقة على مستوى الحقل . وأما مستويات الإنتاج التي نتعامل معها فهي عادة تعكس معدلات الإنتاج على مستوى البيئة المحلية أو على مستوى البلد أو الإقليم أو العالم . فالمستوى القياسي النظري لإنتاجية القمح على سبيل المثال هو عشرون

طنا للهكتار الواحد والمستوى القياسي الذي جرى تحقيقه هو ١٤ طناً وأما إنتاجية القمح على مستوى العالم كله فتبلغ طنين للهكتار الواحد .

وبمقارنة مستويات الإنتاجية على مستوى البلدان العربية مع غيرها فإن الوضع للفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ يسير على النحو التالي :

المحصـــول	معدل الانتاجية طن / للهكتار للفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤					
	مجموعة البلدان العربية (معدل)	العالم	الولايات المتحدة	تركيا	المكسيك	أوروبا الغربية
ـ القمح	١,١٣	٢,٠٤	٢,٤٣	١,٨٧	٣,٩٤	٤,١١
ـ الشعير	٠,٧٢	٢,٠٦	٢,٨٦	١,٩٦	١,٨٣	٣,٦٤
ـ الذرة الصفراء	٢,٦٢	٣,٣٠	٦,٣٨	٢,٣٩	١,٧٣	٥,٤٢
ـ الأرز	٥,١٣	٢,٩٨	٥,٢٦	٤,٤٩	٣,٣١	٥,٥٠
ـ البندورة	١٧,١٦	٢٢,٠٨	٤٤,٨١	٣٢,٣٢	٢٠,٧٠	ـ
ـ البطاطا	١٢,٧٧	١٤,١٩	٣٠,٥٤	١٦,٦١	١٢,٥٠	٢٢,٨٣
ـ الشمندر السكري	٣٥,٥٥	٣١,٦٠	٢٤,٩١	٣٤,٦٣	٤٦,١١	

المصدر : احتسبت من الكتاب السنوي للإنتاج ، منظمة الأغذية والزراعة الدولية ١٩٨١ ـ ١٩٨٤ ، روما .

ويتبين أن مستويات الانتاجية في البلدان العربية دون المعدل لمجموع دول العالم باستثناء الشمندر السكري والأرز ، وهي بالصورة نفسها بالنسبة لبلد مثل تركيا إذ أنها دون معدلات الولايات المتحدة في جميع الأحوال . وإذا قارنا مستويات الانتاج الى الأرقام القياسية التي جرى تحقيقها في العالم لعدد من المحاصيل ، فان صورة البلدان العربية مقارنة ببعض البلدان هي كما يلي :

المحصول	الإنتاجية القياسية المحققة (طن / هكتار)	نسبة معدل الإنتاجية لكل بلد أو مجموعة من البلدان الى الإنتاجية القياسية					
		البلدان العربية	العالم	الولايات المتحدة	تركيا	المكسيك	اوروبا الغربية
القمح	١٤,٥	٨	١٤	١٧	١٣	٢٧	٢٨
ـ الشعير	١١,٤	٦	١٨	٢٥	١٧	١٦	٣٢
ـ الذرة الصفراء	١٩,٣	١٤	١٧	٣٣	١٣	٩	٢٨
ـ البطاطا	٩٤,١	١٤	١٥	٣٣	١٨	١٣	٢٤
ـ الشمندر السكري	١٢١,٠	٢٩	٢٦	٢١	٢٩	٣٨	-

المصدر : احتسبت من الكتاب السنوي للانتاج : منظمة الاغذية الزراعية الدولية ١٩٨١ ـ ١٩٨٤ ، روما . بالنسبة للانتاجية القياسية من :

Boyer J.S. 1982 ,

Plant Productivity and Environment . Science 218 : 443 - 48 .

وكما ذكرنا سابقا فان البلدان العربية تتفاوت فيما بينها في مستوى الانتاجية لمختلف المحاصيل وكان التفاوت لعدد مختار من المحاصيل والبلدان العربية ، كمعدل للفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٤ ، على النحو التالي :-

المحصول	معدل الانتاجية للفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٤ (طن / هكتار)							
	مجموعة البلدان العربية (المعدل)	مصر	السعودية	المغرب	السودان	سوريا	العراق	الجزائر
ـ القمح	١,١٣	٣,٣٨	٢,٧٣	١,٠٠	١,١٩	١,٣٥	٠,٧٠	٠,٦٥
ـ الشعير	٠,٧٢	٢,٥٧	١,٣٤	٠,٧٧	-	٠,٧٢	٠,٧٥	٠,٦٧
ـ الذرة الصفراء	٢,٦٢	٤,٢٥	٠,٦٠	٠,٥٨	٠,٥٧	١,٩٣	١,٥٥	٠,٨٥
ـ الأرز	٥,١٣	٥,٦٢	-	٤,١٦	٠,٨٩	-	٢,٤٨	-
ـ البطاطا	١٢,٧٧	١٧,٦٢	١٠,١٦	١٣,٤٩	١٥,٤٨	١٥,٢٣	١٩,٦٤	٦,٨٥
ـ البندورة	١٧,١٦	١٨,٩٢	٢٥,١٥	٢٦,٠٢	٣١,٣١	١٩,٧٨	١١,١٨	٩,٦٨
ـ البصل	١٧,٠٥	٥١,٢٤	١٥,٢٨	١٣,٢٢	٩,٧٧	١٨,١٩	٧,٩٢	٨,٣١
ـ الشمندر السكري	٣٥,٥٥	٣١,٢٤	-	٣٨,٤١	-	٣١,٠٠	١٣,٦٢	٢٥,٨١

المصدر : احتسبت من الارقام الرسمية الواردة في كتب منظمة الأغذية والزراعة الدولية ، روما . وهي كتاب الأنتاج السنوي وكتاب التجارة السنوي للأعوام ١٩٨٢ و ١٩٨٤ .

ويتبين من الأرقام أعلاه مدى التفاوت في كل محصول ، فالمغرب مثلا يتصدّر البلدان العربية المختارة هذه في مستوى إنتاجية الشمندر السكري والبندورة . كما تتصدّر مصر جميع البلدان العربية في مستويات إنتاجية جميع المحاصيل باستثناء البطاطا والشمندر السكري وهكذا . وينبغي أن يتذكر القارىء أن جميع المحاصيل تزرع ريا في كل من مصر والسعودية . اما بالنسبة لبقية البلدان العربية ، فإن المحاصيل تزرع ريا باستثناء بعض المحاصيل مثل القمح والشعير حيث تزرعان في الأراضي المروية والأراضي المطرية ايضا . ولتسهيل المقارنة لمستويات الأنتاجية ، قمنا باحتساب الانتاجية في مجمل البلدان العربية ، وكانت النتيجة على النحو التالي :-

المحصول	معدل الانتاجية لمجموعة البلدان العربية للفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٤ (طن / هكتار)	معدل الانتاجية لكل بلد منسوبة إلى معدل الانتاجية لمجموعة البلدان العربية (جميع الأرقام بالنسبة المئوية)						
		مصر	السعودية	المغرب	السودان	سوريا	العراق	الجزائر
ـ القمح	١,١٣	٢٩٩	٢٤٢	٨٩	١٠٥	١١٩	٦٢	٥٨
ـ الشعير	٠,٧٢	٣٥٧	١٨٦	١٠٧	-	١٠٠	١٠٤	٩٣
ـ الذرة الصفراء	٢,٦٢	١٦٢	٢٣	٢٢	٢٢	٧٤	٥٩	٣٢
ـ الأرز	٥,١٣	١١٠	-	٨١	١٧	-	٤٨	-
ـ البطاطا	١٢,٧٧	١٣٨	٨٠	١٠٦	١٢١	١١٩	١٥٤	٥٤
ـ البندورة	١٧,١٦	١١٠	٨٨	١٥٢	٧٨	١١٥	٦٥	٥٦
ـ البصل	١٧,٠٥	٣٣١	٩٠	٧٨	٥٧	١٠٧	٤٧	٤٩
ـ الشمندر السكري	٣٥,٥٥	٨٨	-	١٠٨	-	٨٧	٣٨	٧٣

المصدر : احتسبت من الأرقام الرسمية الواردة في كتب منظمة الاغذية والزراعة الدولية ، روما . وهي كتاب الانتاج السنوي وكتاب التجارة السنوي للأعوام ١٩٨٢ و ١٩٨٤

ويتبين من الأرقام أعلاه أن أقل البلدان إنتاجية هي الجزائر ، ويعدها السودان فالعراق فسوريا فالمغرب فالسعودية فمصر . والمستويات اللافتة للنظر هي في السودان ، إذ أنه على الرغم من أن معظم المحاصيل تزرع ريا إلا أن إنتاجيتها منخفضة جدا .

والبعد الآخر للانتاجية العربية هو تفاوت الإنتاجية داخل البلد الواحد ، ففي حين أن معدل الإنتاجية يعكس المعدل الوطني فإن مستويات الانتاجية تتفاوت من مزارع الى آخر . ونورد فيما يلي بعض الأمثلة :-

البلد	تفاوت الانتاجية داخل البلد الواحد للفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ (طن / هكتار)			
	القمح المطري	القمح المروي	البندورة في الحقل	البندورة في البيوت البلاستيكية
ـ الأردن	٠,٤ الى ٢,٥	٢,٥ الى ٤,٥	٠,٨ الى ٥,٥	٣ الى ١٨
ـ السعودية	-	٢ الى ٧	-	٢,٥ الى ٢٤
ـ مصر	-	٢,٥ الى ٥,٥	٠,٧ الى ٣,٥	-
ـ سوريا	٠,٤ الى ٣	١,٥ الى ٣,٥	٠,٨ الى ٤,٠	-
ـ العراق	٠,٤ الى ٢,٥	١,٥ الى ٤,٠	٠,٦ الى ٢,٥	٥ الى ١٢

المصدر : أخذت هذه المعلومات من المنشورات والتقارير المتوفرة عن مستويات الانتاجية المطرقة .

وقد يتساءل المرء عن أسباب تدني الانتاجية في صورتها العامة في البلدان العربية عنها في البلدان الأخرى ، وعن أسباب مدى التفاوت من مزارع الى آخر في البلد نفسه .والاجابة عن هذا السؤال متعددة الجوانب ، وهي بحق جوهر مشكلة الغذاء بذاتها . فالانتاجية نظام متكامل تتفاعل فيه العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسات الزراعية والمدخلات التقنية للانتاج ونوعية الموارد الى آخر العناصر التي تدخل في عملية الانتاج . وتمتلىء المراجع العلمية بدراسات قام بها مختلف المختصون العرب وغير العرب من العاملين في البلدان العربية عن أسباب تدني انتاجية الموارد الزراعية . ونحاول فيما يلي تلخيص المهم منها :-

١ ـ المستوى المتدني للتقنيات المستعملة في الانتاج : ان معدل التقنيات المستعملة كمدخلات للانتاج الزراعي هي في أدنى مستوياتها من حيث النوع والكم اذا ما قيست بالمعدلات العالمية الأخرى . فالمعلومات المتوافرة تدل على أن نسبة المزارعين في كل من مصر وتونس والعراق والجزائر والأردن وسوريا والسودان ، الذين يستعملون البذور المحسّنة في انتاج القمح لا تزيد عن ١٠ بالمئة من المجموع العام . والجدير بالذكر هنا ، ان هذه النسبة قد وصلت في السعودية الى حوالي ٥٠ بالمئة خلال الثمانينات . وبالنسبة للشعير والذرة الصفراء والذرة الرفيعة فان الصورة ليست بأفضل من القمح . وتدل الدراسات العالمية على أن حوالي ٦٠ بالمئة من الزيادة في الإنتاجية التي حققها العالم في ربع القرن الأخير قد جاءت نتيجة البذور المحسنة . وأما المدخل الثاني الذي يؤثر في زيادة الانتاجية فهو السماد . ولا تتوافر إحصائيات عن مدى استعمال المزارعين العرب للسماد في إنتاجهم بصورة تفصيلية . ونورد هنا المعدلات الوطنية لاستعمالات السماد محسوبة وفق مجمل السماد الذي استعمله البلد ، وتوزيعه على كامل المساحة المزروعة للفترتين التاليتين :-

البلد أو مجموعة البلدان	معدل السماد المستعمل كغم للهكتار للفترتين	
	١٩٧٥ - ١٩٧٨	١٩٨١ - ١٩٨٣
- البلدان العربية (معدل)	٣٦	٤٨
- العالم	٨٩	١٠٢
- الولايات المتحدة الأمريكية	١٣٥	٩٨
- المكسيك	٤٧	٥٢
- فرنسا	٣٨٠	٣٠٣

المصدر : احتسبت من الأرقام الواردة في الكتاب السنوي للأسمدة ، منظمة الأغذية والزراعة الدولية ١٩٧٨ - ١٩٨٤ . وتقرير التنمية الدولي الصادر عن البنك الدولي ١٩٨٣ - ١٩٨٦ .

وعند مقارنة كميات السماد المستعملة في عدد مختار من البلدان العربية ، نجد علاقة وثيقة بين مستويات استعمالات السماد ومستويات الانتاجية العالية نسبياً . وقد كانت الصورة على النحو التالي : -

البلد أو البلدان	معدل السماد المستعمل كغم للهكتار الواحد للفترتين	
	١٩٧٥ - ١٩٧٨	١٩٨١ - ١٩٨٣
معدل البلدان العربية	٣٦	٤٨
السعودية	٢٠	١٠٧
مصر	١٨٠	٣١٤
العراق	٢٠	١٥
السودان	١٠	٦
سوريا	٢٠	٢٧
الجزائر	٥٠	٢٣

المصدر : احتسبت من الأرقام الواردة في الكتاب السنوي للأسمدة ، منظمة الأغذية والزراعة الدولية ١٩٧٨ - ١٩٨٤ . وتقرير التنمية الدولي الصادر عن البنك الدولي ١٩٨٣ - ١٩٨٦ .

٢ - شح الموارد المائية بالنسبة لموارد الأرض وضعف كفاءة استعمالاتها في حالة وجودها : تفتقر البلدان العربية باستثناء مصر والعراق الى موارد المياه التي تكفى لري الأراضي الزراعية المتوافرة . ويلجأ المزارعون إلى زراعة المحاصيل وخصوصا الحبوب في الأراضي المطرية . وتتصف الأمطار في معظم البلدان العربية بالتذبذب من عام إلى آخر ومن فترة الى أخرى خلال الموسم الواحد . وقد أدى ذلك الى عدم استقرار مستويات الانتاجية وبخاصة في بلاد مثل المغرب والسودان وسوريا والأردن . وتولي البلدان العربية دون استثناء أهمية كبيرة لتنمية موارد المياه وفق الموارد المالية المتاحة في كل بلد .

فقد شاهدنا في السنوات العشر الأخيرة مشاريع كبرى لخزن المياه وتنظيم توزيعها ، ولكن البلاد العربية بصورة عامة هي في بداية الطريق في مجال رفع كفاءة استعمالات المياه على مستوى المزرعة . وتدل الدراسات المتوافرة على أن البلدان العربية تمتلك ما مجموعه ٢٧٤ ألف مليون متر مكعب من المياه ، تستعمل منها للأغراض الزراعية ١٦٢ ألف مليون فقط . ويمكن زيادة الأراضي المروية من مستواها الحالي الذي يبلغ تسعة ملايين هكتار لتصل الى ٢١ مليون هكتار . وتتوقف مدى الزيادة في الأراضي المروية على السرعة التي تستطيع فيها البلدان العربية استصلاح الأرض وتنمية الموارد المائية . ولعل الزيادة التي حصلت في الأراضي المروية خلال السنوات العشر الماضية ، وهي بمقدار مليون هكتار تقريبا ، لا تعكس النمط الذي تسير عليه البلدان العربية لتنمية الأراضي المروية . فكلما زادت الاستثمارات وتكثفت الجهود ، كلما زادت المساحة التي يمكن اضافتها لموارد الأرض التي تعطي أنتاجا أعلى وأكثر استقرارا .

٣ ـ هناك جملة أسباب أخرى تؤدي الى تدني الانتاجية وقد تطرقنا اليها في فقرات أخرى في هذه الورقة ونورد أهمها فيما يلي :-

أ ـ ضعف النفقات المخصصة للجهود العلمية في تطوير الزراعة ، إذ تقع البلدان العربية في أدنى سلم بلدان العالم من حيث المخصصات للبحوث العلمية . وتخصص البلدان العربية نسبة تقل عن ثلاثة أعشار بالمئة من قيمة الانتاج الزراعي للجهود البحثية ، بينما تخصص بلدان مثل الهند والبرازيل ما يزيد عن ١,٣ بالمئة ، وتخصص الولايات المتحدة ما يزيد عن ٤ بالمئة .

ب ـ زراعة المحاصيل في بيئة غير صالحة لها : إن الأمثلة على هذه الممارسات الشائعة في البلدان العربية كثيرة ، ولكن المثل الصارخ هو في السودان حيث نجد أن القمح يزرع فيها في بيئة عالية الحرارة مما يساهم في انخفاض الانتاجية إلى معدلات تصل إلى ثلث المعدلات في بلد مثل مصر .

ج ـ أدت السياسات الزراعية الى عزوف المنتجين العرب عن الاستثمار في المشاريع الزراعية غير المجدية اقتصاديا من وجهة نظرهم . وتدل الشواهد في أكثر من بلد عربي على وجود عدم انسجام بين سياسات الدولة ونظرة المزارعين أو المنتجين لابعاد تلك السياسة . فقد اقبل المزارعون مثلا على إنتاج الفاكهة والخضروات ، ووصلوا بالبلدان العربية الى أعلى درجة من الاكتفاء الذاتي التي وصلت الى ما يزيد عن ٩٥ بالمئة . وقد كان ذلك ممكنا عن طريق استعمال التقنيات الحديثة المستوردة في معظم الاحيان ، وعن الاستثمار الجزئي في مشاريع زراعة الفاكهة والخضروات مما أدى الى وصول المزارعين الى انتاجية عالية تضاهي أعلى المستويات العالمية . وبتحليل ما يجري على ساحة البلدان العربية ، يستنتج الباحث أن سياسة عدم وجود سياسة من الدولة في بعض الاحيان قد انسجمت مع دوافع المزارعين والمنتجين ، وبالتالي زاد الانتاج وتوافرت السلع من الموارد المحلية . وقد حدث عكس ذلك في الحالات التي تدخّلت فيها الدولة بصورة مباشرة ، سواء بتحديد اسعار منتجات السلع او دعم اسعارها للمستهلك على حساب المنتج فلقد كان هذا التدخل في نظر المنتج غير منسجم مع دوافعه وتطلعاته الاقتصادية ، ولعل عدم الانسجام هذا كان من أهم الأسباب التي أدت الى إحجام المنتجين عن زراعة تلك السلع وعن الاستثمار في مدخلات التقنية الحديثة اللازمة لانتاجها . ويندرج تحت هذا النوع من السلع الحبوب واللحوم الحمراء والحليب .

المصادر الأخرى غير مذكورة في المتن :

١ - صبحي القاسم ، ١٩٨٢ . نظرة تحليلية في مشكلة الغذاء في البلدان العربية . مؤسسة عبدالحميد شومان ، عمان - المملكة الأردنية الهاشمية .

٢ - مجلس الوحدة الاقتصادية العربية والصندوق العربي للانماء الاقتصادي والمنظمة العربية للتنمية الزراعية ومنظمة الأغذية والزراعة الدولية ، ١٩٨٦ : تنسيق السياسات الزراعية للدول العربية ، ندوة التنسيق والتكامل العربي . عمان - المملكة الأردنية الهاشمية .

3. Icarda, 1984. International Center for Agricultural Research in Dry Areas: Annual Report for 1983. Aleppo-Syria.

4. Hanesen, H. Narman Borlauy and Glen Anderson, 1983.
Wheat in the Third World. Westview Press,
Boulder-Colorado.

5. Zahlan, A.B. (Editor), 1985. Agricultural Sector in Jordan:
Policy and System Studies. Ithaca Press, London.

6. Veraghese, G 1979. The Gap Between Present Farm Yields and their Potential: Major Constraints and Possible Solutions. Fifth Cereal workshop. Algeres-Algeria. ICARDA, CIMMYT and Alegerain Ministry of Agriculture

* * *

الأمن الغذائي والصناعات الغذائية في الوطن العربي وجهان لعملة واحدة

فلاح سعيد جبر
الأمين العام ، الاتحاد العربي للصناعات الغذائية

١) توطئة

ان كانت الاحتياجات الأساسية للانسان على وجه البسيطة تتمثل في الغذاء الكساء ، والمأوى والدواء . فإن الغذاء يمثل أول أولويات تلك الاحتياجات ، به يحيا الانسان وينمو وبدونه يفنى . . لهذا كانت انتاج وحفظ الغذاء من أول ما عرفه الانسان من صناعات . . وكان توفير الغذاء بحدوده الدنيا أو العليا . وعلى مدار العام لتلبية احتياجات محددة لمجموعة بشرية معينة من أولى واجبات القائمين على تلك المجموعة اقتصاديا وحياتيا ، فلقد عرف الانسان أن للطبيعة وعطائها الزراعي بشقيه النباتي والحيواني مواسم وفيرة ، وأخرى شحيحة كما تعامل مع تتالي الكوارث الزراعية التي لحقت بالمجتمعات ، ومنذ فجر التاريخ الانساني كله ما كان منها بفعل الطبيعة أو بفعل الانسان وسعى للتحسب لها وإعداد العدة لمواجهتها . . ومع التطور الحضاري الانساني أصبحت قضية توفير الغذاء للمواطنين وعلى مدار العام وبأسعار اقتصادية وبكميات مناسبة من الأمور التي تحظى بعناية ورعاية وإشراف الحكومات بغض النظر عن نهجها الاقتصادي السياسي . . إذ اصبحت مؤشر العلاقة بين الحكومات ومواطنيها وهكذا ستكون مستقبلا .

وعالمنا اليوم الذي شهد بداية عصر اللامتناهيات الثلاثة ، عصر العلم والتقنية ، عالم خمسة المليارات نسمة ، عالم دول الشمال الذي يضم ربع البشرية ، حيث معدل دخل الفرد فيها يعادل خمسة وثلاثين ضعفا منه لدخل الفرد في دول الجنوب ، وعالم دول الجنوب حيث المعاناة بكل أبعادها وبخاصة في توفير الغذاء للمواطنين بالكم وبالنوع المطلوب . عالمنا له خصائص مميزة من النواحي الاقتصادية والتكنولوجية والثقافية والحضارية لها من الايجابيات قدر ما لها من السلبيات ،

ففي حين وفر مرفق العلم والتكنولوجيا للانسانية وسائل وأدوات ومعارف ، أدت إلى زيادة الانتاج وتحسين الانتاجية للمنتجات الزراعية الغذائية بشقيها الحيواني والنباتي فإن دخول العالم عصر العلم والتكنولوجيا ، ونتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية قلب معايير عديدة . . فلم تعد مناطق العالم النامية مناطق تعتمد عليها الدول الكبيرة في توفير ما تحتاجه لتعيش وتزدهر وبخاصة من النواحي الغذائية . . فالحرب معناها قطع خطوط الاتصالات البحرية والبرية وحتى الجوية أحيانا ومعناها - أيضا - أن على الدول الكبيرة أن توجد لذاتها مكتنزاتها الذاتية من مقومات بقائها وأولها غذائيا . . فعملت على زيادة الانتاج من مواردها الطبيعية كأساس لا غنى عنه ثم إيجاد حلفاء اقتصاديين تتكامل معهم في سد النقص الذي تعانيه وثالثا في إيجاد خزين غذائي لها يقيها شر الويلات الطبيعية أو الويلات الانسانية .

وهكذا أصبح إنتاج الغذاء عالميا يتسم بسمات عصرنا الراهن . التوسع في استخدام مرفق العلم والتكنولوجيا ، والتوسع في الانتاج الكبير ، وتحسين الانتاجية ، والمشاريع العملاقة ، والشركات عابرة القارات . . الاحتكار . . واستخدام الغذاء كأحد الاسلحة التي تملكها قوى الاحتكار العالمية . . وفي حين قسمت دول العالم إلى دول الشمال ذات الوفرة الانتاجية ، ودول الجنوب ذات الشحة والحاجة . . أصبحت سلع غذائية كالحبوب الخشنة واللحوم والبيض والألبان والزيوت النباتية ، سلع دول الشمال غزيرة الانتاج الفائض عن الاحتياجات في مجتمعاتها ذات القدرات الخارقة على دعم الاسعار وتحديدها وتصدير ما تنشأ منها ، وأصبحت دول الجنوب دول الحاجة إلى الاستيرادات المتزايدة. وكان سعي دول الجنوب إلى تغيير المعادلة (النظام الاقتصادي الدولي الراهن) أو إيجاد معادلة تضمن حقها وحقوق الآخرين . . فعبأت قدراتها الممكنة وعملت على زيادة إنتاجها الغذائي ، كما عملت على إيجاد خزين من ذلك الغذاء ليقيها شر التقلبات دائمة التوقع .

وأقطارنا العربية كجزء من دول الجنوب . . تعد من أكثر مناطق الدنيا احتياجا لاستيراد العديد مما تحتاجه من غذاء لمواطنيها من الخارج . أقطارنا تعيش حالة غذائية خطيرة ، فلقد تخطت مرحلة العجز الغذائي لتصل لمرحلة الانكشاف . وهذا الانكشاف الغذائي له أسباب عديدة وهو لا يشمل سلعة معينة بل يشمل سلعا عديدة اولها الحبوب وبخاصة القمح مرورا باللحوم والألبان والزيوت النباتية والسكر وغيرها . ولكل من هذه السلع سماتها الاقتصادية والفنية العالمية وكلها تعتبر من السلع الغذائية الاستراتيجية لكن اهمها بالنسبة للوطن العربي هي الحبوب وبخاصة القمح . . وإذ نتناول موضوع الأمن الغذائي والصناعات الغذائية واقعا ومستقبلا في الوطن العربي بالدراسة والتحليل ، نؤكد ان عدم إعطائه العناية التي يستحق سيؤدي إلى كوارث اقتصادية ليست بالقليلة .

٢- مفهوم الأمن الغذائي الاستراتيجي والصناعات الغذائية

مفهوم الأمن الغذائي بصوره الأولية عرفه الانسان منذ فجر التاريخ . ولقد تعلم الانسان من الممارسة ان للزراعة بشقيها ، النباتي والحيواني ، مواسم وفرة عطائية ومواسم شحة . وكان لزاما عليه بالتالي ان يحفظ بعض الأغذية من مواسم الوفرة ليستعين بها في غذائه في مواسم الشحة ، يحفظها بصورة سليمة ، محافظا على قيمتها التغذوية وبظروف مناسبة اقتصادية قدر الامكان ولأطول فترة ممكنة . وهكذا تعامل الانسان مع خزن الحبوب وتجفيف اللحوم

وتصنيع السمن وما شابه من منتجات غذائية . . ومع نشوء الدول سعت كل منها إلى تأمين حاجة مواطنيها من السلع الغذائية وعلى مدار العام بنفس الخصائص والمواصفات المذكورة أعلاه .

إلا أن الحروب التي شهدتها الانسانية وبخاصة في عصرها الراهن جعلت من الغذاء أحد أنواع الاسلحة التي تشهره بعض الدول المالكة لفائض عن حاجتها منه ضد دول تحتاج إليه . وهكذا بدأت تتداول في الأوساط العالمية الاقتصادية والزراعية عبارات مثل الأمن الغذائي والخزين الغذائي الاستراتيجي والصناعات الغذائية أو الصناعات الزراعية الغذائية . وفي الوطن العربي أصبحت هذه الكلمات وكأنها اصطلاحات بديلة لكلمات الزراعة والانتاج الزراعي ، ولم يكن هذا التداول للعبارات أعلاه قصرا على الأدب الاقتصادي العربي على مستوى الدارسين والباحثين ، بل عم ذلك ليصل إلى أعلى المستويات ، وهكذا أصبحت قضايا الأمن الغذائي والخزين الغذائي الاستراتيجي أسيرة مؤتمرات وزراء الزراعة العرب أو القائمين على القطاعات الزراعية ، في حين تم التعامل مع موضوع الخزين الغذائي الاستراتيجي كمحور اهتمام وزارات التموين أو التجارة العربيه أما الصناعات الغذائية فهي تارة تربط بوزارات الزراعة وأخرى بوزارات الصناعة وثالثة بوزارات التموين أو التجارة أو بغرف التجارة والصناعة وأحيانا وضمن القطر العربي الواحد ترتبط فروعها بكل ما سبق ذكره . وهكذا كان عدم الوعي الدقيق لأبعاد ومضامين العبارات المذكورة في أعلاه . ونحن سنسعى إلى تحديد تعريف علمي دقيق لكل منها .

فالأمن الغذائي لبلد ما أو لمنطقة جغرافية معينة هو الحال الذي يكون فيه وضع المواطنين التغذوي في ذلك البلد أو تلك المنطقة غير معرض لحدوث أزمات غذائية تحت أي ظرف كان وفي أي زمن ، وإن كان توفير الغذاء يمثل الجانب الرئيس للأمن الغذائي ، فإن الجانب الآخر هو توفر إمكانية إيصال ذلك الغذاء إلى حيث تكون الحاجة إليه والمقاييس التي تحدد الأمن الغذائي لبلد ما أو لمنطقة ما تشمل :

- نسب الاكتفاء الذاتي من السلع الغذائية الاستراتيجية (ذات النمط الغذائي الاستهلاكي السائد) .
- نسب قيمة الانتاج الزراعي المصدر إلى الانتاج الزراعي المستورد .
- نسب قيمة المستوردات الزراعية لاجمالي الاستيرادات .
- نسبة الانفاق على الغذاء إلى إجمالي الدخل القومي .
- التقلبات السنوية في الانتاج الزراعي وبخاصة القمح .
- نسب مساهمة الناتج الزراعي في إجمالي الناتج المحلي .
- متوسط حصة الفرد من قيمة الانتاج الزراعي .
- نسبة صافي الواردات الزراعية إلى إجمالي الناتج المحلي .
- نسبة المخزونات الغذائية وبخاصة القمح إلى مقدار الاستهلاك السنوي .

فالأمن الغذائي إذا هو تحفيز قدرات وفعل منسق وعمل هادف لحل معضلات عديدة فرضها واقع زراعي ، صناعي ، اجتماعي ، اقتصادي في بلد ما أو في منطقة جغرافية محددة . وبالامكان تحديد مفهوم الأمن الغذائي ليشمل

ضمان توفير بعض السلع الغذائية في الأسواق المحلية على مدار العام وبأسعار مناسبة وذات قيمة تغذوية تكفل للانسان بقاءه حيا وأداء مهامه الاقتصادية بصورة صحية .

أما الاكتفاء الغذائي الذاتي لبلد ما فهو الوصول إلى حالة محددة تتحقق عن طريق التعادل بين قيمة المصدر من الانتاج الزراعي وقيمة المستورد من الغذاء بحيث تغطي قيمة الصادرات الزراعية حاجة البلد من السلع الغذائية المستوردة وبحيث لا يشكل الطلب على بعض السلع الغذائية من الخارج عبئا على القطاعات الأخرى غير الزراعية .

والصناعات الغذائية هي إحدى الصناعات التحويلية المعتمدة على المواد الزراعية بأحد شقيها النباتي أو الحيواني أو بكليهما معا في تغذيتها بالمواد الأولية .

وعليه فهي ذات ارتباط عضوي بالزراعة إلا أنها بنفس الوقت ذات ارتباط مهم جدا في فروع الصناعات التحويلية الأخرى بدءا بالصناعات الهندسية وصناعة المعدات وصناعة مواد التعبئة والتغليف ، كما ان لها علاقة بالحالة التغذوية للانسان وخاضعة لمواصفات محددة ومعينة ودقيقة . ولذلك فإن الحديث عن الصناعة الغذائية وتطورها وتنميتها يؤثر ويتأثر بقطاعات إنتاجية واقتصادية عديدة تشمل القطاع الزراعي ، والصناعي ، والتجاري ، والصحي ، والخدمي . وفي حين يعتقد بعض الناس أن الصناعة الغذائية لا تقوم إلا على فائض الانتاج من السلع الغذائية النباتية والحيوانية والفائضة عن احتياجات الأسواق المحلية الخارجية (وتشمل صناعة تعليب الخضراوات والفواكه والعصائر والأسماك واللحوم مثلا) ، إلا أنها ليست قصرا على ذلك فصناعة رغيف الخبز والسكر والألبان صناعات غذائية أساسية لا يمكن الاستغناء عنها وتناول موادها الأولية بديلا عما يتم تصنيعه منها . والصناعة الغذائية عموما تهدف إلى التالي :-

- تعمل على تطوير الانتاج الزراعي من خلال ضمان أسواق تصريفه وبأسعار مجزية .

- تحويل فائض الانتاج الزراعي من منطقة أو قطر إلى منطقة وأقطار تفتقر إليه عن طريق زيادة إمكانات حفظه وتسهيل عملية نقله .

- خلق إمكانية الاستفادة من المنتجات الزراعية في غير مواسمها .
- زيادة قيمة المنتجات الزراعية السعرية بعد عملية تصنيعها .
- خلق استقرار دائم في القطاع الزراعي .

- التنمية الاجتماعية التي تخلقها عملية إنشاء المصانع الغذائية من خلال تطوير القوى العاملة والنهوض بمستواها الحضاري والاقتصادي .

أما مفهوم المخزون الاستراتيجي الغذائي فهو عبارة عن سلع غذائية محددة ، تعتبر ذات ضرورة ماسة في حياة المواطنين ، ونمط غذائي سائد ، يتم الاحتفاظ بكميات منها تحت إشراف مباشر من قبل الحكومات وتكون الزيادة عن احتياجات الأسواق الآنية الطبيعية ، تستخدم في حالات معينة (الكوارث الطبيعية ، الحروب ، الارتفاع الفاجيء غير

الطبيعي في الأسعار ، تغيير العرض والطلب العالمي على تلك السلع في حالة عدم إنتاجها محليا) ويتم تداول هذا الخزين دوريا . حيث يؤخذ منه كميات تعوض عنها بكميات مماثلة بهدف ان لا تفقد المادة الغذائية صفاتها التغذوية .

ويتحدد كم ونوعية هذا المخزون بظروف البلد المعني نفسه وقدراته الاقتصادية والفنية .

الأمن الغذائي

مما سبق بالإمكان تعريف الأمن الغذائي بأنه قدرة مجتمعنا العربي على توفير الاحتياجات الأساسية من الغذاء للمواطنين ، وضمان حد أدنى من تلك الاحتياجات بانتظام عبر إنتاج السلع الغذائية عربيا وتوفير حصيلة كافية من عائدات الصادرات لاستخدامها في استيراد ما يلزم لسد النقص في الانتاج الغذائي الذاتي وبدون أي تعقيدات أو ضغوطات من أي مصدر كان .

وان تعاملنا مع مفهوم الاحتياجات الغذائية الأساسية ، أو الاستراتيجية ، والتي تشكل النمط الغذائي العربي السائد يشمل الحبوب بأنواعها وبخاصة القمح والأرز واللحوم والزيوت النباتية والسكر والألبان إضافة للفواكه والخضراوات .

وبالرغم من تباين معدلات الاستهلاك للفرد الواحد من أنواع الأغذية الواردة في أعلاه بين قطر وآخر . إلا أن المؤشر العام هو أن متوسط استهلاك الفرد العربي منها في تزايد مستمر ومنذ مطلع السبعينات ولتاريخه وإن معدلات هذه الزيادة مستمرة حتى نهاية هذا القرن على أقل تقدير والجدول رقم (١) يبين متوسط استهلاك الفرد العربي من أهم السلع الغذائية خلال مرحلتين زمنيتين الأولى لمعدل الفترة (١٩٧٠م - ١٩٧٢م) والثانية لمعدل الفترة (٨١ - ١٩٨٣م) .

والجدول رقم (٢) يبين متوسط استهلاك الفرد من بعض الأقطار العربية من أهم السلع الغذائية وشملت هذه الأقطار كلا من الأردن ، العراق ، اليمن ، الامارات ، الكويت ، تونس ، مصر ، المغرب ، السعودية ، والسودان .

وإن كانت الأرقام التي وردت تبين المعدل المتاح للاستهلاك للفرد العربي في وطنه الكبير أو في قطره ، وهو بالتأكيد لا يمثل الاكتفاء الذاتي الغذائي للمواطنين ، إذ درجت الأدبيات الاقتصادية على التعامل مع مفهوم الاكتفاء الذاتي الغذائي بجمع مقادير الكميات المستوردة من كل سلعة إلى كمية الانتاج الذاتي منها ثم طرح ما صدر او ما خزن منها . . وهو تعبير ليس بالعلمي ولا الدقيق ، أذ ان المتاح للاستهلاك للمواطن العربي من السلع الغذائية في الوقت الراهن يشكل حصيلة لأمور عدة منها طبيعة الانتاج القطري من المواد الغذائية ، طبيعة الاستيرادات الخارجية من المواد الغذائية ، وسياسة التسعير المتبعة ، وطبيعة الصناعات الغذائية القائمة ، ونمط الاستهلاك الغذائي ثم مقدار ما تخصصه الأسرة أو الفرد من مدخولاته الغذائية ، ومستوى دخل الفرد والأسرة ، في حين أن مفهوم الاكتفاء الذاتي الغذائي علميا ، هو ما يجب أن يتناوله الفرد والانسان من أنواع الأغذية الحيوانية ، والنباتية ، لديمومة بقائه حيا ، وليمارس كامل أنشطته الانسانية فإن الانتاج العربي من هذه المواد كان دون الحاجة الفعلية لها ، ولذلك كانت الاستيرادات العربية منها المعوض من التوجه الصادق لزيادة الانتاج وتحسين الانتاجية ، إلا أن هذه الاستيرادات ومع

جدول رقم (١)
متوسط استهلاك الفرد العربي من أهم السلع الغذائية

		كغم / فرد / سنة
السلعة	١٩٧٠م - ١٩٧٢م	١٩٨١م - ١٩٨٣م
الحبوب	٢٤٢,٠٥	٢٧٨,٦٢
القمح	١١٩,٦٢	١٣٨,٠٣
الرز	٢٤,٧٢	٢٢,٩١
البطاطس	١٣,٦٢	١٩,٦٦
البقوليات	٨,٣٨	٧,٥٥
الخضراوات	٩٣,١١	١٢٧,٥٨
الفاكهة	٥١,٠٢	٧٢,٥٥
السكر	٢١,١٩	٢٦,٩٤
زيوت نباتية	٩,٦٩	١٤,٤٢
لحوم (عامة)	١٤,٣٥	٢٢,٦٤
ـ لحوم حمراء	١٢,٣٢	١٤,٧٦
ـ لحوم دواجن	٢,٠٣	٧,٨٨
أسماك	٥,٥٧	٨,٠١
البيض	٢,٢	٤,٠
اللبن	٥٦٥,٠٢	١٠٢,٦٤

جدول رقم (٢)
متوسط استهلاك الفرد من السلع الغذائية في السنة

	الأردن	كغم / فرد	العراق	كغم / فرد
السلع الغذائية	١٩٧٠م - ١٩٧٢م	٨١/ ١٩٨٣م	١٩٧٠م / ١٩٧٣م	٨١م/ ١٩٨٣م
الحبوب	٢٥١,٥١	٢٩٨,٦٢	٣١٠,٢٨	٢٨٤,٧٣
القمح	١٩٥,٧٧	١٩٥,٤٧	١٩٧,٣٢	١٧١,٢٩
الرز	١٩,٥٢	١٦,٢٤	٣٢,٢٧	٢٩,٣٧
البطاطا	٩,٤٥	١٧,٩٨	١,٢٣	٨,٦٧
البقوليات	٧,٩	٩,٢١	٤,٧٥	٤,٧٧
الخضراوات	-	٥٧,٥٠	١٩٩,٤١	١٦٤,٥٣
الفاكهة	٢٩,٤٦	٣٨,٤٨	٥٨,٨٣	٧٦,٧٤
السكر	٣٥,٤٥	٣٨,٠	٣٣,٥١	٢٤,٩٢
زيوت نباتية	٨,٠٧	١٠,٣٢	٩,٤٣	٩,٧٧
جلة اللحوم	١٣,٧٠	٣٢,٧٨	١٧,٢٤	٢٥,٣٢
لحوم حمراء	١٠,٥٥	١٥,٢٦	١٦,٢١	١١,١٩
لحوم دواجن	٣,١٥	١٦,٥٢	١,٠٣	١٤,١٣
أسماك	١,١٢	٢,٣	٢,٨٦	٢,٩٤
بيض	٦,٨٢	٦,٥٦	٢,٢٣	٤,٦١
حليب	٥٠,٩٢	١٠٢,٣	٣١,٩٨	٥١,٣٧

متوسط استهلاك الفرد من السلع الغذائية في السنة

السلعة الغذائية	اليمن العربية ٧٠م/ ١٩٧٢م	كغم/ فرد ٨١م/ ١٩٨٣م	الامارات ٧٠م/ ١٩٧٢م	كغم/ فرد ٨١م/ ١٩٨٣م
الحبوب	٢٢٦,٦٢	١٣٢,٦٤	٢٨٤,٣٦	٢٤٤,٠٣
القمح	٢٨,٩٤	٦١,٦	١٣٨,٨٦	١٢٦,٥١
الرز	١,٧٢	٣,٨٥	١٢٣,١٨	٧٤,٨٠
البطاطا	١٠,٣٦	١٦,٩٧	٣١,٢	٢١,٦٣
البقوليات	١٣,٤٦	٧,٤٣	١٢,٩٨	٧,٧٨
الخضراوات	٢٢,٧٦	٣٦,٠٦	١٦١,٠	٣٤٠,٠٥
الفاكهة	١٥,١١	٢٧,٨٥	٢٧٨,٧٤	٢٣٨,٥٦
السكر	١٠,٠٤	١٠,٥٦	٧٢,٣٨	٦٥,٢٦
زيوت نباتية	٠,٦٥	٢,٤٨	٢,٥٤	٣٢,٢٣
جملة اللحوم	-	٩,٥٧	٨٠,٥٢	٩٨,١٥
لحوم حمراء	٣	٣,٢٨	٣٤,٤٢	٦٠,٧٩
لحوم دواجن	٠,٣	٦,٢٩	٤٦,١	٣٧,٣٦
أسماك	٠,٩١	٢,٢٢	١٢٨,٨	١٦,٢٩
بيض	٢,٢٥	١,٧٦	٢٣,٨٨	١٦,٦٨
حليب	٧١,٠٦	٣٤,٩٤	١٧٩,٢	٢٧٢,٤٨

متوسط استهلاك الفرد من السلع الغذائية في السنة

	الكويت	كفم/ فرد	تونس	كفم/ فرد
السلع الغذائية	٧٠م/ ١٩٧٢م	٨١م/ ١٩٨٣م	٧٠م/ ١٩٧٢م	٨١م/ ١٩٨٣م
الحبوب	٢٣٩,٥٧	٢٣٨,٠٦	٢٤٣,٦٨	٣٣٤,٤٥
القمح	١١٢,٣٥	٩٥,١٩	٢٠٤,٩٦	٢٠٥,١٤
الرز	٧٧,٢٣	٥٣,٠٣	-	٠,٢٢
البطاطا	١٥,٢٤	١٩,٠٥	١٦,٩٧	٢٢,٣١
البقوليات	-	٥,٣٢	١٠,٧٧	١٢,٣٧
الخضراوات	١٤١,٧	١٥٠,٢٨	١٣٣,٩٤	١٦٢,٢٣
الفاكهة	٩٥,٩١	٨٤,٩٢	٥٩,٣٥	٧٦,٢٩
السكر	٣٠,٤٥	٣٥,٥٧	٢١,٣١	٢٨,٦٧
زيوت نباتية	٦,٨٩	١٢,٨٩	١٧,١٧	٢٠,٦٢
جملة اللحوم	٤٦,٨٨	١٠٦,٣٣	١٧,٠٦	١٧,١٣
لحوم حمراء	٣١,٤٥	٦١,٠١	١٤,٨٣	١٠,٧٨
لحوم دواجن	١٥,٤٣	٤٥,٣٢	٢,٢٣	٦,٣٥
أسماك	٤,٥٣	٥,٩٦	٥,٢٨	٨,٣٨
بيض	١١,٠٣	١٣,٤٢	١,٥٦	٦,٣١
حليب	١١٣,٤٩	٢١٨,٤٩	٤٥,٤٦	٨١,٣٣

متوسط استهلاك الفرد من السلع الغذائية في السنة

	مصر	كغم/ فرد	المغرب	كغم/ فرد
السلعة الغذائية	٧٠م/ ١٩٧٣م	٨١م/ ١٩٨٣م	٧٠م/ ١٩٧٢م	٨١م/ ١٩٨٣م
الحبوب	٢٦٠,٠٧	٣١٦,٥٤	٣٤٠,٠٤	٢٧٠,١٧
القمح	١٠٠,٥	١٤٢,٠٦	١٦٢,١٩	١٦٩,٧٢
الرز	٥٩,٣٢	٥٢,٠٩	١,٢١	٠,٩٢
البطاطا	١٨,١٦	٢٣,٥٩	١٦,٦٧	٢٠,٦٦
البقوليات	١٢,٠٩	٩,٢	١٠,٧٥	٨,٩٥
الخضراوات	١٢٨,٩٨	١٦٦,٧٧	٣٦,٧٩	٩٦,٦١
الفاكهة	٤٤,٧١	٥٨,٩٦	٣٥,٥٢	٥٢,٤٥
السكر	٢١,٩٤	٢٣,٣٩	٢٧,٠٩	٣٠,٥٣
زيوت نباتية	١١,٩٧	١٥,٠٨	٦,٦٥	١٣,٣٩
جملة اللحوم	١٢,٠٧	١٤,٨٤	٩,١	١٤,٣
لحوم حمراء	٩,٣٥	٩,٩٥	٧,٠٩	٩,٣٩
لحوم دواجن	٢,٦٦	٤,٨٩	٢,٠١	٤,٩١
أسماك	٢,٥١	٥,٠	١٢,١٨	١٦,٣٤
بيض	١,٩٣	٣,٠٣	-	١,٨٢
حليب	٤٨,٥٥	٦١,٨	٤٦,٨٢	٤٧,٨٨

متوسط استهلاك الفرد من السلع الغذائية في السنة

	السعودية	كغم/ فرد	السودان	كغم/ فرد
السلعة الغذائية	٧٠م/ ١٩٧٢م	٨١٠م/ ١٩٨٣م	٧٠م/ ١٩٧٢م	٨١م/ ١٩٨٣م
الحبوب	١٩٢,١١	٥٨٧,٣٥	١٦٢,٦٥	١٦٢,١٦
القمح	٨٧,٠٧	١١٩,٧٥	٢٤,٢	٢٥,٩٢
الرز	٥٠,٥٢	٥١,٦٨	١,٠٤	١,٤٣
البطاطا	٢,٥١	١٠,٩٦	١١,٢٨	٠,٧٨
البقوليات	٢,٢٧	٣,٤٥	٢,٣٥	٢,٣
الخضراوات	٩٩,٩٦	١٤٢,٦	٣٦,٨٧	٣٩,٦٧
الفاكهة	٥٩,١٧	١٢١,٨٣	٢٣,٦	٣٨,٩٤
السكر	١٧,٦٩	٤٧,٧٦	١٦,٦١	٢٣,٢١
زيوت نباتية	١,٨٢	١٨,٨٦	١٤,١٩	١٧,٥٣
جملة اللحوم	١٥,٣٣	٧٢,٥٨	٢١,٧٤	٢٢,٩٦
لحوم حمراء	١٢,٩٤	٣٩,٢	٢٠,٩٣	٢١,٥١
لحوم دواجن	٢,٣٩	٣٣,٣٨	٠,٧٣	١,٤٥
أسماك	٤,٢٤	٧,٩٩	١,٥٨	١,٥
بيض	١,٩٦	٨,٢٤	١,٢١	١,٣
حليب	٣٩,٧٢	١٧٨,٤	٩٠,٦٥	١٤٢,٢٥

تعاظم نمو الطلب ، مقارنة بنمو الانتاج ارتفعت بصورة كبيرة كما وقيمة والجدول رقم (٣) يبين معدل نمو الطلب ومعدل نمو الانتاج السنوي لأهم السلع الغذائية في الوطن العربي ، وفي حين بلغت قيمة ما استورده الوطن العربي من السلع الغذائية ومدخلاتها عام ١٩٨٥ نحو (٢٥) مليار دولار فإن هذا المقدار يزداد بصورة كبيرة نتيجة لزيادة الفجوة الغذائية وحالة الانكشاف الغذائي الخطير الذي يعيشه الوطن العربي حاليا ، اذ بلغت نسبة الاكتفاء الذاتي من المتاح في الأسواق العربية من المواد الغذائية لمعدل الفترة (١٩٨١ ـ ١٩٨٣) ولعموم الوطن العربي التالي :

الحبوب ٠٦ , ٥١٪ ـ القمح ٠٢ , ٣٧٪ ـ الرز ٦٦ , ٦٣٪ ـ السكر ٢٨ , ٣٣٪ الزيوت النباتية ٩٢ , ٤٣٪ ـ اللحوم الحمراء ٦٤ , ٦٤٪ ـ البيض ٥٧ , ٧٨٪ ـ الألبان ٨٣ك٥٤٪ .

جدول رقم (٣)

معدل نمو الطلب ومعدل نمو الانتاج السنوي لأهم السلع الغذائية في الوطن العربي

السلعة	معدل نمو الطلب		معدل نمو الانتاج	
	٧٥ ـ ١٩٩٠م	١٩٩٠ ـ ٢٠٠٠م	٧٥ ـ ١٩٩٠م	١٩٩٠ ـ ٢٠٠٠م
الحبوب	٣,٨٢	٣,٨	٢,١٥	٢,١٨
القمح	٢,٨٨	٢,٧٤	١,٩٧	١,٩٧
السكر	٥,٩٧	٥,٢٠	٤,٤٣	٤,٦٦
الزيوت النباتية	٥,٠٩	٤,٩٨	٣,٤٦	٣,٤٧
اللحوم	٧,٧٩	٦,٦٣	٤,٤٤	٤,٦٤
الألبان	٥,٢٣	٤,٨	١,٨٨	٣,٠٩
البيض	٨,٠٥	٧,٩١	٦,٢٢	٦,٢١

ومن مجموع الصادرات العالمية لعام ١٩٨٤ من أنواع السلع وتوقعات الصادرات العالمية منها لعام ١٩٨٧ كانت النسبة المئوية لاستيرادات الوطن العربي منها على النحو التالي :ـ

السلعة	١٩٨٤	١٩٨٧ توقعات
الحبوب	١١,٣٨	١٢,٤٤
الماشية الحية	١٢,١٩	١٥,٧٨
الضأن والماعز	٧٦,٦	٧٧,٦٨
اللحوم الحمراء	٥,٢١	٥,٨٩
لحوم الدواجن	٢٧,٣٥	٢٥,٥٥
البيض	١٩,١١	٢١,٤٣
السكر	١٤,٥٨	١٦,٤٦

ومع تدني الانتاج تدنى المتاح للاستهلاك لمواجهة الاحتياجات الفعلية من المواد الغذائية وعلى سبيل المثال فإن معدل الفرد العربي من المنتجات الحيوانية لمعدل الفترة (٨٢ ـ ١٩٨٤) كان دون الاحتياجات الفعلية باستثناء الاستهلاك . كما هو موضح في الجدول أدناه :ـ

السلعة	المنتج محليا	الميزان السلعي	المتاح للاستهلاك	الاحتياجات الفعلية
لحوم حمراء (كغم / سنة)	١١,١	٣,٨	١٤,٩	١٧,٠
لحوم بيضاء (كغم / سنة)	٥,٧	٢,٦	٨,٣	٩,٠
اسماك (كغم / سنة)	(*)٩,٦	١,١	٨,٩	٦
البيض (عدد البيض)	٦٣	١٥	٧٨	١٧٠
اليان (كغم / سنة)	٥٦,٢	٤٦,١	١٠٢,٣	١٢٠

(*) قسم من الانتاج تم تصديره

وعند دراسة أسباب الانكشاف الغذائي والوضع الغذائي العربي الراهن تلخص الدراسات تلك المسببات وبالتالي :ـ

اولا : تخلف القطاع الزراعي من خلال :ـ

١ـ العوامل المناخية

٢ـ طبيعة الحيازات الزراعية (تقزم تلك الحيازات عربيا)

٣- شحة مصادر المياه المتاحة

٤- عدم إدخال المكننة

٥- الآفات الزراعية وانتشار الأمراض الحيوانية

٦- عدم وجود سياسات زراعية واضحة

٧- الهجرة غير المبرمجة من الريف للمدينة (العائدية الاقتصادية للفرد)

ثانيا : شحة الاستثمارات المالية الموجهة للقطاع الزراعي .
ثالثا : نمو الصناعة على حساب الزراعة في أرجاء الوطن العربي .
رابعا : الأمية المنتشرة في الريف العربي .
خامسا : عدم التعامل مع مرفق العلم والتكنولوجيا من أجل الزيادة الرأسية في الانتاج .
سادسا : ندرة المشاريع العربية المشتركة في مجال الانتاج الزراعي وبالامكان تقسيم المسببات لهذا الانكشاف الغذائي الذي تعيشه أمتنا إلى قسمين : الأول داخلي له عوامله ومسبباته ، والثاني خارجي مرتبط بطبيعة النظام الاقتصادي الدولي الراهن .

المسببات الداخلية تتمحور حول قلة الادراك العربي لأبعاد وتبعات هذا الانكشاف ، إذ أن ما وصلنا إليه هو النتيجة الحتمية لممارسات عقود ثلاثة من تنميات قطرية مغلفة بشعارات قومية ، فمع اليقين الذي لا يقبل الطعن من أن انعتاق الوطن العربي من التبعية الغذائية التي يعيشها الآن يتجسد بصدق إيماننا وبالتالي تعاملنا مع الوطن العربي كوحدة جغرافية اقتصادية متكاملة وأن عوامل النهوض والمتمثلة باليد العاملة الماهرة ، المواد الأولية ، رأس المال ، التكنولوجيا ، الأسواق والادارة الصناعية والمتعلقة بالقطاع التغذوي الزراعي الصناعي لا يمكن أن تتكامل ولو بحدها الأدنى إلا بقومية الممارسة . . رغم ذلك كله فإن البون الشاسع ما بين قرارات قومية تتخذ ولا تنفذ ، وممارسات قطرية تمارس دون مراعاة للبعد القومي المنشود ، هو الأمر الحاصل عربيا حاليا (فعلى سبيل المثال تقيم جامعة الدول العربية والمنظمات المنبثقة عنها أجهزة ومؤسسات معنية عن القطاعات الزراعية ، والصناعية ، والاعلامية ، والخدمية ، لقاءات تتم دوريا بهدف التنسيق والتكامل ، وعلى مستوى الوزراء المعنيين باستثناء واحد وهو أنه لا توجد أي جهة تنسق بين وزارات التخطيط العربية ، وبالتالي يأتي المسؤول العربي المعني عن تنسيق جهود بلده قوميا وهو يحمل على عاتقه بنفس الوقت مهمات وتبعات قطرية هو ملزم بتنفيذها ومحاسب عليها) . ومن المسببات الداخلية كذلك (وحتى على المستوى القطري نفسه) هو تعاملنا مع قطاعات تنموية وخطط تنموية بدلا من خطة تنموية واحدة واعتقادنا أن التعامل مع القطاع الزراعي هو ضرب من التخلف . وبالتالي ساد الاعتقاد بأن الصناعة والتوجه نحو التصنيع هو الأداة السحرية ، التي ستنقل مجتمعنا من وضعه الراهن إلى مصاف الدول المتقدمة الصناعية ، دون أن ندرك أن الصناعة نفسها في تلك الدول ولدت في رحم الزراعة ، وتعاملت معها في عصر العلم والتكنولوجيا ، بحيث أصبحت الزراعة نفسها صناعة كبيرة للبحث العلمي وللتطوير التكنولوجي أثر كبير في نموها وتطورها ، وكان من المفترض وضع خطة تنموية واحدة في إطار من التكامل القومي مستندة إلى تفعيل وتنشيط كل القدرات المتاحة ، والكامنة في كل قطر عربي تراعي ظروفه وتكون خطة العلم والتكنولوجيا جزءا سياسيا متمما لها ، الأمن الغذائي يتحقق عربيا في حالة وجود الثقة

المطلقة فيما بين القيادات السياسية الاقتصادية العربية من أجل التوجه نحو سياسة التخصص في الانتاج الغذائي العربي استفادة من الميزات النسبية المتاحة في كل قطر عربي ، وعبر إقامة المجمعات الزراعية الصناعية الغذائية العلمية التي تحتاج الى كل القدرات العربية مجتمعة لإقامتها وديمومتها .

والسؤال هو كيفية الوصول إلى مصداقية في التخطيط والبرمجة والتنفيذ عبر إدراك عظم المسؤولية الملقاة على عاتق الجميع للتصدى لقضية الأمن الغذائي القومي . ؟ نقول الأمن وهي كلمة شاملة جامعة . . فالغذاء اليوم هو أمضى سلاح اقتصادي بيد الاحتكارات العالمية تشهره متى شاءت ولأي ظرف تراه . فلقد جاء في تعليق لجيرالد فورد زمن كان رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية بالحرف الواحد التالي : .

(من الان فصاعدا لم تعد هناك حاجة للولايات المتحدة الاميركية للتهديد بحاملات الطائرات وبرجال البحرية من أجل تهدئة عالم ثالث كثير الحركة فالترسانة الأمريكية تضم سلاحا طيعا ورهيبا وذا فاعلية وبخاصة الغذاء) ، وثانيا وعند التعامل مع المسببات الخارجية للوضع الغذائي العربي وبإيجاز شديد أن عهود التخلف التي عاشتها أقطارنا العربية ، واستخدام الغذاء كسلاح اقتصادي بيد الاحتكارات الأجنبية ، ولابقاء السوق العربية مشاعا لمختلف أنواع السلع الغذائية من مصادر دولية مختلفة ، أو لتصريف ما سيفسد من تلك الأغذية ، ولوأد الصناعات الغذائية العربية ولعدم تنويع مصادر الدخل القومية وللمساعدة على عدم وجود فرص استثمارية ارحب للأموال العربية وللمساعدة على إبقاء الوطن العربي في تلك التبعية الخارجية كلها عوامل خارجية هدفها إبقاء الوضع الغذائي العربي على ما هو عليه الان وحالنا عربيا هو حال شعوب العالم النامي والوضع الغذائي العالمي الراهن هو من نتائج النظام الاقتصادي الدولي الراهن الجائر . . ومن خلال احصائيات عام ١٩٨٥ التي تشير إلى أن عدد سكان العالم بلغ (٤٨٣٦,٩٦) مليون نسمة منهم ١٢١٠,٤ في دول العالم المتقدم الصناعي أي أنهم يمثلون (٢٥٪) من سكان المعمورة . . هذه الدول انتجت عام ١٩٨٥ ومن مجموع الانتاج العالمي التالي :

الحبوب ٤٩٪ - القمح ٦٠٪ - الشعير ٨٧,١٪ - الذرة ٦٤,٨٪ - البطاطا ٧٠,٧٪ - فول الصويا ٥٩,٥٪ - لحوم المواشي ٧٢,٣٪ - لحوم الدواجن ٦٨٪ - حليب الأبقار ٨٣٪ - الأجبان ٨٨٪ - الزبدة ٧٨٪ - الحليب البودرة ٧٨,٥٪ - بيض الدجاج ٦٢٪ .

من الأرقام أعلاه نخلص إلى أن الدول ذات القدرات على تصدير فائض احتياجات اسواقها من السلع الغذائية محدودة ، فالقمح مثلا حكرا تصديره على دول خمس (الولايات المتحدة الأمريكية ، كندا ، استراليا ، فرنسا وإلى حد ما الارجنتين) والألبان قصرا على بعض اقطار السوق الأوروبية المشتركة ونيوزلندة ، والولايات المتحدة إلى حد ما . ومن ناحية أخرى فالشركات عابرة القارات هي المهيمنة في العديد من الدول النامية ذات القدرات الغذائية التصديرية .

عالمنا العربي اليوم في ظل الوفرة البترولية وتعداد سكاني يقارب ١٨٦ مليون نسمة ، يستورد سنويا بما يزيد على (٢٥ مليار دولار) بعضا من احتياجاته الغذائية (ولحسن الحظ توفرت له عائدات مالية لدفع قيمة مشترواته مضافا إليها

ما تلقت عديد أقطاره من معونات غذائية كبيرة . ومع ذلك فإن ثلث الشعب العربي سيعاني من نقص في الغذاء عام ٢٠٠٠م وهو ليس بالبعيد . تعدادنا السكاني كعرب سيصل إلى ما لا يقل عن ٢٦٠ مليون نسمة ، وقيم استيراداتنا المتوقعة تتراوح بين ١٢٠ مليار دولار بحدها الادنى و ٢٠٠ مليار دولار بحدها الأعلى . . هذا إن وجد في الأسواق العالمية الكميات والنوعيات من السلع الغذائية التي نحتاجها ، وإن رضيت عن طموحاتنا المشروعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدول صاحبة التكنولوجيا المتطورة وصاحبة الفائض الغذائي العالمي . ناهيك ان كان هناك سعي جاد لايجاد خزين استراتيجي لأهم السلع الغذائية ذات النمط الغذائي السائد .

الصناعات الغذائية العربية

تشكل الصناعات الغذائية حلقة وسيطة ضمن الصناعات التحويلية ذات الخصوصية وهي وان كانت تشمل التعامل مع المنتجات الزراعية بشقيها النباتي ، والحيواني فهي معنية بأساليب النقل والخزن والتحضير للمادة الأولية بوسائل فيزياوية ، أو كيماوية ، أو كليهما معا بشرط المحافظة على صنف وخصائص المادة الغذائية . ولهذه الصناعة علاقة وطيدة بزيادة الانتاج الزراعي . كما أن لها علاقة بصناعات أخرى متممة مثل الصناعات الكيماوية وصناعة الحفظ وصناعة التعبئة والتغليف . والغاية من إنشاء الصناعات الغذائية هي الحفاظ على فائض الانتاج الزراعي من مواسم الوفرة إلى مواسم الشحة لادامة توفير الغذاء للمواطنين ، وإعطاء قيمة اقتصادية أكبر للمنتجات الزراعية وبخاصة الموجهة للتصدير ، والحفاظ على مستوى محدد للأسعار ، وتأمين الأمن الغذائي على مدار العام ، وإيجاد مراكز تصنيعية في مناطق الانتاج الزراعي (الأرياف والقرى) وبالتالي المساعدة على التطوير الاجتماعي والاقتصادي لعموم البلد المعني ، والحد من الهجرة من الريف للمدينة في الدول النامية الزراعية ، وتعزيز مصادر الدخل القومي ، وخلق فرص للاستثمار الزراعي والصناعي والربط بين الانتاج الزراعي والتخطيط الصناعي سواء في مجال إنتاج الغذاء أو الصناعات الأخرى والتي تقوم على النواتج العرضية للتصنيع الغذائي كصناعة الأعلاف والأخشاب والورق وغيرها .

ويلعب مرفق العلم والتكنولوجيا دورا مهما وحيويا في مجال تطور الصناعات الغذائية ، واستخدام معطيات العلم وترشيد استخدام الوسائل التكنولوجية المتاحة ، أو المحتملة تعتبر من أهم عوامل زيادة الانتاج للمادة الأولية وللمادة المصنعة وتحسين النوعية وتحقيق اقتصادية المشاريع الزراعية الصناعية . كما أن إعداد الكوادر الفنية لها دور حاسم في كل هذا السياق .

فمرتكزات إقامة ونمو وتطور الصناعة الغذائية متوفرة في الوطن العربي . إن تعاملنا معه كوحدة جغرافية متكاملة وتشمل التالي :-

- المادة الأولية الزراعية
- اليد العاملة الماهرة
- رأس المال
- التكنولوجيا
- الأسواق

وتملك الأقطار العربية مزيجا غير متجانس من التكنولوجيا التصنيعية الغذائية داخل القطر الواحد وعلى النطاق القومي ، فهناك الصناعات الغذائية التقليدية المعتمدة على الخبرات المتوارثة والمتسمة بكثافة استخدام العمالة وضآلة الانتاج مرورا بالصناعات الغذائية (نصف المكننة) والصناعات الغذائية المتطورة جدا (نظام كامل للاتمتة) وقد تشمل كل هذه الاقسام صناعة غذائية واحدة مثل صناعة الألبان أو الزيوت النباتية . ومن المتعارف عليه أن الصناعات الغذائية في الدول النامية تعتمد على توفر فائض في الانتاج الزراعي أو وجود إنتاج زراعي صناعي (البذور الزيتية - قصب السكر - الألبان - الخ) ووجود فائض في العمالة رخيصة التكاليف . . إلا أن صناعات غذائية عديدة قامت في بعض الأقطار العربية ، وهي اقتصادية لا تعتمد على توفر المادة الأولية المحلية أو على وجود عمالة فائضة مثل صناعة الزيوت النباتية ، الالبان ، المعلبات الغذائية ، الحلويات ، ولقد لعب القطاع الخاص الدور الأساسي في تنمية وتطوير الصناعات الغذائية في الوطن العربي ، كما دعمت وساعدت الحكومات على إنشاء العديد من الصناعات الغذائية من خلال تقديم القروض والتسهيلات المصرفية والحماية ، كما ساهمت بعض الحكومات بصورة مباشرة في إنشاء الصناعات الغذائية . . إلا أن القطاع الخاص لا زال له دور متميز في عملية التصنيع الغذائي . ويندر أن يوجد برنامج محدد أو خطة تفصيلية مستقبلية للتصنيع الغذائي في معظم الأقطار العربي ، ويترك موضوع التوسع في الطاقات الانتاجية للمصانع القائمة أو للمشاريع الجديدة إلى مسألة العرض والطلب والسياسة السعرية المتبعة واحتياجات الأسواق المجاورة أو لوجود فائض الانتاج الزراعي .

نبذة عن أهم الصناعات الغذائية في الوطن العربي

يملك الوطن العربي العديد من الصناعات الغذائية أهمها :

صناعة الحبوب

لما كانت الحبوب تعتبر النمط الغذائي السائد في المنطقة فإن صناعتها تعد من الصناعات الرائجة وهي تشمل استلام المواد الأولية (قمح ، شعير ، أرز . . الخ) ، وخزنها وإعدادها للتصنيع ثم توزيعها على وحدات الانتاج المختلفة ، ويستثمر في هذه الصناعة أموال طائلة من القطاعين العام والخاص وفي الغالب يتولى القطاع العام مسؤولية استلام وتعويض المزارعين عن إنتاجهم من الحبوب بأسعار مجزية ، ثم خزن الحبوب في صوامع خاصة وإنشاء المطاحن والاشراف على التوزيع ويشترك القطاع العام والخاص في حلقات التصنيع المتعلقة بالمطاحن وبالأفران ومعامل الانتاج الأخرى المعتمدة على الحبوب .

ولقد اتبعت مؤخرا سياسة في معظم الأقطار العربية تهدف إلى إيجاد مخزون استراتيجي لسد احتياجات الأسواق المحلية لفترة تتراوح ما بين الثلاثة أشهر والستة أشهر ، إلا أن معظم هذه المواد مستوردة لمعظم الأقطار العربية ويشكل قيامها عبئا ماليا كبيرا على تلك الأقطار .

من ناحية التكنولوجيا المستخدمة في إعداد رغيف الخبز ومواصفات هذا الرغيف فهي متباينة بين التكنولوجيا التقليدية القديمة في الأفران القروية ، وبين الأفران الكهربائية المتطورة جدا ذات الطاقات الانتاجية العالية . وتفتقر

هذه الصناعة إلى اليد العاملة الماهرة وبخاصة في مراحل الطحن والعجن وادامة المعدات وانتقاء أفضل النسب للخلطات لتلائم الظروف الجوية لكل بلد .

ولقد أقامت بعض الأقطار العربية (مصر ، الجزائر ، العراق) بعض المعاهد المتخصصة في مجال تصنيع الحبوب .

صناعة الزيوت النباتية

تنتشر صناعة الزيوت النباتية في معظم الأقطار العربية وتقسم إلى قسمين رئيسين الأول يتعامل مع الزيتون لانتاج زيت الزيتون اعتمادا على المنتج منه كما في تونس ، سوريا ، ليبيا ، مصر ، المغرب والأردن وفلسطين ، التكنولوجيات المستخدمة وهي متعددة وهي بسيطة للغاية في بعض الأقطار (حيث لا زال معظمها يملك آلاف المعاصر اليدوية البسيطة ذات القطاعات الانتاجية المحدودة والمردود غير الاقتصادي) والمتطور نسبيا وصولا إلى التقنيات المتطورة جدا ، وتملك بعض هذه الأقطار طاقات كافية من المعاصر ومن معامل الاستخلاص والتكرير وتنتج أنواعا عديدة من زيت الزيتون وتقله وتملك كوادر متطورة فنية ومراكز للتدريب والتأهيل وبخاصة في تونس ، إلا أن أهم مشكلة تواجه هذه الصناعة هو تذبذب الانتاج الزراعي وموسميته (عاما بعد آخر) مما يؤدي إلى تعطيل كثير من الطاقات الانتاجية ، كذلك فان عدم إدخال المكننة في عمليات القطف جعل من تكاليف إنتاج زيت الزيتون مرتفعة وكذلك بالتالي أسعاره ، وبدأ استهلاكه بالانحسار أمام الزيوت النباتية الأخرى . إلا أن نمط الاستهلاك لزيت الزيتون لا زال سائدا في الأقطار المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

القسم الثاني من مصانع الزيوت النباتية هو المصانع المعتمدة على إنتاج الزيوت من البذور الزيتية (بذرة القطن ، فستق الحقل ، عباد الشمس ، زيت النخيل ، زيت القرطم . . . الخ) ، وهو يقسم إلى نوعين الأول يعتمد إلى حد بعيد على استخدام المواد الأولية المتاحة من البذور الزيتية وبخاصة في السودان ومصر المعتمدين على بذور القطن وفستق الحقل وفي اقطار اخرى مثل سوريا ، العراق ، المغرب ، وتقوم هذه البلدان بتعويض نقص الانتاج الذاتي من البذور الزيتية من خلال استيراد المواد الخام الأولية أو نصف المصنعة . . وهذه المصانع تملك وحدات للعصر وأخرى للاستخلاص والتكرير والتعبئة ، تعمل أحيانا ولا تعمل أحيانا آخرى ، الفرع الآخر من هذه الصناعة يعتمد على استيراد المواد الخام نصف المصنعة ولا يملك أي انتاج محلي من البذور الزيتية ويقتصر عمله على التكرير والتصفية والتعبئة كالمعامل المنشأة في الكويت ، الامارات ، الاردن ، واليمن الديمقراطية ، المعاناة الكبيرة لهذه الصناعة هو عدم توفر المواد الأولية واحيانا عدم مطابقة مواصفاتها لمواصفات التصنيع المطلوبة ، كذلك فإن عمليات إنتاج الكسبة غير خاضعة لمعطيات تكنولوجية محددة وبالتالي فإن نسبة الزيت في الكسب المنتجة في الوطن العربي عالية نسبيا وهو يمثل فقدانا في كمية الزيت الواجب استخلاصها .

ولا يوجد في الوطن العربي أي مركز متخصص لبحوث صناعة البذور الزيتية ، كما أن معظم مصانع البذور لا تعمل بطاقاتها الانتاجية وفي كثير من الأحيان تكون معطلة عن العمل ، كما تعاني من نقص ولكن غير كبير في الكوادر

الفنية العليا والوسيطة ، وفي حين يفضل المستهلكون في بعض الأقطار الزيت الصلب المهدرج فان أقطارا أخرى تقتصر على إنتاج واستهلاك الزيوت النباتية السائلة ، وتزيد قيمة الاستيرادات من الزيوت النباتية للوطن العربي على المليار دولار سنويا من الخارج .

وتنتج معامل الزيوت كنواتج عرضية وبخاصة تلك المتعاملة بحلقات التصنيع الأولية بدءا من البذور الزيتية . وتعتبر الكسب الزيتية من مدخلات صناعة الأعلاف التي تستهلك محليا باستثناء السودان الذي يصدر قسما كبيرا من إنتاجه منها (كسبة فستق الحقل وكسبة بذرة القطن للخارج .

تخضع منتجات الزيوت النباتية في معظم الأقطار العربية إلى دعم حكومي للأسعار كما أن ملكية هذه المصانع تتوزع بين القطاع العام (مثل العراق ، سوريا ، اليمن الديمقراطية ، الجزائر ، ليبيا) ، وبين القطاع الخاص (مثل الامارات ، الأردن ، تونس ، المغرب) .

صناعة الألبان

تنتشر صناعة الألبان في جميع الأقطار العربية ومن المنتجات شائعة التداول الحليب بنوعيه المبستر والمعقم ، الأجبان الطرية والمطبوخة ، الحليب المجفف والمكثف والمحلى ، اللبن ، القشطة ، الزبدة ، والمثلجات اللبنية ، وللزيادة الهائلة في استهلاك الألبان عملت العديد من الحكومات على تطوير إنتاج المادة الخام من حليب الأبقار فبذلت جهود لمكافحة الأمراض وتوفير الخدمات البيطرية وتحسين السلالات جيدة الأدرار للحليب واستيراد الأبقار المحسنة وإقامة مزارع الأبقار المحسنة وإقامة مزارع الأبقار وإيجاد مراكز لجمع الحليب وتبريده وتقديم العون والارشاد الزراعي للمزارعين . ورغم الزيادات المتحققة في إنتاج الحليب سواء من الأبقار أو من الأغنام والماعز والجاموس والجمال ، إلا ان الكميات المنتجة لا تغطي نصف الاحتياجات الاستهلاكية للمواطنين وبالتالي فإن استيراد كميات كبيرة من الحليب الجاف (البودرة) قد شهدتها الأسواق العربية .

وتملك الأقطار العربية مئات المصانع ذات الطاقات الانتاجية الجيدة وتتجة الانتاج بصورة رئيسة للحليب المبستر والمعقم واللبن الرائب والجبن الطرى والمثلجات . وفي حين لا زالت هناك بعض المصانع البسيطة تعمل في أصناف محددة . من منتجات الألبان ، فإن عشرات المصانع الحديثة والمتطورة تكنولوجيا قد أقيمت ، ولقد بدأ العديد منها يعتمد بصورة تامة على استيراد الحليب البودرة . وتتوزع ملكية هذه المصانع بين القطاع الخاص (وهو الغالب) وبين القطاع العام (العراق ، اليمن الديمقراطية ، سوريا ، الجزائر ، ليبيا وتونس إلى حد ما) . وبالرغم من التطورات التكنولوجية في هذه الصناعة ، إلا أنها تعاني من نقص في الكوادر الفنية المعنية بادامة وتصليح المعدات ، وتفتقر هذه الصناعة إلى الكوادر الفنية الوسطى للعمليات الانتاجية ، كما أنها مركزة في المدن الرئيسة أو حولها . ولا زالت الأقطار العربية تستورد كميات كبيرة من مختلف منتجات الألبان .

صناعة المعلبات الغذائية

تملك الأقطار العربية مصادر زراعية متنوعة لانتاج الخضراوات والفواكه ، كما تتسم زراعة هذه المنتجات بالموسمية ، حيث وفرة الانتاج في فصل وشحتها في فصل آخر ، وسعيا لاعطائه قيمة أكبر للمنتجات الزراعية هذه وإدامة توفرها في الأسواق والحفاظ على اسعارها وإيجاد استثمارات صناعية . عرفت اقطار المنطقة صناعة المعلبات بشكلها البسيط في بداية اعوام الحرب العالمية الثانية (في مصر عام ١٩٣٩) وكان النهوض الحقيقي لهذه الصناعة في الوطن العربي جميعه خلال عقد الستينات ، حيث شهد إنتاج الخضراوات والفواكه والبقوليات تطورا ملحوظا . وقد كان التركيز في بداية الأمر على إنشاء مصانع تعليب معجون الطماطم (رب البندورة) حيث أقيمت عشرات المعامل ، ثم أقيمت معامل تعبئة الخضراوات والفواكه والمربيات ، ثم عصائر الفواكه ومنتجاتها حاليا بين توزيع وتنوع هذه الصناعة في المنطقة العربية .

وحديثا عرفت بعض أقطار المنطقة صناعة التجفيف والتجميد لبعض المواد الغذائية .

أهم المعوقات التي تحول دون تطور هذه الصناعة في الوطن العربي تتمثل بالتالي : ـ

- موسمية إنتاج المواد الأولية وبالتالي توفيرها للمعامل التي غالبا ما تعمل بأقل من طاقاتها التصميمية .
- تنوع مصادر التكنولوجيا المستخدمة (حتى في البلد الواحد) يحد من تحسين خدمات ما بعد البيع لهذه التكنولوجيات .
- ارتفاع تكاليف مواد التعبئة والتغليف إذ أن معظمها مستورد من الخارج ، إما كرقائق أو كعلب نصف مصنعة .
- شحة الكوادر الفنية العاملة وبخاصة الكوادر الوسطى منها .
- تزايد اعتماد العديد من مصانع المعلبات الغذائية على المواد الأولية المستوردة .
- منافسة البضائع المستوردة المثيلة من ناحية للأسعار وأحيانا الجودة .

وحديثا ظهر إلى الوجود في العديد من الأقطار العربية صناعة معلبات المقبلات (الحمص بالطحينة والفول المدمس ، المريسة . . . الخ) . والتي تجد رواجا في الأسواق ، إلا أن معظم هذه المصانع تعتمد على استيراد معظم مواده الأولية من الخارج . كذلك تجدر الاشارة إلى أن بعض معامل التعليب الغذائي أقيمت في بعض الأقطار دون دراسات للجدوى الاقتصادية والفنية واعتمادا على معطيات سياسية اقتصادية ولقد اغلقت ابواب بعضها . إما لعدم توفر المواد الأولية أو لعدم وجود أسواق لمنتجاتها قادرة على منافسة السلع المثيلة المستوردة .

صناعة التمور

يعتبر الوطن العربي موطن النخيل في العالم إذ يملك ٦٩٪ من عدد أشجار النخيل عالميا ويشكل إنتاجه من التمور حوالي ٧٦٪ من الانتاج العالمي للتمور .

والتمور والنواتج العرضية للنخلة مادة خام للعديد من الصناعات الغذائية والعلفية ولصناعات أخرى من أهمها صناعة الدبس ، السكر السائل ، الكحول الطبي والصناعي ، الخل ، البروتين الصناعي .

صناعة السكر

عرفت دول المنطقة العربية صناعة السكر منذ الأربعينات ثم تطورت هذه الصناعة كثيرا في عقد الستينات وحاليا فان السودان ، المغرب ، تونس ، سوريا والعراق ومصر تعد من الدول المنتجة للسكر وتعتمد في صناعتها على استخدام قصب السكر والبنجر السكري ، وتمتاز هذه الصناعة حاليا باستخدام التكنولوجيا المتطورة واليد العاملة الماهرة ، ولقد أقيمت بعض المشاريع الضخمة مؤخرا مثل مشروع كنانة في السودان والممول من الدول العربية . إلا أن أهم المعوقات في هذه الصناعة تتمثل في تخلف الزراعة عن إنتاج المواد الأولية التي تحتاجها مما دفع العديد من المصانع القائمة إلى إجراء عمليات تكرير الخامات السكرية المستوردة ، كما إن طاقات بعضها غير مستغلة وتجرى حاليا توسعات كبيرة في إنشاء العديد من المصانع القائمة أو إنشاء مصانع جديدة ولا زالت معظم الاحتياجات العربية من السكر مستوردة من الخارج .

صناعة تعليب الأسماك

تملك المنطقة العربية شواطيء بحرية كبيرة تشمل تقريبا كافة شواطيء البحر الاحمر والجزء الجنوبي والشرقي للبحر الأبيض المتوسط وأجزاء من المحيط الهندي والجزء الأعظم من الخليج العربي . كما تملك العديد من الأنهار والبحيرات الحاوية على كميات لا بأس بها من مختلف أنواع الأسماك ، إضافة لبعض المشاريع الجديدة التي أقيمت أو هي تحت الدراسة لاستزراع الأسماك .

وتعاني هذه الصناعة من عوامل عدة منها الصيد الجائر في المياه الاقليمية وقلة الاستثمارات الموجهة لهذا القطاع ومن تلوث المياه الذي يحد من نمو الثروة السمكية . كذلك فان الكوادر الفنية العاملة في مجال الصيد أو التصنيع محدودة الكفاءة وبعض موانيء الصيد غير مجهزة بالمعدات اللازمة .

ويجري الآن دراسات لانشاء معامل لانتاج شباك الصيد لتخدم دول المنطقة في كل من تونس وموريتانيا وهناك إمكانات جيدة جدا لاستغلال هذه الثروة السمكية ولتطوير صناعة تعليب الأسماك .

صناعة الحلويات

تنتشر في دول المنطقة مختلف أنواع صناعة الحلويات كصناعة المعجنات وصناعة السكريات المتبلورة وغير المتبلورة وصناعة الشيكولاته . وهي صناعات تقليدية عرفتها دول المنطقة منذ قرون عديدة ، إلا أن معامل حديثة ومتطورة أنشئت حديثا لسد بعض الاحتياجات من استهلاك السكان وبخاصة الحلويات السكرية والشيكولاته ومعدات وآلات هذه المصانع مستوردة من الخارج وكذلك معظم المواد الأولية ومواد التعبئة والتغليف .

ولا تعاني هذه الصناعة من قضايا التمويل وهي في الغالب ملك للقطاع الخاص . إلا أن مشاكل نقص العمالة الفنية وعدم إدخال الطرق التكنولوجية الحديثة على صناعة الحلويات التقليدية في المنطقة ومزاحمة الاستيرادات ، وعدم وجود مواصفات محددة وسياسة التسعير المتبعة تحد من تطور هذه الصناعة .

صناعة المشروبات الغازية والمياه المعدنية

وهي من أكثر الصناعات الغذائية انتشارا في دول المنطقة ، وتوجه إليها استثمارات جيدة وقد شهدت قفزات نوعية كبيرة من ناحية التكنولوجيات المستخدمة أو الطاقات الانتاجية الكبيرة . المشروبات الغازية تستورد موادها الأولية من الخارج بالكامل تقريبا . أما صناعة المياه المعدنية فقد شهدت رواجا في دول المنطقة ابتدأت في تونس والمغرب ولبنان والجزائر ، وهي تعم معظم دول المنطقة وتعتمد على الينابيع المعدنية المديدة التي وجدت .

صناعة اغذية الاطفال

وهي صناعة غذائية ناشئة اقيمت في بعض بلدان المنطقة (الجزائر) وسوريا ، مصر ، الأردن وحاليا تقام في العراق وليبيا) ، تعتمد إما على تصنيع منتجات الحليب أو على تصنيع الحبوب .

ومعظمها أقيم بمعاونة الشركات الأجنبية العالمية وبمواصفات خاصة ، إلا أن هناك اتجاهات جديدة نحو اعتماد وصفات محلية ، تعتمد المنتجات الزراعية المحلية (التمور ، الحبوب) والتي تلائم بيئة المنطقة ، ومعظم المشاريع المقامة حكوميا أو بإشراف مباشر من قبل الحكومة .

صناعة الدواجن والبيض

وهي من الصناعات الغذائية الواسعة الانتشار في المنطقة ويمارس القطاعان العام والخاص هذا النشاط ، وتتراوح التكنولوجيات المستخدمة فيها من البسيطة إلى المتطورة ، كما أن الاستثمارات الموجهة لهذه الصناعة كبيرة ولا زالت عشرات المشاريع الجديدة قيد الانشاء .

طبيعة العلاقة بين تحقيق الأمن الغذائي ونمو الصناعة الغذائية في الوطن العربي

هناك مدرستان فكريتان تفسران العلاقة بين الانتاج الزراعي بشقيه النباتي والحيواني (صمام الأمان الذاتي للأمن الغذائي لأي بلد في العالم) وبين عملية التصنيع الغذائي ، المدرسة الأولى تقول أن المزرعة المتطورة إنتاجا هي التي تخلق المصنع أي أن الزيادة في الانتاج وتحسين الانتاجية الزراعية يؤديان إلى وجود فائض في الانتاج مما يجعل من إنشاء المصنع الغذائي الذي يحتاج إلى كميات كبيرة من المواد الأولية عملية اقتصادية مجزية ، المدرسة الفكرية الثانية ، تقول أن المصنع الغذائي واقع وعامل تنشيط لتطوير المزرعة أي أن إنشاء المصنع الغذائي هو عامل لحث قدرات الفلاح على زيادة إنتاجه لضمان وجود سوق لتصريف المنتجات . وكلتا المدرستين تتعايشان في الوطن العربي ، إلا أن الجهود المحمومة بعد تعديل أسعار النفط في عام ١٩٧٤ أدت إلى بروز صناعات غذائية كانت عاملا معيقا لتطور المزرعة وللحد من النشاط الزراعي ، إذ أن الأسعار العالمية لمدخلات بعض تلك الصناعات هي دون نصف أسعار الانتاج الفعلية للمواد الأولية المحلية والأمثلة على ذلك كثيرة تشمل صناعة الألبان ، والسكر ، والزيوت النباتية ، والمعلبات الغذائية ، واللحوم ، والأعلاف وغيرها وحاليا فإن من أهم سمات الصناعات الغذائية العربية التالية :-

- ان التكنولوجيات المستخدمة فيها (معدات وفنون انتاج) مستوردة من الخارج وهي متنوعة المصادر ومختلفة بدرجة محتواها التكنولوجي .
- العديد منها يعتمد على استيراد مواده الأولية من الخارج .
- معظمها لا يعمل بطاقاته الانتاجية المتاحة ، وهناك فائض كثير من هذه الطاقات .
- العديد منها موسمي الانتاج اعتمادا على وفرة المواد الأولية المتاحة (مصانع التعليب على وجه الخصوص) .
- هناك نقص كبير في اليد العاملة الفنية وبخاصة الوسطى منها وكذلك في الكوادر العاملة في الادامة والصيانة للمعدات والآلات .
- مواد التعبئة والتغليف المستخدمة في هذه المصانع معظمها مستورد شبه جاهز من الخارج ، وتشكل كلفها نسبا عالية في مجمل الكلف الصناعية .
- منتجات بعض هذه المصانع لا تخضع لمواصفات دولية متعارف عليها .
- أسعار منتجات هذه المعامل أحيانا غير قادر على منافسة أسعار المواد المثيلة المستوردة رغم الدعم المقدم لها من قبل الحكومات .
- لا تملك معظم هذه المصانع أية دوائر أو أجهزة أو مراكز تتعامل مع البحث والتطوير العلمي وهي تهدف إلى حل الاختناقات التي ترافق مسيرة الانتاج .
- يتوزع في معظم بلدان المنطقة الاشراف الحكومي عليها من قبل العديد من الدوائر الرسمية (الصحة ، الرقابة الصناعية ، المواصفات . . الخ) .

العوامل المؤثرة في تطور الصناعات الغذائية في الوطن العربي :

تتباين الأقطار العربية في طبيعة الظروف المتاحة لها لتطوير صناعاتها الغذائية ، ولكل منها سماته المميزة في هذا السياق ، وإن كانت عوامل الانتاج من مواد أولية ويد عاملة وأسواق وتكنولوجيا ، ورؤوس أموال وبنى ارتكازية وتوفر الادارات الصناعية ، فإن هذه العوامل مجتمعة يندر أن تتوفر في قطر واحد من أقطار المنطقة ولكنها مجتمعة وتتوفر في مجمل أقطارها ، ولذلك فإن الصناعات الغذائية قد قطعت شوطا جيدا في بعض الأقطار نتيجة للظروف أعلاه ومنها مصر ، والسودان ، والعراق ، وتونس ، وسوريا على سبيل المثال في حين انها لا زالت صناعات حديثة الولادة في بلدان أخرى مثل اليمن ، الكويت ، السعودية ، عمان ، البحرين ، قطر وغيرها .

إلا أن مجمل الصناعات الغذائية في المنطقة يحد تطورها بعض العوامل المؤثرة وهذه وإن كانت حادة في بعض الأقطار فهي أقل حدة في أقطار أخرى وأدناه تحليل موجز لبعض هذه العوامل .

المواد الأولية :

شهدت أقطار المنطقة كافة تطورا في انتاج المواد الزراعية بشقيها النباتي والحيواني ، كما ادخلت بعض المنتوجات الزراعية التي لم تكن اساساً معروفة لديها ، وزاد الانتاج وتحسنت النوعية ، ففي حين كانت نسبة التطور الزراعي في

معظم أقطار المنطقة تتراوح ما بين (ـ ٦,٠٪ في الصومال و ٦,٣٪ في لبنان) خلال الفترة (١٩٦٠ ـ ١٩٧٠) فإن هذه النسبة تغيرت في الفترة اللاحقة (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠) فازدادت في الصومال ، والسودان ، واليمن ، وموريتانيا ، وتونس ، وسوريا ، والجزائر ، وليبيا ، والسعودية والكويت ، والأردن والامارات العربية في حين نقصت في بلدان المنطقة الأخرى ، وتراوحت نسبة التطور الحاصل في نفس الفترة بين) ١٨ـ٪) في موريتانيا و (١١,١٪) في ليبيا .

إلا أن هذه الزيادات ونتيجة للتطورات الاقتصادية التي شملت المنطقة لم تكن لتواكب الاحتياجات المتزايدة من المواد الغذائية سواء أكانت موجهة للاستهلاك المباشر أو للتصنيع الغذائي .

وترجع الأسباب إلى عوامل عدة منها قسوة البيئة التي تتميز بدرجات قصوى من الحرارة والرطوبة وضآلة سقوط الأمطار ويرجع انخفاض الانتاجية لوحدة الأرض الزراعية لعدم استخدام المكننة والأسمدة الكيماوية ولعدم مكافحة الآفات ، ولعدم ترشيد استخدام المياه السطحية ، والجوفية ، ولندرة التعامل مع نتائج البحوث الزراعية التطويرية ، ولندرة استخدام البذور المحسنة ، كما أن تفشي الأمية في الريف ونقص الكوادر الفلاحية الارشادية والكوادر الفنية الوسطى وانخفاض الانتاجية الوراثية للحيوانات اللاحمة والحلوب ولضآلة الاستثمارات المالية المرصودة ، ولعدم كفاية البنى الارتكازية ، وشحة توفر المخازن ووسائل النقل الحديثة ولبروز ظاهرة الهجرة من الريف للمدينة . هذه العوامل وغيرها أدت إلى قصور الانتاج الزراعي عن مواكبة التطورات العالمية التكنولوجية الحديثة في هذا الميدان وكذلك إلى ضآلة الانتاج لوحدة الأرض الزراعية .

السياسات الزراعية الصناعية

منذ ستينات هذا القرن أعلنت العديد من أقطار المنطقة عن انتهاج سياسات تخطيطية في ميدان القطاع الزراعي على ضوء الاحتياجات الملحة للمواطنين ، أو لاحتياجات الأسواق الخارجية للمساعدة في إيجاد تراكم في العملات الصعبة لتوجهها للاستثمارات الأخرى التي تحتاجها ، إلا أن هذه السياسات ، وبالرغم من كل الجهود التي بذلت والأموال التي صرفت ، لم تحقق كامل الأهداف التنموية المرجوة ، فلا زال هناك بون شاسع بين التخطيط الزراعي والتخطيط الصناعي ، كما حكم العرض والطلب وأسعار المواد الزراعية مسار خطط التنمية الزراعية .

وقد شهدت أقطار المنطقة تركيزا على إنتاج الخضراوات والفواكه مما حقق قدرا من الاكتفاء الذاتي ، إلا أن الزراعة الموجهة للانتاج الغذائي لم تحقق نجاحا يذكر (البذور الزيتية ، السكر ، الحيوانات الحلوب لانتاج الحليب) فلم تتعامل الصناعة مع خلق قنوات دائمة لانسياب المحاصيل الحقلية لمخازنها ، كما تركت بعض الحكومات السياسة السعرية دون تحديد .

الكوادر الفنية

تحتاج الصناعات الغذائية إلى العديد من الكوادر الفنية ومن التخصصات المتنوعة من المهندسين والكيماويين والاقتصاديين والبيولوجيين والصيانة والكهرباء والميكانيك . وعلى الرغم من أن أقطار المنطقة تملك العديد من الجامعات (كليات الزراعة والهندسة والمعاهد الفنية العليا) ومراكز التدريب سواء أكانت مدارس مهنية أو مراكز

متخصصة ، إلا أن الصناعات الغذائية في المنطقة لا زالت تعاني من قصور كبير في توفير العمالة المدربة وبخاصة الكوادر الوسطى المعنية بالانتاج والادامة والصيانة ، كما أن طبيعة المناهج الدراسية (النظرية والعملية) المتبعة حاليا لا تواكب التطورات التكنولوجية العالمية .

التكنولوجيا

ارتبط تطور الصناعات الغذائية في العالم بالتطورات التكنولوجية وبمدى التراكم التكنولوجي الوطني التي تقوم في رحابة تلك الصناعات كغيرها من الصناعات والصناعات الغذائية في المنطقة وبما يتعلق بواقعها التكنولوجي هي صناعات مستوردة معدات وآلات وفنون انتاج ، لم تصنع أساسا للعمل ضمن ظروف المنطقة ، وتحتاج إلى مواصفات محددة للمواد الأولية الداخلة في عملية التصنيع وإلى ظروف عمل خاصة ومحددة . وهذه في الاساس تحتاج إلى دوائر للتطوير والبحث وتسعى لملاءمة التكنولوجيات المستوردة لواقع وظروف العمل وفي كل بيئة إنتاجية في أقطار المنطقة .

وتفتقر المنطقة حاليا لوجود أي مراكز للابحاث العلمية والتكنولوجية المتخصصة في مجال تطوير الصناعات الغذائية ، ولكن توجد بعض المراكز البحثية في بعض الأقطار تتعامل مع الانتاج الزراعي وتتبع هذه المراكز جهات متعددة منها الجامعات ومنها وزارات الزراعة ، ومنها وزارات البحث العلمي أو إن لها ارتباطات خاصة . كما أن الأبحاث العلمية التي أجريت أو التي تجري يغلب عليها الطابع الأكاديمي ، رغم أهميته ، ولا تتصدى لمعالجة الاختناقات في العملية التصنيعية أو لايجاد بدائل ملائمة للمواد الأولية من مصادر محلية أو لفك الحزمة التكنولوجية لمحاولة تصنيع بعض الأجزاء محليا .

كذلك ليست هناك محاولات جادة من مراكز الأبحاث العلمية القائمة للتعامل مع التكنولوجيات الغذائية التقليدية في المنطقة من أجل تطويرها ومكننة عملياتها الانتاجية .

ولشحة الخبرات التكنولوجية استوردت اقطار المنطقة انواعا متعددة من التكنولوجيات للقطاع الغذائي الواحد دون دراسة لمحتواها التكنولوجي ، كما أن طبيعة العلاقات السياسية والاقتصادية التي تربط بين بعض أقطار المنطقة ومصادر انتاج التكنولوجيا أدت إلى الاستيراد او المساعدة في إنشاء بعض الصناعات بتكنولوجيات غير ملائمة .

وحاليا فإن معظم المصانع الغذائية لا تعمل بطاقاتها الانتاجية ، كما أن قسما منها قد اغلق تماما لعدم ملاءمة أساليب الانتاج المتبعة فيه لظروف الانتاج الاقتصادية ، كذلك فإن معظم دول المنطقة يفتقر لوجود مراكز للمعلومات العلمية والتكنولوجية التي تتيح التعرف على التكنولوجيات المعروضة في الأسواق العالمية وبالتالي أصبحت دول المنطقة من أكثر مناطق العالم استيرادا لقطع الغيار لمعاملها الغذائية مما أدى إلى ارتفاع تكاليف الانتاج وتدني نوعية المنتج نفسه .

الاستثمارات المالية

يسهم في مجال تنمية الصناعات الغذائية وإقامتها في أقطار المنطقة القطاعين الخاص والعام بصورة منفرده ، أو مشتركة أحيانا وتوفر اقطار المنطقة العديد من المساعدات لانشاء الصناعات الغذائية وبخاصة تلك المعتمدة على المواد الأولية المنتجة محليا .

المعيار الذي يتبعه القطاع الخاص في إنشاء مصانع الغذاء هو معيار الكلفة / الربح ، أما المعيار المتبع من قبل القطاع العام فهو الكلفة / المنفعة . ولقد وجهت خلال العشرين سنة الماضية استثمارات ضخمة في مجال التصنيع الغذائي ولكنها في الغالب اتجهت من قبل القطاع الخاص لانتاج الألبان ، والحلويات ، والمشروبات الغازية ، والمياه المعدنية ، والمعلبات الغذائية وبخاصة صناعة المقبلات ، وصناعة التمور أما القطاع العام فلقد توجه في الأساس نحو صناعة الزيوت النباتية ، والسكر ، وتعليب الأسماك وصناعات الحبوب .

وكانت هذه الاستثمارات لا تأخذ بعين الاعتبار توجيه جزء منها لتطوير إنتاج المواد الأولية ـ عبر مساعدة المزارعين أو إنشاء المزارع الخاصة أو إبرام عقود طويلة الامد مع المزارعين وبالتالي أصبحت معظم تلك المصانع إما موسمية العمل والانتاج إنها تعتمد على استيراد موادها الأولية كاملة من الخارج أحيانا كمواد خام وأحيانا كمواد نصف مصنعة مما عطل بعض وحدات التصنيع المقامة والتي تم رصد واستثمار كميات كبيرة من الأموال فيها (مثل مصانع عصر البذور الزيتية ، والمطاحن ، وصناعات التعليب) .

دراسات الجدوى الاقتصادية والفنية

قومت العديد من المشاريع الغذائية الصناعية في أقطار المنطقة دون إجراء دراسات لما قبل الجدوى الاقتصادية الفنية لها قبل انشائها ومن قبل القطاعين الخاص والعام ، إما اعتمادا على توقعات لانتاج المواد الأولية المحلية والمعلنة من دوائر الزراعة المعنية في البلد أو لتوقعات ارتفاع الأسعار مقارنة بكلف الانتاج . أو اعتمادا على التصدير للدول المجاورة دون النظر في طبيعة المشاريع المنوي إقامتها في تلك البلدان أو اعتمادا على معطيات تكنولوجية معلنة وغير دقيقة ولا علمية ، ولافتقار العديد من أقطار المنطقة إلى مراكز متخصصة أو أهلية لاجراء هذه الدراسات أو لوضوح خطط التنمية ، ولتحديد مجالات الاستثمار أدى ذلك كله إلى فشل العديد من المشاريع الصناعية الغذائية والتي اصبحت هياكل حديدية في العديد من الأقطار .

الاسواق وتغير نمط الاستهلاك

خلال العشرين عاما الماضي حدثت تطورات كبيرة في أقطار المنطقة كان لها تأثير مباشر على زيادة استهلاك الغذاء من جهة (زيادة عدد السكان) وعلى نوعية الأغذية المستهلكة (ارتفاع مستويات الدخل) وزيادة الوعي الصحي والثقافي من جهة أخرى .

البنى الأساسية

تفتقر معظم الأقطار العربية الزراعية إلى المرافق والخدمات الأساسية ، وكان لهذا الموضوع أثره في جغرافية اختيار مواقع التصنيع الغذائي من جهة ، وفي أحيان كثيرة بعيدا عن مصادر المواد الأولية المحلية أو حتى عن موانيء استلام المواد الأولية ، كما أن عدم توفر هذه البنى الأساسية أدى إلى فقدان كميات لا يستهان بها من المواد الأولية المنتجة محليا خلال عمليات النقل إضافة الى ارتفاع التكاليف أو إلى فساد قسم من تلك المواد قبل البدء بعمليات تصنيعه .

التعبئة والتغليف

تستورد المصانع كافة في المنطقة معدات وأدوات ومواد أولية للتعبئة والتغليف من الخارج وبخاصة العبوات وأحيانا اللدائنية منها والزجاجية والورقية ورقائق الألمنيوم . ولوجود احتكار عالمي لبعض مواد ومعدات التعبئة المعدنية ولارتفاع تكاليف المواد الأخرى فإن هذا الأمر انعكس على زيادة كلف التصنيع للمواد المعدة للتسويق مما يجعلها دوما عرضة لمنافسة البضائع المستوردة من خارج حدودها .

تعدد المراكز المشرفة وسياسة التسعير

لا تتبع قواعد انشاء الصناعات الغذائية في بلدان المنطقة دائرة حكومية معينة أو جهة مرجعية واحدة محددة ، وبالتالي فإن عملية إنشاء الصناعة الغذائية ومراقبة الانتاج والسيطرة النوعية تشرف عليه دوائر عدة منها وزارات الصناعة ، والتموين والتجارة والصحة وغرف الصناعة وأجهزة التقييس والرقابة والمواصفات وتتدخل هذه الأجهزة كافة في منح إجازة تأسيس المشروع الصناعي ، كما تشرف على مراقبة الانتاج ، وبالتالي فإن عملية الاعداد للمشروع وبدء عمله يستغرق إجراءات عديدة ووقت كبير وكلف إضافية .

من ناحية أخرى فإن معظم أقطار المنطقة تتبع أسلوب تحديد أسعار منتجاتها الغذائية وهي وان كانت تدعم بعضا منها سواء المنتجة محليا أو المستوردة فإن سياسة تحديد الاسعار وإن كانت تهدف إلى صالح المستهلك فإن القائمين على بعضها (تتوفر لهم الامكانات العلمية الاقتصادية لدقة تحديد الكلف الاجمالية للتصنيع وبالتالي هامش الأرباح) هذا الموضوع يدفع العديد من المستثمرين للتوجه نحو قطاعات صناعية أو عقارية عوضا عن التوجه نحو التصنيع الغذائي .

المواصفات والمقاييس

لحداثة أجهزة المواصفات والمقاييس في بلدان المنطقة أو لعدم وجودها أساسا ولاختيار مواصفات معينة للمنتجات الغذائية من مصادر اجنبية قد لا تلائم الظروف الانتاجية في بعض بلدان المنطقة ولعدم وجود أجهزة بحثية علمية تتعامل مع مواصفات خاصة فإن العديد من مصانع الأغذية في المنطقة يتعرض للغلق وبالتالي للخسارة .

العوامل المساعدة في تطور الصناعات الغذائية في الوطن العربي

هناك عدة عوامل تساعد على نمو وتطور الصناعات الغذائية في الوطن العربي منها قسم ذو طابع مشترك لكافة الصناعات الغذائية وآخر له خصوصية مميزة لطبيعة الصناعة المعنية وادناه وبايجاز اهم تلك العوامل .

١) تطوير أنظمة التعليم والتدريب بما يتلاءم والتطورات العالمية في مجال تكنولوجيا تصنيع الأغذية واحتياجات الوطن العربي من الكوادر الفنية وعلى مختلف المستويات .

٢) ايجاد استراتيجيات للتصنيع الغذائي العربي يراعى فيها جانب توفر معطيات تطور الصناعة الغذائية (مواد أولية ، وايدى عاملة ، وتراكم تكنولوجى) مع تحديد ما يجب تطويره من الصناعات القائمة وما يجب اقامته من المشاريع سواء أكان على مستوى القطر الواحد أو على المستوى القومي .

٣) ايجاد سياسة محددة للبحث العلمى والتطوير التكنولوجي في مجال الصناعات الغذائية تكون جزءا أساسيا من خطة التطوير الكاملة ، تتعامل مع القائم من المراكز وتسعى لايجاد مراكز نوعية متخصصة مرجعية قومية ، مع انشاء نظام لتبادل المعلومات العلمية والتكنولوجية فيما بين الأقطار العربية وبينها وبين العالم الخارجي .

٤) الاهتمام بوجه خاص بموضوع التعبئة والتغليف وإيجاد البدائل المحلية المناسبة ، عوضا عن استيراد المواد المصنعة ، ودراسة استعمال العبوات الزجاجية وعبوات اللدائن ذات الوفرة في المادة الأولية المحلية .

٥) توجيه المزيد من الاستثمارات المالية لانتاج المواد الأولية التي تحتاجها الصناعات الغذائية وبخاصة في مجال إنتاج محاصيل القصب السكرى والبنجر السكري وأنواع البذور الزيتية وإنتاج الأعلاف .

٦) القضاء على الأمية بين أوساط المزارعين والعمال وبخاصة في المناطق الريفية والتي تزيد نسبة الاميين فيها عن ٨٠٪ في الغالب .

٧) الحد من الفروقات الاقتصادية والاجتماعية بين سكان الريف والمدينة ، للحد من الهجرات غير المبرمجة من الريف للمدينة وذلك من خلال تركيز مواقع المشاريع الصناعية قرب مناطق إنتاج المواد الأولية .

٨) إيجاد البنى الارتكازية وتوجيه مزيد من الاستثمارات المالية نحو هذا القطاع .

٩) إيجاد سياسة وطنية لدعم المنتجات الغذائية المصنعة قدر المستطاع وحمايتها من منافسة السلع المثيلة المستوردة ولكن ليس على حساب جودة المنتجات .

١٠) تقليص الروتين المتعلق بمراحل إنشاء الصناعة الغذائية وإيجاد جهة مرجعية في كل قطر تقوم بإرشاد المستثمرين وأماكن الاستثمار المتاحة أو المحتملة .

١١) إيجاد مواصفات للمواد الغذائية المنتجة تتلاءم مع واقع الانتاج ومتطلبات وظروف الوطن العربي .

العوامل المميزة لأهم الصناعات الغذائية

هناك عوامل خاصة مميزة لكل صناعة تساعد على تطور القطاع المحلي وهي على النحو التالي :-

- قطاع صناعة الحبوب

- ضرورة إيجاد سياسة زراعية خاصة بإنتاج الحبوب تعتمد على تقديم العون للمزارعين واعتماد الأراضي المروية قدر المستطاع .

- التوسع في إيجاد مراكز التدريب والتأهيل للكوادر الفنية وبخاصة الوسطى منها واختيار الأكثر تأهيلا ليكون المركز المرجعي .

- تطبيق نتائج دراسات وأبحاث اقلال الفاقد بعد الجني من الحبوب وذلك خلال عمليات النقل والخزن .

- السعي لايجاد سياسة التخصص في إنتاج الحبوب بين دول المنطقة واعتماد البذور المحسنة والقضاء على الأفات الزراعية ذات العلاقة .

- التوسع في إنشاء صوامع خزن الحبوب بطرق حديثة وعلمية .

- قطاع صناعة الزيوت النباتية

ويقسم الى نوعين الأول صناعة البذور الزيتية والثاني صناعة زيت الزيتون وفيا يتعلق بصناعة البذور الزيتية تجدر ملاحظة الامور التالية :ـ

- التركيز على زراعة البذور الزيتية الموجهة مباشرة لصناعة الزيوت النباتية مثل زراعة عباد الشمس وفول الصويا وغيرهما ، إذ أن زراعة القطن تتأثر بالعرض والطلب على الياف القطن نفسها ، كما ان زراعة السمسم وفستق الحقل ونتيجة لزيادة كميات استهلاك المياه ولهذه المنتجات بدأت تفقد أهميتها كمواد أولية لصناعة الزيوت النباتية .

- التدخل المباشر من قبل الحكومات للمساعدة في إنشاء المزارع الخاصة بإنتاج البذور الزيتية أو إنشاء مزارع خاصة وفي البلدان التي اثبتت التجارب أنها مؤهلة لمثل هذا الانتاج (العراق ، وسوريا ، ومصر ، والسودان) .

- إيقاف المعاصر اليدوية عن العمل أو السعي لتجميعها بوحدات إنتاجية أكبر لارتفاع نسبة الفاقد من الزيت في الكسبة المنتجة منها .

- استخدام الطاقات المعطلة للمعاصر ولمعامل التكرير القائمة قبل التفكير بإنشاء أي وحدات أو مصانع جديدة للزيوت .

- إنشاء مركز للأبحاث العلمية التكنولوجية لتدريب الكوادر على المستوى القومي او من خلال الاستفادة من أحد المراكز القائمة ، يقوم بمهمة تطويع التكنولوجيات المستخدمة لتلائم واقع المنطقة ويكون حلقة وصل مع التطورات العالمية في مجال تصنيع الزيوت .

- أما في مجال صناعة زيت الزيتون فتجدر ملاحظة الأمور التالية :-

استخدام المكننة قدر المستطاع في عمليات الجني والقطاف للزيتون بدلا من الطرق التقليدية المستخدمة حاليا .

توجيه مزيد من العناية نحو اشجار الزيتون واستبدال القديم منها بالمزروعات الحديثة مع اتباع طرق الزراعة الحديثة للسماح بإدخال المكننة في عمليات خدمة أشجار الزيتون .

عدم الاعتماد على آلاف المعاصر اليدوية البسيطة المنتشرة في أرياف أقطار المنطقة واستخدام المصانع الحديثة ، واعتماد طرق الاستخلاص بالمذيبات لاستخلاص اكبر كمية من الزيت من ثمار الزيتون .

إيجاد مركز للتدريب والبحث العلمي والتطوير التكنولوجي لخدمة صناعة زيت الزيتون وبالامكان الاعتماد على تطوير أحد المراكز المقامة حاليا في تونس لهذه الغاية .

حماية زيت الزيتون المنتج في دول المنطقة من منافسة الزيت المثيل المستورد والقيام بحملات توعية صحية لابراز ميزات زيت الزيتون .

وجدير بالاشارة إلى أن عدد أشجار الزيتون في المنطقة تزيد على المئة وثلاثين مليون شجرة وتتركز في بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

قطاع صناعة الألبان

الاستفادة من الدراسات التي أجريت حول طبيعة توفر المراعي وترشيد استخدامها للحد من الرعي الجائر وتشجيع صناعة الأعلاف بالمواصفات التي تلائم طبيعة الحيوانات الحلوب الموجودة في المنطقة .

التوسع في الخدمات البيطرية ، والتي تعاني دول المنطقة من نقص كبير فيها ، واتخاذ الخطوات العلمية للوقاية من الأوبئة والأمراض وبخاصة مرض السل ومرض الاجهاض الساري .

انشاء اماكن صحية حديثة لايواء الأبقار تتوفر فيها وسائل النظافة والتهوية والانارة .

التكثيف من اقامة الدورات الخاصة بإعداد الكوادر الفنية الوسطى لادارة اماكن إيواء الحيوانات والمساعدين البيطريين (التلقيح الاصطناعي) .

توجيه مزيد من العناية للثروات الحيوانية الحلوب في المنطقة غير الأبقار مثل الماعز والأغنام والجمال والجاموس ، حيث يشكل إدرارها من الحليب الخام حوالي نصف الانتاج المحلي منه .

تحسين أساليب جمع وتبريد وخزن الحليب الخاص وبخاصة في المناطق الريفية .

التوسع في إقامة وحدات الانتاج الصغيرة في القرى والأرياف وبخاصة في مجال تبريد الحليب والخض الميكانيكي .

ضرورة إقامة مركز قومي مرجعي لبحوث تطوير إنتاج الحليب الخام من المصادر المحلية المتاحة ليشمل فروع تحسين السلالات ، والبيطرة ، والأعلاف ، والاستفادة من الحليب النوق . . الخ) .

وبالامكان إلحاق قسم خاص للتدريب وإعداد الكوادر المعنية بالثروة الحيوانية . كما يمكن سرعة بعث المركز الاقليمي الذي انشأته الفاو وتم إغلاقه قبل بضعة أعوام في المنطقة .

إقامة مركز قومي للبحث والتطوير في مجال تصنيع الألبان ليقوم بالتنسيق بين مراكز البحوث القائمة في أقطار المنطقة (ان وجدت) ويهدف إلى تطوير التكنولوجيات التقليدية المحلية في صناعة الألبان وإيجاد سبل الاستفادة من النواتج العرضية لهذه الصناعة ولمواكبة التطورات العالمية فيها .

اعتماد أسلوب المجمعات الزراعية الصناعية عند التفكير بإقامة أي مشروعات جديدة في الوطن العربي للربط بين إنتاج المادة الخام وتصنيعها واتباع اساليب الانتاج العلمية .

توجيه المزيد من الاستثمارات الحكومية والخاصة نحو إقامة المزارع الحديثة لانتاج الحليب الخام .

تطوير وتحديث مناهج التدريب والتدريس في الجامعات والمعاهد العليا المقامة في دول المنطقة .

***

المصادر

- د. فلاح سعيد جبر - الصناعات الغذائية العربية - الواقع وإمكانات التطوير - الاتحاد العربي للصناعات الغذائية بغداد ١٩٨٥ .
- اتحاد الاقتصاديين العرب - وثائق المؤتمر التاسع (معوقات العمل الاقتصادي العربي المشترك) - بغداد ١٩٨٥ .
- جامعة الدول العربية - التقرير الاقتصادي العربي الموحد ١٩٨٥ - ١٩٨٦
- الاتحاد العربي للصناعات الغذائية - الكتاب الاحصائي السنوي لأعوام ٨٤ - ٨٥ - ١٩٨٦
- د. فلاح سعيد جبر - الأمن الغذائي القومي والعمل العربي الاقتصادي المشترك .
- الاتحاد العربي للصناعات الغذائية ١٩٨٥ - بغداد
- المنظمة العربية للتنمية الزراعية - الكتاب الاحصائي السنوي لعامي ١٩٨٥ - ١٩٨٦
- منظمة الأغذية والزراعة الدولية - الكتاب الاحصائي السنوي (الانتاج والتجارة) ١٩٨٥
- الاتحاد العربي للصناعات الغذائية - وثائق المؤتمرات المتخصصة

الألبان - تونس ١٩٨٥
المعلبات - المغرب ١٩٨٤
الحبوب - الأردن ١٩٨٤
الزيوت النباتية - تونس ١٩٨٣
التمور - العراق ١٩٨١

***

شخصيات وآراء

التقيت به أكثر من مرة ، على رأس وفد بلاده ، في عدد من المؤتمرات الدولية الموسيقية ، عبر ثلاث قارات . . . وكان ذلك في مؤتمرات المجلس الدولي للموسيقى في موسكو سنة ١٩٧١ ، ثم في مؤتمر المجلس الدولي في أستراليا سنة ١٩٧٩ ، وفي مؤتمرات الجمعية الدولية للتربية الموسيقية International Society for Music Education (احدى الجمعيات الكبرى في المجلس الدولي للموسيقى ، التابع لليونسكو) ، ثم في تونس سنة ١٩٧٢ وفي المجر سنة ١٩٨٢ . . وكنا نتوقع أن نلقاه في آخر هذه الجمعية في انسبروك في جنيف سنة ١٩٨٦ ، ولكنه تخلف عنه لمرضه ، وظل كرسي الرئيس الشرفي للجمعية خاليا . . .

في كل هذه المجالات الدولية ، كان كابالفسكي ممثلا واضح الحضور ، قيم المشاركة في أعمالها ، وكانت أجيال الحاضرين من الجنسيات المختلفة ، تتطلع اليه باحترام وتقدير ، باعتباره واحدا من المؤلفين الموسيقيين السوفيت المعروفين ، والذين قدمت مؤلفاتهم خارج حدود روسيا بنجاح . وكان التقدير لشخصه يرجع الى أنه واحد من الفنانين السوفيت الذين يسهل تبادل الآراء معهم مباشرة ، ودون الحاجة الى مترجم ، فقد كان يجيد الانجليزية (وينطقها بلهجة اكسفورد) وكان يعرف الفرنسية أيضا .

وعندما وصلني خطاب سكرتير الجمعية الدولية للتربية الموسيقية (والتي تعرف اختصارا باسم ISME) ، والذي يبلغ فيه أعضاء مجلس ادارة الجمعية بوفاة رئيسها الشرفي ، ديمتري كابالفسكي ، في موسكو في فبراير سنة ١٩٨٧ ، أخذت استعرض دور كابالفسكي المتعدد الجوانب في الموسيقى : فهو مؤلف

تحية لفنان ومرب رحل

ديمتري كابالفسكي
(١٩٠٤ - ١٩٨٧)

سمحه أمين الخولي

موسيقي كبير ، وقائد اوركسترا وعازف صناع (فيرتيوزد) للبيانو - وهو من ألمع المربين الذين كرسوا جهودهم في سبيل تقريب الموسيقى الجيدة للنشء بوسائل متعددة - وهو كذلك كاتب وناقد له دور كبير في المجالات التنظيمية للموسيقى في بلاده . وقد تجلى لي أن ما هو معروف في عالمنا العربي عن كابالفسكي عامة ، أقل بكثير مما ينبغي في أوساط الموسيقى وبصفة خاصة باللغة العربية ، مع أن عمله التربوي الموسيقي ، ومؤلفاته التعليمية للأطفال ، جديرة بأن تجد مكانا باقيا في معاهد التعليم الموسيقي في كل مكان . ومن هذا المنطلق اتخذت تحيتي لذكرى كابالفسكي اتجاه محاولة التعريف الموضوعي به وبجوانب شخصيته الموسيقية في دراسة مفصلة ، تقيم إبداعه الموسيقي ودوره التنظيمي الاداري على الساحة الموسيقية السوفيتية محليا ، ودوليا ، وذلك في محاولة لتفهم طبيعة الأدوار المتعددة التي لعبها كابالفسكي على مسرح الموسيقى المعاصرة ، عبر ما يزيد على ثلثي قرن !

ولقد اعتمدت هذه الدراسة على عدد لا بأس به من المراجع ، وإن كان يعيبها أنها لم تعتمد مباشرة على المراجع السوفيتية الأصلية ، دون وساطة من كاتب أو ناقد غربي ، ولعل مما يخفف هذا النقص أن بعض المؤرخين والنقاد الغربيين ، الذين تصدوا للبحث في تطور الموسيقى السوفيتية المعاصرة ، يتمتعون بقدر من الموضوعية ، وعلى الدارس في النهاية ، عندما تواجهه شبهة التحيز ، أن يحكم المنطق ، تجنباً لمهاوي التحيز السياسي (والذي ولدت الصدامات الحكومية الموسيقية السوفيتية في هذا القرن قدرا كبيرا منه) ، وهذا ما نرجو أن يكون قد تحقق لهذه الدراسة لحياة وفن ودور كابالفسكي في الموسيقى السوفيتية والعالمية .

●●●

النشأة والدراسة والتكوين :

ولد كابالفسكي بمدينة سانت بطرسبورج في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٤ لأسرة من الطبقة المتوسطة ، وكان والده موظفا حكوميا ، محباً للفنون وله ممارسة للشعر والتصوير ، وعندما اكتشف الأب ولع ابنه الصغير ديمتري بالموسيقى ، حرص على أن يوفر له مؤثرات تعليمية وثقافية قيمة ومتعددة الجوانب ، من النوع الذي كان يتمتع به أبناء الطبقة المتوسطة في روسيا في ذلك الحين ، فنمّى لدى ابنه الصغير ولعه بالرسم والموسيقى ، التي كانت أبرز مواهبه ، ووفر له دراسة مبكرة وجيدة لعزف البيانو منذ طفولته . وفي عام ١٩١٨ وبعد قيام الثورة بعام واحد ، انتقلت الأسرة الى العاصمة ، ربما سعيا لتحسين أوضاعها ، وهناك بدأ ديمتري ، وهو لا زال في السادسة عشرة من عمره ، بدأ يعطي دروسا في عزف البيانو للصغار ، وقد أيقظت فيه هذه التجربة المبكرة اهتماما لازمه طوال حياته بل وأصبح فيما بعد من معالم شخصيته ، وهو الاهتمام بموسيقى الطفل ، فقد شعر باحساسه التربوي المرهف أن كثيرا من المؤلفات التي يضطر الأطفال لعزفها في المراحل الأولى لتكوينهم الموسيقي مؤلفات تفتقر الى الخيال والتشويق ، وأن القليل المتداول منها لا يكفي مطلقا لكي يغذي لدى الطفل الموهوب إحساسه بالجمال ويوقظ فيه الرغبة في التعبير بالموسيقى منذ الصغر ، ولذلك بدأ يعالج هذا النقص بكتابة مقطوعات قصيرة مشوقة ، ترتبط بعالم الطفل وألعابه ، وهي في الوقت نفسه تعالج بعض الصعوبات « التكنكية » التي يواجهها العازف الناشيء . وكانت هذه المقطوعات بداية طريق طويل وحافل ترك فيه كابالفسكي بعد ذلك ، بعضا من أفضل مؤلفاته وأوسعها انتشارا .

والتحق دمتري بمدرسة سكريابين الموسيقية الثانوية سنة ١٩١٩ ، حين تأكدت للأسرة ميوله الفنية وعزوفه عن دراسة الرياضيات والقانون ، وهناك درس البيانو على مدير المدرسة ف سيليفانوف الذي شعر بموهبته وقدرها فعاونه على الالتحاق بكونسرفتوار موسكو بعد انتهائه من الدراسة بها .

وفي كونسرفتوار موسكو ، الذي التحق به سنة ١٩٢٥ ، درس كابالفسكي التأليف الموسيقي على جورج كاتوار Katur[1] لفترة قصيرة ، وبعد وفاته درس التأليف على نيكولاي مياسكوفسكي Miaskowski[2] الذي كان له أثر عميق على تكوين كابالفسكي الموسيقي وخاصة في الجانب « الحرفي » (التكنيكي) للتأليف الموسيقي .

ودرس كابالفسكي البيانو بمعهد الكونسرفتوار على جولد نفايسر Goldenweiser . وقد تخرج من قسم التأليف الموسيقي سنة ١٩٢٩ ونقش اسمه في لوحة الشرف بالكونسرفتوار ، كما أنه تخرج من قسم البيانو في العام التالي سنة ١٩٣٠ .

وبدأ كابالفسكي حياته العملية الموسيقية ، ليس كمؤلف موسيقي فحسب ، بل وناقد وناشر وكاتب وعازف للبيانو وقائد للأركسترا ، وقد اعتُبر منذ المراحل المبكرة في حياته العملية من الشخصيات الموسيقية الناجحة في نظر الحزب والسلطات الحكومية ، لما له من نشاط تنظيمي وسياسي في الموسيقى منذ سنوات الدراسة ، اذ انضم وهو لازال طالبا بالكونسرفتوار الى تنظيم موسيقي شبابي كونه شباب مؤلفي كونسرفتوار موسكو ، وكان يعرف اختصارا باسم « بروكول Prokol » ، ثم أصبح ذلك التنظيم نفسه جزءا من الجمعية الروسية لموسيقى البروليتاريا .R.A.P.M (وهي نسخة مصغرة من الجمعية الروسية لكتاب البروليتاريا) . وكانت هذه الجمعية الموسيقية تنادي بالتخلي عن الاتجاهات المتطرفة للتأليف الموسيقي المعاصر في الغرب ، وتحث المؤلفين السوفييت على استلهام التقاليد الموسيقية النابعة من أبسط مستويات التراث الموسيقي الروسي .

وقد ظل كابالفسكي عضوا نشطا وفعالا في هذه التنظيمات الموسيقية شبه الرسمية وكان موضع ثقة الحزب بفضل كفاءته الموسيقية واهتماماته الواسعة واخلاصه التام للمثل والمبادىء السوفيتية ، إلا أن ارتباطه بهذه التنظيمات وتبعاتها كان له انعكاسه على مدى تفرغه للعمل الابداعي الموسيقي ، وخاصة في الحقب الأخيرة من حياته . ولكن من جانب آخر ، فمن المحقق أن هناك جوانب ايجابية لهذا النشاط التنظيمي في النشر والكتابة ، فقد عاون ذلك على انتشار مؤلفاته وتقديمها في الاذاعة ، وطبع مدوناته التي صدرت أغلبها عن دار النشر الموسيقية السوفيتية الرسمية Muzgiz ، وهو بلا شك من أكثر المؤلفين السوفيت حظا بالنسبة لمؤلفاته المنشورة .

وعندما قررت الحكومة أن تحل التنظيمات الموسيقية المتصارعة ، مثل جمعية المؤلفين البروليتاريين الروس ـ والتي كانت تقابلها في الطرف الآخر جماعة ACM أي « جماعة المؤلفين المعاصرين » ـ والتي كانت تنادي بمتابعة الأحداث الموسيقية العالمية ـ عندما حلت هذه الجمعيات وأنشىء اتحاد المؤلفين الموسيقيين السوفيت Union of Soviet Composers في عام سنة ١٩٣٢ ، كان لكابالفسكي دور في المجموعة المهيمنة على رسم سياسة الموسيقى في موسكو داخل الاتحاد ، وكان دوره وقتها « كمنظم شاب » ، وقد امتدت صلته بهذا الاتحاد

(١) ج . كاتوار (١٨٦١ ـ ١٩٢٦) درس التأليف الموسيقي في برلين ثم فر روسيا على ليادوف وآرينسكي وكان أستاذا للتأليف بمدرسة سكريابين بالكونسرفتوار .

(٢) نيكولاي مياسكوفسكي (١٨٨١ ـ ١٩٥٠) من أهم المؤلفين السيمفونيين السوفيت وهو متأثر بتشايكوفسكي وبيتهوفن ببعض نزعاته التشاؤمية ولكن بأسلوب أحدث .

لسنوات طويلة بعد ذلك . وقد لعب كاباليفسكي دورا في تأكيد وجهات النظر الرسمية عندما ثارت الأزمة العنيفة سنة ١٩٤٨ بين الحزب وبين كبار المؤلفين السوفيت !

وقد عين كاباليفسكي أستاذا للتأليف الموسيقي بكونسرفتوار موسكو سنة ١٩٣٩ ثم تولى في الوقت نفسه رئاسة تحرير المجلة الموسيقية السوفيتية ، والتي تحولت أثناء الحرب إلى نشرة سنوية (بدلا من شهرية) ، كما كان مسئولا عن النشر الموسيقي في دار Muzgiz ولم يقتصر نشاطه على ذلك بل كانت له كتابات ومقالات نقدية في الموسيقى ، جمعت ونشرت في عام ١٩٦٣ ، في مجلد بعنوان : « مقالات مختارة عن الموسيقى » ، لكاباليفسكي .

وهكذا ومنذ الخمسينيات ، تحول كاباليفسكي إلى رمز للشخصية الموسيقية السوفيتية ، وصار « متحدثا رسميا » موسيقيا ، بحكم عضويته في الحزب منذ سنة ١٩٤٠ وبحكم صفاته الشخصية وخبراته الموسيقية الواسعة وأنشطته المتعددة الجوانب ، وبدأ يرأس الوفود الرسمية السوفيتية في المؤتمرات المحلية وفي المحافل الموسيقية الدولية ، كالمجلس الدولي للموسيقى ، ثم الجمعية الدولية للتربية الموسيقية ، والتي بدأت صلته بها منذ عام سنة ١٩٦٢ ، وظل عضوا نشطا بها إلى أن انتخبته رئيسا شرفيا لها ، بعد وفاة سلطان كوداي الرئيس الفخري السابق (والمؤلف المجري الكبير) ، وظل كاباليفسكي يشغل هذا المنصب حتى وفاته في فبراير سنة ١٩٨٧ في موسكو ، وكان مؤتمر وارسو آخر المؤتمرات الدولية التي حضرها على رأس وفد بلاده في الخارج .

ولقد حقق كاباليفسكي نجاحا فنيا واجتماعيا ، وشهرة انعكست كلها فيما ناله من التقدير والتكريم (حصل على جائزة لينين عن أوبرا : أسرة تاراس) والجوائز والأوسمة في بلاده ، وكان من أخلص المدافعين عن الموسيقى السوفيتية ومثلها ومبادئها ، كما كان من أبرز المدافعين عن الطفل وموسيقاه ، ولعل تبنيه المتحمس والمتصل لهذه القضية قد أثار اهتمام كثير من مواطنيه ومعاصريه من المؤلفين الموسيقيين ، وحفزهم لإبداع أعمال موسيقية جيدة وقيمة موجهة خصيصا للطفل ، مما أثرى الموسيقى في هذا القرن .

●●●

مؤلفات كاباليفسكي ومراحل انتاجه :

كتب كاباليفسكي أعمالا موسيقية في كل الأنواع المتداولة : فكتب لموسيقى الحجرة ، كما كتب مؤلفات أركسترالية وللأركسترا والكورال ، أهمها سيمفونياته الأربع ، وعددا من أعمال الأوراتوريو والغنائيات (الكانتاتات) وكتب مؤلفات كونشرتو للبيانو وللكمان (الفيولينه) وللتشللو مع الأركسترا ، وله في مجال الأوبرا إنتاج مرموق ، فقد كانت أوبراه الأولى « كولا برونيون » عملا نجاحه المسرحي الذي امتد لأوبرات تالية وأعمال للباليه ، وإن لم تكن مؤلفاته للباليه واسعة الانتشار . وله كذلك عدد من الأغاني الفنية ، ومؤلفات الموسيقى التصويرية ، سواء للمسرح أو السينما أو الاذاعة . ومؤلفاته المتعددة ، عبر مراحله المختلفة ، في مجال موسيقى الحجرة تمثل حجر الزاوية في إنتاجه ، وذلك بفضل مؤلفاته العديدة للبيانو ، سواء منها ما كتب للأطفال أو للعازفين الكبار ، كما أن رباعيات الوترية ومؤلفاته لمجموعات أخرى من مجموعات موسيقى الحجرة Chamber Music لها أهميتها كأعمال بحتة ، تحمل ملامح أسلوبه الموسيقي في مراحله المتتابعة .

وقد جرى العرف الموسيقي على تقسيم أعمال المؤلفين الموسيقيين إلى مراحل تاريخية تتميز كل منها بسمات فنية خاصة في الأسلوب ، ورغم ما في هذا

التقسيم من مخاطر ـ أبسطها تعذر تحديد بدايات ونهايات المراحل تحديدا قاطعا ـ إلا أن مثل هذه التقسيمات العامة لازالت من أفضل الوسائل لتناول أعمال المؤلفين الموسيقيين بالدراسة ولتحليل تطور الأسلوب . ولعلنا مضطرون لاتباع التقسيم إلى عدة مراحل في أعمال هذا المؤلف ، الذي عاش حياة طويلة ، وفي عصر حافل بالاتجاهات الموسيقية العنيفة المتصارعة في الغرب ، والتي لابد أن يكون لها انعكاس على فكر المؤلف وأسلوبه في بلورة المشاكل التي يتعرض لها ، بل ولها انعكاس بلا شك على المسلك الذي اختاره لإبداعه الموسيقي بشكل عام .

ويمكننا بشيء من التوسع ، أن نقسم إنتاج كابالفسكي إلى مراحل ثلاث نستشف من كل منها معالم مميزة لأسلوبه ومرحلة من مراحل تطوره .

المرحلة الأولى تبدأ ببدايات تأليفه الموسيقي المبكر منذ عام سنة ١٩٢٢ وتنتهي بشكل عام في أوائل الثلاثينيات ، وان كان هناك رأي آخر[٣] يرجح امتدادها حتى عام سنة ١٩٣٧ ، ويمكن القول بأن هذه المرحلة المبكرة تعد نقطة تحوّل في حياة كابالفسكي راح خلالها يتلمس طريقه نحو النجاح الفني .

ويبدو أن النجاح « الجماهيري » كان دائما من الأهداف التي سعى كابالفسكي لتحقيقها في كل مراحل حياته . . . أما المرحلة الثانية فهي التي بدأت بعد انتهاء الأولى ، في الثلاثينيات وامتدت حتى عام سنة ١٩٤٨ (وهو العام الذي شهد الأزمة العاتية حول وظيفة المؤلف الموسيقي في المجتمع السوفيتي وعلاقته بالحزب والحكومة) ، وكان لكابالفسكي فيها دور وثيق الارتباط بوجهات النظر الرسمية[٤] للحزب . . . وقد أنجز كابالفسكي في هذه المرحلة أهم وأنجح أعماله وأكثرها نضجا .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة ، فهي تبدأ بعد الثانية وتمتد إلى أواخر الستينات ، ويبدو أن مؤلفاته الأخيرة هي التي تحمل أرقام المصنفات ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ومن بينها القداس الجنائزي الثاني الذي كتبه سنة ١٩٦٣[٥] (وهو غير متاح لا في مدونته ولا في تسجيل صوتي) ، (وجدير بالذكر أن أرقام مصنفاته قريبة الى حد كبير من الأعوام التي كتبت فيها) .

ويمكن القول اجمالا بأن أنضج وأغزر انتاجه الموسيقي هو ما كتبه في المرحلة الثانية من حياته الفنية ، أما المرحلة الثالثة والأخيرة ، وهي التي كان قد حقق فيها نجاحا فنيا واجتماعيا مستقرا ، فقد كانت حافلة بالتزامات تنظيمية وعملية في روسيا وعلى الصعيد الدولي ، لعلها تعارضت مع ما يتطلبه الابداع من تركيز واستقرار ، ولذلك لم تنشر لكابالفسكي مؤلفات هامة ولكن أعيد طبع بعض المؤلفات المبكرة مرة أخرى . وسوف نتناول هنا أهم مؤلفاته الموسيقية في كل واحدة من هذه المراحل بشيء من التعريف ، قبل أن نخلص من هذا العرض إلى الحديث عن أسلوبه الموسيقي وخصائصه المميزة بشكل عام .

مؤلفات كابالفسكي في المرحلة الأولى :

كتب كابالفسكي مصنفاته رقم ١ ، مقدمة للبيانو ، ورقم ٢ : مقطوعتان للتشللو والبيانو ، ورقم ٣ وهو مجموعة مؤلفات للبيانو للأطفال ، في الفترة من عام سنة

(٣) يرى كريبسي Krebs ص ٢٣٦ (أنظر قائمة المراجع) إن الفترة من ١٩٣٢ وحتى سنة ١٩٣٧ كانت فترة تلمس للطريق الصحيح لابداع كابالفسكي ، وان النجاح الذي حققه شوستاكوفتش محليا وخارجيا من العناصر المؤثرة على اختيار كابالفسكي لطريقه الفني .

(٤) . ويرث ، كريبسي (أنظر قائمة المراجع) .

(٥) شفارتس ص ١٦٢ .

١٩٢٥ وحتى ١٩٢٧ ، وهو لازال طالبا بالكونسرفتوار ، ولكن أول مؤلفاته المنشورة كان مجموعة أغاني (على أشعار للشاعر أبلوك) مصنف ٤ ، وهي ليست من أغانيه الهامة ، ولذلك نتجاوزها الى أعمال موسيقى الحجرة Chamber Music وأعماله الأركسترالية الكبيرة .

فمن مؤلفات موسيقى الحجرة كتب رباعيته الوترية الأولى ، في مقام لا الصغير مصنف رقم ٨ ، وهي التي بدأ نزوعه القومي في الموسيقى وتأثره بأسلافه الروس الكبار يظهر فيها بشكل مبدئي ، ومع ذلك فان هذا العمل يعتبر من المؤلفات المبكرة القليلة الانتشار ، وان كان أهم ما يذكر بشأنها تأثر المؤلف بأسلوب موسورسكي في الرسم الواقعي لشخصياته الروسية في الأوبرا[٦] .

وتحتل مؤلفات البيانو ، ضمن موسيقى كابالفسكي في هذه المرحلة ، مكانة هامة بين سلسلة أعماله ، فهي نابعة عن خبرة تربوية عميقة وحقيقية ، وعن فهم كامل لإمكانات آلة البيانو . ومن أبرز مؤلفاته للبيانو في هذه الفترة المجموعة القيمة من المؤلفات المكتوبة خصيصا للطفل ، وهي التي سدت فراغا تعليميا حقيقيا لمسه معلمو البيانو في كل أنحاء العالم . فقد كان من الوظائف الموسيقية التي مارسها كابالفسكي في هذه الفترة تدريس عزف البيانو للتلاميذ الصغار ، في إحدى المدارس الموسيقية الحكومية للأطفال الموهوبين بموسكو . وقد رسخت هذه التجربة لديه الشعور ، الذي لمسه خلال تجاربه المبكرة في تعليم العزف للأطفال ، بالنقص الكبير في المؤلفات التعليمية المتدرجة لعزف الأطفال ، ومن هنا آمن كابالفسكي بأن واجب المؤلف المعاصر يبدأ بمخاطبة الطفل الصغير وإثارة حماسه وخياله ، فوجّه قدرا من طاقته الإبداعية لسد هذا النقص الذي يواجه الموسيقيين الصغار ومعلميهم ، وكتب عدداً من أعمال الأطفال للبيانو نذكر منها المجموعة مصنف رقم ١٤ المسماة « من حياة الناشئين » From Pioneer's Life ، وهي مقطوعات شائقة ومركزة ، تعالج كل منها احدى الصعوبات « البيانستيه » أو التعبيرية ، مثل عزف الثالثات أو الايقاعات العرجاء غير المنتظمة ، أو عزف الألحان « الغنائية » .

وتنتمي مجموعة مقطوعات البيانو مصنف ٢٧ للأطفال لهذا التراث الموسيقي الفني الذي أبدعه كابالفسكي للطفل وهي تتألف من ٢٢ قطعة مختلفة الأجواء والأمزجة وهي من أشهر وأنجح ما كتب للطفل في هذا القرن (باستثناء مجلدات بارتوك الشهيرة « العالم الصغير » ميكروكوزموس) ولعل بعض عناوينها تدلنا على صدق ارتباطها بعالم الطفل وحياته اليومية فمنها مثلا مقطوعات : لعب الكرة ، ورقصة الجندي ، عازف الطبول ، والغابة التائهة ، وقصة حزينة صغيرة Sad little tale ، وضوء القمر على النهر ، ثم التوكاتينة Toccatina المروفة (وهي تصغير توكاتة وهي قطعة للنقلات السريعة في العزف) .

وأستطيع القول هنا ، من واقع تجربتي الشخصية في تعليم عزف هذه المقطوعات للناشئين انها ناجحة في رسم صور نفسية ومزاجية واضحة المعالم ، بأسلوب موسيقي معاصر ، ولكنه مستساغ (بحكم رسوخ الشعور المقامي) ويتألق فيها رنين آلة البيانو تألقا تصويريا معبرا ، يخاطب الناشئين في كل مكان .

وفي هذا المجال نفسه كتب المؤلف مجموعة أغاني الكورال والبيانو للأطفال مصنف رقم ١٧ (١٩٣٢) ، وهي ثماني أغاني قصيرة يتميز بعضها بتأثيرات أونوماتوبية Onomatapeic في تعبيرها عن مشاهد وأجواء مستمدة من حياة الطفل اليومية مثل : القطار ـ

(٦) أبراهام .

الشارع ـ قفص الطيور ـ القارب ـ المدينة المخضرة ـ حدائق المدينة . . . الخ . ولازالت هذه الأغاني لكورال الأطفال ، متداولة في مدارس الأطفال في روسيا اليوم .

ولا خلاف على القيمة الفنية والتربوية لإبداع كابالفسكي في مؤلفاته للأطفال ، فهي من أقيم إضافاته للموسيقى وللتربية الموسيقية ، ونستطيع القول بأن دوره الرائد في مجال موسيقى الطفل قد فتح آفاقا جديدة أمام مواطنيه بروكوفييف وخاتشاتوريان ، تبلورت في أعمال هامة لها مثل الأسطورة السيمفونية الرائعة : بطرس والذئب لبروكوفييف (سنة ١٩٣٦) وفي مقطوعاته للبيانو المسماة : « موسيقى الأطفال » مصنف ٦٥ (سنة ١٩٣٥) . وفي مجلد مقطوعات البيانو لخاتشاتوريان للأطفال ، وهي أعمال لقيت انتشارا ، وجاءت استجابة لهذا الاتجاه المتصاعد من كبار المؤلفين للعناية بموسيقى الطفل ، وهو الاتجاه الذي كان لكابالفسكي فيه فضل كبير .

وللبيانو كذلك كتب كابالفسكي أربع مقدمات (بريلود) مصنف رقم ٥ وصوناته **Sonata** مصنف ٦ وكونشرتو البيانو الأول مصنف رقم ٩ ثم اثنين من مقطوعات الصوناتينة **Sonatines** للبيانو مصنف رقم ١٣ . (والصوناتينة صورة مصغرة من الصوناتة في أبعادها البنائية) ، وقد وفق كابالفسكي بصفة خاصة في الصوناتينة الأولى في مقام دو الكبير وهي بحركاتها الثلاث تعطي صورة حية لأسلوب كابالفسكي الهارموني والإيقاعي المشوق ، وإن كانت حركتها الوسطى البطيئة ، الغنائية الطابع ، متأثرة نوعا بأستاذه مياسكوفسكي وكذلك بموسيقى رافيل (في مقطوعته المسماة أمنا الأوزة ، وخاصة في هارمونياتها) ، وفيما يلي نموذج موسيقي (بالنوتة) من الحركة البطيئة : آنداتيو ، يدل بشكل عام على طبيعة كتابته المحكمة للبيانو ، والتي يتجنب فيها عنصر الكتابة الزخرفية للبيانو كما أنه يدل على أسلوبه الإيقاعي السلس :

أما **كونشرتو البيانو الأول** لكابالفسكي ، فهو من مؤلفاته المبكرة ، إذ كتبه وهو لازال طالبا في الكونسرفتوار لم تتوفر له الخبرة الكافية لتناول الصيغ الكبيرة بسيطرة حقيقية على عناصر البناء الموسيقي ، ولذلك جاء هذا العمل أقل توفيقا بكثير من كونشرتو البيانو الثاني سنة ١٩٣٦ والذي كتب عنه أحد النقاد الموسيقيين من مواطنيه : « ان هناك فاصلا ضخما يفصل بين هذا الكونشرتو « الملهم » وبين الكونشرتو الأول ، الذي غلب عليه طابع التلمذة ، (وكان المؤلف قد عزفه عند تقديمه الأول على مسرح البولشوي سنة ١٩٣١ تحت قيادة شيرينسكي) . وفي مجال موسيقى الحجرة كتب رباعيته الوترية الأولى مصنف ٨ والتي استخدم فيها عددا من العناصر الفولكلورية الموسيقية تأكيدا لتبنيه للاتجاه القومي ، وهو اتجاه عني به كابالفسكي طوال حياته الفنية ، وهو ما سنعود إليه عند مناقشة وتحليل عناصر أسلوبه .

وفي هذه المرحلة نفسها كتب كابالفسكي عددا من المؤلفات الكبيرة للكورال والأركسترا يغلب عليها



الطابع الوطني السياسي ، نذكر منها : نشيد الكفاح Poem of Struggle مصنف رقم ١٢ سنة ١٩٣٠ (وهو نوع من المؤلفات انتشر في تلك الفترة بين شباب المؤلفين السوفيت أمثال شابورين ، كنيبر Knipper وشيبالين وغيرهم) ، كما أنجز سيمفونياته الثلاث الأولى . ونظرا لتداخل تواريخ كتابة السيمفونية الثانية والثالثة فاننا سنتناولها في هذه المرحلة تيسيرا ، ومسايرة للحقائق التاريخية المحيطة بكتابتها وليس بتقديمها .

وجدير بالذكر هنا أن كاباليفسكي كتب طوال حياته أربع سيمفونيات فقط وهو إنتاج سيمفوني محدود إذا ما قورن بأستاذه مياسكوفسكي الذي كتب سبعا وعشرين سيمفونية ، أو بمعاصره شوستاكوفتش الذي ترك خمس عشرة سيمفونية ومن المحقق أن شهرته ونجاحه الجماهيري لم يستندا إلى كتاباته السيمفونية بقدر ما استندا الى أوبراته ومؤلفاته للبيانو وخاصة مؤلفاته للأطفال . وتنتمي السيمفونية الأولى في مقام دو دييز الصغير (١٩٣٢) الى الأعمال المبكرة وهي تتألف من حركتين فقط ولها برنامج وصفي ، فهي مهداة إلى ثورة أكتوبر ، في عيدها الخامس عشر ، ولعل هذا الاهداء هو الذي يحدد الخط النفسي والجمالي للسيمفونية ، فقد توخى المؤلف في كتابتها البساطة « والمباشرة » مسايرة للاتجاه السائد حينئذ والذي كان يناشد المؤلفين والفنانين السوفيت أن يعبروا في فنونهم ببساطة قادرة على مخاطبة الجماهير العريضة ، وخاصة في مجال الأعمال الفنية والموسيقية المرتبطة بالمعاني الوطنية ، وبأوضاع الشعب قبل الثورة وبعدها . والسيمفونية الأولى وصفية إلى حد بعيد فحركتها الأولى تحمل عنوانا واضح المغزى وهو : « التاج والسوط » بينما تصور حركتها الثانية (وهي تتألف من حركتين فقط) « كفاح الشعب من أجل التحرر ، وفرحة الانتصار » . وقد كان من الضروري أن يحشد المؤلف قدرا من التلميحات الفولكلورية لكي يتمكن من إبراز هذا البرنامج الوصفي ، فنراه قد عبر في الحركة الأولى العاصفة ، عن « الشعب » بلحن فولكلوري الطابع ، وفي الحركة الثانية رمز لشخصية لينين بلحن شعبي الطابع ، وحرص على أن يسبغ على الحركة الثانية (بعكس الأولى) جوًا يوحي بالانتصار والاحتفال . . . . غير أن هذه السيمفونية لم تكلل بالنجاح ، ولم يمض وقت طويل إلا وقد اختفت ! وقد كتب مواطنه أوستريتسوف ، الناقد الموسيقي السوفيتي ، بصدد السيمفونية الأولى لكاباليفسكي تقييما أشار بشكل عام لمشكلة فنية كانت تواجه كاباليفسكي وجيله من المؤلفين الشبان ، ومنهم شوستاكوفتش نفسه ، كتب يقول : إن الضعف البادي في العنصر البنائي المعماري لهذه السيمفونية (ومثيلاتها) إنما يرجع لتخليّ جيل المؤلفين الشبان عن المبادىء « الكلاسيكية » الأصيلة ، والى العناصر الانتخابية المتباينة الطابع التي يتعاملون معها ، وانتقد المؤلفين السوفيت الشبان لأنهم عندما نبذوا المبادىء الغربية الموروثة في البناء السيمفوني ، لم يستبدلوها بمبادىء بنائية (تصميمية) جديدة . . ولذلك تعثروا في تناول المادة الموسيقية وفي تطويرها تطويرا سيمفونيا حقيقيا . . . وإن أشار الى تداركهم لهذا الضعف فيما بعد .

أما السيمفونية الثانية لكاباليفسكي في مقام دو الصغير مصنف ٣٤ (١٩٣٢ وان كانت قد نشرت ١٩٣٧) فهي قد أنجزت ونشرت بعد السيمفونية الثالثة ، إذ أنه ترك العمل فيها لكي يتوفر على كتابة السيمفونية الثالثة فألفها سنة ١٩٣٣ ونشرت ١٩٣٥ - وهي التي كانت إسهام المؤلف في تحية الذكرى العاشرة لوفاة لينين ، وسوف نتناولها بعد السيمفونية الثانية ، مسايرة للترتيب المألوف لسيمفونيات كاباليفسكي .

والسيمفونية الثانية تتألف من ثلاث حركات ، وليس لها برنامج وصفي (معلن على الأقل) وإن كان مؤلفها يعتبرها نوعا من الترجمة الذاتية ، إذ أنه كتبها في فترة ساد فيها التفاؤل ، والذي عبر عنه شعار « ان الحياة اجمل وأكثر اشراقا » ، كما أنها أنجزت في فترة ازدهار للصناعة السوفيتية ، ولذلك انعكس هذا على جوها النفسي في التفاؤل الذي يشع منها وفي تأكيدها للجوانب المضيئة في الحياة الروسية . ويعتبرها النقاد السوفيت عملا ديناميا يؤكد الجوانب الإيجابية في الحياة . أما في العالم الغربي فقد حظيت هذه السيمفونية باهتمام واضح وحققت نجاحا طيبا عندما قدمها ألبرت كوتس Coates في فيينا سنة ١٩٣٦ ثم في الاذاعة البريطانية في العام نفسه ، وكان تعليق النقاد الغربيين عليها أنها تدل على موهبة مؤلفها وإن بدت (٧) متأثرة بتقاليد الشجى اللحني المنمق عند مياسكوفسكي وتعتبر هذه السيمفونية أنجح أعمال كاباليفسكي الأركسترالية الكبيرة (٨) ، ولعل شهرته في عالم الموسيقى ، وخاصة في الغرب ، راجعة إلى هذه السيمفونية وإلى أوبراته وخاصة كولا برونيون (على قصة رومان رولان) وإلى مؤلفاته للأطفال ، ويكاد يجمع المؤرخون على نجاح المؤلف فيها وتغلبه على ما عانت منه بعض أعماله المبكرة من اتباع « للمنهج الديالكتي (الجدلي) » . في التأليف الموسيقى ، على حد قوله .

وتتميز الحركة الأولى فيها بقسم تفاعلي يعتمد على تداخل بوليفوني بين اللحنين الرئيسيين وما بينهما من تباين فالأول درامي والثاني ذو طابع غنائي ، ويغلب على الحركة كلها طابع خطابي فيه دينامية متدفقة . أما الحركة الثانية فهي من أجمل الحركات السيمفونية في كتاباته فقد جاءت معبرة في رقة وشجى وانفعال ، تعبيرا يبلغ مستوى دراميا رفيعا في لحظات معيّنة ، أما الحركة الثالثة ، شديدة السرعة ، فهي مكتوبة في صيغة الصوناته روندو (وهي تجمع بين خصائص الفكرة الدائرية لصيغة الروند وخصائص صيغة الصوناته) ، غير أن قسم العرض فيها يقوم بالمهنة الموسيقية والنفسية للسكرشو ، الذي يأتي عاده في الحركة الثالثة في السيمفونيات ، وهو هنا قسم عنيف الحيوية والتدفق ، يقود مباشرة إلى الجو الاحتفالي القوى الذي يبلغ قمته في قسم إعادة العرض .

وتختتم السيمفونية ختاما منعشا وقويا ، يحيى تقاليد الحركات الختامية الناجحة لسيمفونيات بورودين وتشايكوفسكي (مع اختلاف المزاج النفسي) .

وفي السيمفونية الثالثة طرق كاباليفسكي مجالا تعبيريا خاصا نال اهتماما واسعا في روسيا في تلك الفترة وهو مجال التأليف السيمفوني الكورالي والذي وجد فيه المؤلفون السوفيت فرصة لكتابة أعمال موسيقية ذات تأثير وطني مباشر على الجماهير ، وفي إطار موسيقى يحمل ملامح فولكلورية تبرز الطابع « القومي » الروسي للموسيقى عامة ، وكان كاباليفسكي قد تلقىّ تكليفا من الإذاعة لكتابة عمل سيمفوني للذكرى العاشرة لوفاة لينين كما ذكرنا ، فاختار للشاعر الروسي ن . آسيف (نظمها عند وفاة لينين سنة ١٩٢٤) وكتبها المؤلف كقداس جنائزي : ريكوييم Requiem ، ثم أصبحت تعرف فيما بعد باسم السيمفونية الثالثة (وهي تسمية غير دقيقة) . وهي تتألف من حركتين متصلتين تعتبر الأولى تمهيدا أركستراليا نفسياً للحركة الثانية التي أدخل فيها

(٧) ج . أبراهام ص ٧٢ .

(٨) تجمع أهم المراجع الغربية على القيمة الفنية لهذه السيمفونية ، وهو ما نجده في كتابات بلسكت وشلفارس وأبراهام وغيرهم بينما ينفرد كريبس برأي مضاد وسلبي ، الا أنه يفسر نجاحها في الغرب على أنه أثر لنجاح سيمفونية شوستاكوفتش الأولى وتأكيد لشوستاكوفتش .

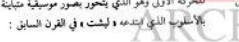
الكورال مع الأركسترا ، والتي تتلوها مباشرة بغير توقف . وتبدأ الحركة الأولى بما يشبه النشيد الحزين ويغلفها جو من الحزن السلافي العميق تتخلله بعض النبرات الموسيقية الإلقائية البالغة التوتر ، ثم تأتي الحركة الثانية ، وهي معتدلة ذات طابع حربي ، وهي تكاد تكون موكباً جنائزياً انتصارياً (Triomphale) من النوع الذي ظهر في المؤلفات الروسية المشابهة في هذه الفترة ، ويظهر فيها النشيد الرثائي من الحركة الأولى ولكنه يتشكل في كيان موسيقي جديد يسود فيه جو بطولي قوى عند الختام . ولا نستطيع القول بأن هذه السيمفونية من أعمال كابالفسكي الهامة ، وإن كان قد وفق فيها في تناول المواد الانتخابية (elective) الطابع في الأفكار الرئيسية فيها ، وتناولها في تفاعل يدل على تمكن أفضل - ولو ظاهرياً - من أسلوب التفاعل السيمفوني الحق . ومهما يكن فإن السيمفونية الثالثة تعبير مخلص عن المعاني القومية وعن المبادىء والمثل السوفيتية التي كرس موسيقاه لخدمتها .

مؤلفات المرحلة الثانية :

بدأت هذه الفترة في حياة كابالفسكي بوقفة ، أو بفترة ركود قصيرة في إنتاجه الموسيقي ، لعلها كانت انعكاسا لما كان يدور حوله في المجتمع السوفيتي الثقافي من صراعات حول ما ينبغي أن يتجه السوفيت ، وربما كانت راجعة من جانب آخر إلى نوع من مراجعة النفس والتأمل في أفضل وسائل التعبير الموسيقى الملائمة لموهبته وطاقاته ، ولكن هذه الفترة لم تطل كثيرا (من سنة ١٩٣٢ إلى حوالي سنة ١٩٣٦ تقريبا) وخرج منها كابالفسكي وقد وضحت معالم طريقه الموسيقى وضوحا كبيرا تجلى في كتاباته في مجال الأوبرا ، والتي حقق فيها نجاحا محليا ودوليا ، وفي مجال أعمال الكونشرتو وما كتبه من مؤلفات للبالية والموسيقى التصويرية للاذاعة والسينما والأغاني وفي السيمفونية الرابعة والأخيرة والأعمال الكورالية . وسوف نلقي الأضواء هنا بصفة خاصة ، على الأوبرات ثم نشير إلى الأعمال الأخرى الهامة بشيء من الاختصار .

كتب كابالفسكي عددا من مؤلفات الكونشرتو لآلاف مختلفة مع الأركسترا ، وكان طبيعيا وهو عازف قدير للبيانو ، أن يكون للبيانو نصيب واضح في إنتاجه في هذا المجال ، وفي هذه المرحلة كتب المؤلف الكونشرتو الثاني للبيانو والأكسترا في مقام صول الصغير ، وهو من اجل مؤلفات الكونشرتو التي أنجزها كابالفسكي كما أنه أفضل الكونشرتات الثلاثة التي كتبها لبيانو . وهو يتميز بكتابة شفافة أنيقة للبيانو المنفرد توحي بفهم عميق لامكانات الآلة وسيطرة على التوازن البنائي ما بين الآلة المنفردة والقوى الأركسترالية المشاركة لها .

ومن العناصر البارزة في هذا العمل لحنه الاستهلاكي للحركة الأولى وهو الذي يتحور بصور موسيقية متباينة بالأسلوب الذي ابتدعه « ليشت » في القرن السابق :



وفي ختام الحركة الأولى حقق المؤلف اندماجا موفقا بين أفكار الموضوعين الأول والثاني معا ، كما أن أسلوبه الهارموني في هذا الكونشرتو يستحق الاشارة إلى استخدامه الموفق ، على سبيل « الاستعارة » ، لتآلفات الدرجة الرابعة الكبيرة (ماجور) في سياق الكتابة في المقام الصغير (مينور) . وقد كتب المؤلف الحركة الثالثة الختامية في هذا الكونشرتو بأسلوب أشبه « بالتوكاته Toccata) (وهي لمسات سريعة تعثر من الأساليب المستقرة في الكتابة لآلة البيانو بأسلوب براق) . ونجد المؤلف في هذا الكونشرتو كما في كتاباته الموسيقية الأخرى ، واضحا تماما في التزامه المطلق
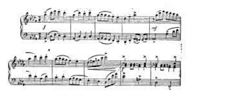
بالاطار المقامي التونالي Tonal والذي يلتزم فيه العمل الموسيقي بمقام معين (يذكر في عنوان القطعة) وذلك لأن الموسيقى التونالية ترضي لدى المستمع حاجة نفسية بالشعور بالاستقرار النفسي حول محور أو مركز تونالي واضح ومحدد (وهو ما ابتعدت عنه الاتجاهات المتطرفة في موسيقى القرن العشرين في الغرب في الأعمال « المتعددة المقامية » ، والاثني عشرية وما إليها) .

ومن كتابات كابالفسكي الهامة للآلات في هذه المرحلة المقدمات الأربع والعشرين للبيانو المنفرد مصنف ٣٨ (١٩٤٣) وهى مجموعة هامة تستحق التوقف عندها إذ أن كل وحدة من المقدمات (البريلود) تنطلق من لحن شعبى (وإن لم يكن هذا واضحا في كل الحالات) ، وهى مرتبة طبقا لدائرة الخامسات في أزواج من المقدمات كل اثنين منها في مقامين كبير (ماجير) وصغير (مينور) غريب . وتكمن أهمية هذه المجموعة في الأساليب المختلفة التى يتعامل بها المؤلف مع الألحان الشعبية ، فمنها ما هو مجرد اقتباس للحن مع هرمنة (إضافة الهارمونيات) مناسبة ، والبعض الآخر يدل على أسلوب هارمونى أكثر تعقيدا وهو يقدم نسيجا موسيقيا أكثر وسامة وتشابكا ، وهناك تشابه بين رنين كتابة كابالفسكى في هذا العمل وبين أسلوب شومان في مؤلفات البيانو ، وهو من العناصر التى شغلت المؤلف في هذا العمل ، وقد وفق فيها بخبرته العميقة بآلة البيانو . وفيما يلى نموذج موسيقى لاحدى المقدمات التى استخدم فيها لحناً شعبيا استخداماً مبسطاً (يمثل أبسط مراحل التطوير للحن الشعبى بأسلوب سلس قريب) .

ومن أعماله للآلات كذلك رباعيته الوترية الثانية مصنف ٤٤ وهى تتألف من خمس حركات ، كتبها المؤلف بأسلوب ينطلق من أعقد كتاباته إلى أبسطها قرب الختام .

ومن أعماله الغنائية والكورالية كتب عدة أغانٍ وطنية مصنف ٣٢ (١٩٤١) كما كتب للكورال والأركسترا : أوراتوريو الوطن العظيم The Mother Land is Great ، على نصوص لعدة شعراء وهو عمل بطولى يتلاءم مع ظروف الحرب التى كانت روسيا تخوضها في تلك الفترة وهو عمل كبير وطنى الاتجاه للأركسترا والكورال ، تعاون فيه مع الشاعر دولما توفسكى ، حينما كانا معاً في الجبهة أثناء الحرب .

غير أن أكبر وأهم مؤلفات كابالفسكى في هذه المرحلة ، وربما في المراحل الثلاث ، هى أوبراه الشهيرة « كولا برونيون Colas Breugnon » ، التى اختار لها قصة للكاتب الفرنسى رومان رولان Romain Rolland ، نشرت ١٩١٨ ، ولقيت ترجمتها الروسية



اقبالا عظيما من المثقفين السوفيت إذ طبعت في مائة وعشرين طبعة، قبل أن يقع اختياره عليها موضوعا لأوبراه الأولى.

وقصة رومان رولان ليست قصة بالمعنى المألوف بل هى مجموعة من أربع عشرة لوحة أو قصة قصيرة بطلها «كولا» النحات الصانع البارع من بورجونديا في فرنسا فى القرن السابع عشر، وهى تدور حول الصراع الاجتماعى والطبقى بينه وبين سيده الدوق الاقطاعى.

وكنا قد أشرنا قبلا الى فترة الركود المؤقت والتى كان المؤلف يعيد النظر فيها في مسار اتجاهه الابداعى في بدايات الثلاثينات، وقد خرج من هذه الفترة بحماس للكتابة للمسرح الغنائى، وهو الذى يلائم مواهبه اللحنية الغنائية الغزيرة، وهى الموهبة «اللحنية» التى تشع من كل مؤلفاته وتضفى عليها صفة مستساغة ومحببة، للأطفال والكبار على السواء. وقد وجد كابالفسكى ضالته في هذه القصة أو على الأصح في شخصية بطلها. الذى يمكن أن يوصف بأنه «روبين هود» فرنسى، يتمتع بفلسفة ضاحكة في الحياة تجعله يتقبل المحن بصبر وجلد وعزم لا يلين، ودون أن يتخلى عن روح الدعابة الأصيلة عنده، أو عن اعتداده العميق بصنعته الفنية ... وقد قام صديقه سى. براجين بإعداد الكتيب الشعرى (الليبرتو) لهذا الأوبرا، ويبدو أنهما (المؤلف والشاعر) قد وجدا - في الصراع الاجتماعى بين «كولا» وجموع الفلاحين، وبين الدوق الاقطاعى وجنوده - مادة موائية، ذات مغزى سياسى واجتماعى يتصل بأوضاع المجتمع السوفيتى الجديد.

وجدير بالذكر أن القصة الأصلية تفتقر للتماسك وللتسلسل الدرامى الحقيقى، والضرورى لكتابة أوبرا ناضجة ومتماسكة العناصر، غير أن براجين قد عالج هذا النقص، فمكنه من التركيز على الشخصية المحورية «سيد كلاميسى The Master of Clamecy» وهو الاسم الآخر الأوبرا نفسها، بكل جوانب شخصيته الفنية، أما المؤلف الموسيقى فقد استطاع أن ينطق موسيقى الأوبرا بجو «فرنسى» واضح الايحاء، رغم أنه لم يعمد لاقتباس ألحان شعبية فرنسية قصداً، بل ابتكرها ابتكارا موفقًا جاء موحيًا بصدق بطابعها الأصلى.

وقد قام الشاعر بتحوير بعض الشخصيات في الأوبرا لكى تتلاءم مع متطلبات المسرح من جانب ومع متطلبات مجتمعه من جانب آخر، فشخصية البطل مثلا، تحولت من رجل في الخمسين له زوجة وابنة، الى شاب في الثلاثين في الأوبرا، كما أن علاقة الحب الرئيسية في الأوبرا بين البطل وبين بيلت (سميت في الأوبرا «لاسوشكا» (وأحيانا جيرين أيضا) وبالتالى فقد عدلت بعض التفاصيل الأخرى في الأحداث والشخصيات الثانوية أيضا.

والأوبرا تقع في ثلاثة فصول، بكل منها مشهدان. وتستهل الأوبرا بمشهد حق الكروم، حيث تسطع الشمس وتظهر الفتيات الشابات الريفيات يجمعن الأعناب ويغنين غناء كوراليًا شائقًا، استطاع المؤلف فيه أن يوحى بجو الغناء الشعبى الريفى، وهو من الكورالات الهامة في الأوبرا. وفي المشهد الثانى نرى الفلاحين وهم يحتفلون بقرب مقدم الشاب، وهنا كذلك تأتى فقرات كورالية احتفالية مبهجة بأسلوب كابالفسكى «السعيد» البسيط. أما في الفصل الثانى فيسود جو درامى حين يغنى البطل آريا كبيرة، يتغنى فيها بحب فتاته لاسوشكا، وبالتمثال الذى نحته لها ولكن الدوق، استحوذ عليه ووضعه في أحد أبهاء، قصره، إعجابا بالفتاة (التى تزوجت تابع الدوق في غمرة من الغيرة لظنها أن كولا قد انصرف عن حبها)، ولكن شخصية البطل المرحة تغلب على حزنه وعلى الشجى الذى سيطر على غنائه، فينطلق في غناء أغنية شراب

لامعه ، مغزاها أنه مهما يكن فان الحياة جميلة ! وهكذا استطاع الشاعر والمؤلف الموسيقى أن يوجدا هذا الموقف الذى أتاح للمؤلف فرصة هائلة لتجسيد شخصية البطل ، بكل أبعادها تجسيدا موسيقيا وغنائيا موفقا . . . وبينما تتصاعد موجات الاحتفال تدخل امرأة مذعورة للمسرح لتعلن نبأ انتشار الطاعون في مدينة كلاميسى ، حيث حمله الدوق القادم معهم للبلدة . وهنا يتحول الجو النفسى إلى قمة مسرحية خطابية عنيفه ، وتخفت الأنغام الراقصة ليحل محلها غناء كورالى بدون مصاحبة ، يأتى من خلف الكواليس ، يغنى فيه الكورال النشيد الجنائزى ! ويصاب البطل بالمرض ويكاد يموت وهو وحيد ، فيغنى غناء يائسا قاتماً ، شبهه البعض بأغانى ورقصات الموت لموسورسكى ، ولكنه يشفى ، فيفاجأ بما أعقب الوباء من سلب ونهب ، وبحد بيته ، بكل ما احتواه من قطعه الفنية المحفورة ، قد احترق ولكنه لا يفقد صلابته فيتجه إلى المدينة حيث يلقى حبيبته ويتصافيان ويغنيان معاً ثنائياً عاطفياً يذكر بألحان الفصل الأول . وفي الفصل الثالث يتجمع الفلاحون في ثورة على الدوق وما جلبه عليهم من مرض وخراب ويتخذون طريقهم نحو قصره ، يريدون أن يحرقوه هو وصاحبه ، وهناك يقابلهم البطل كولا ، ورغم حقده على الدوق ، إلا انه يتعرض لصراع داخلى ، لأن كثيرا من قطعه الفنية موجودة في أبهاء ذلك القصر ، بما في ذلك تمثال حبيبته ، فيحاول أن يثنى الثائرين عن عزمهم ، بلا جدوى ، فيقرر أن يحذر الدوق بالخطر المحدق ، وفي المشهد الختامى تتصاعد أغانى الثائرين وهم يقتربون من النهر ، ويقولون في القصر لسيدهم أن كولا هو الذى يقود الجموع الثائرة ، فيندفع محطما لكل تماثيل كولا في أبهاء قصره ، وخاصة تمثال بيليت . . وعندما يسمع طرقا على الباب ويرى كولا قادما يشير أحدهم إلى التماثيل المحطمة التى جهد البطل في محاولة الابقاء عليها ! وهنا يعود اللحن العاطفى للغناء الثنائى ولكن في صورة غاضبة عنيفة ، وكالمعتاد يحافظ البطل على تماسكه ، فيندفع لأبواب القصر ويفتحها أمام الجموع الثائرة لكى تدخل إلى القصر لتنتقم من الدوق الطاغية . . . .

ومن النقاط اللامعة في هذه الأوبرا الجو الفرنسي التاريخي الذي رسمته موسيقى كابالفسكي ، والفقرات الأركسترالية البارعة ، بدءا من الافتتاحية الى الفواصل الأركسترالية ، وقد أعد منها المؤلف بعد ذلك متتابعة (سويت) للأركسترا بالاسم نفسه كالأوبرا ، وذاع صيتها خارج روسيا ، وانضمت الى صوناتية البيانو والسيمفونية الثانية ومتتابعه « الكوميديون » وكونشرتو الفيولينة كأعمال مثلت مؤلفها في الخارج واكتسبت له مكانة دولية في الموسيقى .

وقد تكون اللغة الموسيقية التي يتعامل بها كابالفسكي لغة « محافظة » تماما وبعيدة عن مغامرات الكتابة الجديدة في القرن العشرين (في الغرب) إلا أنها تشع بالمرح والشفافية و « الغنائية » المعبرة ، القادرة على تجاوز بعض التحفظات الفنية ، ومع ذلك فإنها لم تلق نجاحا سريعا في روسيا ، إذ أنها انتقدت بشدة ليس لأسباب اجتماعية فقط ـ مثل الموقف المتأرجح للبطل بين الثوار من جانب وبين الدوق من جانب آخر ـ بل لأسباب فنية موسيقية ، فقد شبه أحد النقاد (٩) الموسيقى الكوران للمشهد الأول ، بالخلفية الموسيقية لفلم ناطق ! كما كتب آخر أن كابالفسكي لم يكتب أوبرا ، بل مجموعة من الرسوم بالألوان المائية الموسيقية Musical Water- Colours ومع ذلك فإن هناك الآن إجماعا على جاذبية الموسيقى وعذوبتها الغنائية ، وعلى شفافية الكتابة وروعة التلوين الأركسترالي والتوفيق الكبير في الفقرات الكورالية ،

(٩) ج . أبراهام ص ٨٧

بصفة خاصة . ولاشك أن هذه الأوبرا ، هي أوبراه الشهيرة « أسرة تاراسي » من أهم أعمال كابالفسكي المسرحية الغنائية الكبيرة .

ولا نترك الحديث الموجز عن أوبرا « سيد كلاميسي » دون أن نورد شيئا عن رأي مؤلف القصة رومان رولان في الأوبرا ، إذ كتب للمؤلف يقول إن الكتيّب لم يحتفظ بقدر كبير من فرنسية ولا « بورجندية » شخصية كولا ، فأنا أجد صعوبة في التعرف على بطلي الذي حوله شاعر اللبرتو الى « مقام » آخر ، اذا كان لي أن استعير هذا التعبير ! » ومع ذلك فيقال ان رولان قد أعجب بموسيقى كابالفسكي في حد ذاتها وان اعتراضه قد انصب أساسا على التحوير الاجتماعي الذي طرأ على القصة وبعض شخوصها .

وقد كتب كابالفسكي أوبرا أخرى في عام ١٩٤٢ بعنوان « وسط النيران »(١٠) غير أنها سحبت من الريبرتوار بسرعة ، وإن كان قد أعاد استخدام كثير من أفكارها وفي أوبرا « أسرة تاراسي » فيما بعد(١١) .

وفي هذه المرحلة كتب كابالفسكي الموسيقى لعملين راقصين : باليه ، هما فاسيليك ١٩٣٨ و « اشربوا الأنخاب » سنة ١٩٤٠ ، وكلاهما يتناول موضوعات تمس الحياة في المزارع الجماعية . وفي المرحلة نفسها كتب المؤلف عدة مدونات للموسيقى التصويرية لأفلام من إخراج دوفشنكو منها ليلة بطرسبورج ، Oerograd وكذلك الموسيقى التصويرية للاذاعة وللمسرح . وجدير بالذكر أنه كتب الموسيقى التصويرية لوليام تل William Tell لشيللر ، ولمسرحية شكسبير : كما تحبها As You Like it ، وهو واحد من المجموعة الهائلة من كبار المؤلفين السوفيت ، الذين أثروا بفنهم الموسيقي الناضج الانتاج السينمائي في بلادهم ، بما لانجد له نظيرا في أي بلد آخر . ومن جانب آخر فإن موسيقاهم « البحتة » قد تأثرت بما في الموسيقى التصويرية للسينما من واقعية وسرعة تغير أجوائها النفسية تعبيراً عن اللقطات السينمائية . . !



نموذج من كورس

جامعات الكروم في المشهد الأول

من أوبرا « كولا بروينون » :



(ظلال الغابة الكثيفة ، ذهبت في الربيع ، في أمسية من مايو ، أجمع الكروم . . .)

(١٠) وكانت تحمل كذلك اسم : « على أبواب موسكو » . انظر شفارتس ص ١٨٩ ـ ٢١٩

(١١) كريبس ص ٢٤٠

وفي تلك الفترة كتب كابالفسكي سيمفونيته الرابعة ١٩٣٩ والتي لم تقدم لأول مرة إلا في عام سنة ١٩٥٤ . وهي سيمفونية كورالية تحمل عنوان « Snchors » (وهو اسم واحد من كبار قادة الجيش الأحمر في الحرب الأهلية) وربما كانت موسيقاها مرتبطة بالموسيقى التصويرية لفيلم لدوفشنكو الذي يحمل الاسم نفسه وكان المؤلف قد كتب له الموسيقى التصويرية . ومهما يكن فان هذه السيفونية لم تعزف كثيرا واختفت من الربرتوار . وعلى العكس فان متابعة الأركسترالية « الكوميديون » The Comedians (١٩٤٠) التي كتبها لمسرحية للأطفال والتي قدمها مسرح الطفل المركزي بموسكو ، نالت نجاحا جماهيريا ودوليا واسعا ، وهي تتألف من عشر فقرات (أو حركات) احتلت مكانا في ربرتوار الموسيقى الأركسترالية وعزفت كثيرا في خارج بلاده .

ومرة أخرى حقق كابالفسكي نجاحا مسرحيا لامعاً ، داخل بلاده ، بأوبراه الثانية : « أسرة تاراسي » ، التي قدمت بكثرة على المسرح بعد عرضها الأول في لينتجراد سنة ١٩٥٠ ثم في موسكو سنة ١٩٥١ . وقد اختار لها المؤلف قصة مائزة على جائزة لينين بعنوان « الذين لا يقهرون »[١٢] the Unsubdued ، ورغم أن تاراسي العجوز هو بطل الأوبرا إلاّ أنها تحفل بشخصيات أخرى هي شخصيات أبنائه وابنته ناستيا وبطولاتهم في الحرب العالمية الثانية ، وصمودهم الباسل أمام فظائع النازي .

وأهم ما تميزت به هذه الأوبرا هو كثرة استخدام المؤلف « للألحان الدالة » : (لايتموتيف) فيها ، وهي ألحان بارزة قصيرة تعبر عن أهم الشخصيات ، وتتحور طبقا لتطور الأحداث (وهي الطريقة التي ابتكرها فاجنر في القرن السابق) وان طبقها كابالفسكي بطبيعة الحال ، بأسلوبه الموسيقى الخاص به .

وينعكس الجو النفسي للحرب ، والذي ظل سائدا في روسيا حتى ذلك الوقت ، في هذه الأوبرا ، فموسيقاها انفعالية الى أقصى حد ، ونسيجها الموسيقى البالغ الكثافة بألحانه الدالة ، لم يقف عقبة في تحقيق هذا الجو الانفعالي ، والمعاني الرئيسية فيها هي الكفاح المستميت والنصر لأبطال عاديين من الشعب ، لم يخضعوا أو يقهروا أمام الجيش النازي وهي المعاني التي عبرت عنها الموسيقى ، وسط جو درامي حافل بالأحداث والمواقف الجانبية ، تعبيرا واضحا مقنعا ومؤثرا الى حد جعلها أنجح أوبراته في روسيا . ومن العناصر الموسيقية البارزة في أوبرا « أسرة تاراسي » أغاني « ناستيا » الفتاة الصغيرة التي تحولها أحداث الحرب وأهلها الى امرأة باسلة ومستميتة ، والتي يزيدها حبها « لبانكا » نضوجا . ومن هذه الأغاني الأغنية التي تتحدى بها الموت والتي يمكن أن تسمى بلحن « المقاومة المستميتة » وهو الذي يعود للظهور في الأوبرا بصور متعددة ومحورة :



ومن جانب آخر فان الموسيقى قد عبرت عن النازي بلحن دال عميق التأثير رغم قصره :



(١٢) كتب هذه القصة جورباتوف ونشرت في عام سنة ١٩٤٢ .

وكالمعتاد فإن قدرات كابالفسكي في ابتكار الأغاني الكورالية الجيدة والموحية كان لها دورها في هذه الأوبرا ، كما في كورس النساء الحزين . ولاشك أن المؤلف قد أكد سيطرته كبيرة على الصنعة الموسيقية في كتابته لهذه الأوبرا وفي تناوله المركب والمتشابك للألحان الدالة فيها ، ثم في رسم أبرز شخصياتها رسما موسيقيا مفهوما وواضحا . ويعيب بعض النقاد الغربيين عليه أنه لجأ لبعض الوسائل « غير الموسيقية » لتحقيق النجاح الجماهيري (مثل تصويره الحميم على المسرح بعلاقة الحب بين الفتاة ناستيا وبين يافكا) ومثل الاشارات والتلميحات السياسية المتعددة داخل سياق الموسيقى[١٣] (مثل تقديم نشيد العمال الدولي متزامنا مع قتل تاراس ، بطل الأوبرا ، عندما تحدث باسم مجموعة من العمال الرافضين للعمل في مصنع مدمر) .

أما أوبراه الثالثة والأخيرة « نيكيتا فيرشنين » والتي أنجزها سنة ١٩٥٤ فقد كان نجاحها أضيق بكثير من سابقتها . وتقع أحداثها في سيبريا أثناء الحرب الأهلية ، وهي تعالج الصراع بين قوى الثورة الجديدة وبين المقاومين لها ، ولذلك فإن جماهير الشعب تحتل فيها مكانا أبرز حتى من سابقتها ، وهو ما أنتج فقرات كورالية وإن كان كابالفسكي عادة مايسند للأركسترا في أوبراته فقرات كبيرة وهامة ، انفصل بعضها عن الأوبرا ويتداول ، كعمل اركسترالي ، كما حدث بالنسبة لأوبرا كولا وغيرها .

وقد انشغل كابالفسكي بعد عام سنة ١٩٤٨ بأعمال الكونشرتو المخصصة للشباب فكتب كونشرتو الفيلولية مصنف ٤٨ (١٩٤٨) وكونشرتو للتشللو مصنفة ٤٩ (١٩٤٩) والكونشرتو الثالث للبيانو مصنف رقم ٥٠ (١٩٥٢) . ومن بين هذه الكونشرتات الثلاثة يبرز كونشرتو الفيولية كعمل من الأعمال الناجحة في هذا المجال ، وأثار حماسا واسعا ، ليس في روسيا وحدها ، بل وخارجها كذلك ، ولعله يضاف الى الأعمال التي أسهمت في شهرة كابالفسكي دوليا !

ورغم أنه مكتوب للشباب الا أن هذا الكونشرتو يشكل صعوبة تكنيكية لافتة في العزف ، ولولا أن الشاب الذي عزفه للمرة الأولى كان ايجور بيزرودني العازف الشهير (وكان وقتها لازال صبيا) لما أمكن تقبله كعمل مكتوب للشباب - لصعوبته - والكونشرتو يستخدم لحنا شعبيا أو كرانيا في الموضوع الثاني في الحركة الأولى ، كما أن الحركة الثانية « المعتدلة بغنائية » ، تعتمد كذلك على عناصر لحنية متشابهة ، ذات ايحاءات شعبية ، والنسيج السائد في الكونشرتو بحركاته الثلاث نسيج هارموني كثيف ، كما هي عادة المؤلف ويخففه من وقت لآخر بفقرات من النسيج شبه البوليفوني (أي الذي يعتمد على الألحان المتداخلة) ، ويختتم الكونشرتو بحركة رشيقة بالغة الحيوية ، يغلب عليها الطابع الراقص ، (في صيغة الصوناته روندو) ، وجدير بالاشارة هنا أن لحنا كوراليا من أوبرا تاراس قد ظهرت معالمه في اللحن الرئيسي لهذه الحركة ، والتي تعتبر ختاما رائعا لكونشرتو محبوب من أعمال كابالفسكي الموفقة (وهو ما نستطيع أن نصف به كونشرتو البيانو ولاكونشرتو التشللو) .

وقد اهتم كابالفسكي في هذه المرحلة المحدودة الانتاج ، بشكسبير مرة أخرى ، فكتب ثلاث أغان لشكسبير لصوت الباص والبيانو ، كما أنجز بعض الأعمال الكورالية التي نذكر منها عملا مهدىً لذكرى باتريس لومومبا بعنوان « الساعة الأخيرة » ، ثم القداس الجنائزي ريكوييم الذي كتبه عام ١٩٦٣

(١٣) كريبس ص ٢٤٧

ويعض مدونات الموسيقى التصويرية (روميو وجوليت) ، وأغاني « الصباح والربيع والسلام » لكورال الأطفال والأركسترا مصنف ٥٧ ، وأوبريت بعنوان « الربيع يغني » وفي الغابة المسحورة لراو وكورال وبيانو ثم عملا آخر للنشر ، بعنوان Lenintsy) أي (ابناء وبنات لينين) .

ويبدو أن مسئوليات كابالفسكي التنظيمية والسياسية والتربوية تصاعدت في تلك المرحلة الى حد لم يعاونه على ابتكار أعمال كبرى تضيف جديداً إلى حصيلة مؤلفاته الهامة والتي تكاد تتركز في المرحلة الثانية . فقد كان يقوم بدور اجتماعي واسع الأهمية عبر إنحاء الاتحاد السوفيتي ، في تجمعات الشباب والعمل ، وفي المزارع الجماعية ، يوزع الجوائز ويتسلمها ، ويلقي الكلمات ويفتتح المهرجانات ، بل ويقدم بنفسه (على البيانو) شروحا تحليلية مبسطة للناشئين تمكنهم من تفهم الأعمال الموسيقية التي سيستمعون إليها في حفلات الكونسير ، في موسكو وغيرها . . . وكان له نشاطه في لجنة التنظيم لاتحاد المؤلفين الموسيقيين السوفيت ، فقد كان عضوا بجانب جليير ، وخاتشاتوريان وشوستاكوفتش وشابورين من أواخر الأربعينات ، (وإن كان واحداً من المؤلفين القلائل الذين لم يمسهم غضب الحزب ولم تتعرض أعمالهم للتجريح أو الإدانه !) وكان كابالفسكي يسافر على رأس الوفود السوفيتية الرسمية للمؤتمرات والمجالات الثقافية والموسيقية الدولية ، وعندما نظمت زيارة للمؤلفين السوفيت وعلماء الموسيقى لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية في أكبر مظاهرة فنية سنة ١٩٥٩ كان كابالفسكي من بين أعضاء الوفد (الذي ضم كذلك فكرت أيروف ممثلاً لأذربيجان ، وخرينيكوف (رئيس اتحاد المؤلفين) وشوستاكوفتش أشهر المؤلفين السوفيت في الخارج ، ردانكيفتش الأوكراني ، ويباردستوشسكي عالم الموسيقى المعروف) . وقد لمع كابالفسكي في هذا الوفد وكان من أنجح شخصياته ، ليس بفضل قدراته اللغوية فحسب ، بل وبفضل تواضعه ودماثته وطبيعته المتفتحة . . . ولهذا كله فقد تباعد إنتاجه الموسيقي في هذه المرحلة ، وقل شأنه نسبيا ، فلم يضف إلى جملة انتاجه اضافات قيمة يمكن مقارنتها بالمع مؤلفات المرحلة الثانيه . . . .

• • •

أسلوب كابالفسكي **الموسيقي** :

لاشك أن كابالفسكي كان مؤلفا « صناعا » امتلك ناصية صنعته الفنية وتمكن منها تماما ، منذ سنواته المبكرة وخلال إنتاجه الذي أشرنا إليه قبلا . ولكن هناك تساؤلا رئيسيا يطرح نفسه على المحلل لأسلوبه وهو : هل اختار كابالفسكي أسلوبه الموسيقي « المحافظ » عن وعي ، أم أنه كتب موسيقاه بالطريقه التي تعلم بها التأليف في الكونسرفتوار ، بعيدا عن اتجاهات التجديد المتطرفة في العالم الغربي والتي احتشد بها القرن العشرون في أوروبا وأمريكا ؟ وهل حافظ كابالفسكي على « التونالية » ، أي المحور التونالي البارز ، لأنه لم يدرس الاتجاهات المضادة والتي تخلت تماما عن التوناليه أو نزعت لتعددها أو اتبعت الاثنى عشرية (التي تلغي المحور التونالي كلية) ؟ من المحقق أن هذه التجديدات التي لم تستقر بعد ولازالت موضوع تجريب ، لم تدرس في كونسرفتوار موسكو على عهد كابالفسكي ، إلاّ أنه هو قد اطلع بجهوده الذاتية على موسيقى سترافنسكي ، عميد المجددين الثوريين في النصف الأول من القرن العشرين ، ودرس موسيقى سترافنسكي في العشرينيات المتأخرة بعناية كما انه اطلع على موسيقى المجموعات

الجديده الطليعيه Avant-garde مؤلفي ألمانيا وفرنسا[١٤] . إلا أن كابالفسكي لم يتأثر كثيرا بهذا الاطلاع أو الدراسة لموسيقى سترافنسكي في فتره تكوينه ، ويبدو أنه حدد لنفسه مسارا موسيقيا خاصا يتفق مع المثل والمبادىء السوفيتية التي تريد للفنون والموسيقى أن تكون قريبة المنال لجماهير الشعب العريضة وأن ترتبط بموروثات الشعب المستقرة ، فقد آمن كابالفسكي بهذه المبادىء ودافع عنها ، كما أنه سخر حياته الموسيقية لخدمتها ، سواء في ابداعه الموسيقي أو في عمله التربوي أو مسئولياته التنظيمية الواسعة في صقل الموسيقى . وهكذا نستطيع القول بأنه اختار لنفسه هذا الطريق لأسباب عقائدية وموسيقية معا ، فهو صاحب موهبة فذة في ابتكار ألحان غنائية الطابع » مستساغة وحيية ، وقد ظلت هذه الصفه من أبرز أسباب نجاحه الموسيقي سواء في مجال الأوبرا أو الأعمال الأركسترالية أو مؤلفات الأطفال . . . وقد استمد كابالفسكي مثله الموسيقية ومؤثراته الأولى من كبار المؤلفين الروس مثل بورودين ، الذي كان يكن له تقديرا عميقا ، ومن موسورسكي أحيانا ، ثم من أستاذه مياسكوفسكي ، ويقال إنه كان شديد الاعجاب بباخ وموسيقاه .

وهكذا تبلور لكابالفسكي أسلوب موسيقي يتميز بالمحافظة التامة على المحور التونالي الدياتوني وبأسلوب هارموني كثيف ، هو السمة الغالبة على كتاباته ، وان كان يلجأ أحيانا الى أسلوب « شبه بوليفوني » ، (متشابك الألحان) على سبيل التباين في النسيج الموسيقي ، وإن كان النسيج الكنترابنطي (البوليفوني) عارضاً في أسلوبه بشكل عام .

واللغة الهارمونية في كتابات كابالفسكي ذات نكهة خاصة ترجع إلى استخدامه الواسع للتآلفات الرباعية ، تآلفات السابعة ، والتآلفات « ذات الأصوات المضافة » added-note ، والاستعارة الواسعة بين المقامين الكبير (ماجور) والصغير (مينور) (وخاصة في تآلفات الدرجه الرابعة) ، وهو ماينتج شعرا سلميا خاصا ليس واضح الانتهاء بسهولة لأي من المقامين ، رغم دياتونيته الراسخة ، كما أنه يمزج كثيرا بين المقام ، الكبير وقرينه الصغير بأسلوب يدل على تأثره بالموسيقى الشعبيه الروسية[١٥] . وإيقاعات كابالفسكي ليست جزيئة ولامتنوعة الموازين ، فهو يميل الى الموازين المنتظمة التواتر حتى في اختيار أو كتابة ألحانه الرئيسية ، وذلك لأنه يفتح لنفسه مجالا أوسع لتطوير اللحن الرئيسي باضافات وتنويعات إيقاعية بطريقة خاصة تؤدي إلى مزيد من الاندماج والأحكام في تصميمه البنائي لمؤلفاته . وعلى ذكر التصميم البنائي أو الصياغة فإن مؤلفاته تسير على نسق تقليدي وخاصة في مجال الكونشرتو ، بالنسبة لعدد الحركات وصيغها ، وإن كانت أعماله السيمفونية غير ملتزمة بالتسلسل المعتاد للحركات ، ربما بحكم غلبة الفكر السيمفوني الكورالي في سيمفونياته ، على الفكر الموسيقي السيمفوني البحت .

ومن سمات أسلوبه التي اعتمد عليها وخاصة في أعماله المسرحية ، الخط اللحني الملحّ : الأوستيناتو Ostinato المتكرر تكرارا عنيفا يدل نفسه على الجو النفسي للموسيقى بتأثير درامي لافت ، وهناك لذلك طريقته الخاصة في تنويع اللحن ، أيًا ماكانت بساطته ، تنويعا يغير في تركيبه في كل مرة يتكرر فيها تغييرا طفيفا ولكنه شائق ، فهو يفكك اللحن الى « وحدات » موسيقية صغيرة ويعيد تكوينه في نماذج وعينات جديدة ، كثيرا ماتكتسب أهمية شعورية أو انفعالية خاصة

(١٤) ليونارد : ص ٣٥٥

(١٥) بالست ص ٣٣٢

وخصوصا عندما يقرنها بتغييرات هارمونية وايقاعية جديدة ، ومع ذلك فكابالفسكي لايتبع أسلوب « التفاعل التنويعي » في كتاباته الكبيرة إلاّ نادرا بل هو أقرب لطابع وطرق التفاعل عند بتهوفن وتشايكوفسكي في تفتيته لمادته اللحنيه إلى وحدات صغيرة قادرة على توليد نماذج وأفكار جديدة .

أما موقف كابالفسكي من « القومية » الموسيقية في أسلوبه ، فهو موقف واضح ونابع من التزامه بالتعبير الصادق عن الموسيقى الروسية القريبة لجموع الشعب ، ومع ذلك فقد اختلف النقاد الغربيون في تقييمه ، فمنهم من اعتبره قليل الارتباط بالمادة الشعبية الفولكلورية[١٦] ، ومنهم من يجد في أسلوبه ارتباطا ملموسا بالفولكلور الموسيقي[١٧] ، وهؤلاء يشكلون الأغلبية وهم بلا شك أقرب للصواب ، اذا أخذنا في الاعتبار أعمالا مثل السيمفونيات الأولى ، ومقدمات البيانو الأربعة والعشرين مصنفاً وكونشرتو الفيولية الواسع الانتشار ، ولقد أسعفته موهبته الأصيلة في ابتكار ألحان قريبة الشبه مع الطابع الفرنسي في أوبرا سيد كلامبس ، كما أنه كثيرما ابتكر ألحانا جديده ولكنها توحي بأنها شعبية ، أو أضاف جزئيات مبتكرة لألحان شعبيه . ومن المفيد في هذا المجال أن نشير إلى المقدمة التي اقتبسها عن ليرمونتوف وصدّر بها مقدمات البيانو الأربع والعشرين : « إذا أنا أردت أن أبثّ الروح الفولكلوري في كتابتي فليس هناك أي مصدر أفضل من الأغاني الروسية لأستمده منها » .
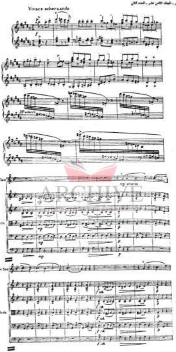
وتبقى كلمة عن وسائل كابالفسكي في التعامل مع الألحان الشعبية إجمالا ، وبصفه خاصة في مقدمات البيانو المشار اليها والتي اعتبر كل واحدة منها منطلقا « لدراسة » أو تجربة فنية في تناول اللحن الشعبي ، تبدأ من أبسط وسائل أدائه هارمونيا في حدود ضيقه جدا من الصقل الفني ، كما هو الشأن في المقدمة الأولى (انظر ص ١٥ من هذه الدراسة) ، ثم يتدرج تناوله في التعقيد الهارموني والاهتمام بالعناصر التلوينية في الكتابة للبيانو في نسيج كثيف نوعاً ، كما في هذا النموذج .

وجدير بالذكر هنا أن كابالفسكي يتجنب الكتابة البراقة اللامعة للبيانو ، كهدف يقصد لحد ذاته ، وهو أقرب لطابع شوبان[١٨] في التعامل مع آلة البيانو بشاعرية ورصانة بعيدا عن الكتابة البراقة .

ولانترك الحديث عن موقف هذا المؤلف من القومية الموسيقية دون اشارات تؤكد مدى رسوخه في الاتجاه القومي ، سواء عن عمد أو عن غير عمد ، اذا أن انجح أعماله تفيض بإشارات وأفكار وتلميحات واضحة لصلته بالموسيقى الشعبية كما في الفقرات الكورالية من الأوبرات (أسرة تاراسي) (كورس جمع الكروم من أوبرا كولا برونيون وغيرهما) ، ولعل من دواعي نجاح كونشرتو الفيولية براعته في استخدام ألحان شعبية وتحقيق اندماجها داخل النسيج الموسيقي اندماجا ناعما وموضوعيا ، وفيما يلي لمحة من اللحن الشعبي الأوكراني الذي جعله المؤلف موضعا ثانيا للحركة الأولى لكونشرتو الفيولية :

اما المضمون النفسي التعبيري لموسيقى كابالفسكي ، والذي هوالمحصلة النهائية لكل عناصر الأسلوب الموسيقي لحنا وإيقاعاً ونسيجا هارمونيا أوبوليفونيا وصياغة بنائية ، هذا المضمون النفسي أو التعبيري يتصف عامة بالبساطة وقرب الغور فموسيقى كابالفسكي ليست « عميقه » وليست درامية ولكنها

(١٦) ليونارد ص ٣٣٥
(١٧) شفارتس ، وكريبس ، وبالكت
(١٨) كريبس ص ٢٤٦


Vivace scherzando
Vln Solo
Archi
Vln Solo
Archi

تحمل شيئا من الرومانسية والشاعرية الغنائية Lyrical ، وأهم مايميزها في أعماله الناجحه تلك الرشاقه والشفافيه (في كتاباته لآلة البيانو) والجاذبية التي تشع بها بعض حركاته مما جعل النقاد يشيرون إلى الجو « السعيد » الذي يسيطر على كثير من أعماله المحبوبة ، بدءا من صوناتية البيانو الى السيمفونية الثانية ، الى الأوبرا الناجحة وكونشرتو الفيولية والمتابعة والأكسترالية « الكوميديون » وغيرها ، وقد نضيف اليها كذلك كونشرتو البيانو الثاني ، وأما قوميته الروسية فهي ، في نظرنا ، صفة رئيسية تلازم أسلوبه في كل مراحل حياته الابداعية وتجعل له مكانا واضحا بين القوميين في القرن العشرين والذين مازالوا يؤمنون بان كنوز الموسيقى الفولكلورية معين لاينضب ، وأن المؤلف الموسيقي المعاصر يستطيع أن يستمد منها عناصر توثق صلته بالتراث وبجموع الشعب مادام لديه الابتكار الحقيقي الذي يتيح له حرية التصرف والتعامل معها .

ولعل أقيم إضافات كابالفسكي إلى أدب الموسيقى المعاصره هي مؤلفاته المكتوبة للأطفال وللمسنين . والتي أولاها عناية خاصة ، لعلّها تكون قد أثرت تأثيرا طفيفا على أسلوبه العام كمؤلف موسيقي واتجهت به الى البساطة وسلاسة المضمون .

● ● ●

هذا هو الرجل الذي فقده عالم الموسيقى في أوائل هذا العام ، بعد حياة طويلة حافلة بالابداع الموسيقي المتنوع وبالجهود التربوية القيمة التي اكتسبت له مكانة مرموقة في الجمعيات الدولية الموسيقية ، وحملت رسالته التربوية إلى كثير من قاعات الدرس الموسيقية عبر أنحاء العالم ، ولفتت الأنظار إلى مسئولية الموسيقيين والمنظمين وواضعي السياسات الثقافية في العالم نحو خطورة مرحلة الطفولة والصبا في وضع الأساس الحقيقي للثقافة الموسيقية ، لكي يصبح هذا الفن الرفيع جزءا أصيلا في بناء وجدان الانسان المعاصر ، ولاشك أن عالمنا العربي يستطيع أن يفيد كثيرا من تجربة هذا الفنان والمربي الكبير في تحقيق هذه الأهداف السامية .

* * *

المراجع

- Abrham, gerald : Eight Sovietcomposers Schirmer, 1943.
- Abraham, gerald : Essays on Russian and East Eurpoen music, Clarendon Press Oxford, 1985.
- Bakst, James : A History Of Russian- Soviet Music Dodd, Mead, CY. N. York 1966.
- Kerbos, Stanley Dale : Soviet Composers and the Development Of Soviet Music Norton; N. Y, 1970.
- Schwarz, Boris : Music and Musical Life In Soviet Russia, 1917- 1970; Norton, 1972.
- Leonard, Richard Anthony : A History Of Russian Music, Mac Millan, 1968.
- Calvocoressi, M. D : A Survey Of Russian Music; Green Wood Press, Connecticut, 1944.
- Thomson, Virgil : Music Right and Left; Green Wood Press, N. Y, 1951.
- Werth, Alexander : Musical uprqar in Moscow, Green Wood Westport, CQnnecticut, 1949.
- Olkhovsky, Andrey : Music Under the Soviets, Rout Ledge Kegan Paul, London 1955.

⊕ ⊕ ⊕

من الدرس الدلالي للعربية الفصحى في العصر الحديث

أحمد محمد قدور

تمهيد :

اتجه الدارسون المحدثون إلى اللغة لتكون منطلقاً لكثير من الدراسات النقدية والنفسية والاجتماعية والثقافية الأخرى . ومهما تختلف الآراء ، وتتعدد النظريات المستحدثة في علوم اللغة وتطبيقاتها فإنّ نظرنا إلى الدرس اللغوي العربي يبقى منطلقاً من خصوصية الفصحى ، وساعياً إلى تنميتها ، وترسيخ وجودها .

وترتبط دراسة التطور الدلالي بأسس لا محيد عنها ، وهي أنّ العربية الفصحى تحافظ على أنظمتها الصوتية ، والصرفية ، والنحوية . أما المجال الذي يشهد التطور فهو دلالة الألفاظ مع المحافظة على النسب الذي لا ينقطع بين الجديد من الدلالات والأصول القديمة .

وقد انتظمت المسائل الدلالية ، وقضايا التطور اللغوي ، وما يتصل بذلك كله من نظرات في علم حديث النشأة هو علم الدلالة « Semantique » ، وهو فرع من علم اللغة الحديث « Linguistique » الذي يضم علوم الصوت والصرف والنحو ودلالة الألفاظ والقضايا المعجمية . وعلى الرغم من حداثة مصطلح « علم الدلالة » ، ومناهج الدرس فإن لهذا العلم جذوراً ممتدة في تاريخ علم اللغة في آماد سابقة . وتبرز أهمية المنهج الحديث في تقديم تصور عام للمباحث الدلالية المتفرقة .

ويبدو أن المدة الزمنية التي اجتازتها العربية الفصحى منذ أوائل عصر النهضة الحديثة حتى اليوم كافية لرسم صورة متميزة لتطورها الدلالي في مجال الاستعمال الحرفي ، والاستعمال الفني في الشعر وفنون الأدب الأخرى .(١)

---

(١) انظر دراستنا في مجلة « عالم الفكر » العدد الرابع ، المجلد السادس عشر ، ١٩٨٦ م ، وهي بعنوان « مقدمة لدراسة التطور الدلالي في العربية الفصحى في العصر الحديث » ، ص ٢٩ ـ ٤٤ . ومن الجدير بالذكر أن بعض المعلومات النظرية الواردة في الدراسة المذكورة قد وضعت في سياق جديد في مفتتح هذا البحث من أجل التمهيد له وربط جانبه التطبيقي هنا بالجانب النظري الذي لا ينفصل عنه .

وتبرز الحاجة إلى دراسات متخصصة في تطور العربية الفصحى عبر الزمن . وقد دخلت خطط متعددة لمثل هذه الدراسات المنشودة في مشاريع المجامع اللغوية ، وبرامج الهيئات العلمية المختصة .

ويقوم منهج البحث على معطيات علم الدلالة ضمن منظومة علم اللغة الحديث وما يقدمه من نظريات ومناهج تطبيقية . وقد سعينا إلى الافادة من كل ما يمكن أن يوظف في ترسيخ المنهج وتأصيله ، مع مراعاة خصائص الفصحى ومعياريتها . وقد تم تطبيق أفكار لغوية ودلالية كثيرة ، فهناك مثلا نظرية « السياق » ، و « قوانين التطور الدلالي » ، و « أصل الدلالة الحسي » و « الحقول الدلالية » و « أنواع الدلالة » ، وجوانب أخرى كثيرة في المجاز والدلالة الثقافية .

وبالنظر إلى حقول المعاني ، ومجالات الاستعمال جعلت المواد المدروسة في أربعة حقول هي : الحقل السياسي ، والحقل الحضاري ، والحقل العلمي ، والحقل الثقافي - الأدبي .

وتجدر الاشارة إلى أنني وقفت على مواد لغوية كثيرة يمكن أن تلحق بالحقول الدرسية للتطور الحديث ، إلا أنه تبين لي أن من غير الممكن إثبات كل شيء يقع عليه الدارس في أثناء بحثه . فالانتقاء - ههنا - ضرورة منهجية ، ويبقى القصد إلى الاحاطة منوطا بالمؤلف المعجمي الذي يتقرى التطور اللغوى ، ويسجل في معجمه كل جديد متطور من الدلالات والصيغ اللغوية الأخرى .

وعلى الرغم من أن بحثنا مخصص بالعربية الفصحى المعاصرة ، فقد دأبنا على تقصي التطور ورسم تدرجه منذ أصوله الاولى . وكان الهدف من ذلك تقديم خلاصة مكثفة لتاريخ كل مادة لغوية نقف عندها . ومن الطبيعي أن يكون هذا الجانب من الدرس مقدمة لدرس التطور الحديث وربطه بالقديم . وكان حرصنا على تبين الأصل واضحا في كل مادة درست ، مع تحليل لتطورها ضمن المحسوسات ، ومن الحسي إلى المجرد ، وفي بعض الاستعمالات المجازية . كذلك وضعنا خطين ثابتين في رسم الدلالة القديمة ، هما : الوقوف عند الألفاظ الاسلامية ، وما أحدث فيها من تخصيص واصطلاح ؛ والوقوف عند التطور الاصطلاحي في العلوم العربية القديمة ، لما لهذين الجانبين من أهمية في تأكيد الدرس الدلالي في العربية في آماد ماضية .

وكان الجانب الحديث من درس التطور موجها إلى مجموعة من المعاجم الحديثة والدراسات اللغوية الأخرى على نصوص التطور وتوثيقه ، دون أن نقف طرفا في قضية ، أو نحكم على رأى . فالبحث - ههنا - يسعى إلى الرصد ، والوصف ، والتحليل ، لتقديم صورة التطور متكاملة دون الدخول في تقويم التطور - ما دام جاريا على سنن العربية الفصحى - أو إصدار أحكام الخطأ والصواب .

وكان إيماننا بأن اللغة مؤسسة اجتماعية يدفعنا إلى تقصي الدلالات المتطورة في المعاجم الحديثة المعتمدة من المجامع اللغوية ، وفي مجلاتها ونشراتها ، أو ما نقل عنها في المعاجم الأخرى منصوصا على مصدره .

وكان سعي البحث إلى تبين (المساحة) الدلالية في الاستعمال ، يدفع بنا إلى إلحاق نصوص توثيقية تشير إلى استعمال الدلالة الحديثة في نص نثرى أو شعري أو كتابي آخر ، أو تشير إلى آراء أخرى في درس المادة منقولة من كتب اللغة أو المعاجم الحديثة .

١ ـ الفصحى المعاصرة والدرس الدلالي

ـ أ ـ

عرفت العربية بأنها فصحى : « كلاسيكية مستمرة » ، مع تغير وتطور ضمن حدود لا تجاوزها ، على حين يختلف الأمر في معظم اللغات الحية التي يمكن نظريا أن تتغير صفحة وجهها بشكل يباين الثاني سابقه مباينة كبيرة تقرب من أن تكون لغة أخرى بعد أمد .(٢)

والفصحى المعاصرة قامت على أصول العربية الفصحى التي تتمثل في الجوانب الإعرابية ، والصرفية ، والمعجمية . وقد أسهمت هذه الجوانب في الحفاظ على العربية ووحدتها ، ووقفت في طريق تشعبها إلى لهجات متباينة .

غير أن بعض المعاصرين أنكر « الفصحى » ، لأن هناك في رأيه لغة العرب المنطوقة المكتوبة ذات اللهجات المتعددة المختلفة .(٣) ويرغب دارس آخر عن مصطلح « الفصحى المعاصرة » لأن استعمال كلمة « فصحى » في رأيه قد يوحي إلى بعض الناس أننا سوف نشغل أنفسنا بتلك القضية القديمة الجديدة (قضية الفصحى والعامية) ، ولأن الفصحى تتضمن حكما نهائيا بتفضيل أسلوب كلامي على آخر .(٤)

والحقيقة أن الفصحى وجدت منذ العصر الجاهلي ، وهي لغة الأدب ، والاستعمال المشترك بين القبائل ، وبها نزل القرآن الكريم . وقد بقيت لهجات البدو تمثل معظم خصائصها حتى القرن الرابع الهجري . وغدت بعدئذ لغة ثقافية مكتوبة تتلقى بالقراءة والحفظ والدراية حتى العصر الحديث .

وعلى الرغم من احترازات بعض الدراسين فإننا لا بد من أن نميز الفصحى من العاميات الدارجة التي تختلف في درجة قربها من الفصحى أو بعدها عنها . أما توجيه الدرس إلى العربية ليشمل اللهجات وما يطرأ عليها من تغيرات صوتية وصرفية ونحوية ، فليس مما يلقي إليه الدارس بالاً لأن الفصحى المعاصرة رسخت جذورها وتوضحت معالمها بفضل قدارتها الاشتقاقية التي أمدتها بفيض من الاصطلاحات الجديدة والاستعمالات المتطورة .

ولا بد من أن يلاحظ أن الفصحى المعاصرة تقوم أساسا على الإعراب الذي يعد خصيصة بارزة من خصائص الفصحى ، وعلى صحة التراكيب النحوية Syntaxe ، وعلى سلامة الأبنية الصرفية والأداء الصوتي . أما المفردات فهي من أكثر العناصر اللغوية قابلية للتطور في اللغات الإنسانية .(٥) وللعربية الفصحى المعاصرة حظها من التطور في المفردات ضمن القواعد المعيارية . فالمظاهر الصوتية والصُّرفية والنحوية تمثل خصائص العربية الفصحى التي حفظت وحدة اللغة ودفعت عنها أخطار التشتت . ولذا فإنه لا يمكن أن ينظر إلى التغير في مستويات الأصوات والصرف والنحو على أنه تطور لغوي سليم .

ويستغرب ـ بعدئذ ـ أن يذهب كمال بشر إلى أن « العربية المعاصرة قد خضعت لشيء من التغير على

(٢) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ، دار الملاح ، دمشق ، ط . أولى ، ١٩٧٨ م ص ١١٩

(٣) غالي ، د . محمد ، صحيفة « الأهرام » القاهرية ، عدد الجمعة ١٤/ ٤/ ١٩٦١ م نقلا عن بشر ، د . كمال ، قضايا لغوية ، دار الطباعة القومية ، القاهرة ١٩٦٢ م ، ص ٩٥ ، ١٢٣

(٤) بشر ، د . كمال ، دراسات في علم اللغة ، القسم الثاني ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٨

(٥) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية ، ص ١١٩

مستويات الأصوات والصرف والنحو ، أما على مستوى الألفاظ ومعانيها فهذا شيء واضح يستطيع أن يدركه أي مثقف عادي ، وهو أمر أسهل وأبسط من أن نشغل به ههنا لذا آثرنا تركه » .[٦]

أما اللهجات العامية ـ على اختلافها ـ فلا تعدو أن تكون استعمالا مترخصا للعربية الفصحى يهمل أخص أسسها وهو الإعراب . غير أنه من الملاحظ أن هذه اللهجات في طريقها إلى الترقي والتطور باتجاه الفصحى ، وقد أسهمت عوامل كثيرة في تقريب الثقة بين اللهجات والاستعمال الفصيح ، وأهمها : اتخاذ الفصحى لغة رسمية ، وانتشار التعليم بها ، وتطور وسائل الاتصال والصحافة ، والهجرة الداخلية ، وارتفاع مستوى الثقافة .

وتتمثل الفصحى المعاصرة في الأدب الحديث : نثره وشعره ، وفي المؤلفات العلمية والجامعية والدوريات الأدبية ، والوثائق الرسمية ، ويمكن أن نعد كل استعمال يحرص على الإعراب ويراعي القواعد الصرفية والصوتية فصيحا مع التنبه إلى تعدد مستويات الفصحى . فاللغة الفصحى تختلف باختلاف فنون الأدب : النثر ، والشعر ، والخطابة ، والقصة ... أما لغة أصحاب العلوم والقانون والاجتماع فكلامهم مجرد وسيلة ، وترتب على ذلك أن أصبح لكل من هذه الفنون خصائصه اللغوية في النظم والبناء والتركيب .

وإن الفصحى المعاصرة التي نخصص القول في تطورها في هذا البحث تمتد جذورها منذ عهد النهضة الحديثة حتى أيامنا هذه . وتمثل جهود الأدباء واللغويين منذ ذلك العهد أساسا لتطور الفصحى المعاصر الذي بدأ سريعا وواسعا منذ مطلع القرن العشرين . وإن صورة الفصحى المعاصرة لم تكن واضحة المعالم لقلة آثارها ـ قبيل منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ـ ولقلة استعمالها الحي وبعدها عن المجالات الحضارية الجديدة .

وليس في مهمة هذا البحث ـ وهو متصرف إلى التطبيق أساسا ـ أن يفصل القول في تلك الأحداث والجوانب ، نظرا لتشعبها ووجود الدراسات الخاصة بها . غير أننا نشير إلى بعض المشكلات التي اعترضت مسيرة العربية الفصحى في العصر الحديث .

ففي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين حوربت الفصحى حربا لا هوادة فيها ، واشتدت الدعوة إلى استبدال العامية بها ، واتخاذ الحروف اللاتينية بدلا من العربية . وقد اتخذت الحملات الظالمة التيسير حجة لها ، وسعت إلى تدوين العلوم وكتابة الصحف بلغة الحديث لإيصالها إلى الأفهام بأيسر السبل ، وقد لاقى بعض تلك الحملات والدعوات صدى وبحثا لدى من الأدباء .[٧] ووصل أصداء بعضها الآخر إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة .

وقد أسهم بعض الغربيين في تلك الحملات ، فقد أصدر « ولمور » الانكليزي كتابا عن « لغة القاهرة » ، وترجم « ولكوكس » الانجيل إلى ما أسماه اللغة المصرية . وقد ذهب ولكوكس إلى « أن العامل الأكبر في فقد قوة الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم اللغة العربية الفصحى في القراءة والكتابة » .[٨]

وفي الشام خاضت العربية معركة شديدة مع

(٦) بشر ، د . كمال ، دراسات في علم اللغة ، ٢/١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٧) حسين ، د . طه ، مستقبل الثقافة في مصر ، مطبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٣٨ م ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ م ، ص ٤٥

(٨) بشر ، د . كمال ، قضايا لغوية ، ص ٩٠

محاولات التتريك التي قام بها « الطورانيون » قبيل الحرب الأولى وفي أثنائها .[٩] وفي لبنان ظهرت دعوات أخرى أسهم فيها بعض أدباء المهجر . وقد غذت هذه الدعوات فكرة إقليمية تزعم أن الشاميين « السوريين » ليسوا بعرب ، وإنما هم من أصول فينيقية ، على الرغم مما هو معروف عن العلاقة بين عرب الجزيرة والشعوب العربية ـ السامية التي استوطنت بلاد الشام والرافدين .

ويلاحظ أن هذه الحركات المهددة لكيان العربية أدت إلى قيام حركة مضادة تعلي من الفصحى وتفند مزاعم المشككين في عبقريتها الفذة ، وصلاحها لمواكبة العصر ومتطلباته . وقد أعلنت تلك الحركة عن نفسها ببعث لغوي جديد فطبع مالا يحصى من كتب التراث ، وأدى الاشتغال بالآثار الأدبية إلى بعث حركة التنقية اللغوية .[١٠] ولا يخفى ما للحركة اللغوية في الشام ـ منذ أوائل هذا القرن ـ من أثر في تعريب التعليم ووضع المصطلحات ، وإثبات قدرة العربية على استيعاب علوم العصر الحديث .

ـ ب ـ

لقد كان لاتصالنا باللغات الأجنبية في هذا العصر أثر كبير في النشاط اللغوي ، فقد شهدت بدايات الاتصال كثرة الألفاظ الدخيلة من اللغات الأوربية ، ولا سيما الألفاظ المتعلقة بأمور الإدارة والعلوم ، والنشاطات المستحدثة والاختراعات . وقد نشط نفر من رواد النهضة الحديثة لوضع المصطلحات العربية والمعربة كي يستعاض بها عن كثير من الكلمات الأجنبية . وكان هذا العمل بداية لحركة التعريب ووضع الاصطلاحات التي قامت من أجلها المجامع اللغوية والمؤسسات العلمية .

وقد أسهمت حركة التعريب المتسارعة آنئذ في استبعاد كثير من الكلمات الشائعة بعجمتها من ناحية ، وفي متابعة التطور العلمي وما يتطلبه من جهود لغوية مخلصة من ناحية أخرى . وقد أثمرت هذه الحركة كثيرا في المعاجم المتخصصة في مجالات العلوم والفنون والآداب ، وبات التأليف في هذا النوع رافدا مهما لتطور العربية الفصحى المعاصر .[١١] كما أسهمت حركة التعريب والتنقية اللغوية في استحداث اصطلاحات كتابية إملائية للوفاء بالأصوات الخاصة باللغات الأوربية ، نحو ڤ = v ، پ = p ، چ = Sch ، ڨ = G ، ولو قدر لهذه الاصطلاحات الانتشار الواسع لوضعت حدا للاختلاف السائد في رسم الأعلام الأجنبية ولمكننا الاستغناء عن كتابتها بحروفها الأصلية .[١٢]

وفي الجانب الدلالي فقد أثرت اللغات الأجنبية في التطور الدلالي لكثير من الأصول اللغوية القديمة ، ولا سيما في مجال المصطلحات الفنية والأدبية والعلمية . وقد لاحظ الدارسون المحدثون أن من أسباب تبديل معاني الألفاظ في العربية حديثا تأثير اللغات الأجنبية بإشراب الكلمة العربية معنى الكلمة الأجنبية المقابلة لها أو إعطائها معناها من خلال سياق استعمالها .[١٣]

---

(٩) الأفغاني ، سعيد ، من حاضر اللغة العربية ، دار الفكر ، ط . ثانية ١٩٧١ م ، ص ٣١ ـ ٣٣ .

(١٠) فك ، يوهان ، العربية ، ترجمة رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م ، ص ٢٣٩ وحلمي ، د . حلمي ، المولد ، دراسة في نمو وتطور اللغة العربية في العصر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ١٩٧٩ م ، ص ٣٣

(١١) للتوسع ، ينظر في : الشهابي ، مصطفى ، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ، جامعة الدول العربية ، ١٩٥٥ م وخليل ، وجدي رزق ، المعجمات العربية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م .

(١٢) حول هذه المسألة ينظر في : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٣١/ ج ٢/ ص ١٣ه لعام ١٩٥٦ م و م ٣٩/ ج ٢/ ص ٢٥٣ ، لعام ١٩٦٤ م . والبحوث والدراسات لمجمع القاهرة ، دورة (٣٤) ، لعام ١٩٦٧ م ، ١٩٦٨ م ، ص ٩٧ ـ ١٠٧

(١٣) المبارك ، محمد ، فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر ، بيروت ، ط . سابعة ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م ، ص ٢١٦ وخليل ، د . حلمي ، المولد ، ص ٥٨

غير أن للغات الأجنبية والترجمات عنها جانبا سلبيا - في رأينا - يتمثل في كثير من الأساليب التركيبية للجملة ، ولا يمكن أن نعد هذا الجانب ، من التطور المقبول لأنه ينهج نهجا يخالف المألوف في العربية الفصحى التي جرينا على سننها في القواعد والصرف والأصوات وأصول المفردات . ويلاحظ الدارس أن الكلمات المستعملة عربية ، لكن المعنى المعبر عنه في جملة أو تركيب مستحدث لا تعرفه العربية ، وهو مترجم حرفيا عن اللغات الأجنبية . ويعد في هذا الجانب التناقض في زمن الجملة ، والخلط في معاني الأدوات ، وفي التعدي واللزوم ، وفي المطابقة والعدد والإضافة وعود الضمائر . . . وقد عني عدد من اللغويين منذ مطلع هذا القرن بهذه الظاهرة ، وغدت بعدئذ من مجالات الدرس المنظم في الهيئات العلمية والمجامع اللغوية ومكاتب التعريب والتعليم .(١٤)

- ج -

وإن التطور الدلالي الذي اتخذناه منهجا في هذا البحث مستند أساسا إلى مجالات البحث الدلالي القديم الذي وجد في شكول متعددة ، وإن لم يكن قد دعي باسمه المعاصر أي « علم الدلالة » . ويقدم المنهج الحديث تصورا عاما للمباحث الدلالية المتفرقة ، ويعطيها أسماءها واصطلاحاتها الحديثة .

وأول ما يصادف الدارس في هذا المجال مجموعة من الرسائل اللغوية التي شكلت فيما بعد مادة غزيرة لمعاجم المعاني . فالجانب المعجمي من أقدم المباحث الدلالية لدى علمائنا القدامى . وتخصص الرسائل اللغوية لموضوعات مستقلة ، فهناك مجموعة في موضوع « الإبل » لعدد من اللغويين المتقدمين أمثال أبي عبيدة ت ٢١٠ هـ ، وأبي زياد الكلابي ت ٢١٥ هـ ، والأصمعي ت ٢١٦ هـ ، والباهلي ت ٢٣١ ، وابن الأعرابي ت ٢٣١ هـ ، وابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ ، وغيرهم .

وهناك مجموعة أخرى في موضوع « الأنواء » للنضر ت ٢٠٤ هـ ، وقطرب ت ٢٠٦ هـ وللأصمعي وابن قتيبة . . وفي « خلق الفرس والخيل والإنسان » رسائل أخرى لابن دريد ت ٣٢١ هـ وغيره من اللغويين . وفي « المياه والسحاب والمطر » و « النبات والشجر والزرع » رسائل متعددة لعدد آخر من اللغويين يضيق المجال - هنا - عن الوقوف عندها .(١٥)

وثمة جوانب أخرى من البحث اللغوي الدلالي كالعلاقة بين الدال والمدلول التي كان القدماء يعبرون عنها بالمناسبة بين اللفظ ومدلوله وعلاقة الألفاظ بالصور الذهنية(١٦) . وقد تطور هذا البحث إلى أبواب مستقلة بحثت فيها مسائل المشترك والأضداد والمترادفات .

وقد شغلت مسألة البحث في الحقيقة والمجاز جانبا مهما من جهود اللغويين الأوائل الذين اهتدوا إلى نظرات ثاقبة تدل على وعي بالتطور اللغوي عن طريق المجاز ، وانتهى بعضهم إلى أن أكثر اللغة مجاز .(١٧)

---

(١٤) نشير فيما يلي إلى أهم المؤلفات التي عالجت الظاهرة المذكورة : العقاد ، عباس محمود ، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، دار المعارف بمصر ، ط . ثانية ، د . ت ، ص١١٩ ، والمبارك ، محمد ، فقه اللغة ، ص ٣٣٦ - ٣٣٩ ، وبشر ، د . كمال ، دراسات في علم اللغة ، ٢/ ١٣٩ - ١٤٨ ، والسامرائي ، د . إبراهيم ، فقه اللغة المقارن ، دار العلم للملايين ، ط . ثانية ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٨٣ - ٣٠٤ ، وحجازي ، د . محمود فهمي ، علم اللغة العربية ، وكالة المطبوعات . الكويت ، ١٩٧٣ م ، ص ٢٩٩ وما يليها ، وخليل د . حلمي ، المولد ، ٥٨ وما يليها .

(١٥) للتوسع ينظر في : الطرابلسي ، د . أمجد ، حركة التأليف في اللغة والأدب ، د . ت ص ١٥ وما يليها .

(١٦) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق جاد المولى والبجاوي وأبوالفضل ابراهيم ، البابي الحلبي بمصر ، د . ت ، ١/ ٤١ - ٤٩

(١٧) ابن جني ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الهدى ، بيروت ، ط . ثانية د . ت ، ٢/ ٤٤٧ ، والسيوطي المزهر ، ١/ ٣٥٥

ويلقى الدارس المعاصر أيضا جوانب كامنة للتطور الدلالي في تآليفهم المعجمية واللغوية الأخرى. وقد وقفت خلال بحثي في الأصول القديمة على عبارات واضحة تدل على وعي المؤلفين للقضايا التطورية. ويعد الراغب الأصفهاني مثلا على اللغوي الحريص على التأصيل والتمييز بين الدلالة الحقيقية والمجازية في أسلوب يضاهي أدق الأساليب وأحدثها.

ويلاحظ الدارس أن كثيرا من هذه الجوانب اللغوية أخذت لدى الغربيين صورة النظريات المبتكرة التي أقاموا عليها مدارسهم، واتجاهاتهم النظرية والتطبيقية. وعلى الرغم من الحذر المنهجي في ادعاء الأسبقية، فإننا نؤكد طرق العرب لهذه المباحث وسبقهم في كثير منها، مع ملاحظة دقيقة هي أن علم اللغة الحديث أعطى هذه المباحث الصفة المنهجية القائمة على تصور كلي للنشاط اللغوي.

والجانب الثاني من جوانب البحث الدلالي يتجلى في شروح الشعر ونقده. وقد كشفت بعض البحوث الدلالية الحديثة اهتمام الشراح بالتطور، ووعيهم مسائله، وقد ظهرت هذه المسائل من حرص الشراح على التماس السبل الموضحة غرض الشاعر من تحديد لأصول المعاني، وكيفية انتقال المفردات من معنى قديم إلى آخر جديد(١٨).

ويمكن أن نعد ما انتهى إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الاعجاز» تتويجا للدراسات اللغوية - النقدية، فقد حل معضلة من معضلات النقد العربي وهي ثنائية اللفظ والمعنى ووصل في تحليله إلى أبعد مدى في نظرية النظم التي نجد لها مثيلا في دراسات علم اللغة الحديث، في نظرية السياق، وفكرة «المقام» والموقعية.

أما الجانب الثالث من جوانب البحث الدلالي فهو الجانب الديني، ويتمثل في مجموعة من مناحي الدرس، وأول ما يصادف الدارس مبحث يدعى «الألفاظ الإسلامية». ويعد كتاب «الرازي» أحمد بن حمدان ت ٣٢٢ هـ» أقدم المؤلفات في هذا المجال، وقد جمع الرازي في كتابه «الزينة» عددا من الألفاظ الإسلامية التي خصصت دلالاتها ودرسها دراسة تطورية تاريخية.(١٩)

ويعد مبحث «الغريب» من أجل هذه البحوث، فقد اتخذ المظهر الديني للبحث في أصول دلالات الألفاظ وجهته الخاصة، وكان اهتمام العلماء ينصب على أصل الدلالة الحسي توسلا إلى شرح ما غمض من آي الذكر الحكيم والحديث الشريف، وبيان المعنى الديني أو الاصطلاحي الذي تضمنته الكلمات.(٢٠) وقد ظهرت نتيجة لذلك كتب عديدة عرفت بكتب «الغريبين» غريب القرآن وغريب الحديث، وأهمها: «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني ت ٥٠٢ هـ، و«الفائق في غريب الحديث» للزمخشري ت ٥٣٢ هـ.

والجانب الرابع من جوانب البحث الدلالي هو الجانب الاصطلاحي، وقد برزت أصوله في الفقه ومسائل التشريع، فالأحكام التي سنت نزلت بألفاظ وعبارات ذوات أصول لغوية معهودة، غير أن «الاصطلاح» جعل لها دلالات جديدة. ولما تطورت العلوم الإسلامية ظهر لكل منها اصطلاحاته، فللفقه

(١٨) الثابة: د. فايز، الجوانب الدلالية، ص ١٣٧

(١٩) الرازي، الزينة في الكلمات الاسلامية العربية، بعناية حسين الهمداني الراجحي، دار الكتاب العربي بمصر، ط. ثانية ١٩٥٧ م.

(٢٠) حجازي، د. محمود فهمي، علم اللغة العربية، ص ١١٠ - ١١١، وبويو، د. مسعود، أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٢ م، ص ٣٠٧ وما يليها

اصطلاحاته ، ولعلوم العربية ، والمنطق ، والتصوف والرياضة والهيئة اصطلاحاتها . ويعد كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمي الكاتب ٣٨٧ هـ و « التعريفات » للسيد الجرجاني ت ٨١٦ هـ أهم المؤلفات في هذا الجانب .

لقد أردنا لهذه الوقفة أن تكون إطافة سريعة تلم بالجوانب العامة دون أن تدخل في التفصيل والمقارنة ، ولعل فيما قدمنا ما يثبت أصالة المنهج الدلالي في تناول العربية ، وصلاح المنهج الدلالي ونظرياته الحديثة لدرس الفصحى المعاصرة ، من خلال التفاعل المستمر بين قطبي التراث والمعاصرة .

٢ ـ أسباب التطور الدلالي وقوانينه

ظهر في الدراسات اللغوية الحديثة تعبير « حياة الألفاظ » ، وهو مستمد من كتاب يحمل التعبير نفسه عنوانا له La Vie des mots ، ومؤلف هذا الكتاب هو اللغوي الفرنسي دارمستيتر Darmesteter ، ويقصد بهذا التعبير إقامة مشابهة بين الحياة « البيولوجية » ، وحياة اللغة التي يعتريها ما يعتري الكائن الحي ، من نشأة ، وتطور ، وبلى وانبعاث ، وقوة ، وضعف . وقد ذهب بعض المحدثين إلى وصف اللغة العربية بأنها كائن حي نام يخضع لناموس الارتقاء .[٢١]

ولذا عمد كثير من اللغويين والدارسين إلى رسم تاريخ للألفاظ ، مبتدئين بالأصول الحسية التي انبعثت منها الدلالات المتطورة ، كذلك ظهرت تقسيمات للتطور الدلالي تسعى إلى محاكاة « القانون العلمي » .

غير أن مسألة البحث في التطور الدلالي وتاريخ الألفاظ ، تخضع لسبل عديدة لا يسهل حصرها لتشعبها ولغرابتها ، ولذا يبدو من الصعب أن نتحدث عن القوانين الدلالية بالدقة العلمية لمصطلح « قانون » .[٢٢]

ومهما يكن من أمر ، فإن الدارسين المحدثين سعوا إلى وضع ترتيب ينتظم أسباب تطور الدلالات ، والعوامل المؤثرة فيها . وعلى الرغم من كثرة التفصيلات ، يمكن أن تجمل في قسمين : ١ ـ أسباب خارجية ، ويكون مصدرها الأشياء المسماة ، والحياة التي يتقلب فيها المتكلمون . ٢ ـ أسباب داخلية ، وهي المتصلة بالصيغ ، والأشكال اللغوية ، وعلاقاتها في كنف المنظومة الخاصة بلغة من اللغات ، وقوانينها .

والأسباب الخارجة عن اللغة متعددة ، فهناك الأسباب الاجتماعية والنفسية ، والحضارية . فالتطور الاجتماعي يؤدي في غالب الأحيان إلى تطور لغوي ، فتموت ألفاظ ، وتبعث أخرى ، وتتبدل معاني بعض الألفاظ . وقد يقترن التطور بظهور مفردات لغوية جديدة دلالة واشتقاقا . ويعد في هذا الجانب ألفاظ كثيرة ظهرت بدلالات جديدة بظهور الاسلام ، كالصوم والصلاة ، والحج والزكاة ، والجهاد .. وتدعى بالألفاظ الاسلامية .

وتدعو أسباب نفسية متنوعة إلى تجنب كثير من الألفاظ ، والعدول عنها إلى غيرها من الألفاظ ، حياء أو خوفا أو دفعا للتشاؤم ... ويطلق على هذا النوع في اللغة وعلم النفس مصطلح Tabou[٢٣] ويدل على

(٢١) زيدان ، جرجي ، تاريخ اللغة العربية ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٣٢

(٢٢) ، (٣) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ . وانظر أيضا : أنيس ، د . إبراهيم ، دلالة الألفاظ ، ص ١٣٤ ـ ١٥٢ وأولمان ، ستيفن ، دور الكلمة في اللغة ، ترجمة د . كمال بشر ، ص ١٥٢ ـ ١٦١ ، وعمر ، د . أحمد مختار ، علم الدلالة ص ٢٣٥ وما يليها ، وحمّاد ، د . أحمد عبدالرحمن ، عوامل التطور اللغوي ، ص ١٣٥ وما يليها ، و ص ١٦١ وما يليها .

(٢٣) فرويد ، سيغموند ، الطوطم والتابو ، ترجمة بو علي ياسين ، دار الحوار ، اللاذقية ، ط . أولى ، ١٩٨٣ م ، ص ٤١ ـ ٤٩ .

المحظور والممنوع . وهناك أمثلة منه كثيرة كالعدول عن التلفظ بمفردات الأمراض والعاهات ، والموت ، واستحداث مفردات أخرى قد تدل على النقيض . وفي العربية الفصحى استعمالات من هذا النوع فقد أطلق العرب على الأعمى كلمة « البصير » ، وعلى الصحراء المهلكة كلمة « مفازة » . .

ومن الأسباب أيضا قصد المتكلمين باللغة إلى تبديل الألفاظ الدالة على المعاني لأسباب مذهبية أو سياسية ، وكثيرا ما يعد العدول عن المواضعات الدينية والسياسية في الاصطلاحات الخاصة ، بها تعبيرا عن الخروج أو الموقف العدائي .

ويمكن أن يعد في هذه الأسباب عدول المتكلم عن الفاظ ترتبط بمرحلة معينة كالألقاب والرتب لما لها من دلالات تنبىء بموقف المتكلم الاجتماعي أو المذهبي .

وتتضافر أسباب حضارية متنوعة لانبعاث تطور لغوى واسع في الفصحى المعاصرة ، فالاتصال الثقافي والعلمي بين العرب والحضارة الغربية أنتج نهضة لغوية لم تعرف لها العربية مثيلا إلا في العصر العباسي . وقد اتخذت النهضة اللغوية اتجاهات كثيرة ، كان الجهد فيها موجها للوقوف أمام الألفاظ الأجنبية ، عن طريق استحداث كلمات جديدة ، أو إشراب الكلمة العربية معنى الكلمة الأجنبية دون تغيير في صيغتها حينا ومع تغيير اشتقاقي حينا آخر .

أما قوانين التطور الدلالي فيمكن أن تحمل في تقسيم منطقي ينسب إلى (دار مستيتر وبريال وسول) ، ويتحدد في : التخصيص ، والتعميم ، وانتقال الدلالة[٢٤]

فالتعميم يكون بتوسيع معنى الكلمة ، ونقله من الخاص إلى العام ، كالورد ، وأصله إتيان الماء ثم استعمل لاتيان كل شيء . والتخصيص يكون على عكس التعميم ، إذ يقصر المعنى العام على بعض الاستعمالات ، كالحج وهو القصد ثم خصص بالفريضة الدينية ، والكفر ومعناه الستر وخصّ بإنكار الدين . . .

وتسبِّب المشابهة أو المجاورة انتقالا من دلالة إلى أخرى ، ويحصل الانتقال بطرق أبرزها الاستعارة ، والمجاز المرسل .

والتطور الدلالي يمكن أن يلاحظ في مجالين : ١ ـ من الحسي الى الذهني المجرد . ٢ ـ تطور ضمن المحسوسات عن طريق التعميم أو التخصيص أو الانتقال من مجال الى آخر . وقد انتهى الباحثون في علم الدلالة إلى أن أصل الدلالة حسي ، ومن هذا الأصل الحسي يتشعب التطور في المجالين السابقين .

واتجاه البحث في التطور يبدأ من معنى حسي يمكن أن يعد أصلا لبقية المعاني ، ويتدرج البحث ضمن المحسوسات (من الحسي إلى الحسي أو مجموعة من المحسوسات) ، كأسنان الانسان ثم أسنان المشط ، وأسنان الآلة . . .

ويمضي بحث التطور صعدا إلى المعاني المجردة التي تعبر عن العالم الذهني للانسان ، فالمجردات لا تتناول المفردات أو الأعمال الحركية المتصلة بالحواس الظاهرة ، وإنما تعبر عن الحالات النفسية والعقلية ، ومفرداتها من الشعور والانفعال في السلوك ، والحياة عامة ، وفي العلوم .[٢٥]

وعلى الرغم من أن هذه الأسباب والقوانين ، لا يمكن أن ترقى إلى مستوى القانون العلمي الصارم ، كما يقول غيرو[٢٦] . فإنه من المفيد حقا أن يهتدى بها في

(٢٤) الجوانب الدلالية ، ص ١٩٥
(٢٥) المصدر السابق ، ص ٢١٢
(٢٦) انظر :
Guiraud (P.)
La semantique Que sais-je? presses universitaire de France 8e edition, Paris 1975. P. 71

البحث الدلالي لما يكتنفه من تعقيد ، ومصاعب عديدة لا يسهل على الدارس حلها .

ويقوم التحليل الدلالي على نظرية السياق contexte ، وفي المستوى الشعري خاصة « فالكلمة » لا تحمل معها فقط معناها المعجمي ، بل هالة من المترادفات ، والمتجانسات والكلمات لا تكتفي بأن يكون لها معنى فقط ، بل تثير معاني كلمات تتصل فيها بالصوت أو بالمعنى أو بالاشتقاق ، أو حتى كلمات تعارضها أو تنفيها .(٢٧)

ويمكن أن يقسم السياق إلى نوعين : سياق لغوى ، وسياق اجتماعي ، فالسياق اللغوى يشمل العلاقات التركيبية في المحور النظمي syntagmatique ، ويدخل فيه التضام وكل ما يربط بين كلمتين أو أكثر في سياق لغوى .

أما السياق الاجتماعي فيضم كل ما يتعلق بالموقف من التنغيم في النطق ، والزمان ، والمكان ، ومكانة المتحدث ، ومكانة المخاطب ، والعلاقة بينهما ، وطبيعة الموضوع ، وما يحيط بالموقف من عناصر مادية ، وأخرى معرفية .

ويبدو أن البحث في تحديد السياق ، وارتكاز التحليل الدلالي عليه ، كان متزامنا مع البحث في « المعنى » . وقد اتفق كثير من الدارسين المحدثين على تحديد نوعين من المعنى وإن اختلفوا في التسمية ، فهناك : المعنى المعجمي ، والمعنى القصدي ، والخارجي والتعيينى ، والنويات الذرية للمعنى ، والدلالة الذرية للمعنى ، والمعنى السكوني ، وكلها يدل على معنى الكلمة المعجمي . وهناك : المعنى السياقي ، والايحائي ، والداخلي ، والتضميني ، والنويات النصية للمعنى ، والدلالة الهامشية أو خارج المركز ، وكلها يدل على معنى الكلمة في السياق الكلامي .(٢٨)

وتذهب بعض المناهج الحديثة إلى قطع الصلة بالمعاني التي استقرت في المعاجم لأن الكلمة - كما ترى هذه المناهج - لا معنى لها ولا قيمة إذا أخذت منعزلة عن المقام والسياق .(٢٩)

وعلى الرغم من أن مشكلة المعنى - في الشعر خاصة - لا يجوز أن ينظر إليها على أنها مسألة تتعين بسهولة وإيجاز ، فإن النظر إليها ينبغى أن يكون متوازيا ، فالمعنى النصي يتعين من خلال المعنى المعجمي - أو جانب منه - مجموعا مع حصيلة العلاقات السياقية .

٣ - حقول التطور الدلالي في الفصحى المعاصرة

نسعى في هذه الفقرة إلى درس تطبيقي لعدد وافر من المواد المتطورة في الفصحى المعاصرة ، وسوف يكون النظر إليها من خلال الحقول التي تنتظمها ، فهناك الحقل السياسي ، ويضم المفردات المتطورة في المجال السياسي والقومي ، وما يتعلق به من نظام ، وحكم ، واصطلاحات خاصة بالدولة .

وهناك الحقل الحضاري ، ويضم المواد المتطورة في المجالات الاجتماعية ، والعمرانية والثقافية العامة ، وكل ما يتصل بالحياة الحديثة ، من عادات ونظم وشعائر .

وهناك الحقل العلمي ، وهو مخصص لدرس بعض المواد المتطورة في مجالات العلم المتعددة ، نحو : المخترعات وآلات الحرب ، والمصطلحات العلمية والطبيعية .

(٢٧) ويليك ووارين ، نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٨١ م ، ص ١٨١
(٢٨) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية ، ص ١٥٧ وحجازي ، د . محمود فهمي ، المعجمات الحديثة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٦٦ - ٦٨
(٢٩) بشر ، د . كمال ، دراسات في علم اللغة ، ٢/ ١٧٣

ويبقى حقل غني بالتطور ، وهو الحقل الثقافي ـ الأدبي ، وما يتصل به من استعمالات فنية خاصة بالشعر وعلاقته بالفنون ، وما يتعلق بذلك من مصطلحات أدبية ، واستعمالات متطورة .

أ ـ من المواد المتطورة في المجال السياسي والقومي

• حكم :

في الأصول القديمة إشارات الى أن حكمة الدابة « يمكن أن تعد أصلا لهذه المادة[٣٠] فالدلالة في صورها الأولى إنما ارتبطت بالضبط والتنظيم للأشياء مع ملاحظة معنى « المنع » فيها . والمرحلة الثانية من التطور حسية أيضا إذ يشتهر بعضهم بالمهارة والقدرة على ضبط الأمور فيتأدى ذلك إلى المعنى الذهني المرتبط بالعقل والتفكير ، مع ما للعقل من ارتباط بالمعاني الحسية (عقل الناقة : ربطها)[٣١] ، ويمكن أن يعد هذا التطور أساسا لدلالة « الحكمة » .

أما دلالة « الحاكم » فقد نقل ابن منظور آراء متعددة تردّ أصلها إلى معنى « المنع » . « ومن هنا قيل للحاكم بين الناس حاكم لأنه يمنع الظالم من الظلم » .[٣٢] ويبدو أن تطور المجتمع قديما جعل دلالة « الحاكم » مماثلة لدلالة « القاضي » الذي يفصل في الخصومات . كذلك يبدو ارتباط « الحاكم » بصفات معهودة فيه ـ وهو راعي الحقوق ـ أسهم في تطور الدلالة إلى معنى « العلم » و « الفقه » و « العدالة » ، وهي صفات ملحوظة فيمن ينصب حاكما يفصل في المنازعات .

واستنادا إلى هذا التحليل يمكن أن يفسر حديث الخلافة الذي رواه ابن منظور : « الخلافة في قريش ، والحكم في الأنصار . خصهم بالحكم ، لأن أكثر فقهاء الصحابة فيهم » .[٣٣]

وقد دخل كثير من اشتقاقات هذه المادة في الألفاظ الإسلامية ، « فالحكم » « والحاكم » و « الحكيم » غدت من أسماء الله تعالى . و « المُحْكم » مصطلح يطلق على مالا يحتمل من التأويل ـ في القرآن ـ إلا وجها واحدا .[٣٤]

وعرفت كلمة « الحكم » تطورا اصطلاحيا واسعا ، وفي التعريفات « اصطلاحات كثيرة ، مثل : « الحكمة » في الفلسفة و « الحكمة الإلهية » و « الحكمة في الدين » . . و « الحكم الشرعي » . وقد توسّع الكفوى في شرح هذه الاصطلاحات وفصّل أنواعها .[٣٥]

والتطور الحديث يظهر في عدد من فروع هذه المادة ، فهناك دلالة « الحكم » في المجال السياسي والعسكرى الحديث ، وهناك دلالة « الحاكم » السياسي والعسكري أيضا . وهناك دلالة « حكومة » على الهيئة الوزارية الحاكمة . وهناك دلالة « محكمة » على الهيئة القضائية المختصة .

فالحكم هو : الحكمة والعلم والتفقه والقضاء . أما دلالة الحكم على « المُلك » والقيادة السياسية فلا وجود لها في الأصول القديمة . كذلك تبدو دلالة « الحاكم » قديما لا تتعدى مجال القضاء ـ بمعناه الواسع ـ والفصل في

---

(٣٠) لسان العرب ، ١٢/ ١٤٠ ـ ١٤٢ ، القاموس المحيط ، ٤/ ٩٨ ـ ٩٩
(٣١) الداية د . فايز ، الجوانب الدلالية ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨
(٣٢) اللسان ، ١٢/ ١٤٠
(٣٣) المصدر السابق .
(٣٤) الأصفهاني ، المفردات ، ص ١٢٦ ، والشريف الجرجاني ، التعريفات (مع رسالة اصطلاحات الصوفية) ، البابي الحلبي بمصر ، ١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م ، ص ٨٢
(٣٥) المصدر السابق ، والكفوى ، أبو البقاء ، الكليات ، تحقيق عدنان درويش ، ومحمد المصري ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط . ثانية ، ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ م ، ٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٤ ، ٤/ ٢٥٧ .

الخصومات . وفي صحاح المرعشلي توثيق للدلالة الحديثة . فقد نقل عن مجمع القاهرة قوله : « الحكم .. والحاكم المطلق : الذي تجتمع سلطاته في يد فرد طليق من كل قيد . والحاكم ج حكام couverneur من نصب للحكم بين الناس »[٣٦] فكلمة « الحاكم » غدت تدل على تولي الأمر والقيادة والسلطة المدنية والعسكرية .

أما كلمة « حكومة » فهي مصدر لفعل حكم يحكم إذا قضى . فالحكومة كانت تدل على « الحُكْم » الذي يصدره الحكَم في قضية ما ، على حين شاع استعمال كلمة « حكومة » للدلالة على « الهيئة الوزارية الحاكمة »[٣٧] .

كذلك تظهر كلمة « محكمة » ـ وهي من المفردات الحضارية الجديدة ـ متطورة من دلالة الحكم بمعنى القضاء . فالمحكمة « هيئة تتولى الفصل في القضاء ـ ومكان انعقاد هيئة الحكم (مج) » .[٣٨]

ويبدو تطور هذه المادة واسعا في معظم فروعها ، فدلالة « الحاكم » غدت مرتبطة بالحكم السياسي أو العسكري ، ودلالة « الحكم » تطورت لتشمل أنظمة الملك أو القيادة والإمارة والسلطة . على حين ظهرت كلمة « حكومة » بدلالة جديدة لاعهد للعربية بها من قبل ، وهي الدلالة على الهيئة الوزارية المعروفة في أنظمة الحكم لعصرنا . كذلك استحدثت كلمة « محكمة » للوفاء بمتطلبات النظم الحضارية الحديثة .

توثيق :

ـ « الحاكم : اسم فاعل ، ومنفذ الحكم والقاضي . والوالي وهذه مولدة ج حكام وحاكمين » .

البستاني ، بطرس ، محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٧م ، ص١٨٤

ـ « الحكومة مصدر حكم ، واسم من تحكم بمعنى فصل الخصومة . ومنه الحكومة عند المولدين لأرباب السياسة » . (المصدر السابق ص ١٨٥) .

ـ « ... كأن تفسَّر كلمة « حكومة » في نص من القرن الأول للهجرة ـ إذ كانت تستعمل بمعنى الحُكم الذي يصدره الحكَم في قضية ـ بمعنى الحكومة المستعمل في العصر الحاضر وهو الهيئة الحاكمة »

المبارك ، محمد ، فقه اللغة وخصائص العربية ، ص٢١٠

ـ « ... وهكذا كانت الحكومة الركابية أول حكومة دستورية ... »

حمادة ، د . عابدين ، تاريخ الشرق والغرب ، المطبعة الجديدة ، دمشق ، ط . ثالثة ، ١٩٥٧م ، ص٦١

* دستور

تشير الأصول القديمة[٣٩] إلى أنّ كلمة « دستور » معرّبة . وتدل على دفتر لجماعات الجند وما يرسم من قوانين المملكة . وفي المعجم الوسيط توثيق للتطور الدلالي في كلمة « دستور » وقد جاء فيه : « الدستور : القاعدة يعمل بمقتضاها ، والدفتر تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم (مع) وفي الاصطلاح المعاصر : مجموعة القواعد الأساسية التي تبيّن شكل الدولة ونظام الحكم فيها ، ومدى سلطتها إزاء الأفراد ج دساتير . (محدثة[٤٠]) »

(٣٦) المرعشلي ، نديم وأسامة ، الصحاح في اللغة والعلوم ، دار الحضارة العربية ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٥ ، ص ٢٢١

(٣٧) مجلة مجمع دمشق ، ٢٤/ ٤٦٤ ـ ٤٦٨ ، ٦١٠ ـ ٦١١ ، المصطلحات العلمية والفنية ، ١/ ١٦٨

(٣٨) المعجم الوسيط ، ١/ ١٩٠ ، والصحاح للمرعشلي ، ص ٢٢١

(٣٩) القاموس المحيط ، ٢/ ٢٩ والتعريفات للجرجاني ، ص ٩٢ ، والكليات للكفوي ، ٢/ ٣٤٠

(٤٠) المعجم الوسيط ، ١/ ٢٨٣

وفي مطلع النهضة الحديثة استعمل رفاعة الطهطاوي كلمة « الشَرْطة » ، تعريبا لكلمة charte الفرنسية وهي تعني القانون أو القاعدة والميثاق[٤١] . ويبدو أن الطهطاوي كان مترددا بين « الشرطة » التي عرّبها و « كتاب قوانين المملكة » المستمد » من الدلالة القديمة .[٤٢]

ومهما يكن من أمر فإن كلمة « الشرطة » بمعنى الدستور قد غابت عن الاستعمال ولم يكتب لها الانتشار . ويبدو أن استعمال كلمة « دستور » لا يقتصر على مجال السياسة والحكم ، بل غدا استعماله شائعا في العلوم الرياضية والطبيعية . كذلك استعير للاستعمال في المجال الفكرى .

توثيق :

- « وقد كان « الدستورالعثمانى » يهم أن ينبثق ... فلما جاء يوم « الدستور » من عام ١٩٠٨م ...
نخلة ، أمين ، الحركة اللغوية في لبنان ، منشورات مجلة الورود ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٥٨ ، ص١٥
- « الأنواع الأدبية قد تعتبر أوامر دستورية تلزم الكاتب »
ويليك ووارين ، نظرية الأدب ، ص٢٣٧
- « . . . وهكذا كانت الحكومة الركابية أول حكومة دستورية . . . »
حمادة د . عابدين ، تاريخ الشرق والغرب ، ص٦١

• مؤتمر :

في اللسان والأصول القديمة : تآمروا على الأمر وائتمروا : تماروا وأجمعوا آراءهم . وفي التنزيل : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك »[٤٣] ، قال أبو عبيدة : أي يتشاورون عليك ليقتلوك . . . وائتمر فلان عقله إذا شاره ، والائتمار والاستئمار : المشاورة وكذلك التآمر على وزن التفاعل . . .[٤٤]

والتطور الحديث في الدلالة يسير في فرعين من فروع هذه المادة ، فهناك : « المؤامرة » بمعنى الغدر والمكيدة . و « التآمر » أيضا . وقد عدّ إبراهيم السامرائي كلمتي « مؤامرة » و « تآمر » من المولد الجديد الذي ينبغي أن ينص عليه .[٤٥]

وهناك فرع آخر مسّه التطور وهو « المؤتمر » وهي صيغة جديدة للدلالة على الزمان أو المكان بمعنى « المجتمع » الذي يعدّ للتشاور في الأمور المختلفة والبحث فيها . وقد نص المعجم الوسيط على حداثة هذه الكلمة وعدّها من الكلمات المجمعية[٤٦] ، على حين رأى السامرائي أن « مؤتمر » ترجمة لكلمة congres وهي بمعنى الندوة التي يجتمع فيها نفر من الناس يتشاورون في أمر ما .[٤٧]

ويبدو أن استعمال كلمة « مؤتمر » توسّع ليشمل مجالات متعددة ، كالأدب والثقافة والعلوم إضافة إلى مجال السياسة والحكم . وقد تطلق كلمة « مؤتمر » على منظمة دولية أو إقليمية .[٤٨]

---

(٤١) الطهطاوي ، رفاعة ، تخليص الابريز ، ط . أولى ، ١٨٣٤ م ، ص٧٣ منقولا من : المولد لحلمي خليل ، ص٦٩
(٤٢) خليل ، د . حلمي ، المولَّد ، ص٦٨ ـ ٦٩ ، وحجازي ، د . محمود فهمي ، مدخل إلى علم اللغة ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط . ثانية ، ١٩٧٨ م ، ص ٧٩
(٤٣) القصص ، آية/ ٢٠/
(٤٤) لسان العرب ، ٤/ ٢٩ ـ ٣٠ ، والقاموس المحيط ، ١/ ٣٦٥
(٤٥) السامرائي ، ابراهيم ، التطور اللغوي التاريخي ، ص ٢٣٤
(٤٦) المعجم الوسيط ، ١/ ٢٦
(٤٧) التطور اللغوي التاريخي ، ص ٢٣٤
(٤٨) المصطلحات العلمية والفنية ١/ ٣٠ ومرعشلي ، نديم وأسامة ، الصحاح في اللغة والعلوم ، ص ٣٧

توثيق

ـ « وكان هذا المؤتمر ـ مؤتمر الجماد ـ سخرية مسبقة بمؤتمر الصلح الذي عقده المنتصرون كي يحققوا غاياتهم من المعاهدات السرية »

عباس ، د . إحسان ، مجلة الآداب ، بيروت ، عدد /٦/ حزيران (يونيو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١م ، ص٨

ـ « وقد عرض الباحثون في مؤتمر اللغة العربية لدراسة المعري . . . »

العقاد ، عباس محمود ، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، ص١٣٥

ـ « وفي اليوم السابع من آذار عام ١٩٢٠م نشر المؤتمر السوري قرارا يعلن فيه . . . »

حمادة د . عابدين ، تاريخ الشرق والغرب ، ص٥٨

● نظام :

النظم ـ أصلا ـ جمع اللؤلؤ في سلك ، والنظام : الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ . وكل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام .

وقد تطورت دلالة « النظم » إلى مجالات حسية ومعنوية (مجرّدة) متعددة . وأخص مجال طرقته الدلالة هو تأليف الكلام وتركيب الجمل متناسبة والمعاني بحسب ما يقتضيه العقل[٤٩] . ويبدو أن مصطلح « نظم القرآن » متطور من هذه الدلالة . فنظم القرآن غدا دالا ـ اصطلاحا ـ على « العبارات التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة . »[٥٠] وقد ظهرت في القرن الثالث للهجرة وما تلاه مجموعة من المؤلفات التي تحمل اسم « نظم القرآن »[٥١]

ولدى عالم لغوي كبير هو عبد القاهر الجرجاني غدا « النظم » نظرية لغوية ونقدية وبلاغية تفسّر إعجاز القرآن على نحو سبق به المتقدمين وغدا قدوة للمتأخرين . ولا تستطيع أسطر معدودات أن تلم بهذه النظرية « العبقرية » . وحسبنا ـ ههنا ـ الإشارة إلى المصطلح .[٥٢]

والتطور الحديث الذي نقف عنده يتجلّى في استعمال كلمة « النظام » للدلالة على القانون أو نظام الحكم أو الادارة . وقد ذهب واضعو المعجم الوسيط إلى أن « كلمة » نظام غدت تدل على الاتساق والترتيب في كل شيء محسوس أو مجرّد . وقد تستعمل كلمة « نظام » بمعنى الطريقة[٥٣] غير أن دلالة « النظام » على « القانون » هي الأكثر شيوعا في العربية الفصحى المعاصرة على ما يبدو . ففي مجلة مجمع اللغة بدمشق : « النظم : إدارية وتعليمية وقضائية واقتصادية ومالية واجتماعية . . »[٥٤] . و« الأنظمة (اللوائح في مصر) Regulations[٥٥] . كذلك يبدو شيوع كلمة « نظام » في الدلالة على « أنظمة الحكم » فيقال : « نظام الحكم : ملكي أو رئاسي أو استعماري . . »[٥٦]

---

(٤٩) لسان العرب ، ١٢/ ٥٧٨ والقاموس المحيط ، ٤/ ١٨١ ، الجرجاني ، التعريفات ، ص٢١٦

(٥٠) المصدر السابق ، الموضع نفسه .

(٥١) الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تح السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ط . رابعة ، ١٩٧٧ م ، ص٨ ـ ١٠ (من مقدمة المحقق)

(٥٢) الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الاعجاز ، تح د . محمد رضوان الداية و د . فايز الداية ، دار قتيبة ، دمشق ، ط . أولى ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ، ص ١٦ (من مقدمة المحققين)

(٥٣) المعجم الوسيط ، ٢/ ٩٣٣

(٥٤) ، (٥٥) مجلة مجمع دمشق ، ٢٤/ ٤٦٨ ، ٦١١

(٥٦) المصطلحات العلمية والفنية ، ٣/ ٦٦٧

كذلك ظهرت دلالة حديثة هي « حفظ النظام » وتدل على حفظ الأمن والاستقرار ومكافحة الفوضى .

وفي الصحاح للمرعشلي ـ نديم وأسامة ـ ثبت بالدلالات الحديثة . وفيه : « نظام اجتماعي : هو جملة القوانين التي يخضع لها المواطنون » ، وعن مجمع القاهرة : « نظام اجتماعي : هو جملة القوانين التي يخضع لها المجتمع . نظام طائفي : نظام تقوم فيه المجتمعات على أسس دينية واجتماعية ويقسم فيه المجتمع إلى طبقات متفاوتة »(٥٧) . كذلك تجدر الاشارة إلى كلمة مشهورة في الفصحى المعاصرة وهي كلمة « منظمة » الدالة على هيئة متخصصة في شأن من الشؤون السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية . . .

ويلاحظ أن كلمة « منظمة » ـ ههنا ـ غدت ترد موصوفة غالبا لتعيين النوع ، فيقال : منظمة دولية ، ومنظمة إقليمية ، ومنظمة وطنية أو قومية .

ويبدو تطور هذه المادة « نظم » غنيا ومتشعبا ، فدلالة النظم والنظام تطوّرت لتدلّ على الاتساق والترتيب والقانون حسيا وذهنيا . وقد ظهر توسع واضح في دلالة النظام على القانون أو الأوامر الادارية وأشكال الحكم والسياسة . ويلاحظ أيضا ظهور كلمة « منظمة » للدلالة على هيئة مختصة بشأن من الشؤون المعاصرة كالحكم والاقتصاد والصحة والتحالف والاتحاد .

توثيق :

ـ « هم على نظام واحد ، أي نهج غير مختلف ، والنظام عند أرباب السياسة : العسكر المنتظم الذي تعلم صناعة الحرب . . . »

البستاني ، بطرس ، محيط المحيط ، ص٩٠١

ـ « جاء في قرار المؤتمر السوري بتاريخ ٧ آذار ١٩٢٠م : . . ليقوم الجند الوطني والإدارة الوطنية بحفظ النظام والإدارة فيها . . »

حمادة ، د . عابدين ، تاريخ الشرق والغرب ، ص٦٠

ـ « عمد المحتل إلى ابتداع نظم حديثة محلاة بمظاهر ديمقراطية .

الدقاق ، د . عمر ، فنون الأدب المعاصر في سورية ، ص٣٤١

ـ قال بدوى الجبل :

عبثوا بالنظام بغيا وقالوا
قد أتيناكم لنحمي النظاما

ديوان بدوى الجبل ، دار العودة ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٨م ، ص ٥١٧

● وطن ، شعب ، أمة :

وهناك مجموعة من الدلالات المتطورة ترجع الى المجال السياسي والقومي . وسوف نجتزىء التحليل ههنا لأسباب تتعلق بشيوع هذه الدلالات ، واستعمالها على نطاق واسع .

وأول هذه الدلالات كلمة « وطن » . فالوطن ـ كما جاء في الأصول القديمة ـ هو منزل الانسان ، ومكان إقامته ، ومحله(٥٨) . ومن الواضح أنّ دلالة « وطن » توسعت حديثا ، فقد غدا « الوطن » يشمل القطر أو البلد الذي ينسب إليه المرء . ويشمل ـ في استعمالنا الشائع ـ مجموع البلدان والأقطار . فنقول : « الوطن العربي » . كذلك تطورت دلالة فعل « واطن » إلى العيش والمشاركة في وطن واحد وقد ظهر اشتقاق حديث

(٥٧) الصحاح في اللغة والعلوم ، ص ١١٨٢ والمصطلحات العلمية والفنية ، ٣/ ١٣٤
(٥٨) لسان العرب ، ١٣/ ٤٥١ ، والقاموس المحيط ، ٤/ ٢٧٦

هو « مواطن » للدلالة على القاطن في وطن ، والتابع له [٥٩] . كذلك اشتق من الوطن مصدر صناعي جديد هو « الوطنية » وتعني حُبُّ الوطن والعمل في خيره . وقريبا من هذه الدلالة يقع مصطلح « الشعر الوطني » وهو ما تعلق بقضية الوطن أو الشعب الذى يقطن قطرا معينا ، ومدلوله أضيق من الشعر القومي الذى يتسع ليشمل مجموع الشعوب الشقيقة .[٦٠]

وتشير دلالة « الشعب » قديما الى : القبيلة العظيمة أو الحي المتشعب من القبيلة والجيل من الناس . وعن ابن الكلبي عن أبيه « الشعب أكبر من القبيلة »[٦١]

أما الدلالة الحديثة فتتجلى في إضافة الخصائص السياسية واللغوية والدينية إلى معنى « الشعب » إضافة إلى الخصيصة العرقية التي ارتكزت إليها الدلالة قديما . ويمكن أن نحدد مصطلح « الشعب » في الاستعمال الحديث بدلالته على شيئين :

- الجماعة التي تقطن مدينة واحدة ، أو قطرا واحدا . نحو قولنا : شعب القاهرة أو شعب العراق . وفي هذا التعريف يكون « الشعب » جزءا من الأمة بمعناها الحديث . وهو مماثل للكلمة الفرنسية Peuple .

- وتطلق كلمة « الشعب » في اصطلاحنا الحديث أيضا على « الأمة » ، كأن نقول : الشعب العربي ، والشعب الفرنسي . وتكون الدلالة - ههنا - مماثلة للكلمة الفرنسية Nation ، وتعني القوم والأمة .[٦٢]

ويمكن أن نلاحظ أن دلالة « الشعب » على القبيلة ، قد انحسر استعمالها ، على حين شاعت الدلالة الحديثة التي تبيّناها من قبل .

ومن الممكن أن يلاحظ في جانب آخر أن كلمة « الشعبية » استعملت حديثا لوصف أشياء كثيرة ، فيقال مثلا : التقاليد الشعبية ، والعادات الشعبية ، والمأثورات الشعبية أو التراث الشعبي Folklore « الفولكلور »[٦٣] . كذلك استعملت كلمة « الشعبية » مصدرا صناعيا Populisme للدلالة على موقف اجتماعي من الطبقات الشعبية . « وللدلالة على مذهب أدبي - فني أنشأه في فرنسة ليون لوموينه ، وأندريه تيريف عام ١٩٢٩م ، وتجلّى في الرواية التي عنيت بعامة الناس »[٦٤] . واستعملت كلمة « الشعبية » Popularite للدلالة على التأييد والمجد والشهرة التي يحوزها فرد متميز ، فيقال مثلا : وزير ذو شعبية .[٦٥]

والأمة في الأصول القديمة : « القرن من الناس ، وأمة كل نبي : من أرسل إليهم من كافر ومؤمن . . وكل قوم نسبوا إلى نبي ، فأضيفوا إليه فهم أمته . والأمة : الجيل من كل حي . . »[٦٦]

والدلالة الحديثة تماثل دلالة « شعب » الجديدة بأحد استعماليها ، فقد مرّ بنا أن كلمة « شعب » تستعمل للدلالة على « أمة Nation » ، وهي جماعة من الناس ، أكثرهم من أصل واحد ، وتجمعهم صفات موروثة ،

(٥٩) المعجم الوسيط ، ٢/ ١٠٤٢ ، السامرائي ، د . ابراهيم ، التطور اللغوي التاريخي ، ص ٢٣٥ . والمبارك ، محمد ، فقه اللغة وخصائص العربية ، ص ٣٢٦

(٦٠) الدقاق ، د . عمر ، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ، دار الشرق ، حلب ، ط . ثانية ، ١٩٦٣ م ، ص ١٢ - ١٣

(٦١) لسان العرب ، ١/ ٤٩٧ - ٥٠٢ ، والقاموس المحيط ، ٨٨ - ٨٩

(٦٢) الدقاق ، د . عمر ، الاتجاه القومي ، ص ١٢ - ١٣ ، والمصطلحات العلمية والفنية ، ٢/ ٧١ ، والمعجم الوسيط ، ص ٥٣١ - ٥٨٠

(٦٣) « الفولكلور » مصطلح غربي أدخله وليم تومس ، لأول مرة على المصطلحات العلمية سنة ١٨٤٦ م . والترجمة الحرفية تعني « حكمة الشعب » أو « المعرفة الشعبية » . ينظر في : سوكولوف ، يوري ، الفولكلور، قضاياه وتاريخه ، ترجمة حلمي شعراوي وعبدالحميد حواس ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ ، ص ١٧

(٦٤) المعجم الأدبي ، ص ١٤٧ - ١٤٨

(٦٥) المصدر السابق ، والمعجم الوسيط ، ص ٤٩٩

(٦٦) لسان العرب ، ١٢/ ٣٦ ، القاموس المحيط ، ٤/ ٧٦

ومصالح وأماني واحدة ، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان . . (٦٧)

غير أن مجمع اللغة العربية في القاهرة ذهب إلى أنه يقال : « الأمة المصرية ، والأمة العراقية »(٦٨) ويبدو أن ماذهب إليه مجمع القاهرة صدى لما كان منتشرا في مصر في أربعينات هذا القرن من النظر إلى العرب بوصفهم أمما متعددة .(٦٩) ونظن أن كلمة « أمة » غدت مخصصة ـ ههنا ـ بدلالتها على مجموع أبناء الأقطار الشقيقة أي : الأمة العربية . ولا يخفى ما تثيره عبارة مثل : الأمة المصرية أو العراقية أو اللبنانية من تحفظ يصل إلى الاتهام بالنزعة الإقليمية .

توثيق :

ـ « من مظاهر اضطراب التيار العربي على ضفاف النيل اعتبار بعض المفكرين والأدباء والشعراء أن العرب أمم متعددة . . حتى أننا نجد هذا المفهوم قد ورد في خطاب رئيس وزراء مصر في معرض تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٤م »

الدقاق ، د . عمر ، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ، ص ٢٧٨

ـ قال فؤاد الخطيب ـ شاعر الثورة العربية ـ :

ولقد برئت إليك من وطنية
عرجاء تؤثر موطن الميلاد

الأشتر ، د . محمد صبري ، الشعر في سورية بين الحربين ، أملية مستنسخة في كلية الآداب بجامعة حلب لعام ٧١ ـ ١٩٧٢م ، ص ١٠٦

ب ـ من المواد المتطورة في المجال الحضاري الاجتماعي

● جريدة :

الجريدة ـ كما جاء في اللسان ـ سعفة طويلة رطبة . . والجمع جريد وجرائد . . وفي حديث عمر : ائتني بجريدة . . ومنه : كتب القرآن في جرائد ، جمع جريدة .(٧٠)

ويبدو الأصل الحسي في : جرد الشيء يجرده جردا إذا قشره ومنه : مكان جرد وأجرد أي لانبات فيه . وجردت الأرض فهي مجرودة إذا أكل الجراد نبتها . وقد ذهب الأصفهاني صاحب المفردات إلى أنه « يجوز أن يجعل ـ الجراد ـ أصلا فيشتق منه : جرد الأرض ، ويصح أن يقال : سمي ذلك لجرده الأرض من النبات » .(٧١)

والدلالة الحديثة التي نتقرّاها ـ ههنا ـ هي دلالة « الجريدة » وقد مرّ بنا تعريف ابن منظور وهو قريب إلى المعنى الذي نتداوله في إطلاقنا كلمة الجريدة على الصحيفة اليومية . ويمكن أن نعدّ هذا التطور راجعا إلى أسباب تتعلق بتطور الأدوات المستعملة دون أن تتغير الأسماء الدالة عليها(٧٢) . فالجريدة ـ أصلا ـ سعفة من نبات أو شجر وقد ارتبطت بالكتابة عندما دوّن عليها القرآن ، أو الآثار السابقة من الكتابات .

وفي هذا العصر أطلقت كلمة « جريدة » على صحائف ورقية تدوّن فيها الأخبار(٧٣) . ففي المعجم الوسيط : « الجريدة : صحيفة يومية تنشر أخبارا

(٦٧) المعجم الوسيط ، ١/ ٢٧
(٦٨) المصدر السابق ، الموضع نفسه .
(٦٩) الدقاق ، د . عمر ، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ، ص ٢٧٨
(٧٠) ابن منظور ، لسان العرب ، ٣/ ١١٥ ـ ١١٩
(٧١) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص ٩٠
(٧٢) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ، ص ٧٧
(٧٣) نخلة ، أمين ، الحركة اللغوية في لبنان ، ص ٤٠

ومقالات ج جرائد (مج) »[٧٤] وفي المعجم الأدبي : « الجريدة » : الصحيفة الدورية تصدر عادة يوميا ، وتنقل إلى قرائها الأخبار والأحداث الطارئة في جميع مجالات الحياة . وقد عرفت الجرائد الحديثة عند العرب في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وتعد « الوقائع المصرية » أول جريدة عربية حديثة . »[٧٥]

■ صحافة :

إن الأصل الحسي ـ فيما نقدّر ـ هو معنى عام يدلّ على المبسوط من الشيء . ولعلّ الدلالة الأولى هي : الصحيف : وجه الأرض لانبساطه ، ويمكن أن نعدّ دلالة صحيفة الوجه متطورة منه . وعلى مدى زمني متتابع ـ افتراضا ـ حدث تطور بين المحسوسات فأطلقت كلمة « صحيفة » على الرقاع التي يدون عليها .[٧٦]

وفي عصر التدوين ظهرت الصحف المكتوبة التي يقبل المتعلمون على قراءتها ويبدو أن طريقة الكتابة التي لم تكن تيسر القراءة الصحيحة ، فلذا ظهر معنى « الصحفي » الذي يروي الخطأ من الصحيفة أو يخطيء في قراءتها . وهذه دلالة مولدة كما جاء في اللسان والقاموس المحيط .

وبهذه الدلالة استعمل ابن سلام (ت ٢٣١هـ) كلمة « الصحفي » . يقول : « وليس لأحد ـ إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ـ أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي »[٧٧]

وفي المعجم الوسيط توثيق للدلالة الحديثة ، وفيه :

« الصحافة : مهنة من يجمع الأخبار والآراء وينشرها في صحيفة أو مجلة « محدثة » ، والنسبة إليها صحافي . . والصحفي : من يأخذ العلم من الصحيفة ومن يزاول حرفة الصحافة « محدثة » . والصحيفة إضمامة من الصفحات تصدر يوميا أو في مواعيد منتظمة بأخبار السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة ، وما يتصل بذلك « محدثة »[٧٨]

توثيق :

ـ جاء في كتاب « الحركة اللغوية في لبنان » أن نجيب الحداد هو الذي اشتق هذا المصدر (صحافة) بدلالته الحديثة .

نخلة ، أمين ، الحركة اللغوية في لبنان ، ص ٤١

ـ « أول صحيفة في البلاد العربية والتركية هي التي كان يصدرها الفرنسيون في مصر كل ثلاثة أيام زمن استيلاء نابليون عليها . وأول صحيفة عربية هي « الوقائع المصرية » التي أنشأها محمد علي ثم أسند إدارتها إلى رفاعة الطهطاوي . »

الحمصي ، نعيم ، الرائد في الأدب العربي ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، وبيروت ، ط . ثانية ، ١٩٧٩م ، ص ٦١٠

ـ للتوسع ينظر في : غربال ، محمد شفيق ، الموسوعة العربية الميسرة

دار العلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر والدار القومية للطباعة والنشر ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص ١١١٥

---

(٧٤) المعجم الوسيط ، ١/ ١١٦

(٧٥) عبدالنور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص ٨٤

(٧٦) الأصفهاني ، المفردات ، ص ٢٧٥ ، ولسان العرب ، ٩/ ١٨٧ ، والقاموس المحيط ٣/ ١٦١

(٧٧) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، تح : محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، د . ت ، ١/ ٤

(٧٨) المعجم الوسيط ، ١/ ٥٠٨

• حضارة :

إن الأصل الحسي لهذه المادة يدل على : الحضر والحاضرة ، خلافا للبادية(٧٩) . والحضارة : « الإقامة في الحضر وضد البداوة وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني . والحضارة أيضا : مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر (مج) »(٨٠) .

ويبدو تطور الأصل الحسي عن طريق المجاورة لأن هذه المظاهر لا توجد في رقيها وتقدمها إلا في الحواضر الكبرى ومواطن الاستقرار . وفي مرحلة تالية ـ فيما يبدو ـ حدث تطور باتجاه التوسع للدلالة على مختلف المظاهر المادية والمعنوية (الثقافة والأدب والفنون) وبذلك غدت كلمة « حضارة » تشمل مظهرين هما : المدنية والثقافة .

ويقدم المعجم الأدبي خلاصة لتطور هذه المادة المعاصر . يقول : « حضارة : حالة الشعوب التي تحررت من البربرية ونعمت بمنجزات التقنية الرفيعة وخضعت لأنظمة اجتماعية وسياسية متقدمة . ومجموع الخصائص الاجتماعية والدينية والخلقية والتقنية والعلمية والفنية الشائعة في شعب ما . . . وتدل على رقي اجتماعي وخلقي أي تحرر الأفراد والشعوب ، ووجود مجتمع بلا حروب ولا طبقات . . . »(٨١)

وإضافة إلى ماذكر فإن كلمة حضارة اكتسبت دلالات جديدة أخرى منها (لدى الأفراد) الدلالة على التهذيب والرقي في التعامل . و (لدى الجماعات) الدلالة على مستوى معين من العيش داخل مجتمع واحد .(٨٢)

توثيق :

ـ قال أنور العطار :

أوسعوا جانب الحضارة حسنا
ورعوْا أمرها وأعلوه شأنا

ديوانه ، ظلال الأيام ، مطبعة البرهاني ، دمشق ، ١٩٤٨م ، ص ٢٢

ـ « استعمل رفاعة الطهطاوي كلمة « عمارة » بمعنى « الحضارة » المعاصر »

خليل ، د . حلمي ، المولد ، ص ٧٣

• تقليد :

نميل ـ ههنا ـ مع الأصفهاني صاحب المفردات إلى أن أصل المادة هو : قلد الحبل : فتله قوّة على قوّة . ومنه : القلادة التي تقلد من خيط وفضة وغيرهما ، وبها شبه كل ما يتطوق ، وكل ما يحيط بشيء . ومنه تقلد السيف تشبيها بالقلادة .(٨٣)

ويبدو أن معنى الضم والجمع الملحوظ في دلالة « قلد الحبل » قد تطور الى مجالات حسية أخرى ، مثل : قلد الماء واللبن والسمن أي جمعها . ودلالة القلادة لا تبتعد عن أصلها الحسي وهو ما يقلد أي يجمع ويفتل من خيط وحديد وفضة . ويبدو التطور بين المحسوسات قد اتخذ طريق التعميم . ففي اللسان : « كل مالوى على شيء فقد قلد »(٨٤) . كذلك يبدو وضع « القلادة » حول العنق قد أكسب الدلالة معنى جديدا هو « التطويق » والإحاطة بالشيء . وعند هذه الدلالات وقفت الأصول القديمة ، ما خلا عددا من المعاني المجازية ،

---

(٧٩) لسان العرب ، ٤/ ١٩٧ والقاموس المحيط ، ٢/ ١٠
(٨٠) المعجم الوسيط ، ١/ ١٨١
(٨١) المعجم الأدبي لجبور عبدالنور ، ص ٩٤ ـ ٩٥
(٨٢) المصطلحات العلمية والفنية ، ١/ ١٦٢
(٨٣) الأصفهاني ، المفردات ، ص ٤١١
(٨٤) لسان العرب ، ٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧

مثل : « قلّده نعمة ، ولي في أعناقهم قلائد وقلّد فلان قلادة سوء إذا هجي » ، وكلها معان متطورة من دلالة التطويق بالقلادة .

أما دلالة « التقليد » المعروفة لدينا بمعنى « الاتباع والعادة . . » فقد ظهرت في التعريفات للجرجاني - وهي تكاد تكون مخصصة بالدين والاجتهاد والفقه - وفيه يقول : « التقليد : عبارة عن قبول قول الآخرين بلا حجة ولا دليل . والتقليد : عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل معتقدا للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل ، كأن هذا المتّبع جعل قول الآخرين أو فعلهم قلادة في عنقه . »[٨٥] وفي كلام الجرجاني تنبه إلى التطور في هذه المادة عن طريق المشابهة بين تقلد القلادة ، وتقليد الأمر . وفي الكليات لأبي البقاء الكفوي زيادة على تعريفات الجرجاني تتجلى في شرح التقليد في الاجتهاد والدين والاعتقاد .[٨٦]

والتطور الحديث الذي نسعى إلى تبينه يتجلى في دلالة « التقاليد » على العادات الموروثة . ففي المعجم الوسيط : « التقاليد : العادات المتوارثة التي يقلد فيها الخلف السلف مفردها تقليد (مج) »[٨٧] . وقد تنبه إلى تطورها من قبلُ البستاني صاحب محيط المحيط .[٨٨]

ويبدو أن دلالة « تقليد » هذه أشربت معنى المصطلح الفرنسي Tradition ، وإلى ذلك أشار صاحب المرعشلي . وفيه « التقليد (بإزاء) Tradition (مج) ، تقليدى ، سلفي Traditionaliste واتباع التقاليد : مذهب يقرر المحافظة على الأوضاع السياسية والدينية والتقليدية باعتبار أنها التعبير الشرعي عن الحاجات الحقيقية لمجتمع ما . »[٨٩]

وهناك : التقليد : التزييف وهو نقل قطعة فنية أو لوحة عن الأصل ، ومحاكاة شيء ، ومضاهاته حرفيا .[٩٠]

توثيق :

- « التقاليد : يريد بها المحدثون : السنن الموروثة ، والعرف المتناقل ، وهي من قول العرب : قلّده في كذا : تبعه من غير نظر ولا تأمل »

مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ١٣١/٩ لعام ١٩٥٧م

- « في الشعر التقاليد الكلاسيكية Classical Traditions . . . »

الربيعي ، د . محمود ، في نقد الشعر ، دار المعارف بمصر ، ط . ثالثة ، ١٩٧٥م ، ص ١٩٠

- والملاحظ أن الشاعر أيضا كان بصورة عامة تقليديا في مراعاته أصول النظم بدقة . . »

الدقاق ، د . عمر ، نقد الشعر القومي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٨م ، ص ١٩٦

- نرجو أن يتسامح معنا السادة أعضاء المجامع العربية (في القاهرة ودمشق وبغداد) في استعمال « تقليدى » ترجمة للكلمة الفرنسية Traditionaliste واستخدام « محافظ » بإزاء Conservateur ، فقد جرت بها الألسنة . . »

الصالح ، د . صبحي ، دراسات في فقه اللغة ، دار

(٨٥) الجرجاني ، التعريفات ، ص ٥٧

(٨٦) الكفوي ، الكليات ٢/ ٩٠ - ٩١

(٨٧) المعجم الوسيط ، ٢/ ٧٥٤ والمعجم الأدبي لعبدالنور ، ص ٧٥

(٨٨) البستاني ، محيط المحيط ، ص ٧٥٦

(٨٩) صحاح المرعشلي ، ص ٩٤٨

(٩٠) المصطلحات العلمية والفنية ، ٣/ ٣٥

العلم للملايين ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٣٧٠هـ ، ١٩٧٠م ، ص ٢٧١ حاشية رقم (٣)

● نهضة :

يشير الأصل الحسي الأول لهذه المادة إلى « البراح من الموضع » مع ملاحظة الوثوب والاندفاع والقوة .(٩١) وقد تطورت دلالة الأصل إلى مجموعة من المعاني المجازية كما ذكر الزمخشري في أساس البلاغة . يقول : « نهض النبت ، وأنهضت القرية ، ونهض الشيب في الشباب ، ونهض الطائر ، ومنه فرخ ناهض »(٩٢) . ويمكننا أن نرد عددا من هذه المعاني إلى التطور بين المحسوسات ، وتجدر الإشارة ـ ههنا ـ إلى أن الزمخشري يعد كل خروج على دلالة الأصل مجازا .

وفي العصر الحديث ظهر مصطلح « النهضة » ، وتبدو الحداثة فيه باكتسابه عددا من المعاني المتطورة أمثال : « التولد الجديد ، والعودة مع الانتفاضة والبعث بعد رقاد . . . »(٩٣) ولا يخفى أثر المصطلح الغربي المعروف Renaissance في إشراب الكلمة العربية معنى عصريا . وفي المعجم الوسيط توثيق للتطور الحديث . وقد جاء فيه : « النهضة : الطاقة والقوة ـ والوثبة في سبيل التقدم الاجتماعي أو غيره . ويقال : كان من فلان نهضة إلى كذا : حركة . وهو كثير النهضات . (محدثة) »(٩٤)

غير أن دلالة « النهضة » توسعت لتصف كل وثبة أو تطور واسع جدا . فيقال : النهضة العلمية والنهضة الثقافية والنهضة القومية . . .

ويمكن أن يجمل تطور هذه المادة في اتجاهين : الأول تخصص فيه كلمة « نهضة » للدلالة على زمن انبثقت فيه وثبة العرب باتجاه المدنية الحديثة والمعارف العصرية . وهذا المعنى يغطيه مصطلح « النهضة العربية الحديثة »(٩٥) . والثاني يتجلى فيه توسع استعمال هذه الكلمة في تراكيب وصفية غالبا نحو : النهضة العلمية أو النهضة الأدبية . . .

توثيق

ـ « أدب النهضة : انقشعت غيوم الجهل والأمية في المرحلة التي عرفت بمرحلة النهضة ، وتوصلت جماعات كثيفة من السكان إلى تحصيل العلم في المدارس التي أنشأتها الحكومات أو في المدارس الخاصة . . . ومرت البلدان العربية في هذا الزمن في أطوار متعددة الخصائص . . . منها : إحياء التراث القديم ، والتعصب له ، ومنها نشوب خصومة بين أنصار القديم ودعاة التغيير والتبديل . ومنها تدفق المذاهب الأدبية كالاتباعية والرومانسية والرمزية . ومنها ظهور الصحافة والمقالة والرواية . . . »

عبد النور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص ٤٨٨ ـ ٤٩١

ج ـ من المواد المتطورة في المجال العلمي

ويخصص القول ـ ههنا ـ في عدد من المواد المتطورة في المجال العلمي بجوانبه المتعددة : الصناعية والمخترعات العلمية ، والأدوات الحربية ، والمصطلحات العلمية والطبيعية .

---

(٩١) اللسان ، ٧/ ٢٤٥
(٩٢) أساس البلاغة ، ص ٤٧٥
(٩٣) الصحاح للمرعشلي ، ص ١٢١١
(٩٤) الوسيط ، ٢/ ٩٥٩
(٩٥) درج الباحثون على اتخاذ عام ١٧٩٨ م ـ وهو عام وصول حملة نابليون بونابرت إلى مصر ـ بداية للنهضة العربية الحديثة . ينظر ـ على سبيل المثال ـ في : زيدان ، جرجي ، بناة النهضة العربية ، كتاب الهلال ع ٧٢ ، القاهرة ، مارس ، ١٩٥٧ م . وقرني ، د . عزت ، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة .

• تحليل :

ذهب ابن فارس في المقاييس إلى أن أصل « حلّ » هو فتح الشيء لا يشذ عنه شيء . ومنه : حللت العقدة . . وحلّ : نزل لأن المسافر يشدّ ويعقد ، فإذا نزل حلّ . ويردّ ابن فارس أيضا الدلالة المتطورة : « الحلال » إلى الأصل الحسي . يقول : الحلال ضد الحرام كأنه من حللت الشيء إذا أبحته ، وأوسعت الأمر فيه . .

أما صيغة حلّل فلها دلالتان ، حلّل تحليلا : أباح الأمر وجعله حلالا ، وحلّل : تحليلا اليمين جعلها حلالا بكفارة . أما معنى التحليل المتعارف عليه الآن فلا وجود له .(٩٦)

وفي مفاتيح العلوم للخوارزمي الكاتب (ت ٣٨٧هـ) إشارة لامعة إلى تطور دلالة التحليل في الكيمياء . يقول : « التحليل : أن تحمل المنعقدات مثل الماء . »(٩٧) فدلالة التحليل ـ ههنا ـ تماثل دلالة التذويب .

غير أن الدلالة الحديثة أوسع من ذلك بكثير . ففي المجال العلمي تطورت إلى الدلالة على الارجاع إلى العناصر المكونة للمادة . مثل : تحليل الدم ، وتحليل البول . . .(٩٨) . ومن الواضح أن الدلالة ـ ههنا ـ أوسع من التذويب ، لأن التحليل يشمل العناصر السائلة أيضا .

أما المجال الثقافي فقد تطورت الدلالة فيه إلى معان واستعمالات متعددة . ففي علم النفس مثلا عرف مصطلح « التحليل النفسي » الذي يدرس النفس ويحلل خباياها(٩٩) .

ومن الواضح أن هذا التطور كان بإشراب الكلمة العربية دلالة الكلمة الفرنسية Analyse . وقد لاحظ مصطفى الشهابي هذا التطور يقول « تحليل = حلٌ Analyse لم أجد في المعاجم سوى الفعل الثلاثي ، أما التحليل فقد شاعت ، وأقرّ مجمع مصر أن فعل المضعف مقيس للتكثير والمبالغة : تفريق عناصر الجسم لمعرفة أنواعها ، أو معرفة مقادير هذه الأنواع . »(١٠٠) .

وإذا ما افترضنا ـ على الرغم مما سبق ـ أن دلالة التحليل الكيميائي عرفت في زمن سابق في مجال مماثل لما نعرف فإن هذه الدلالة الحسية تطورت في هذا العصر تطورا واسعا ، وغدت تطرق مجالات متعددة في العلوم والفنون والآداب(١٠١) . . . وفي مجال الأدب والدراسة الأدبية عرفت دلالات جديدة . فهناك على سبيل المثال : التحليل النقدى ، والتحليل النفسي للأدب ، والتحليل اللغوى والدراسة التحليلية ، والتحليل الدلالي ، وتحليل النص والتحليل النظرى . . وقد مر بنا في مفتتح البحث ذيوع « التحليل » في الكيمياء ، والطب الحديث ، حتى غدا فرعا مستحدثا من الاختصاص العلمي ، وهو التحليل المخبرى لمكونات الجسم .

---

(٩٦) لم أجد أثرا يشيء بالتطور في المعاجم التي رجعت اليها وهي : المقاييس ٢/ ٢٠ ، المفردات ، ص١٢٨ ، أساس البلاغة ، ص ٩٣ ، اللسان ١١/ ١٦٣ وما يليها ، القاموس المحيط ٣/ ٣٥٩ ، التعريفات (لم تذكر) . وقد انفرد صاحب الكليات بذكر التحليل في المنطق ٢/ ٣٣١

(٩٧) الخوارزمي الكاتب ، مفاتيح العلوم ، إدارة الطباعة المنيرية بمصر ، ١٣٤٢ هـ ، ص ١٤٩

(٩٨) المعجم الوسيط ، ١/ ١٩٤

(٩٩) المعجم الوسيط ، ١/ ١٩٤

(١٠٠) المصطلحات العلمية والفنية ، ١/ ١٧٢

(١٠١) المعجم الوسيط ، ١/ ١٩٤ ، المصطلحات العلمية والفنية ، ١/ ١٧٠ ـ ١٧٢ ، المصباح في اللغة والعلوم ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ، المعجم الأدبي ، ص ٦٠ ـ ٦١ ، وهبه ، مجدي ، والمهندس ، كامل ، معجم المصطلحات العربي في اللغة والأدب

توثيق :

ـ «تحليل : من اصطلاحات الكيمياء المولدة حديثا» زيدان ، جرجي ، تاريخ اللغة العربية ، ص ١٠٦ .

ـ «ونراهم يستعملون مع لفظة العناصر كلمة «التحليل» ، فيقولون تحليل القصة ، وتحليل الشعر وتحليل الشاعرية ، وكل ذلك من اللغات الأوروبية Analysis» .

ـ خليل ، د . حلمي ، المولد ، ص ٢٢٥ .

ـ «في العادة يميز النقد التحليلي في الرواية ثلاثة عناصر مكونة . . .»

وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ترجمة محيي الدين صبحي ، ٢٢٦ . ـ «التحليل L'analyse ، التحليلي L'analytique منهج فكري مداره تفكيك الكل إلى عناصره المركبة إياه ، ويقابل المنهج التأليفي Synth etique ، ويعتمد على العكس النظر في الأجزاء لاستنباط الخصائص المشتركة بينها» .

المدى ، د . عبد السلام ، الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط . ثانية ، ١٩٨٢ ، ص ١٥٠

• غواصة :

في الأصول القديمة : غاص : نزل تحت الماء ، ودلالة غاص مخصصة في مجال الماء أصلا . وقد ورد من اشتقاقات هذه المادة : غواص وغائص . وقد عرف هذان الاشتقاقان في مجال البحث عن اللؤلؤ في البحر . ويبدو أن هذه المادة قد تطورت قديما من الحسي إلى المجرد ، فقد غدت تدل على استخراج الأفعال البديعة ، والأعمال الغريبة ، وعلى التعمق في العلم والغوص على المعاني وحقائق العلوم .[١٠٢]

وفي عصر الكشوف العلمية ، والمخترعات ، عرفت «الغواصة» ، وهي سفينة تمخر عباب البحر وتغوص تحت الماء . وقد وجدت الغواصة فيما يبدو من أجل الأغراض الحربية ثم طورت بعض أصنافها كي تعمل في مجال البحث العلمي ، واستكشاف أعماق البحار ، والبحث عن الثروات الدفينة فيه .

وفي المعجم الوسيط توثيق للدلالة الحديثة ، وقد جاء فيه : «الغواصة : سفينة حربية مهيأة للغوص في الماء ، والمكث تحته . . . (محدثة)»[١٠٣] وسبق زيدان إلى عدها في الاصطلاحات الحربية الحديثة[١٠٤] . والصيغة الصرفية لكلمة «غواصة» هي وزن «فعّالة» الذي عده مجمع القاهرة في أسماء الآلة القياسية .[١٠٥]

توثيق :

ـ «يرجع تاريخ الغواصة إلى عام ١٦٢٠م ، حينما صنعت أول غواصة عملية في انكلترا . . .»

الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٢٥٩

• منطاد :

الطود : الجبل أو عظيمه أطواد وطودة ، والانطياد : الذهاب في الهواء صعدا ، وبناء منطاد : مرتفع .[١٠٦]

وفي المعجم الوسيط : «المنطاد : المرتفع ، يقال بناء منطاد . وضرب من الطائرات ، كبير الحجم ، وهو جهاز من نسيج على هيئة الكمثرى يملأ بغاز الهيدروجين

(١٠٢) القاموس المحيط ، ٢/ ٣١٠ ، المفردات ، ص ٣٦٨
(١٠٣) المعجم الوسيط ، ٢/ ٦٦٦
(١٠٤) زيدان ، جرجي ، تاريخ اللغة العربية ، ص ١٠٥
(١٠٥) المعجم الوسيط ، ١/ ١٤
(١٠٦) لسان العرب ، ٣/ ٢٧٠ ، والقاموس المحيط ، ١/ ٣١٠

ويطير في جو السماء حاملا في أسفله سلة كبيرة تستعمل في الركوب ونحوه (محدثة) . »(١٠٧)

وكلمة « المنطاد » بدلالتها الحديثة تشير إلى نوعين من المخترعات الحديثة هما سفينة هوائية Ae'rostat ، وبالون Ballon ، وهو أقرب إلى تعريف المعجم الوسيط لأن المنطاد أشبه مايكون بالطائرة المعروفة .

وفي كتاب الحركة اللغوية في لبنان ذكر أمين نخلة أن الشدياق هو الذي وضع كلمة « المنطاد » للدلالة على السفينة الهوائية .(١٠٨)

ويبدو أن المناطيد وجدت في مرحلة سبقت تصنيع الطائرات المعروفة . ولايزال نوع من هذه المناطيد و« البالونات » يستعمل في « الأرصاد الجوية » لدراسة طبقات الجو العليا ، وهو مايعرف بـ Ballon-sonde(١٠٩) .

● نجمة :

النجم في الأصل : اسم لكل واحد من كواكب السماء ، وهو بالثريا أخص(١١٠) . . ومنه : نجم : طلع . وكل ماطلع وظهر فقد نجم (نجم النبات ، والناب ، والقرن ، ونجم عند بني فلان شاعر)(١١١) .

ويلاحظ - ههنا - تطور دلالي بين المحسوسات إذ خرجت دلالة « النجم الذي يطلع في السماء إلى كل مايطلع ويظهر .

وفي اتجاه آخر فقد تطور اتخاذ العرب مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها إلى دلالة « النجم » على الجزء والتابع (التقسيط) ، لأن الدين كان يؤدّى « نجوما » عند كل شهر أي « نجم » . ومنه : أنزل القرآن نجوما(١١٢) .

وقد تطورت من جهة أخرى دلالة التنجيم أي النظر في النجوم إلى معنى التفكير والتدبير . فيقال للإنسان إذا تفكر في أمر لينظر كيف يدبره : نظر في النجوم(١١٣) .

أما النجْمة أو النجَمة فهي شجرة ممتدة على وجه الأرض في أصول النخلة . والتطور الحديث الذي نقرأه هو استعمال نجمة لواحدة من نجوم السماء ، وهي دلالة محدثة . ففي الوسيط : « النجمة : كل نبات ليس له ساق قائمة ، وتطلق على نبات النجيل نجم - وواحد نجم السماء (محدثه)(١١٤) وفي المصطلحات العلمية والفنية « نجمة E'toile طراز تزييني على شكل نجمة متعددة الأشعة . . »(١١٥)

والتطور المجازي يتجلى في دلالة « نجم » قديما و« نجم ونجمة » حديثا على الإنسان العَلَم أو الرجل الشهير أو الفنان والفنانة .

وفي الأصول القديمة وكتب السيرة والحديث إشارات لامعة إلى هذا الاستعمال ، منها : تشبيه العلماء بالنجوم

---

(١٠٧) المعجم الوسيط ، ٢/ ٥٦٩
(١٠٨) نخلة ، أمين ، الحركة اللغوية في لبنان ، ص ٤٠
(١٠٩) المرعشلي ، نديم وأسامة ، الصحاح في اللغة والعلوم ، ص ٦٨٣
(١١٠) لسان العرب ، ١٢/ ٥٧٠
(١١١) المفردات للأصفهاني ، ص ٤٨٣ والزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٤٤٨
(١١٢) اللسان ، ١٢/ ٥٧٠ - ٥٧١
(١١٣) المصدر السابق ، الموضع نفسه .
(١١٤) المعجم الوسيط ، ٢/ ٩٠٥
(١١٥) المصطلحات العلمية والفنية ، ٣/ ١٤٦

في حديث نبوي(١١٦) ، وتشبيه أصحاب النبي (ﷺ) بالنجوم في حديث آخر .(١١٧)

ويستفاد من بعض المرويات أن هناك ارتباطا في بعض المعتقدات بين ولادة الإنسان ، وظهور نجم جديد يدل عليه(١١٨) .

والتطور الحديث غدا أكثر شيوعا في إطلاق كلمة « نجم ونجمة » على الفنان والفنانة وكل من يوصف بالتألق في مجال من مجالات الحياة كالسياسة والاجتماع والفن . . وهذا التطور مماثل لما في اللغات الأجنبية ومتأثر به على مايبدو ، ففي الفرنسية Astre فنان شهير و E'toile أيضا نجم ، كوكب وراقص عالمي ورجل شهير(١١٩) .

توثيق :

ـ قال عمر أبو ريشة :

نجمة ضاءت على البعد منا
ذيلها الوضاء كرٌّ في كفني

ديوانه ، ١/ ٤١٥ ، دار العودة ، بيروت ، ط رابعة ، ١٩٨١م

• حمة :

في المعاجم القديمة : الحمم ، مفردها حمة : الفحم والرماد ، وكل مايحترق من النار .(١٢٠) وفي المعجم الوسيط ترد كلمة الحمم للدلالة على الفحم ، وما احترق من النار .(١٢١)

أما دلالة الحمم على مقذوفات البراكين ، فقد اعتمدها مجمع اللغة بدمشق ، وهي من وضع مصطفى الشهابي . يقول : « Lave ، حمم واحدته حممة ، وهو ماتقذفه البراكين . والبركان Volcan معربة . وقالوا : اللابة تعريبا . وخبث البراكين Volcaniques »(١٢٢) .

غير أن الشهابي يستدرك ماوضعه في آخر كتاب « الألفاظ المعربة والموضوعة »(١٢٣) ويقول : Lave في معجم المصطلحات الزراعية : اللابة واللوبة . ويرجح وضع الحممة أمام Magma . وقد أخذ مجمع القاهرة بـ « اللابة Lave » تعريبا . وهي عنده : « الحمم من صهير الصخر تسيل من فوهة البركان ، ويطلق على الصخر الصلب الناشيء من تبرد هذه الحمم »(١٢٤) .

ومهما يكن من أمر فإن كلمة « الحمم » شاعت للدلالة على مقذوفات البراكين ، وهي أقرب إلى العربية من كلمة اللابة المعربة .(١٢٥)

د ـ من المواد المتطورة في المجال الثقافي الأدبي :

نـدرس في هذه الفقرة عددا من المواد المتطورة في

---

(١١٦) المنذري ، الترغيب والترهيب ، ١/ ١٠٠

(١١٧) الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، ١/ ٣٧

(١١٨) ابن كثير ، السيرة ، ١/ ٢١٣

(١١٩) الجيل الوسيط ، ص٧٤ ، ٣٤٧

(١٢٠) لسان العرب ، ١٢/ ١٥٧ ، والقاموس المحيط ، ٤/ ١٠١

(١٢١) المعجم الوسيط ، ١/ ٢٠٠

(١٢٢) مجلة المجمع ، ٢٥/ ٢٥٨

(١٢٣) كحالة ، عمر رضا ، الألفاظ المعرّبة والموضوعة (١٩٤٦ ـ ١٩٥٥) ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٨٢ هـ ، ١٩٦٣ م ، ص٣ (من آخر الكتاب)

(١٢٤) المصطلحات العلمية والفنية ، ٢/ ١٠٣

(١٢٥) على الرغم من وجود كلمتي « لوبة ولابة » في العربية قديما (اللسان ، ٧٤٧) ، وهما تدلان على الحرة وعلى سواد الأرض وغليظه ، فإن المحدثين قد أخذوا بكلمة Lave الأجنبية ، وفي القول الذي أثبتناه ما يدل على ذلك ، إضافة إلى ما جاء في الموسوعة العربية الميسرة ، حين قرنت كلمة « حمم بركانية » بكلمة « لافا » المعربة . ينظر في : ص ٧٣٩ ، وليس يستبعد أن تكون الكلمة الأجنبية مأخوذة من الأصل العربي .

المجال الثقافي والأدبي وما يتصل بذلك من اصطلاحات أدبية ، واستعمالات مخصصة .

● ابتكار :

يبدو أن أصل الدلالة الحسي جاء من « البكرة » التي هي أول النهار ، ومنها اشتق الفعل بكر : إذا خرج بكرة . ومنه أبكر : دخل في ذلك الوقت . وفي اللسان : « بكر على الشيء ، وإليه يبكر بكورا ، وبكر تبكيرا ، وابتكر وأبكر وباكره : أتاه بكرة كله بمعنى . . . »[١٢٦]

وقد تصور في الأصل الحسي معنى التعجيل والمبادرة ، حتى غدا كل إسراع أو مبادرة أو تقدم تبكيرا . ويفهم من كلام ابن منظور أن الدلالة تطورت باتجاه التعميم .

والتطور الحديث في هذه المادة يتجلى في فعل « ابتكر » واشتقاقاته ، إذ غدا له معنى مستحدث يدل على السبق والابتداع والتفوق . وفي المعجم الوسيط : ابتكر الشيء : ابتدعه غير مسبوق إليه (محدثة)[١٢٧] ، وفي معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : « الابتكار Invention الأصالة والاستقلال في إنتاج الموضوع أو المضمون ، وعكسه المحاكاة أو التقليد . واستعمل أخيرا ليشير بصفة عامة عن طريق ارتباطه بمدرك الخيال إلى الأصالة والاستقلال ، لكن لا إلى درجة الإبداع أو الخلق . »[١٢٨]

وعلى الرغم من تبين الفرق بين الابتكار والإبداع كما مر بنا فإن بعض الدارسين لايميزون بينهما .[١٢٩] ودلالة « الابتكار » فيما يبدو وتماثل دلالة التجديد والخروج على التقليد ، وهو تجديد محمود غالبا . أما دلالة الإبداع « فقد غدت خاصة بالخلق الفني في مجال الأدب ، فيقال مثلا : الأعمال الإبداعية ويراد بها النتاج الأدبي ، دون أن يدل ذلك على صفة تقويمية أو حكم .

ووصف العمل بأنه « مبتكر » يدل على معنى « الأصلي Original » أحيانا .[١٣٠] أما مبتكرات « فقد تطلق على « الموضة Mode » وهي طراز مستحدث في الملابس أو العادات أو غيرها .[١٣١]

توثيق :

ـ قال أنور العطار :

مر قلبي عليه كالنغم العذب فغنى في جدة وابتكار

العطار ، أنور ظلال الأيام ، ص ١٧

ـ « ولاسبيل إلى النقل والتعميم عن طريق الشعر إلا بسهولة التعبير الفني ووضوح المعنى المبتكر . . ومن أحياء الابتكار وخذله الفن . . . »

مندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، دار نهضة مصر ، القاهرة د . ت ، ص ١٣١

ـ « هذا العلامة الجليل الذي عرفناه تقليديا محافظا أكثر مما عرفناه مبتكر أصيلا »

الصالح ، د . صبحي ، دراسات في فقه اللغة ، ص ٢٧١

(١٢٦) لسان العرب ، ٤/ ٦٦ ـ ٧٧ ، والقاموس المحيط ، ١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧ والمفردات ، ص ٥٧ ـ ٥٨

(١٢٧) المعجم الوسيط ، ١/ ٦٧

(١٢٨) وهبة ، مجدي ، والمهندس ، كامل ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ٩

(١٢٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ٣/ ١٧٥ والمساعد للكرملي ، تحقيق كوركيس عواد وعبدالحميد العلوجي ، وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م ، ٢/ ١٦٩ ، والمعجم الأدبي ، ص ٢

(١٣٠) مجلة مجمع دمشق ، ٢٨/ ٤٨١ ، والمصطلحات العلمية والفنية ، ١/ ٦٧

(١٣١) المصطلحات العلمية والفنية ، ١/ ٦٧

• إبداع :

إن بحث التطور الحديث في هذه المادة لابد من أن يشفع باقتراح لتطورها ابتداء من المعاني الحسية . ففي اللسان : « بدع الركية : استنبطها ، وأحدثها ، وحبل بديع جديد ، والبديع : الزق الجديدوالسقاء الجديد ، وأبدعت الإبل : كلت أو عطبت كأنه جعل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السير إبداعا أي إنشاء أمر خارج عما اعتيد منها . . »(١٣٢)

ولعل الأصل الحسي هو « بدع الركية » لما فيه من معان ملحوظة في بقية الدلالات . فبدع الركية يدل على الإنشاء والبدء والأحداث . والمعاني المتطورة التالية تحمل دلالة الأصل الحسي وما تولد منه . « فالبدع : الشيء الذي يكون أولا ، والبدعة : الحدث وكل محدثة ، وأبدع وتبدع : أتى ببدعة ، البديع ، : المحدث العجيب . »(١٣٣)

وفي جانب آخر من التطور دخلت كلمتا « البديع » و « البدعة » مجال الألفاظ الإسلامية فالبديع غدا اسما من أسماء الله تعالى ، والبدعة هي المحدثة في الدين بعد الإكمال .(١٣٤)

ويبدو أن ورود كلمة « البديع » في القرآن الكريم « بديع السماوات والأرض »(١٣٥) هو الذي بعث على مقابلتها بالخلق . فالجرجاني صاحب التعريفات يرى أن الإبداع أعم من الخلق ولذا قال : « بديع السماوات » ، وقال : خلق الإنسان ، ولم يقل : بديع الإنسان(١٣٦) . غير أن الكفوى يميل إلى أن « الإبداع والاختراع والصنع والخلق . . ألفاظ متقاربة المعاني »(١٣٧) .

وفي العصر العباسي عرف مصطلح « البديع » وهو فن من فنون البلاغة توسع فيها بعد ، وجعل له رسوم وحدود وأمثلة متداولة .

ويمكن أن ننتهي إلى أن تطور هذه المادة قديما كان يسير في اتجاهين ، الأول : دلالة الإبداع على الخلق والإيجاد ، والثاني : دلالة الإبداع على إنشاء أمر خارج على الاعتياد .

وفي هذا العصر شهدت كلمة « الابداع » ومايتعلق بها من اشتقاقات تطورا واسعا في مجال الأدب وعلم النفس والفنون عامة . ففي المعجم الوسيط : « الإبداع عند الفلاسفة : إيجاد الشيء من عدم ، فهو أخص من الخلق (مج)(١٣٨) والابتداعية : نزعة في جميع فروع الفن تعرف بالعودة إلى الطبيعة وإيثار الحس والعاطفة على العقل والمنطق ، وتتميز بالخروج على أساليب القدماء باستحداث أساليب جديدة (مج)(١٣٩) .

وعلى الرغم من أن دلالة « الإبداع » تتداخل ودلالات أخرى كالابتكار والتجديد والخلق الفني ، فإنه يبدو أن الإبداع « غدا - أي المصطلح - مماثلا للخلق الفني مجردا من كل شحنة تقويمية . وهو بذلك يخلو من الصبغة المدحية التي اكتسبها من قبل .(١٤٠) غير أن هذا الاستظهار لايعني الحكم على جميع الاستعمالات المخالفة بأنها غير متطورة . فالدلالات - كما هو

(١٣٢) ، (١٣٣) لسان العرب ، ٨/٦ - ٨

(١٣٤) الأصفهاني ، المفردات ، ص٣٨ - ٣٩

(١٣٥) البقرة : آية/ ١١٧ / والأنعام آية/ ١٠١ /

(١٣٦) الشريف الجرجاني ، التعريفات مع رسالة اصطلاحات الصوفية ، ص ٣

(١٣٧) الكفوى ، الكليات ، ٢٢/١

(١٣٨) ، (١٣٩) المعجم الوسيط ، ٤٣/١

(١٤٠) المسدي د . عبدالسلام ، الأسلوبية والأسلوب ، ص١٣٨

معروف - تتعايش، على الرغم من سيادة بعضها في الاستعمال على حساب بعضها الآخر.

وهناك اتجاه - فيما يبدو - إلى عد « الإبداع الأدبي » خاصا بالدلالة على نتاج الأدباء والشعراء فحسب دون سائر الكتابات النقدية والبحوث الدرسية على اختلاف أنواعها. فالنشاطات الإبداعية تتميز من الدراسة الأدبية التي تقوم على المعرفة.[١٤١] على حين يبدو أن دلالة « الابتكار » تحتفظ بشحنة تقويمية وصفة مدحية، وغالبا ما تعبرعن السبق والتجديد والافتنان.

لقد أخذ تطور هذه المادة أكثر من اتجاه، فهناك تطور بين المحسوسات رأينا أطرافا منه في العربية الفصحى قديما، وهناك دلالات دينية متطورة نتيجة الاستخدام الإسلامي، وهناك تطور فني اصطلاحي في العصر العباسي تجلى في لون من ألوان الفن البلاغي وهو « البديع ». وكذلك يبدو أن مصطلح « الإبداع » غدا من اصطلاحات الفلاسفة والحكماء. وفي العصر الحديث تطورت مادة « أبدع » إلى دلالات جديدة اصطلاحية وفنية. « فالإبداع » غدا مماثلا - في أغلب الأحيان - للابتكار والاختراع الجديد. و « الإبداعية » مصطلح جديد أريد به أن يكون بديلا لكلمة « الرومانسية » الدخيلة وتحديد هذا المصطلح مايزال مدار بحث النقاد والدارسين واختلافهم.

توثيق:

- « الفرق بين الاختراع والإبداع - وإن كان معناهما في العربية واحدا أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط. والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد، وحاز قصب السبق. »

ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح:

محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط ثانية، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م، ٢٦٥/١

- « الابتداع INITIATIVE: المبادرة إلى الشيء والسبق إليه والابتكار. »

مجلة مجمع اللغة بدمشق، ١٧٥/٣

- « ومع أن تجربة الإبداع الأدبي مفيدة للدارس، فإن مهمته تختلف تمام الاختلاف.. وبعض المنظرين ينكرون أن تكون الدراسة الأدبية معرفة، وينصحون بإبداع ثان ومثل هذا « النقد الإبداعي » يعني عملية نسخ لا حاجة إليها.. »

وارين وويليك، نظرية الأدب، ص ١٣

■ عبقرية:

يرتبط الأصل الحسي لهذه المادة بموضع زعم العرب في الجاهلية أن الجن تسكنه وهو « عبقر » وإلى « عبقر » نسبوا كل شيء رفيع، فقالوا: ثياب عبقرية ورجل عبقري، كامل من كل شيء والسيد الذي ليس فوقه شيء، وجنة عبقرية.. وكل جليل نفيس فاخر عند العرب عبقري.[١٤٢]

والتطور الحديث يتجلى في استعمال المصدر الصناعي « عبقرية »[١٤٣] وتوسع دلالته إذ غدا دالا على كفاية

(١٤١) ويليك، ووارين، نظرية الأدب، ص ١٧

والدقاق. د. عمر، شعراء العصبة الأندلسية في المهجر، مكتبة دار الشرق، بيروت، ط. أولى، م ١٩٧٣م، ص ١٢ - ١٤

(١٤٢) لسان العرب، ٥٣٥/٤، والقاموس المحيط، ٨٤/٢، والكليات، ٣/ ١٨٢ - ١٨٣

(١٤٣) المعجم الوسيط، ٥٨٨/٢

فائقة وفطرية يتعاون في إبرازها وبلورتها خيال فذ وإحساس رهيف، وتخضع في نهاية تصوراتها وفي صياغة محصلاتها لأمالي العقل في كل مايفرضه من نفاذ ودقة.(١٤٤)

وقد ذهب بعض الفلاسفة إلى أن «العبقرية» مرادفة للإلهام، على حين ذهب آخرون إلى أنها مرادفة للجنون أو العصاب الذي يصيب أناسا مرضى بالوساوس. وقد شغل تحليل «العبقرية» في التحليل النفسي كثيرا من علماء النفس الذين ذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى.(١٤٥)

ويبدو أن استعمال كلمة «عبقرية» استقر في الفصحى المعاصرة للدلالة على الذكاء والتفوق والابتكار الفذ في جميع مجالات الحياة والفكر والاجتماع. وقد ذهب شوقي ضيف إلى نحو قريب من هذا حين عرض لمفهوم «العبقرية» لدى العقاد.(١٤٦)

وتشير دلالة «العبقري الملهم» إلى معنى مستحدث ـ فيما يبدو ـ وهو وصف الشاعر بالملهم وقد رأى حلمي خليل أن هذا الوصف مولد في الفصحى المعاصرة بتأثير الترجمة.(١٤٧)

ويبدو التطور الحديث في جميع اشتقاقات هذه المادة، ففي أحدها يظهر المصدر الصناعي «العبقرية» وما أشرب من معان مستحدثة كالنبوغ والابتكار والقدرة العقلية البارعة. ويبدو أن استعمال هذا المصدر لم يكن يلقى قبولا لارتباطه بموطن الجن أصلا.

أما كلمة «عبقري» ـ في دلالتها المتطورة ـ فقد رغب عنها بعض الدارسين واقترحوا كلمات أخرى لتحل محلها في الاستعمال.(١٤٨) وعلى الرغم من هذا التحفظ فإن استعمال كلمة «عبقري» قد توسع ليشمل مجالات الحياة والفنون والآداب والعلوم.

ويبقى ورود كلمة «عبقر» الدالة على موطن الشعر وشياطين وحيه موظفا في الشعر لإثارة الإيحاء والتصوير، ولايمكن أن تؤخذ بدلالتها الحرفية. وهي تعد من الرموز الثقافية الأسطورية.

توثيق:

ـ قال ميخائيل ويردى في تصدير ديوان أنور العطار:

إني لألقى العبقرية ... رهن ديوان طريف

العطار، أنور، ديوانه: ظلال الأيام. تصدير ويردى ص (ض)

• صورة:

في اللسان: «صور: في أسماء الله تعالى: المصور، وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة، وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها.»(١٤٩)

وفي القاموس المحيط: «الصورة: الشكل ج صور.. وتستعمل بمعنى النوع والصفة»(١٥٠) ويضيف صاحب المفردات تقسيما اصطلاحيا للصورة، يقول: «الأول: صورة حسية كصورة الإنسان والحيوان، وغيرهما. والثاني (العقلية)، كالصورة التي اختص بها

---

(١٤٤) المعجم الأدبي لعبدالنور، ص ١٧٠ ـ ١٧١

(١٤٥) المصطلحات العلمية والفنية، ٢/ ١٤٣

(١٤٦) ضيف، د. شوقي، مع العقاد، سلسلة اقرأ ع ٢٥٩، دار المعارف بمصر، يوليو ١٩٦٤ م، ص ٨٤ ـ ٩١

(١٤٧) خليل، د. حلمي، المولد، ص ٢٢٥

(١٤٨) نخلة، أمين، الحركة اللغوية في لبنان، ص ٤٢

(١٤٩) لسان العرب، ٤/ ٤٧٣

(١٥٠) القاموس المحيط، ٢/ ٧٢

الإنسان من العقل والروية ، والمعاني التي خص بها . . . »(١٥١)

ويبدو أن استعمال مصطلح « صورة » كان شائعا في مجال الفلسفة والمنطق قديما ، ففي التعريفات والكليات أنواع متعددة للصور الذهنية والمخصوصة والنوعية . . .(١٥٢)

ويمكن أن نعدّ العروض السابقة تلخيصا للدلالة القديمة . فالصورة تدل على شكل أو تمثال وتدل على النوع أو الصفة وتدل على صور عقلية ـ فلسفية اصطلاحية ـ لها أنواعها وخصائصها .

والتطور الحديث في دلالة « صوّر » يمكن أن ينظر إليه من خلال ثلاثة اتجاهات . يظهر في الأول اشتقاق قديم أشرب معنى معاصرا مخصصا وهو كلمة « المصوِّر » . وقد مرّ بنا أنها تدل على الله تعالى الذي صور الموجودات . وتطور كلمة « المصور » الحديث يتجلى في دلالتها على « من حرفته التصوير الضوئي Photographie » . ويبدو أنّ تعرّف العرب حديثا على الآلات المصورة استحدث دلالات جديدة . منها : « المصورة : آلة تنقل صورة الأشياء المجسمة بانبعاث أشعة ضوئية تسقط على عدستها ، ثم تطبع الصورة بتأثير الضوء . . . » . ومنها : التصوير الشمسي والمرئي والتلفازي .(١٥٣)

ويظهر الاتجاه الثاني للتطور في دلالة « التصوير الفني » وهو مخصص بالآثار الأدبية على ما يبدو . وإنّ دلالة « التصوير الفني » الحديثة تقود إلى الإشارة الموجزة إلى مصطلح « صورة » . فالصورة بدلالتها اللغوية تنصرف إلى معنى الهيئة والشكل Forme وهي دلالة بصرية . والصورة بدلالتها الذهنية (العقلية) هي وحدة بناء الذهن الانساني . والصورة بدلالتها النفسية تشير إلى التذكر الواعي لمدرك حسي في غياب المنبه الأصلي . وأقرب الدلالات ـ في الصورة ـ إلى درسنا دلالتان هنا : الدلالة الرمزية في الدراسات الأنثربولوجية فالصورة لديها هي القصيدة بأجمعها أو قطع مكثفة منها تكشف عن أشياء جوهرية في الذات البشرية من اعتقاد وثقافة وتطور الأنظمة الاجتماعية . أما الدلالة الأخرى فهي دلالة مصطلح صورة على الأشكال البلاغية التي تشمل ـ ههنا ـ كل تعبير غير حرفي .(١٥٤)

ويبدو واضحا الميل إلى اتخاذ هذا المصطلح ـ الصورة الفنية ـ بديلا للمصطلحات البلاغية « التقليدية » . وقد نشطت حركة التأليف في العربية حول الصورة الفنية وتطبيقاتها الموسعة . وقد اعتمدت معظم المؤلفات المناهج الغربية في دراسة الصورة ، ثم سعت إلى تطبيقها على الأدب العربي قديمة وحديثة(١٥٥) ويمثل هذا التطور الاتجاه الثالث من اتجاهات التطور .

ونخلص من هذا الدرس إلى أنّ هذه المادة عرفت تطورا دلاليا واصطلاحيا ومجازيا ، فالتطور الدلالي تجلّى في إطلاق كلمة « مصوِّر » على من يقوم بالتصوير (الفوتوغرافي) والضوئي . . وتجلّى في ظهور دلالات جديدة للتصوير . وكلها يرتبط بحرفة التصوير ،

(١٥١) الأصفهاني ، المفردات ، ص ٢٨٩

(١٥٢) الجرجاني ، التعريفات ، ص ١١٩ ، والكفوي ، الكليات ، ٣/ ١١٤ ، ١١٥

(١٥٣) المعجم الوسيط ، ١/ ٥٢٨ ، والصحاح للمرعشلي ، ص ٦٣٧ ـ ٦٣٩ ، والمصطلحات العلمية والفنية ، ٢/ ١٠٧ ـ ١٠٩

(١٥٤) عبدالنور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص ١٥٤ ، ١٥٩ والصحاح ، ص ٦٢٧ ـ ٦٢٩ ، والمصطلحات العلمية والفنية ، ص ١٠٩

(١٥٥) نشير إلى أهم الدراسات المعروفة . ناصف ، مصطفى ، الصورة الأدبية ، مكتبة مصر ، ط . أولى ، ١٩٥٨ م

عبدالرحمن ، نصرت ، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، مكتبة الأقصى ، عمّان ، ١٩٧٦ م و عصفور ، جابر ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط . أولى ، ١٩٧٤ م والبافي ، نعيم ، مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٢ م .

كالمصوِّرة مثلا . كذلك ظهر التطور الدلالي في توسّع الاستعمال وانتقاله إلى مجالات متعددة كالفن والشعر والأدب عامة . أما التطور الاصطلاحي فقد ظهر في اتخاذ مصطلح « صورة » بدلالاته المحدثة وبخاصة في المجال البلاغي والنقدي . وظهر التطور المجازي في الاستعارة بين فن الرسم والتصوير وفن الشعر إذ نقلت إليه مصطلحات الرسم كاللوحة والريشة واللون والصورة .

توثيق :

ـ « في هذه القصيدة صور جزئية تعبّر عن مختلف النقلات التخطيطية للريشة الراسمة . إن الشاعر يرسم لنا لوحة ممتازة »

عباس ، د . إحسان ، مجلة الآداب ، بيروت ع/٦/ حزيران ، السنة /٩/ ، ١٩٦١م ، ص٣

ـ « صورة ـــ Image قد تكون الصورة تشبيها أو استعارة . . . ويحاول ابتعاث شعور بالتشابه بإبراز تمثيل محسوس للون والشكل والحركة »

عبد النور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص١٥٩

■ ريشة :

يمكن أن نقترح تطوراً لهذه المادة يبدأ من : « الريش : كسوة الطائر » . وتحيط بظهور الريش دلالات متعددة كاشتداد العود والاعتماد على النفس ، والقوة ومباشرة الطيران إذا كان الطائر عما هيّء له ذلك .

ويبدو أن هذه المعاني ودلالة الريش كانت ملحوظة في التطور باتجاه التعميم . إذ غدت كلمة « الريش » تدل على الخصب والمعاش واللباس الحسن . وفي اللسان : « ارتاش فلان إذا حسنت حاله ، وريشت فلانا إذا قوّيته ، وأعنته على معاشه ، وأصلحت حاله . »[١٥٦]

والمشابهة بين الريش واللباس واضحة الأثر في تطور كلمة « الريش » للدلالة على الأثاث واللباس والكساء خاصة . وفي اللسان أيضا : « الريش والرياش : الأثاث ، واللباس الحسن الفاخر والزينة » .[١٥٧]

أما « الريشة » فلا نجد لها معنى غير ما تدلُّ عليه من مادة طبيعية معروفة في ريش الطير . ودلالة « الريشة » ـ المعروفة ـ تسمية لأداة الكتابة الخشبية والمعدنية حديثة . وقد اتخذ تطورها اتجاهات متعددة . فهناك « الريشة : قلم مركب من نصاب من الخشب وسن من المعدن ونحوه « محدثة »[١٥٨] . وهناك « الريشة : (في الرسم والتصوير) : ريشة طائر تبرى بيستها وتقط ، ليكتب أو يرسم بها (مج) »[١٥٩] . وهناك « الريشة » : الفرشاة الصغيرة التي يستخدمها الرسام (أو النقاش) أداة في عمله فيغمسها في الألوان ، ويرسم بها على اللوحة . »[١٦٠]

غير أن تطور دلالة « الريشة » لم يقف عند حدود الدلالة الحقيقية ، وإنما تجاوزها إلى الدلالة المجازية عن طريق « الاستعارة المتبادلة بين فن وآخر » . وعن طريق المجاز المرسل أيضا . فعن طريق المجاز المرسل « تطلق الريشة على الفنان نفسه ، وعلى العمل الذى يقوم به ، فنقول مثلا : ريشة دوفنشي (رسم) . وعن طريق الاستعارة بين فن وآخر نقول : ريشة طه حسين (أدب) . . »[١٦١]

ويبدو للدارس اللغوى شيوع نوع من المجاز

---

(١٥٦) ، (١٥٧) لسان العرب ، ٦/٣٠٨ ـ ٣١٠

(١٥٨) ، (١٥٩) المعجم الوسيط ، ١/٣٨٥ وصحاح الرجاني ، ص ٤٢٠

(١٦٠) المعجم الأدبي لعبدالنور ، ص ١٣٥

(١٦١) المصدر السابق ، الموضع نفسه

الحديث ، يقوم على الاستعارة والمبادلة في الأدوات ـ التسميات الدالة عليها ـ وفي كثير من الاصطلاحات الخاصة بفن من الفنون . وقد لاحظنا عددا من المواد اللغوية المستخدمة في هذا النوع من المجاز ، ونكتفي بالإشارة إلى بعضها . فهناك « الوتر » ودلالته على الشعر والقصيدة والفن ، وهناك « القيثارة » ودلالتها على صنعة الشعر ومبدعيه . وهناك « اللوحة » و « الرسم » و « اللون » وكلها مستمدة من فن الرسم لتصف الأدب والشعر .

لقد اتخذ تطور كلمة « ريشة » اتجاهين ، ظهر في الأول تطور في إطلاق كلمة ريشة على القلم وعلى ريشة الرسم والتصوير وعلى الفرشاة الصغيرة . وظهر في الثاني تطور استعمالها في مجال التبادل والاستعارة بين فن وآخر . ويعدّ هذا التطور نوعا من توسع الدلالة ضمن مجموعة الفنون .

توثيق :

ـ « استخدم الطهطاوي كلمة « الريشة » دون قصد إلى التوليد »

خليل ، د . حلمي ، المولّد ، ص٧٢

ـ « الريشة Plume كانت تدل على المادة الطبيعية (ريش الطائر) ومن ثم تحولت إلى تسمية لأداة الكتابة الخشبية ، وبعدها المعدنية على اختلاف أشكالها » .

الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية ، ص٣٧٧

ـ « في هذه القصيدة صور جزئية تعبّر عن مختلف النقلات التخطيطية للريشة الراسمة . . إن الشاعر يرسم لنا لوحة ممتازة » « وإنك في معرض هذا الشاعر الرسام ، ولنقف أمام لوحة رسمتها ريشة الأخطل الصغير . . . »

عباس ، د . إحسان ، مجلة الآداب ، بيروت ع/٦/ حزيران السنة /٩/ ، ١٩٦١م ، ص٣

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

إبراهيم ، حافظ	ديوانه ، نشر محمد عون دمج ، بيروت ، ١٩٦٩م
إبراهيم ، طه أحمد	تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ، د . ت
ابن أبي أصيبعة	عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق د . نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م
ابن أبي ربيعة ، عمر	ديوانه ، شرح محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط . أولى ١٣٧١هـ ، ١٩٥٢ .
ابن الأثير ، ضياء الدين	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٩م
ابن ثابت ، حسّان	ديوانه ، تحقيق د . وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤م
ابن جني ، عثمان	الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الهدى ، بيروت ، ط . ثانية ، د . ت
ابن رشيق	العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط . ثانية ، ١٣٧٤هـ ، ١٩٥٥م
ابن سلام	طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، د . ت
ابن فارس	معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هارون ، البابي الحلبي بمصر ، ط . ثانية ، ١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م
ابن قتيبة	تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، البابي الحلبي بمصر ، د . ت
ـــــ	الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ط . ثانية ، د . ت
ابن كثير	السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م
ابن منظور	لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، تصوير ، د . ت
أبوريشة ، عمر	ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٩٨١م
أبوزيد ، د . نصر حامد	الاتجاه العقلي في التفسير ، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة ، دار التنوير ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٨٢م
أبوشادي ، د . أحمد زكي	دراسات أدبية ، الحلقة (١٤١) ، سلسلة مصر وأمريكا ، د . ت ، والحلقة (١٤٧) ، د . ت
أبوعبيدة (معمر بن المثنى)	مجاز القرآن ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط . ثانية ، ١٩٧٠م
اسماعيل ، د . عز الدين	الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، دار العودة ، بيروت ، ط . ثالثة ، ١٩٨١م
الأشتر ، د . محمد صبري	الشعر في سورية بين الحربين ، أمالية مستنسخة في كلية الآداب بجامعة حلب ، ١٩٧١م - ١٩٧٢م
الأصفهاني ، الراغب	المفردات في غريب القرآن ، دار المعرفة ، بيروت .
الأفغاني ، سعيد	من حاضر اللغة العربية ، دار الفكر ، ط . ثانية ، ١٩٧١م
أنيس ، د . إبراهيم	دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط . أولى ، ١٩٥٨م
إيلوار ، رونالد	مدخل إلى اللسانيات ، ترجمة د . بدر الدين القاسم ، وزارة التعليم العالي ، دمشق ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م
الباقلاني ، (محمد بن الطيب)	إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ط . رابعة ، ١٩٧٧م
البحتري ، (الوليد بن عبيد)	ديوانه ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣م
بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد)	ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٨م
البستاني ، بطرس	محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٧م
بشر ، د . كمال	دراسات في علم اللغة ، القسم الثاني ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩م
ـــــ	قضايا لغوية ، دار الطباعة القومية ، القاهرة ، ١٩٦٢م
البطل ، د . علي عبدالمعطي	الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب ، شركة الربيعان ، الكويت ، ط . أولى ، ١٩٨٢م
الترمذي	السنن ، بإشراف عزت عبيد الدعاس ، دار الدعوي ، حمص ، ١٣٨٥هـ ، ١٩٦٥م
الثعالبي	فقه اللغة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت
الجاحظ	البخلاء ، تحقيق د . طه الحاجري ، دار المعارف بمصر ، د . ت
ـــــ	الحيوان ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، البابي الحلبي بمصر ، ط . أولى ، ١٩٤٣م
جبران ، جبران خليل	البدائع والطرائف ، مكتبة كرم ، دمشق ، د . ت
الجرجاني ، الشريف	التعريفات مع رسالة اصطلاحات الصوفية ، البابي الحلبي بمصر ، ١٣٥٧هـ ، ١٩٣٨م

الجرجاني ، عبدالقاهر — دلائل الاعجاز ، تحقيق د . محمد رضوان الداية ، ود . فايز الداية ، دار قتيبة ، دمشق ، ط . أولى ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م

جيده ، د . عبدالحميد — الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٨٠م

حاج بكري ، علي — الطلبة العربية بين الحربين ، دار الرواد ، دمشق ، د . ت

حاوي ، إيليا — الأخطل الصغير شاعر الجمال والزوال ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٢م

حجازي ، د . محمود فهمي — مدخل إلى علم اللغة ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط . ثانية ١٩٧٨م

——— — المعجمات الحديثة ، دراسات في اتجاهات تأليفها ، وأسسها اللغوية ، أملية مستنسخة في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ١٩٧٨م

——— — علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ، المكتبة الثقافية ، العدد (٢٤٩) ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠م

——— — علم اللغة العربية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣م

حسان ، د . تمام — اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط . ثانية ، ١٩٧٩م

حسين ، د . طه — مستقبل الثقافة في مصر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٣٨م

الحمصي ، نعيم — الرائد في الأدب العربي ، دار المأمون للتراث ، دمشق وبيروت ، ط . ثانية ، ١٩٧٩م

خالد ، د . عابدين — تاريخ الشرق والغرب ، المطبعة الجديدة ، دمشق ، ط . ثالثة ، ١٩٥٧م

خليل ، د . حلمي — المولّد ، دراسة في نمو وتطور اللغة العربية في العصر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ١٩٧٩م

الخوارزمي الكاتب — مفاتيح العلوم ، إدارة الطباعة المنيرية بمصر ، ١٣٤٢هـ

الخوري ، بشارة (الأخطل الصغير) — الهوى والشباب ، دار المعارف ، ١٩٥٣م

شعر الأخطل الصغير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . ثالثة ، د . ت

الخولي ، أمين — مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م

خياطة ، يوسف ، ومرعشلي ، نديم — المصطلحات العلمية والفنية ، دار لسان العرب ، بيروت ، ١٩٧٠م

داغر ، يوسف أسعد — معجم المسرحيات العربية والمعربة ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨م

داود ، د . أنس — رواد التجديد في الشعر العربي الحديث ، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والأعلان ، الجماهيرية الليبية ، د . ت

الداية ، د . فايز — الأدب العربي الحديث ، الشعر ، مديرية الكتب والمطبوعات ، جامعة حلب ، ١٩٨١م ـ ١٩٨٢م

——— — الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ، دار الملاح ، دمشق ، ط . أولى ١٩٧٨م

الدسوقي ، عبد العزيز — جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ط . ثانية ، ١٩٧١م

الدقاق ، د . عمر — الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ، دار الشرق ، حلب ، ط . ثانية ، ١٩٦٣م

——— — فنون الأدب المعاصر في سورية ، دار الشرق ، حلب ، ط . أولى ، ١٩٧١م

——— — شعراء العصبة الأندلسية في المهجر ، مكتبة دار الشرق ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٣م

——— — نقد الشعر القومي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٨م

دوزي ، رينهارت — تكملة المعاجم العربية ، ترجمة محمد سليم النعيمي ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨م

الرازي (أحمد بن حمدان) الزينة في الكلمات الاسلامية العربية ، بعناية حسين الهمداني الراجوني ، دار الكتاب العربي بمصر ، ط . ثانية ، ١٩٥٧م

الربيعي ، د . محمود — في نقد الشعر ، دار المعارف بمصر ، ط . ثالثة ، ١٩٧٥م

راثفن ، ك . ك — المجاز الشعري ، ترجمة د . عبد الواحد لؤلؤة ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨م

الرماني (علي بن عيسى) — النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ط . ثالثة ، ١٩٧٦م

زكي ، د . أحمد كمال — الأساطير ، دراسة مقارنة ، دار العودة ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٧٩م

الزمخشري (محمود بن عمر) — أساس البلاغة ، تحقيق عبدالرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م

الزهاوي ، جميل صدقي — ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٧٩م

زيدان ، جرجي — تاريخ اللغة العربية ، تقديم عصام نورالدين ، دار الحداثة ، ط . أولى ، ١٩٨٠م

السامرائي ، د . إبراهيم	التطور اللغوي التاريخي ، معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦م
ـــــــ	فقه اللغة المقارن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٧٨م
سوكولوف ، يوري	الفولكلور ، قضاياه وتاريخه ، ترجمة حلمي شعراوي وعبد الحميد حواس ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١
السيوطي	المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، البابي الحلبي ، القاهرة ، د . ت
ـــــــ	الاتقان في علوم القرآن ، البابي الحلبي بمصر ، ط . ثالثة ، ١٣٧٠هـ ، ١٩٥١م
الشابي ، أبو القاسم	أغاني الحياة ، دار مصر ، القاهرة ، ط . أولى ، ١٩٥٥م
شاهين ، د . عبدالصبور	في علم اللغة العام ، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب ، ١٩٨١ ـ ١٩٨٢م
الشهابي ، مصطفى	المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥م
شوقي ، أحمد	الشوقيات ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٥٣م
الصالح ، د . صبحي	دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٣٧٠هـ ، ١٩٧٠
الصميلي ، د . يوسف	الشعر اللبناني ، اتجاهات ومذاهب ، دار الوحدة ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٨٠م
ضيف ، د . شوقي	مع العقاد ، سلسلة اقرأ ، العدد (٢٥٩) ، دار المعارف بمصر ، يوليو ، ١٩٦٤م
ـــــــ	البارودي رائد الشعر الحديث ، دار المعارف بمصر ، د . ت البلاغة ، تطور وتاريخ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥
	العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط . ثالثة ، د . ت
الطرابلسي ، د . أحمد	نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب ، د . ت
عبود ، مارون	على المحك ، دار الثقافة ، ودار مارون عبود ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٩٧٠م
عبدالباقي ، محمد فؤاد	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، تصوير ، د . ت
عبدالنور ، د . جبور	المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٩م
عبدالنور ، د . جبور وادريس ، د . سهيل	المنهل الوسيط (فرنسي) ، دار العلم للملايين ودار الآداب ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٢م
عثمان ، د . أحمد	الشعر الاغريقي ، عالم المعرفة ، الكويت ، مايو ، ١٩٨٤م
عثمان ، سهيل ، والأصفر ، عبدالرزاق	معجم الأساطير اليونانية والرومانية ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٢م
العطار ، أنور	ظلال الأيام ، مطبعة الرحاني ، دمشق ، ١٩٤٨م
العقاد ، عباس محمود	أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، دار المعارف بمصر ، ط . ثانية ، د . ت
ـــــــ	ديوانه ، بإشراف عامر أحمد العقاد ، مطبعة وحدة الصيانة ، أسوان ، ١٩٦٧م
غالي ، وجدي رزق	المعجمات العربية ، تقديم د . حسين نصّار ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٩١هـ ، ١٩٧١م
غربال ، محمد شفيق	الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م
الغلاييني ، الشيخ مصطفى	جامع الدروس العربية ، المطبعة العصرية ، صيدا ، ط . العاشرة ، ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م
فرويد ، سيغموند	الطوطم والتابو ، ترجمة بوعلي ياسين ، دار الحوار ، اللاذقية ، ط . أولى ، ١٩٨٣م
فك ، يوهان	العربية ، ترجمة د . رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م
الفيروز آبادي	القاموس المحيط ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م
قباني ، نزار	الأعمال الشعرية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، بيروت ، د . ت
القزويني (جلال الدين محمد بن عبدالرحمن)	التلخيص في علوم البلاغة ، شرح عبدالرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط . ثانية ، ١٣٥٠هـ ، ١٩٣٢م
قميحة ، د . مفيد محمد	الأخطل الصغير ، حياته وشعره ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط . أولى ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م
الكاندهلوي ،	حياة الصحابة ، تحقيق محمد علي دولة ، دار القلم ، دمشق
كحالة ، عمر رضا	الألفاظ المرّية والموضوعة الواردة في السنوات العشر الثالثة من مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٤٦ ـ ١٩٥٥ ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٣٨٢هـ ، ١٩٦٣م

الكرملي ، الأب أنستاس ماري — المساعد ، تحقيق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي ، وزارة الأعلام ، ودار الحرية ، بغداد ، المجلد الأول ، ١٩٧٢م ، والثاني ، ١٩٧٦م

الكفوي ، أبو البقاء — الكليات ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط . ثانية ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢م

كمال ، د . ربحي — المعجم الحديث (عبري ـ عربي) ، دار العلم للملايين ، بيروت ط . أولى ، ١٩٧٥م

المبارك ، محمد — فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر ، بيروت ، ط . سابعة ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م

المتنبي (أحمد بن الحسين) — العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، صنعه ناصيف اليازجي ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م

مجمع اللغة العربية بالقاهرة — المعجم الوسيط ، دار الفكر ، ط . ثانية ، د . ت

المحاسني ، د . زكي — المتنبي ، سلسلة نوابغ الفكر العربي ، دار المعارف بمصر ، ط . ثالثة ، د . ت

المرعشلي ، نديم وأسامة — الصحاح في اللغة والعلوم ، دار الحضارة العربية ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٥م

المسدي ، د . عبدالسلام — الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط . ثانية ، ١٩٨٢م

المعري ، أبو العلاء — شروح سقط الزند ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧م

مكي ، د . الطاهر أحمد — الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . أولى ١٩٨٠م

مندور ، د . محمد — الأدب ومذاهبه ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د . ت

المنذري — الترغيب والترهيب ، تحقيق مصطفى عمارة ، البابي الحلبي بمصر ، ط . ثانية ١٩٥٤م

مونان ، جورج — تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ، ترجمة د . بدرالدين القاسم ، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨١م
 ———— — علم اللغة في القرن العشرين ، ترجمة د . نجيب غزاوي ، وزارة التعليم العالي ، دمشق ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م

نخلة ، أمين — الحركة اللغوية في لبنان ، منشورات مجلة الروزنة ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٥٨م

نشأت ، د . كمال — شعر الهمس ، المكتبة الثقافية العدد ١٥٠ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م

نصار ، د . حسين — المعجم العربي نشأته وتطوره ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ط . ثانية ، ١٩٦٨م

هو ، غراهام — مقالة في النقد ، ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م

هورتيك ، لويس — الفن والأدب ، ترجمة د . بدرالدين قاسم الرفاعي ، مراجعة د . عمر شخاشيرو ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٥م

هيغل ، — الفن الرمزي ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٩م

وافي ، د . علي عبدالواحد — الأدب اليوناني القديم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠م

وهبة ، مجدي ، والمهندس ، كامل — معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩م

ويليك ، رينيه ، ووارين ، أوستن — نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، مراجعة د . حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٨١م

ويمزات ، ويليام ، وبروكس ، كلينث — النقد الأدبي ، تاريخ موجز ، ترجمة د . حسام الخطيب ومحي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧م

اليافي ، د . نعيم — مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٢م .

الدوريات

مجلة الآداب ، بيروت ، العدد /٦/ ، حزيران (يونيو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١م

مجلة الآداب ، بيروت ، العدد /٧/ ، تموز (يوليو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١م

مجلة الثقافة العربية ، المؤسسة العامة للصحافة ، ليبيا ، العدد /٩/ ، سبتمبر ، السنة الثانية ، ١٩٧٥م

مجلة الحصاد ، جامعة الكويت ، العدد /١/ ، رمضان ، ١٤٠١هـ ، تموز ١٩٨١م ، السنة الأولى

مجلة الحياة الثقافية ، وزارة الشؤون الثقافية ، تونس ، العدد / ١٦ ـ ١٧ / ، السنة الثالثة ١٩٨١م

مجلة العربي ، الكويت ، العدد/ ١٠٩ / ، ١٩٦٧م
مجلة العربي ، الكويت ، العدد/ ١٦٤/ ، ١٩٧٢م
مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد/ ٢٦ / ، آذار ، ١٩٨٢م
مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الانماء القومي ، بيروت ، العدد (١٨ -١٩) ، شباط ، آذار ، ١٩٨٢م
مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الانماء القومي ، بيروت ، العدد(٢٣) ، كانون الأول ، ١٩٨٢م ، كانون الاول ، ١٩٨٢م ، كانون الثاني ، ١٩٨٣م
مجلة الفكر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، العدد (٦٧) سبتمبر ، ١٩٧٠م
مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد (٣٤) ، آذار ، ١٩٨٠م ، السنة الثالثة
مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، (مجمع اللغة العربية) .
المجلد / ٢/ ، ١٩٢٢م
المجلد / ٣/ ، ١٩٢٣م
المجلد / ٩/ ، ١٩٢٩م
المجلد / ١٠/ ، ١٩٣٠م
المجلد / ١١/ ، ١٩٣١م
المجلد / ١٢/ ، ١٩٣٢م
المجلد / ٢٠/ ، ١٩٤٥م
المجلد / ٢١/ ، ١٩٤٦م
المجلد / ٢٣/ ، ١٩٤٨م
المجلد / ٢٤/ ، ١٩٤٩م
المجلد / ٢٥/ ، ١٩٥٠م
المجلد / ٢٨/ ، ١٩٥٣م
المجلد / ٣١/ ، ١٩٥٦م
المجلد / ٣٩/ ، ١٩٦٤م
المجلد / ٤٢/ ، ١٩٦٧م
المجلد / ٥١/ ، ١٩٧٦م
مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة
الجزء / ٨/ ، ١٩٥٥م
الجزء / ٩/ ، ١٩٥٧م
البحوث والدراسات لدورة (٣٣) ، ١٩٦٦ - ١٩٦٧م
البحوث والدراسات لدورة (٣٤) ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨م
مجلة المعرفة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، العدد(١٧٨) ، كانون الأول ، ١٩٧٦م ، عدد خاص
= اللغة العربية والعصر .
مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد(١٢٠) ، نيسان ، ١٩٨١م العدد (١٢٢) ، حزيران ، ١٩٨١م العدد(١٣٥ - ١٣٦) تموز - آب ، ١٩٨٢م
العدد (١٣٨ - ١٣٩) ت ١ ، ت ٢ ، ١٩٨٢م

❊❊❊

المراجع باللغة الفرنسية

Dubois (J.), Giacomo (m,) Guespin (L.) Marcellesi (J.B.).

Mevel (J.P.).

Ductionnaire de linguistique, Larousse, Paris 1973.

Guiraud (P.)

La semantique Que sais-je? presses universitaire de France 8e edition, Paris 1965.

مطالعات

قضية التعبير عن الحب عند الشاعرات

عبده بدوي

الأستاذ بكلية الآداب ـ جامعة الكويت

- ١ -

لوحظ أن المرأة في القديم كانت مقدسة ، لأن دور الرجل في الخصوبة كان مجهولا ، ومعنى هذا أنها كانت سر الوجود ، وخالقة الحياة ، والمجددة لها ، ولهذا كان من الطبيعي أن تُعبد ، وأن يُنْسَب إليها ، وأن تتشكل المجتمعات الأولى من المجتمعات « الأمومية » التي يتم فيها الميراث عن طريق الأم ، والتي ينتقل إليها الرجل حين يتزوج من فتاة ، تاركا مجتمع أبيه من ورائه ، ومجتمع كهذا المجتمع جعل المرأة تُبدع في العديد من الميادين ، فهناك من يقول أن النساء هن اللاتي ابتكرن الزراعة نظرا لأن عملية « جمع الثمار » والتعامل مع أدوات الحفر كانت من اختصاص النساء » . لقد كانت النساء في العصر الحجري الحديث هن بلاشك مصدر الحياة ، ليس فقط لاستحواذهن على خصائص القمر السحرية التي مكنتهن من ولادة البشر ، بل لاكتسابهن السيطرة على الأرض والشمس حتى يستطعن إقامة أود الحياة التي قدمتها ، فالنساء كن يبدون وكأنهن مصدر الخصب كله ، ومصدر الحياة كلها ، وكانت الآلهة الكبرى عند الشعوب الزراعية ـ أي ربات الأرض ـ هن اللواتي يحيين الأرض بعد موتها فتزهو وتثمر ، وهكذا اتخذ القدماء من بلاد ما بين النهرين الربات الأمهات « تيامات » ، « ونيهورساج » ، و « عشتار » ، واتخذ قدماء الهنود من الهندوس التربة « كالي » ، كما اتخذ المصريون « إيزيس »[١] وإذا كانت القرية الأولى ثمرة للخصائص الجنسية الأنثوية ، فإن المدينة ثمرة الخصائص الجنسية الذكورية على رأي بعضهم .

١ ـ القرب والعالم . كالفن رايل . ترجمة الدكتورين عبد الوهاب المسيري وهدى حجازي . القسم الأول ص ٥٤ ، وتأمل ما جاء في ص ٥٥ « ومازالت خصوبة الأرض في المجتمعات الزراعية إلى يومنا هذا مقترنة بخصوبة النساء ، فينبغي أن تقوم النساء بزراعة القمح لأن النساء يعرفن كيف ينجبن الأطفال ، والزوجة العاقر مؤذية للحديقة ، وهناك كثير من العادات تربط العروسة بالقمح ، فهم يذرونها بالقمح أو يكللونها به ويعتقد كثير من الشعوب أن البذور تصيب حظاً أوفر من النمو إذا تولت غرسها امرأة حبلى . وفي مجتمعات أخرى يقتصر جني المحصول على النساء العاريات الصدور ، زعما منهم أن هذا سوف يضمن غلة أوفر . ومازلنا بطبيعة الحال نذر الأرز على العرائس جريا على عادة أجدادنا الذين كانوا يعتقدون أن هذا يكفل الخصوبة » .

ومع التدرج وجدنا بعد الآلهات ، الكاهنات ، والساحرات ، والعرّافات ، بالإضافة إلى الملكات والمُجيرات ، ومايهمنا من هذا كله هو انعكاس ذلك على الفن التشكيلي والتعبيري ، فقد كانت هناك ظاهرة تضخيم الأعضاء التناسلية عند المرأة حينما كان يقام لها تمثال أو نقش ، ففي الوقت الذي كانت تترك فيه الوجوه بلا ملامح ، كان هناك الإلحاح على تقديم هذه الأجزاء بطريقة بارزة وضخمة وجمالية ، ذلك لأن ما كان يهمهم في المقام الأول كان التركيز على مصادر الخصوبة واستمرارية الحياة[٢] .

.. فإذا جئنا للعرب القدامى ، وجدنا هذا الرأي الذي يقول إن شعر الغزل كان في الأصل أدعية ، وصلوات ترفع للآلهات ، ثم كان تحوّله بعد ذلك ـ عن طريق التدهور والطفرة ـ إلى الغزل في المرأة ، فالإنسان القديم كان يُخطِّط أول ما يخطط لمعبده ، ثم إنه كان يلتحق بخدمة الآلهة في الهياكل ، ومن المعروف أن المعبد الوثني القديم كان يضم فيما يضم طائفة الآلهة الثانوية « وربما كانت على صورة المرأة »[٣] ، ومعنى هذا أن ظاهرة القداسة بالنسبة للمرأة كانت موجودة ، فقد عرفت منهن آلهات ـ كاللات ومناة ـ وساحرات وكاهنات كثيرات .

ثم إنهم كما حدّثنا القرآن خلعوا الطابع الأنثوي على الملائكة ، وتأمل قول الله في أهل الجاهلية « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » النحل ٥٦ ـ ٥٩ ـ وأنثوا الأشياء الكبيرة كالأرض ، والحياة ، والشمس ـ وجعلوا لها رموزا مقدسة هي الغزالة ، والمهاة ، والنخلة ، والدُّرَّة ـ ولعله قد ترتب على هذا وجود صورة « المرأة المثال » التي ظلت مهيمنة على صورة المرأة في الشعر العربي حتى الآن . ومعنى هذا أن المرأة نُظِرَ إليها كالآلهة ، ثم بعد ذلك تحولت إلى جوهر مُشْرَب بالألوهية . ولعل في هذا إشارة إلى ما قيل من أن الرجل يحس بالنُّقص إزاء المرأة فيندفع لعشق ذاته !

والآن إذا كان موضوع الدراسة هو بَوْحُ المرأة العربية الشاعرة عن عاطفة الحب ، فهل يُعتبر الطريق إلى هذا مُعَبّدا ؟ وبخاصة ونحن نعرف أن المرأة العربية بفضل ظروف حياتها في مجتمعها كانت كتومة ، فقد تكون أكثر لهفة من الرجل على الاستمتاع بالحب ، ولكنها تعرف كيف تكتم عواطفها ، فهي تحبُّ ـ بعد أن تلقى شباكها ـ أن تكون المطلوبة لا الطالبة ، وإذا كان المجتمع العربي قد عرف كيف يمنع الشاعر عن حبيبته إذا أراد الزواج لأنه شبّب بها ، فإنه كان أشد قسوة على المرأة حين تُصرِّح بحبها ، ثم إنّ العربي كان يحبها مطلوبة لا طالبة على حد قول سليك بن السلكة :

يحباك وصال ذات البذل قلبي
وأتبع الممنعة النَّوارا[٤]

وقد سار الشعراء على هذا الطريق ، على حدّ ما نعرف من قول ابن رشيق « .. قال بعضهم ـ أظنه عبدالكريم النهشلي ـ العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزّل ، وهو المُتماوِتُ ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة المخاطبة ، وهذا دليل على كرم النُّحيزة في العرب وغيرتهم على الحُرم[٥] » ولأمر ما يلاحظ أن الكتب الأمهات[٦] يندر أن نجد فيها هذا

٢ ـ بزوغ العقل البشري . نورمان بريل . ترجمة اسماعيل حقي ١٣ ، ١٤ وتأمل التعليل لذلك « فبالنسبة لهذه المجتمعات البدائية ، كان الاحتياط لتحصين أنفسهم ضد أخطار البيئة ، والحاجة إلى تأكيد أنهم سيبقون أبداً .

٣ ـ قضايا حول الشعر . عن جامعة الكويت ٥٠ . عبده بدوي ص ٤٠

٤ ـ الأغاني ٤ / ٣٦٤

٥ ـ العمدة ٢ / ١٤٨

٦ ـ أنظر الطبقات لابن سلام ، والمفضليات للضبي ، ومعجم الشعراء للمرزباني ، والمؤتلف والمختلف للآمدي والحماسة لأبي تمام والبحتري ... الخ . وتأمل مقولة بشار بن برد : لم تقل امرأة شعراً إلا تبين الضعف فيه ، فلما قيل له : أوكذلك الخنساء ؟ قال : تلك فوق الرجال .

النوع المتوهّج من التعبير عن عاطفة الحب ، وقد كان وراء ذلك ـ بالإضافة إلى ماسبق ـ حرصُ الرواة في هذه الفترة على التّعامل مع « الغَريب الأعرابي الجَزْل » والنساء ليس لهن في هذا المجال الكثير ، ثم إنهن لم يكن يعدّدن الأغراض كشعر الرّجال ، وإنما كن عادة يوحدن الغرض ، بالإضافة إلى أن مجالهن في الحروب كان محدودا ، ومن المعروف أن شعر الحماسة كان هو المسيطر على الكتب الأمهات ، ومن المعروف أن دورهن في الرِّواية والنقد كان محدودا كذلك ، وما روي من مشاركات نساء كالفارعة بنت أبي الصَّلت وأم جندب ، وابنة الأعشى ، وعمرة الجمحيّة . . الخ يعتبر محدودا ، ولهذا كان من الطبيعي أن يُظلم شعر المرأة ، فإذا قيل أن الشعر العربي فُقد منه الكثير ، على نحو ما يقرر رجال كأبي عمرو بن العلاء ، وابن سلّام ، فإننا نوافق على هذا ، ولكن من غير المعقول ، أن تكون عملية الفقد قد وقعت بصفة خاصة على شعر النساء وبخاصة حين نعرف أن هناك شعرا قيل على ألسنتهن من الرجال كقول امرأة في رثاء :

ألا تفهمين الخَبَرَ أن لَسْتُ لاقيا
أخي إذْ أتى من دونِ أكفانه القبرُ

فكلمة « لاقيا » تدل على أن القائل رجل لا امرأة[7] ، ومعنى هذا أن المجتمع كان يسمح بشيء من هذا ، والمشاهد أن بعض الشاعرات ابتداء من العصر الجاهلي قد أوصدن هذا الباب ، على نحو مانعرف مثلا من « الخرنق بنت بدر بن هفّان » فقد جاء في مقدمة ديوانها « لم تنظم في غير الرثاء والهجاء »[8] .

. . من كل هذا نعرف أن المرأة في الجاهلية قد قصّرت في التّعبير عن هذا الجانب ، وفي حراسة ما كتبت ـ على حياء ـ وقد كان وراء هذا الخوف من المجتمع ، وسنرى أن هذا الخوف سيظل يُلقي ظلاله ، على شعرها حتى في وقتنا الحاضر ، فرحلة الخوف لم تقف عند عصر دون عصر ، وإن كانت العصور ستتمايز في نسبة الحرية التي تعطيها للمرأة . وفي ضوء هذا يلتحق هذا المجتمع بما يسمى « الحضارة الفمية » عند علماء النفس ، حيث يكون الابتلاع والمص هو المسيطر على الحياة .

ولكن أين نجد طاقة التعبير عن حب المرأة في الجاهلية ؟ في الواقع إننا سنجد التعبير عن عشق المرأة ، وطريقتها في ممارسة العشق عند الرجل أكثر مما هو موجودة عند المرأة ، فإذا أخذنا المعلقات مثلا ، فإننا سنجد أنها تضم عنصرين أساسيين هما جسد المرأة منظورا إليه من الخارج ، وعلاقة الرجل بالمرأة من حيث هي الشق الآخر للوجود البشري ، فكل منها كان في حاجة إلى الآخر[9] ، ولنأخذ مثلا هذا الأنموذج لامرىء القيس ، وسنتعرف منه على طريقة ممارسة المرأة للحب :

ويارُبَّ يوم قد لهوتُ وليلة
بآنسة كأنها خطُّ تمثال
إذا ماالضَّجيعُ ابتزَّها من ثيابها
تميلُ عليه هَوْنَةً غير مِجْبال
فلما تنازعنا الحديث ، وأسْمَحتْ
هَصَرْتُ بغصْن ذي شماريخ مَيّال
وصِرْنا إلى الحُسنى ، ورقَّ كلامنا
ورُضْتُ فذلَّتْ صَعْبة أيَّ إذلال[10]

---

٧ ـ المرأة في الشعر الجاهلي . د . أحمد الحوفي ط ٢ ص ٦١٠
٨ ـ ديوانها تحقيق د . حسين نصار ، وهي أخت غير شقيقة لطرفة بن العبد ، وهي القائلة فيه :

عددنا له خمسا وعشرين حجة ... فلما توفّاها استوى سيدا ضخما
فُجِعْنا به لما انتظرنا إيابَهُ ... على خير حين لا وليدا ولا قحما

٩ ـ بحوث في المعلقات . يوسف اليوسف ٢٧٧ ، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام . د . شكري فيصل ١٥١ ، ١٥٢
١٠ ـ ديوانه ص ٢٩ ، ٣٠

فاذا خرجنا من ساحة المعلقات ، وفيها الكثير من طريقة تعاطي المرأة للحب ، تجد مثلا هذا الأنموذج للشنفرى الأزدي :

الا أم عمرو أجمعت فاستقلت
وما ودعت جيرانها إذ تولت
.. لقد أعجبتني لاسقوطا قناعها
إذا مامشت ولا بذات تلفت
تبيت بُعَيْد النوم تهدي غبوقها
لجارتها ، إذا الهدية قلت
.. إذا هو أمسى آب قرة عينه
مآب السعيد ، لم يسل : أين ظلت
فدقت ، وجلت ، واسبكرت ، وأكملت
فلوجُنّ إنسان ، من الحسن جُنّت
فبتنا كأنّ البيتَ حُجّرَ فوقنا
بريحانة ، ريحت عشاء وطُلّت
بريحانةٍ من بطن حَلْية نَوّرت
لها أرجٌ ، ما حولها غير مُسْنِت(١١)

إذا كان هذا ما تعطيه الحبيبة والزوج ، فإن هناك ما تعطيه العشيقة ، وطريقتها في العطاء ، على حد ما نعرف من مغامرات سحيم عبد بني الحسحاس الغزيرة ، فهو يقول في واحدة منهن :

فيا ليتني من غير بلوى تُصيبني
أكون لأجمال ابن أيمن راعيا
وفي الشرْط أني لا أُباع ، وأنهم
يقولون تُخبّ يا عفّ العذاريا
فأسْندُ كسلى ، بزّها النومُ ثوبَها
الى الصدْر ، والمملوك يلقى الملاقيا
فلما أبت لا تستقل ضممتُها
ترى الحسن منها والملاحة باديا
وبتنا وسادانا إلى علجانةٍ
وحقف تهاداه الرياحُ تهاديا
توسّدني كفا ، وتُثْني بمعصم
عليّ ، وتحوي رجلها من وراثيا
وهبّت لنا ريحُ الشمال بقرّة
ولا ثوب إلا بردُها وردائيا
... وأشهد عندالله أن قد رأيتُها
وعشرين منها إصبعا من ورائيا(١٢)

فاذا تركنا هذه النماذج الصارخة في عالم الحس ، وذهبنا إلى الذين دخلوا في دائرة ما يسمى بالشعر العفيف ، وعرفوا بواحدة فقط كعبدالله بن علقمة الذي يقول في حبيشة :

فإن يقتلوني يا حبيشُ فلم يدع
هواك لهم مني سوى غلّة الصدْر
وأنت التي أخليت لحمي من دمي
وعظمي ، وأسْبلتِ الدموع على نحري

وكالمرقش الأكبر الذي يقول في أسماء :

وربّ أسيلة الخدين بكْرٍ
منعّمة لها فَرْعٌ وجيدُ
وذو أشر شتيت النبْت عذب
نقيّ اللون براق برود
لهوتُ بها زمانا في شبابي
وزارتها النجائبُ والقصيد(١٣)

ومن هذين الأنموذجين - وغيرهما - نلاحظ أن ما اصطلح على تسميته بالشعر العفيف ، لم يكن يخلو تماما من الجسد ، فعملية الإلغاء لا تستقيم مع واقع الصلة

---

١١ - شرح اختيارات المفضل . تحقيق د . فخر الدين قباوة ١/ ٥١٣ - ٥٢٢
١٢ - ديوان سحيم - المكتبة العربية
١٣ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢١٠ الأغاني ٦/ ١٢٣

بين العواطف والغرائز في الطبيعة البشرية[١٤] . . . وما يهمنا من هذا كله أن الشاعر الجاهلي قدم هذا النوع من المناءات التي كان يستدعيها الحب ، وقد صور المرأة مشاركة في هذا الجانب ، ومستمتعة كالرجل وأكثر ، مع ملاحظة أن أكثر ما تأتي به يتم من خلاله ! مع ملاحظة أنه سيدور أكثر ما يدور في دائرة « الغزل » لا دائرة « الحب » .

- ٤ -

فإذا جئنا للمرأة في الشعر الجاهلي وجدناها محاصرة ، وغير مقبول منها البوح ، فقد كانت تهدد - إن فعلت بالضرب ، وبالطلاق ، وبقطع اللسان .

فعندما تزوج عقيل امرأة من قبيلته ، وسمعها تترنم ببيت من الغزل ، قال لها : لعلك عاشقة ، وأنذرها إن عادت لما فعلت ليوجعنّ ظهرها وبطنها ، فقالت :

فإن تَضْربوا ظَهْري وبطْني كليهما
فليس لقلب بين جَنْبيَّ ضاربُ

يقولون : عز النفس ممّن تودُّه
وكيف عزاء النّفس والشوقُ غالبُ

فما كان منه إلاّ أن طلقها ، ولقد كانت هناك امرأة لحمية تسمى سعدى تحب ابن عم لها فلما خاف أهلها عليها من هذا الحب ، أنذروها بأنها إذا نطقت فيه بشعر سيقطعون لسانها ، فما كان منها إلا أن قالت :

خليليّ إن أصعدتما أو هبطتما
بلادا هوى نفسي بها فاذكرانيا

ولا تدعا إن لامني ثمّ لائم
على سخط الواشين أن تعذرانيا

فقد شفّ جسمي بعد طول تجلدي
أحاديثُ من عبسى تُشيبُ النّواصيا

سأرعى لعبسى الودّ ما هبَّتِ الصَّبا
وإن قطعوا في ذاك عمدا لسانيا

كما كانت هناك من غلب البوح قدرتها كقول امرأة من كلثم في كعب بن طارق :

فإن تسألوني من أحبُّ فإنني
أحب - وبيت الله - كعبَ بن طارق

أحب الفتى الجعدَ السلوليّ ناضلا
على الناس معتادا لضرْب المفارق

وقد تولهت فارعة بنت ثابت في عبدالرحمن بن هشام المخزومي فقالت :

ياخليلي نابني سهدي
لم تنم عيني ولم تكد

فشرابي ما أسيغ ، وما
أشتكي مابي إلى أحد

كيف تلحوني على رجل
آنس تلتذُّه كبدي

مثل ضوء البدر صورته
ليس بالزُّميلة النكد

من بني آل المغيرة لا
خامل نكْس ولا جحد

نظرت يوما فلا نظرتْ
بعده عيني إلى أحد !

وإلى جانب ذلك توجد المرأة المطلقة التي لا تنسى الحنين إلى زوجها ، كما فعلت زينب بنت فروة المريّة التي طلقها ابن عمها ، وكما فعلت أم الضحاك المحاربية حين طلقها زوجها فقد قالت :

هل القلبُ إن لاقى الضّبابيَّ خاليا
لدى الرُّكْن أو عند الصفا مُتَحرِّجُ ؟

وأعجلنا قربُ المحلّ ، وبيننا
حديث كتنبيج المريضين مُزْعج

حديث لو أن اللحم يُصْلَ بحرِّه
طريا .. أتى أصحابه وهو مُنْضجُ

١٤ - الحب المثالي عند العرب . د . يوسف خليف ٤٨

وإذا كان الرجل المطلق يقف هنا في ساحة الظلم ، فإنه يقف إلى جانبه كذلك الرجل الناكث للعهد ، بعد أن باح بالحب ، على نحو ما قالت ابنة عم لرجل من عقيل اسمه صخر(١٥) .

.. وهناك من يتعامل مع الجنس على نحو رمزي أو مكشوف(١٦) ، كما أن هناك من يرمز للحبيب بالوطن ، وبـ « نجد » على وجه الخصوص ، على نحو ما نعرف من « أسماء المرية » في قولها :

أيا جبليْ وادي عُرَيْعِرة التي
نأتْ عن ثوى قومي وحُمّ قدومُها

ألا خلّيا مجرى الجنوب لعلّه
يداوي فؤادي من جواهُ نسيمُها

وكيف تداوي الريحُ شوقاً مُماطلاً
وعيناً طويلاً بالدّموع سُجُومُها

وقولوا لركبانٍ تميميّةٍ غدت
إلى البيت ترجو أن تحطّ جُرُومُها

بأن بأكنافِ الرُّغام غريبةً
موقفةً تشكل طويلاً نشيجُها

مقطعةً أحشاؤها جوى الهوى
وتبريح شوق عاكف مايريمها(١٧)

---

١٥ - أشعار النساء للمرزباني تحقيق د . سامي مكي العاني ، هلال ناجي ص ٨٨ ، بعض النصوص التي جاءت في المرأة في الشعر الجاهلي . د . أحمد الحوفي ٦٥٨ ، ٦٥٩

١٦ - تأمل ما قيل عن ذي الأصبع العدواني الذي كان لا يزوّج بناته غيرة ، وفي يوم سمعهن يتناجين ، وهن لا يبصرنه ، فقالت كبراهن :

ألا ليت زوجي من أناس ذوي غنى — حديث الشباب طيب النشر والذكر
لصوق بأكباد النساء كأنه — خليفة جان لا يقيم على هجر

فقالت الأخوات : أنت تحبين رجلا ليس من قومك . وقالت الثانية :

ألا ليته يُعطى الجمال بديئة — له جفنة تشقى بها النيب والجزر
له حلمات الدهر من غير كبرة — تشين فلا فان ولا ضرع غمر

فقلن لها : أنت تريدين سيدا ، وجاء دور الثالثة فقالت :

ألا هل تراها مرة وضجيعها — أشمّ كنصل السيف عين المهند
عليما بأدواء النساء ورهطه — إذا ما انتهى من أهل بيتي ومحتدي

فقلن لها : أنت تريدين ابن عم لك ، وقلن للصغرى : ما تقولين ؟ فقالت : لا أقول شيئا ، فقلن : لا ندعك وذاك ، إنك اطلعت على أسرارنا ، فقالت : زوج من عود خير من قعود .

.. حين سمع هذا الأب زوّجهن ، وأمهلهن حولاً ، ثم زار الكبرى وحين سألها عن زوجها قالت : خير زوج يكرم أهله ، وينسى فضله ، وحين سألها عن ماله قالت : الإبل ، فقال : زوج كريم ، ومال عميم .

.. وحين زار الثانية وسألها عن الزوج قالت : يكرم الحليل ، ويقرّب الوسيلة ، وحين سألها عن المال قالت : البقر ، فقال : رضيت وحظيت .

.. ثم زار الثالثة ، وحين سأل عن الزوج قالت : لا سمح بذر ، ولا بخيل حكر (مقتر) وحين قال : فما مالكم ؟ قالت : المعزى ، فقال : جذو مغنية (الجذو جمع جذوة وهي القطعة) .

.. وحين زار الرابعة وسأل عن زوجها قالت : شر زوج ، يكرم نفسه ، ويهين عرسه ، وحين سأل عن المال قالت : شر مال الضأن ، فقال المثل المعروف ، « أشبه امرأ بعض بزّه » وهو يضرب للمتشابهين أخلاقا .

.. وانظر روضة المحبين ص ١٣٦ ، وتأمل ما جاء في الحماسة شرح التبريزي ص ٤٠١ قول امرأة :

كأنّ خُصْيَيْه إذا ما جبّا — دجاجتان تلقطان حبّا

- الجب انحناء الظهر ومد اليدين إلى الأرض ورفع الأليتين . وهناك كلام عن الحمارس العقيلي الذي كان غيورا لا يزوج بناته ، فقد جاء في أشعار النساء ص ١٥٢ أنه قعد يوما بفناء بيته يبري وتدا ، وكان رجلا أيم طوالا ، فنظرت إحدى بناته إليه وقالت :

بيبه الأشكنين بدا — مثل ذراع الشيخ يبري وتدا
لا يبتغي أن يخرج أو يكسدا

فقال : اسكتي قصر الله فاك ، فقالت الثانية ، أو لي :

يا من يدل ضربا على صلب — مكورة الساقين خشباء الركب
تساير الدهر إذا (..) وقب — دقدقة البيرذون في أخرى الجلب

- ويلاحظ هنا في الشطر الثاني من البيت الأول أنها شخصت في الجهاز التناسلي . فالأخشم هو الجهاز [illegible] كما عرف الفكر القدامي حين ركزوا على هذا الجانب ، المهم أن الرجل لم ينس حق زوجها .

١٧ - الأمالي . أبو علي القالي ٢/ ١٩٧ ط دار الكتب .

« ومن الأدلة على أن نجدا صار رمز تركيز الشاعرات عليه »[١٨] وهو تركيز يؤكد على رفض المجتمع للإصغاء إلى سماع صوت الأنثى بوضوح .

- ٥ -

حين جاء الإسلام رأيناه يكرم المرأة ، ويعطيها حقوقا لم تكن تتمتع بها ، ويرتفع بالعلاقة بين الرجل والمرأة إلى « المودّة والسكن » ، كما أنه رفع عنها الكثير من المعوقات كحظر نكاح امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، وما يسمى « العضل » وله صور كثيرة يجيء في مقدمتها منع الورثة المتوفى عنها زوجها من الزواج ما لم تفد نفسها ، وما يسمى الزواج بالميراث ، وذلك حين يطرح الابن الأكبر ثوبه على زوجة أبيه المتوفى ، وإذا كان قد أبطل « الظهار » فإنه قد أقر « الخلع » لصالحها ، وفي الوقت الذي أعطاها فيه حق الميراث أعطاها الحق في أن تكون العصمة بيدها ، وطلب الطلاق للضرر .. الخ .

وقد كرم النبي المرأة الشاعرة ، فقد كان يستزيد من شعر الخنساء ، وحين عاتبته قتيلة بنت الحارث على مقتل أبيها واسمعته شعرا قال : لو كنت سمعت شعرها هذا ماقتلته[١٩] .. وقد سار الخلفاء بعد ذلك على هذا الطريق ، فإنه يروى أن أبا بكر حين كان يسير في أحد طرق المدينة سمع جارية تطحن وتقول :

وعشقتُه من قبل قطع تمائمي
متمايسا مثل القضيب الناعم
وكأن نورَ البدر سنة وجهه
يَنْمي ويصعد في ذؤابة هاشم
وأنا التي لعب الغرامُ بقلبها
فبكتْ بحب محمد بن القاسم

فما كان منه إلا أن دق بابها ، وحين خرجت إليه قال لها : ويلك أحرة أم مملوكة قالت : مملوكة يا خليفة رسول الله ، فما كان منه إلا أن سار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب[٢٠] ، ويبدو أن أسلوب المجاهرة في المدينة كان عالي الصوت من النساء ، فمن المعروف أن عمر في طوافه بالمدينة سمع « فريعة بنت همام » تقول :

يا ليت شعري عن نفسي أزاهقه
مني .. ولم أقض مافيها من الحاج
هل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل
سهل المحيّا كريم غير ملْجاج
تنميه أباء صدق حين تنسبه
أخو قداح عن المعروف خراج

ومن المعروف أن عمر أحضر إليه نصر بن حجاج ، وحين لحظ فتنته على النساء قال : والله لا تساكنني ببلدة أنابها وسيره إلى البصرة[٢١] ، وما يهمنا من هذا كله هو حرية المرأة في رفع صوتها في هذا الوقت المبكر بالمدينة ، بل ازدهار الشعر النسائي ، وتعدده في هذه الفترة التي عرفت شاعرات مثل : هند بنت عتبة بن ربيعة وصفية بنت مسافر بن أبي عمر بن أمية ، وهند بنت أثاثة بن عباد بن عبدالمطلب ، وقتيلة بنت الحارث ، وصفية بنت عبدالمطلب ، ونعم امرأة شماس بن عثمان ، وأروى بنت الحارث[٢٢] ، بالإضافة إلى صوت الخنساء الجهير .

١٨ ـ قضايا حول الشعر . د . عبده بدوي ٧٥ ط جامعة الكويت
١٩ ـ المتع في علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي تحقيق د . المنجي الكعبي ت ١٧
٢٠ ـ أخبار النساء لا بن القيم الجوزية ١١٥
٢١ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي ص ٨٤ . ويقال أنها حين عرفت ما كان من أمر عمر كتبت اليه تقول :
قل للإمام الذي تخشى بوادره ... مالي وللخمر أو نصر بن حجاج .. الخ
٢٢ ـ سيرة ابن هشام ٤٠١٣

.. وقد استفاض حديث المرأة عن الحب في عصر بني أمية ، فقد عبرت عن مشاعرها بوضوح وجرأة ، فهناك مثلا أم خالد الخثعمية التي ذهبت في عشقها لجحوش العقلي إلى مدى كبير ، فقد قالت :

فليت سماكيا يطيرُ ربابه
يقادُ إلى أهل الغضا بزمام
ليشرب منه جحوش ويشيمهُ
بعيني قطاميٍّ أغرَّ شآمي
بنفسي عينا جحوش وقميصه
وأنيابه اللاتي جلا ببشام
فأقسم أني قد وُجدتُ بجحوش
كما وجدت عفراء بابن حزام
وما أنا إلا مثلها غير أنني
مؤجلة نفسي لوقت حمام
فإن كنت من أهل الحجاز فلا تلجْ
وإن كنت نجديا فلجْ بسلام[٢٣]

وإذا كنا سنتقابل مع قصة حب رقيقة بين ليلى الأخيلية وتوبة ، وكيف رسمت لتوبة اكثر من صورة منها :

وذي حاجةٍ قلنا له لاتبح بها
فليس إليها ماحييت سبيل
لنا صاحب لاينبغي أن نخونه
وأنت لأخرى فارغ وحليل[٢٤]

.. فإننا سنتقابل مع امرأة عابثة تسمى أم الورد العجلانية ، قال ابن الكلبي تزوجت برجل فعجز عنها فقالت :

والله لا يمسكني بضمُ
ولا بتقبيل ولا بشم
ولا بزعزاع يُسَلّ همي
تطيحُ منه فتخي في كمي

كما قالت فيه :

إن تسألوني عنه ماكان الخبر
عذَّبني الشيخُ بأنواع السُهر
حتى إذا ماكان في وقت السحر
وركّب المفتاح في القفل انكسر

ولها شعر في زوج آخر لا يقل عن هذا الشعر جراة[٢٥] ، ووجهات النظر في الرجال كثيرة كقول رملة

---

٢٣ الأمالي ٢ / ١٠

٢٤ ـ لها شعر كثير في توبة ، وقد قال لها الحجاج يوما : هل كان بينكما سوء ، فقالت : أرسل رسولا الى مصاربنا ينشد.

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة ... من الدهر لا يسري إلى خيالها

فظننت أنه جنح لبعض الأمر فقلت :

وعنه عفا ربي ، وأصلح حاله ... فعزّ علينا حاجة لا ينالها

ـ أشعار النساء للمرزباني ص ٥٣ .

٢٥ ـ نفسه ص ١١٠ وتأمل قولها

رب غلام قد صرى في فقرته ... صرى : جمع
ماء الشباب عنفوان شدته
يمشي بصرة قدحنا من ركبته ... كل شيء منعطف شديد عمود
ألمس لا من أود في خلقته ... القمس : نتوء في الصدر خلقة
ألمظ حتى اشتد سم فقحته
وارتفعت خصيته في عانته
وقربت عانته من سرته ... العانة : الكثيب
وانقلبت جلدة أصل فروته
فهو اذا نغنغه لدغمته ... نغنغه : حركة
يمتاب في السلك عند رهزته ... الرهز : الحركة
تقاعس الضب صعا في كديته ... الكدية : عصا غليظة صلبة

بنت كرز بن عمرو بن ربيعة ، فقد كانت تحت كعب بن معاوية فلما مات خطبت لغيره فقالت :

اني والبعولة بعد كعب
كشاري قرمة بابن المخاض(٢٦)

وقد قيل شعر كثير ماجن فيه تعريض بعالم الجنس ، وقد كن يتباهين بالتعامل مع هذا الجانب ، كقول عشرقة المحاربية حين هرمت وتذكرت ماكان في ماضيها :

جريتُ مع العشاق في حلبة الهوى
فـفقتهم سبقا وجئت على رسلي
فما لبس العشاق من حُلل الهوى
ولا خلعوا الا الثياب التي أبلي
ولا شربوا كأسا من الحب مرة
ولا حلوة إلا شرابهم فضلي(٢٧)

. . ومن هذا وغيره نعرف أن المرأة في صدر الإسلام وفي العصر الأموي قد عبرت عن نفسها في العديد من المجالات الخطرة ، وأنها لم تكن في حاجة إلى الرجل ليتكلم بلسانها في العديد من القضايا التي كانت تحب معالجتها ، وإن كنا نلاحظ أن الرجل لم يسلمها كافة الأسلحة ، وما كان له أن يسلمها ذلك لأنه لاغنى لواحد عن الآخر وامتدادا للوصاية القديمة ، سمعنا صوت الرجل ، ولكن ليس بالصورة التي كان عليها هذا الصوت في الجاهلية ، ففي ديوان الأخطل مثلا نراه يتكلم عن قضية الزواج الثاني فيقول :

كلانا على هم يبيتُ ، كأنما
بجنبيه من مسّ الفراش قروح
على زوجها الماضي تنوح ، وإنني
على زوجتي الأخرى كذاك أنوح !

والفرزدق قال كلاما كثيرا بعد أن طلق « نوارا » وحزن على هذا ، ويتكلم عن حالات العشق باقتدار عند النساء حين يقول :

إذا ما أتاهن الحبيبُ رشفنه
كرشْف الهجان الأدْم ماء الوقائع
يكنّ أحاديث الفؤاد ، نهارهُ
ويطرقْن بالأهوال عند المضاجع

وسالم بن وابصه يتكلم عن إحساس المرأة بالشيب :

صدت هنيدة لما جئتُ زائرها
عني بمطروفة انسانُها غرقُ
وراعها الشيبُ في رأسي فقلت لها :
كذاك يصفرُّ بعد الخضرة الورق !

وسلمه بن الحارث يقدم عالم المرأة المبهج ، وطريقتها في التعامل مع هذا العالم .

تأرَّجُ هنديا ومسكا معا
كأرَج المجْمَر للناصب
يضيء في الظلمة محرابها
ضوء سراج البيْعة الشاقب
لما أتتني سُلبتْ درعها
واطُرد المسلوبُ للسالب
ياعذها الويلُ على نزعها
والدرعُ يخفي عجب العاجب !

أما « نصيب » فيدين إحدى النساء بقوله :

أراك طموح العين ، ميالة الهوى
لهذا وهذا منك ود ملاطف

٢٦ ـ نفسه ص ١١٩ ، والقرم صغار الأبل ، ابن المخاض : يقال للفصيل إذا استكمل سنه ودخل في الثانية .
٢٧ ـ شاعرات العرب ٩١ ، ومثل هذا ما جاء عن ضاحية الهلالية التي تقول :

شكلت أبي ان كنت ذقت كريقه | سُلافا ، ولا ماء من المزن صافيا
وأقسم لو خُيِّرتُ بين فراقه | وبين أبي ، لاخترت أن لا أبا ليا
فان لم أوسِّد ساعدي بعد هجعة | غلاما هلاليا ، فشُلَّتْ بنانيا

فإن تحملي ردفين لا أك منهما
فحسبي بردف لست ممن يرادف

ولنتأمل هذه الصورة الجمالية التي رسمها ذو الرمة لصاحبته مية :

زين الثّياب وإن أثوابها اسْتُلِبت
على الحشيّة يوما زانها السّلبُ
إذا أخو لذة الدنيا تبطّنها
والبيت فوقهما بالليل مُحْتجِب
تزداد للعين إبهاجا إذا سَفَرَتْ
وتَحرج العينُ فيها حين تنتقب
ليْست بفاحشةٍ في بيت جارتها
ولا تُعابُ ولاتُرمى بها الرِّيَب
إن جاورتْهن لم يأخذن شيمتها
وإن وشينَ بها لم تدر ما الغضب ؟
ضَمّتُ الخلاخيل خور ليس يعجبها
نسْجُ الأحاديث بين الحيِّ والصُّخب
وحبُّها لي سواد الليل ، مرتعدا
كأنها النار تخبو ثم تلتهب !

. . على أننا نرى صورة المرأة واضحة كل الوضوح من خلال اتجاهين برزا في هذه الفترة ولقد تحقق الاتجاه الأول على يد « عمر بن أبي ربيعة » الذي قام بانحناءة في الاتجاه الغزلي ، وذلك حين جعل المرأة طالبة لا مطلوبة ، وحين أكثر من الرسائل والرسل واقترب من الأسلوب القصصي ، وتعامل على وجه الخصوص مع الحوار بطلاقة(٢٨) أما الاتجاه الثاني فقد قام به العذريون حين جثوا وخبلوا في محراب المرأة الواحدة ، ويمكن القول بأنهم عشقوا عذابهم ، وساعدوا عليه ، وقد شاع في هذه الفترة لأسباب نفسية واجتماعية وسياسية ، وساعد الإسلام على عملية التسامي عندهم ، ولم يخل من نزعات جسدية(٢٩) .

وما يهمنا من هذا كله أن المرأة كرمت في هذا العصر ، وأنها ـ وقد أحست بالتكريم ـ انطلقت عدة انطلاقات ، وساعدت على أن تظهر في شعر الاتجاهات الأخرى ذات شخصية ، كما أنها أصابت من الحرية نصيبا ، وبصورة عامة كانت صورتها في الشعر محاطة بالجلال ، وكان الحرمان منها ـ فقد كان المجتمع مغلقا ـ

٢٨ ـ تأمل ما جاء في ديوانه مثلا عن المجتمع النسائي في طبقة من طبقات المجتمع :

ولقد قالت لأتراب لها
قُطُفٍ فيهن أُنْسٌ وخَفَر
إذ تمشّين بجوّ مؤنق
نيّر النبت تغشّى بالزهر
قد خلونا فتمنين بنا
إذ خلونا اليوم نُبدي ما نسر
فعرفن الشوق في مقلتها
وحباب الشوق يبديه النظر
قلن يسترضينها : منيتنا
لو أتانا اليوم في سر عمر
.. بينما يذكرنني أبصرنني
دون قيد الميل يعدو بي الأغر
قالت : تعرفن الفتى ؟ قلن : بلى
قد عرفناه ـ وهل يخفى القمر ؟

وتأمل قول الأحوص الأنصاري :

كأن لُبنى صبيرُ غاديةٍ
و دُمية زُيِّنَتْ بها البِيَعُ
الله بيني وبين قيّمها
يفرُّ مني بها .. وأتبع !

٢٩ ـ أنظر قول قيس بن ذريح في لبنى :

يقرُّ بعيني قربها ، ويزيدني
بها كلفا ، من كان عندي يعيبها
وكم قائل قد قال : تُبْ فعصيته
وتلك لعمري توبة لا أتوبها

وانظر قول جميل في بثينة :

فيا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة
كليلتنا .. حتى نرى ساطع الفجر
تجود علينا بالحديث ، وتارة
تجود علينا بالرُّضاب من الثغر

دافعا إلى التعلق بعالم المثال المجرد للمرأة ، مع مراعاة أن الإسلام كان وراء عملية التجريد هذه كنقلة من التصور الجاهلي إلى تصور جديد ، وفي ضوء هذا كان الانكسار أمام المحبوبة ضرورة ، وكان خروج عمر بن أبي ربيعة على هذا النظام غير مرضٍ عنه من الكثيرين « فالمحبة شجرة في القلب عرقها الذل للمحبوب » فهم يعدون الذل في المحبوب عزا«(٣٠)» ، ونحن لا ننسى هنا ملحوظة الجاحظ التي يقرر فيها أنه ما من أحد يموت في حب والديه أو ولده أو ثروته ، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء «(٣١)» ولكن عمر كان يمثل بداية تحول للشعر والمفاهيم ، وقد عبر عن هذه الفترة القلقة بطريقته الخاصة التي تتواءم مع الحضارة أكثر من « البداوة » ، وبظهور « المجتمع الأبوي » على « المجتمع الأمي » .

بمجيء العصر العباسي عام ١٣٢هـ ، وبانفتاحه على العالم ، وازدياد نفوذ الدولة ، ودخول الجواري بالكثرة الكاثرة في صميم المجتمع ، يمكن القول بأن نفوذ المرأة العربية قد بدأ في الانحسار ، ذلك لأن الجواري كن على ثقافة ومعرفة بالدنيا سواء أكانت الدنيا في الجانب الذي قدمهن أو الجانب الجديد الذي دخلن فيه بروح التحدي وغزو الغزو ، ثم إن الحرائر كن محجبات ، ولا يدخلن في علاقات مع الراغب فيهن ، أما الجواري فقد كان كل شيء فيهن مكشوفا وقد أرضى هذا الرجال على نحو ما يرى الجاحظ ، لقد كان هناك اهتمام بتعليمهن في العديد من المجالات ، وكانت هناك « دور للتجميل » والصقل كدار ابن رامين ، ورزيق ، والقراطيس ، وقد التف حولهن الشعراء وأصبحت لكل شاعر جارية يعرف بها ، فلبشار عبده ، ولأبي نواس جنان ، وللعباس بن الأحنف فوز ، ولأبي العتاهية عتبة ، ولإبراهيم الموصلي خنث ، ولمحمد بن أمية خداج ، ولربيعة الرقي عثمة ... الخ ، ومعنى هذا أن عالم « الجلال » الذي نظر به إلى العربية قديما ، قد تحول إلى عالم « الجمال » ، وبخاصة وأن العالم كله كان يشترك في تقديم هذه النوعية الجمالية ، وقد عرف العرب لكل جانب من العالم خصائصه«(٣٢)» ، المهم أنهن تغلغلن في البنية العربية ، وغلبن حتى على بيوت الخلافة ، فأكثر أبناء الخلفاء منهن ... بيمنا أن بنية المجتمع الجديد قد عرفت فيه المرأة التعبير عن عواطفها الملتهبة بالحب في الشعر ، وأول ما يقابلنا في هذا الجانب ما يمكن أن يسمى « بجيل الأميرات » على نحو ما نعرف من « علية بنت الخليفة المهدي » وقد كانت نجما ساطعا في الأفق العباسي .

قال ابن النجار « أمها مكنونة ، اشتريت للمهدي بمئة ألف درهم » وقد كانت تعبر عن نفسها بطلاقة وجرأة ، كقولها .

إنّي كثرتُ عليه في زيارته
فملَّ .. والشيء مملول اذا كثرا

٣٠ ـ كتاب النساء ص ٢٨٤

٣١ ـ تأمل ما جاء في رسائل الجاحظ « ... قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات ، إن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كلَّ شيء فيها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرّة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلا ولا كثيرا ، والرجال بالنساء أبصر » . وقد شبههن بالأنعام . الحيوان ٣ / ٧٥ كما أكثر من وصف محاسنهن في رسالة ٢ / ١٦٢ ، ومثل هذا يمكن أن نجده في رسالة ابن بطلان .

٣٢ ـ تأمل مثلا ما جاء في رسالة ابن بطلان ٣٧٢ « ... النوبيّات من جملة أجناس السودان ، ذوات ترف ولطف وتقشف ، والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، ووجوههن مائلة إلى الجهامة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ، والروميات بيض شُقْر ، سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة ، والملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرْجل ، مع صحة بنية ، وشدة أسْر وقوة .. الخ » .

ورابني منه أنّي لا أزال أرى
في طرفه قصرا عني إذا نظرا(٣٣)

وهناك « خديجة العباسية .. بنت الخليفة المأمون ، قيل عنها : كانت أديبة . شاعرة . ظريفة .. من شعرها :

بالله قولوا لي لمنْ ذا الرَّشا
المُثقلُ الرِّدْفِ الهضيمُ الحشا
أظرفُ ما كان إذ ما صحا
وأملحُ النّاس إذا ما انتشى
وقد بنى برجَ حمام له
أرسل فيه طائرا مُرْعشا
يا ليتني كنتُ حماما له
أو باشقا يفعل بي ما يشا
لو لبس « القُوهيَّ » من رقة
أوجعهُ القوهيُّ أو خدشا(٣٤)

وهناك « عائشة بنت الخليفة المعتصم محمد بن هارون الرشيد » ، قيل كانت أديبة شاعرة ، ويبدو أنها كانت متساعمة مع عيسى بن القاسم ، فقد كتبت :

كتبت إليك ولم أحتشمْ
وشوقُ المحبين لا يكتتم
صَبوحي في السّبت من عاتق
على رغم أنف الذي قد رغم
وعيشي يتم بمن تعلمي
نَ ، وإنْ غاب عن ناظري لم يتم
فمُنّي على بتوجيهها
بتربة سيدك المعتصم

فما كان منها إلا أن أنفذتها وكتبت :

قرأت كتابك فيما سألْ ..
ت ، وما أنت عندي بألمتهمْ
أتتك المليحةُ في حلّة
من النّور تجلو سواد الظُّلم
فخذها هنيئا كما قد سألت
ولا تشكُ شكوى امرىء قد ظُلم
ولا تحبسنها لوقت المبيـ
ـتِ .. كما يفعل الرجل المُغتنم(٣٥)

.. فإذا تركنا جانب « الأميرات » وجدنا حشدا من النساء في العصر العباسي يلعبن لعبة الحب ، ويجدن في التعبير عنها ، فهناك « الشريفة أم العزيز » التي تقول :

لحاظكم تجرحُنا في الحشا
ولحظنا يجرحكُم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا
فما الذي أوجب جرح الصدود(٣٦)

وهناك عاتكة « المخزومية » التي قالت فيمن اسمه حسان :

شتان بين مدبّر ومدمّر
صيد الليوث حصائد الغزلان
روعته من بعد دهر راعني
وسقيته ماكان قبل سقاني

٣٣ - نزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ص ٦٠ ، ٦١ ونقل قولها :

كتمت اسم الحبيب عن العباد … ورددت الصبابة في فؤادي
فوا شوقي إلى بلد خلي … لعلّ باسم من أهوى أنادي
(و) صحائفنا إشارتنا … وأكثر رسلنا الحدقُ
لأن الكتب قد تقرا … وليس برسلنا تثقُ !

- وقد كانت لها شقيقتان شاعرتان هما علية بنت المهدي ، والعباسة بنت المهدي ، ص ٦٠ ، ٦٧ ، وقد اشتهرت علية بحب غلام لها اسمه « رشأ » ، ولها فيه شعر رقيق .

٣٤ - نفسه ص ٤٢ . والقوهي : ثياب بيض لينة ، نسبة إلى قوهستان .

٣٥ - نفسه ص ٥٣

٣٦ - نفسه ص ٧٢ .

فلقد سهرتُ لياليا ولياليا
حتى رأيتُك يا هلال زماني[٣٧]

وهناك « أم العلاء الحجازية » التي لها شعر كثير في اللوعة ، والدخول في غمرات الحب كقولها :

أفهمْ مطارح أحوالي وماحكمتْ
به الشواهدُ واعذرني ولا تَلُم
ولا تكِلْني إلى عذر أبيّنُه
شرُّ المعاذير مايحتاجُ للكلم
وكل ما جئتُه من ذلةٍ فبما
أصبحت في ثقة من ذلك الكرم[٣٨]

وهناك « شهدة بنت الأبري » قيل ماكان في زمانها من يكتب مثلها وأنها فخر النساء ، ومسندة العراق ومن شعرها الذي قال عنه الصّلاح الصفدي : أنا أستبعد أن يكون هذا الشعر لشهدة :

سكنوا العقيقَ وحرّكوا بفراقهم
قلبا يكادُ يطيرُ بالخفقان
.. حتّام تُفرِطُ في الصّبابة أضلعي
وتلجُّ في عبراتها أجفاني
وإذا تبسّم ثغرُ برقٍ مُنجِدٍ
أغرى دموع العين بالهملان
يا حادي البكرات .. هل لك روحة
بالغمر عند مَسارح الرُّعيان ؟
فتُذكّر الناسينَ عهدي بالحِمى
فجديدهُ أبلاهُ من أبلاني

وذكرت ميدان الوداع ، فأرسلت
عيني إلى أمد البكاء عناني[٣٩]

وهناك « صفية بنت عبد الرحمن » فقد أجازت هذا البيت الذى يقول :

إذا ما خلت من أرض كد أحبتي
فلاسال واديها ولا اخضرُ عودُها

فقالت

ولا نطقتْ في الرَّبع بعدك غادةٌ
يلذُّ لسمعي شدوها ونشيدها
وإني لأبكي الرَّبعَ مُذْبان أهلُه
وأنشدُ ليلاتٍ مضتْ من يُعيدها

وهناك شاعرات كعريب الجارية المتوكل ، وعنان التي اشتهرت بالمطارحة والأجازة ، وفضل التي أحبَّت الكثيرين ، كما أن هناك شاعرات أخر يتعاملن عادة مع البحور القصيرة ، والقوافي الحماسة المطلقة ، ولا يخرجن عن دائرة اللوعة في الحب ، واستعادة الذكريات والترف والرقة والرشاقة تغلب على الجملة الأنثوية .

- ٧ -

وإذا كان هذا هو حال المرأة البغدادية على وجه العموم ، فاننا نلاحظ أن المرأة الأندلسية كان لها دور في هذا المجال ، على نحو ما نعرف من « قسمونة اليهودية ، التي اهتمت أكثر ما اهتمت بتأخرها في

٣٧ ـ نفسه ص ٥٨
٣٨ ـ كانت من أهل المائة الخامسة ، ومن شعرها :

كل ما يصدرُ عنكم حَسَنْ
ويعطفكم أهلُ الزمنْ
تعطف العينُ على منظركم
ويذكركمْ تلذُّ الأذن
من يعش دونكم في عمره
فهو في نيل الأماني يُغبن

ولما عشقها رجل أشيب قالت فيه :

يا صبح لا تنبه إلى جنحي
فالليل لا يبقى مع الصبح
الشيب لا يخدع فيه الصبا
بحيلةٍ فاستمعْ إلى نصحي
فلا تكن أجهل من في الورى
تبيت في الجهل كما تضحي

٣٩ ـ نفسه ص ٤٦

الزواج ، فقد قالت مثلا حين نظرت في المرآة ، وأخذت بجمالها

أيا روضة قد حان منها قطافُها
ولستُ أرى جانٍ يمدُّ لها يدا
فوا أسفي . يمضي الشباب مضيَّعًا
ويبقى الذي ما إنْ أسمِّيه مُفْردا (٤٠)

والملاحظ أن شعر بعضهن كان رد فعل لشعر يقال على نحو ما نعرف من شعر « حفصة الغرناطية » فقد بات أبو جعفر عبد الملك بن سعيد هو وإياها في بستان وكان يهواها فقال :

رعى اللهُ ليلا لم يرح بمذمَّم
عشيةَ وارانا بجُود مؤمل
وقد خفقتْ من نحو نجد أريجة
إذا نفحت هبتْ بريّا القرنفل
وغرد قمري على الدوح ، وانثنى
قضيب من الرَّيحان من فوق جدول
يرى الروض مسرورا بما قد بدا له
عناق ، وضم ، وارتشاف مقبل

فقالت

لعمركَ ما سرَّ الرياضَ بوصْلنا
ولكنهُ أبدى لنا الغِلَّ والحسد
ولا صفَّق النهرُ ارتياحا لقُربنا
ولا صدح القمريُّ إلا لِما وَجد
فلا تحسن الظنَّ الذى أنت أهلهُ
فما هو في كلِّ المواطِن بالرُّشد
فما خلتُ هذا الأفقَ أبدى نجومه
لأمرٍ سوى كيما يكون لنا رصد(٤١)

كما أن شعرهن قد امتزج بالطبيعة ، بل قد تصبح الطبيعة هي الملمح الحقيقي في القصيدة على نحو ما نعرف من شعر « حمدة الوادى آشية » التي كانت تلقب بخنساء المغرب ، وشاعرة الأندلس :

أباح الدهرُ أسرارى بوادى
له في الحُسْن أسرارٌ بوادى
فمن نهر يطوف بكلِّ روض
ومن روض يطوفُ بكل وادى
ومن بين الظباء مهاةُ إنس
لها لُبِّى وقد سلبت فؤادى
لها لحظ ترقِّده لأمرٍ
وذاك الأمرُ يمنعني رقادى
إذا سدلتْ ذوائبَها عليها
رأيتَ البدر في أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق
فمن حُزْن تسربل بالحداد

وحسبنا أن نذكر في هذا المجال أنه ينسب لها أروع شعر قيل في مفاتن الطبيعة وروعتها . . وهناك أكثر من شاعرة تتهالك على المحبوب ، وتتكسر أمامه على غير

---

٤٠ - نفسه ٦٥ ويقال إن أباها حين سمع هذا زوجها ، ومن شعرها في هذا المجال :

يا ظبية ترعى بروض دائما / إني حكيتك في التوحش والحور
أمسى كلانا مفردا عن صاحب / فلنصطبر أبدا على حكم القدر

٤١ - نفسه ص ٣٢ [إذا كانت هنا متحفظة لأنها في مواجهة تصريح من الحبيب ، ولم تلتزم القافية التي تكتب بها ، فلها شعر واضح العواطف وراء ذلك كقولها :

تسائلني عن تلك الشكايا لأنني / أقول على علم ، وأنطق عن خُبْر
وأنصفها - لا أكذبُ الله - إنني / رشفتُ بها ريقا ألذ من الخمر

وعلى نحو ما كتبت لبعض أصحابها :

أزورك أم تزورُ ، فإن قلبي / إلى ما تشتهي أبدا يميل
وقد أمنت أن تظمي وتضحي / إذا وافى إليك بي القبول
فثغري موردٌ عذب زلالٌ / وفرع ذؤابتي ظلٌّ ظليل
فعجِّل بالجواب فما « جميل » / أناتك عن « بثينة » ، يا جميل !

المعروف في الشعر العربي ، وتجيء في مقدمة هؤلاء « خديجة المعافرية » التي تعرف بخدوج ، فهي تقول :

أيقى رضاك بطاعة مقرونة
عندى بطاعة ربي القدوس
فإذا زللت وجدتُ حلمك ضيقا
عن زلّتى أبدا لفرط نحوس
ولقد رجوت بأن أعيش كريمة
في ظل طود دائم التعريس
ببقاء عزك - لاعدمتُ بقاءه -
فإذا أنا أصْلى بحرٍّ شموس
يا سيّدى ! ما هكذا حكم الهوى
حقّ الرئيس الرِّفقُ بالمرؤوس
فإذا رضيت في الهوان رضيته
وجعلت ثوبَ الذُّل خير لبوسى[٤٢]

ومما يلاحظ على هؤلاء الشاعرات أنهن عادة كُنَّ من الطبقة العليا في المجتمع وأن صلاتهن كانت بالملوك ولمن في الدول على مستوى الوزراء ، نعرف هذا من « نزهون الغرناطية » التي كانت على صلة بالوزير أبي بكر بن سعيد ، ويقال إنه كتب لها مرة

يا من له ألف خل
من عاشقٍ وصديق
أراكِ خلّيت للناس
سدّ ذاك الطريق

فأجابته

حللتَ أبا بكر محلا منعتُه
سواك .. وهل غيرُ الحبيب له صَدْرى

وإن كان لى كمْ من حبيبٍ فإنّما
يقدّمُ أهلُ الحق فضْلَ أبي بكر

ومن هؤلاء الأميرة أم الكرام بنت المعتصم التي أحبّتْ شابا جميلا اسمه « دانية » ، وقالت فيه شعرا منه

ألا ليت شعرى هل سبيلٌ لخلوةٍ
ينزّه عنها سمعُ كل مراقب
ويا عجبًا أشتاق خلوةَ من غدا
ومثواه ما بين الحَشا والترائب

وقد جاء في « المغرب » : وبلغ المعتصم خبره فخفى أمره من ذلك الحين ، ومن هؤلاء « ولادة بنت المستكفى بالله » التي كانت لها أكثر من صلة بوزير والتي باحت وصرحت بما لم تجرؤ على مثله النساء ، فقد كتبت بالذهب على طرازها الأيمن :

أنا والله أصلحُ للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيهُ تيها

وكتبت على الطراز الأيسر

أمكّن عاشقى من لثم خدّى
وأعطى قُبلتى من يشتهيها

وكان مما كتبته لابن زيدون في فترة الموافقة

ترقّب إذا جن الظلامُ زيارتى
فإنّى رأيت الليلَ أكتمُ للسّر
وبى منك مالو كان بالشمس لم تلحْ
وبالبدر لم يطلعْ ، وبالنّجم لم يسر

كما كتبت إليه :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق
سبيلٌ فيشكو كلُّ صب بما لقى

---

٤٢ - قال عنها ابن الأبار في تحفة القادم : إحدى الكاتبات المصوّنات الغزلات المتفننات ، والأبيات التي نسبت لها هي :

ولـمـا لـفـحـة الرَّمضـاء واد
سقاه مُضاعفُ الغيث العميم
حللنا دوحةً ، فحنا علينا
حُنُوّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأٍ زلالا
ألذّ من المدامة للنديم
يصدّ الشمس أنّى واجهتنا
فيحجبها .. ويأذنُ للنسيم
يروع حصاةَ حالية العذارى
فتلمسُ جانب العقد النظيم !

وقد كنت أوقات التزاور بالشتا
أبيت على جمرٍ من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيتُ في حال قطعه
لقد عجَّل المقدارُ ما كنت أتقي
تمرُّ الليالي لا أرى البينَ ينقضى
ولا الصبر من رق التشوق مُعتقي
سقا اللهُ أرضا قد غدت لك منزلا
بكل سكوبٍ هاطلِ الوبْلِ مُغدق[43]

وبصفة عامة نجد أن المرأة الأندلسية كانت أشد جرأة ، وأقرب إلى الموقع الذى تعيشه من المرأة في المشرق ، ولعلّ هذا كان وراء نبوغها في فن بعينه يتصل بموضوعنا وهو « فن الأجازة » .

فمن البارعات في هذا المجال « نزهون بنت القلاعى الغرناطية » فقد كانت تقرأ على أبي بكر المخزومى الأعمى ، وكان أن دخل عليه أبو بكر الكتندى فقال : لو كنت تبصرُ من تجالسهُ ؟ فلما عجز أستاذها قالت :

. . . .

لغدوت أخرس من خلاخله
البدرُ يطلعُ من أزرّته
والغصنُ يمرحُ في غلائله !

ومنهن جارية اسمها « غاية المنى » فقد دخلتْ على المعتصم بن صمادح ، وسألها عن اسمها ، وأراد امتحانها فقال : أجيزى
اسألوا غاية المنى
من كسا جسمى النحول
وأراك مولَّها
سيقول الهوى : أنا

فأجازت .

وهناك رواية أخرى لها مع ابن الفراء الخطيب .

ومن المتداول ما يروى عن « العبادية » جارية المعتضد ، فحين أرق المعتضد وقال

تنام ومُدْنِفُها يَسْهَرُ
وتصبرُ عنه ولا يصبر
أجابت على البديهة
لئن دام هذا وهذا له
سيهلك وجْدًا ولا يَشْعرُ

والشهيرة في هذا المجال هى « اعتماد الرميكية » جارية المعتمد ، وقصتها معه تبدأ في أنه أطال النظر إلى النهر ، وقال مخاطبا ابن عمار : أجز يا أبا عمار : صنع الريحُ من الماء زَرَدْ فلما عجز ، سمع صوت إحدى الغسالات على النهر تقول : أىّ دِرْع لقتال لو جمد ؟ وكان أن استدعاها ، وأصبحت رفيقته في الحياة ، فقد عاشت معه في المجد ، وفي السقوط ، ومن المفارقات أنه في النهاية كان يجيز لها ، فقد قالت له يوما يا سيدى لقد هُنَّا هنا .

فما كان منه إلا أن قال :
قالت : لقد هُنَّا هنا
مولاى أين جاهُنا
قلت لها : إلهُنا
صيَّرنا إلى هنا

٤٣ - نفسه ٤٣
ولك أن تتأمل قول حفصة بنت حمدون الحجارية
في حبيب لا يشتهي لصحاب
قال لي : هل رأيت لي من شبيه
وبالله ما تركته زاهتيها
قلت : أيضا وهل ترى لي شبيها

وقد تكون الأجازة بين الابنة والأب فقد قال اسماعيل اليهودى لابنته قسمونه : أجيزى قولى ، فقالت :

لى صاحب ذو بهجة قد قابلتْ
تعمى بظلم واستحلت جُرْمها
كالشمس منها البدر يقبس نوره
أبدًا ويكْسفُ بعد ذلك جُرْمُها

وكان أن قال لها : أنت والعشر كلمات أشعر منى .

.. ثم كان الدور الواضح للجوارى في هذا العصر ، فقد امتلأت بهن البيوت ، وأثرن في عاداته ، فكان ظهور الرقة ، والرشاقة ، والتعامل مع الأزهار ، والتهادى ، وكان جذْب هذا كله إلى دائرة الحب ، وقد كن يكتبن شعرا مباشرا لا يلفُّ ولا يدور ولا يشكو من الأرق والدموع بلغة بسيطة ومزينة في الوقت نفسه ، فها هى جارية للمهدى تكتب له على تفاحة بعد أن طيبتها

هديةٌ منى إلى المهدى
تُفاحة تُقطف من خدى
محمرة مصفرة طُيِّبتْ
كأنها من جنة الخُلد

وها هى متيم تكتب إلى مولاها على بن هشام على كأس مخروطة :

إن جسمى من زجاج
فاحذروا ألا تكسرونى
واجعلوا الساقى غلاما
ذا دلالٍ وفتون
فإذا أنتم سكرتم
فخذوه فى سكون

بل إن الشعر كان يكتب على المناديل ، والْعصائب ، والذّوائب ، والوسائد والبسط ، والأكمام ، والجبين ، وقد ينقش بالحناء على الأقدام والكفوف ، بل قد يكتب على النعال والخفاف[٤٤] .. الخ ومعنى هذا أنهن نضّرن الحياة ، ونسّقنها ، وأضفين عليها طابعا جديدا ، وكن العامل الحاسم في نقل ظاهرة الغناء من الحجاز إلى العراق ، وفي جعل قسم منه متّصل بالرّقص ، ولما كان الغناء يلقى بالشعر الفصيح ، وكانت هناك مشاركة في التأليف من بعضهن ، وفي الاقتباس من الألحان الفارسية والرومية[٤٥] .. فإننا نرى أن المجتمع قد انتقل من البداوة الى الرفاهية ، وبخاصة حين راحت الحرائر يقلدن هذا الأنموذج الذى كان مرضيا عنه من المجتمع ، بل لقد وجد الرجال الذين يحرضون نساءهم الحرائر على تقليد الجوارى في العديد من جوانب الحياة ، على نحو ما فعل المتوكل مثلا مع زوجته « ريطة بنت العباسى » ، حين طلب منها « تسريحة » من نوع خاص ، وأن تتشبه بالجوارى ، فما كان منها إلا أن رفضت ، وما كان منه إلا أن طلقها[٤٦] ، وما يهمنا هو أنه برز على سطح الشعر عدد من الشاعرات الجوارى ، وشعرهن يدور عادة حول الرّغبة في الرجل ، والتعرّض له ، وسرعة البديهة في المجالس الخاصة ، ومطارحة

٤٤ ـ نفسه ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٠ .

٤٥ ـ نجد نصوصا كثيرة من هذا في الأغاني ، والعقد الفريد ، وانظر كتاب الجواري والشعر في العصر العباسي الأول . د . سهام الفريح ص ٤١ وما بعدها ، على أنه يجب أن نفرق بين جواري القصور المتصلات بالطبقة العليا في المجتمع ، والجواري اللاتي كن يترددن على دور النخاسة ، وقد تعرض للكثير من أخلاقهن الجاحظ ، والوشاء ، وإن كان بعضهم يذكر ولاءهن كما فعلت « عريب » جارية المأمون ، فقد قصّت شعرها بعد موته ، ومثل هذا فعلت « فريدة » جارية الواثق ، وما نريد أن نؤكد عليه أن بعضهم شوه صورهن ، وصاحب مشاعر الناس على حسابهن ، ويكفي في مقدمة هؤلاء الجاحظ .

٤٦ ـ الأغاني ٥ / ٢٥٢

الشعر مع الآخرين ، وقد أطلن الشّعر في هذه الفترة ، وعرضن به عن أشياء كثيرة ، بل وعدّدن الغرض في القصيدة الواحدة على غير العادة ، على نحو ما فعلت « سكن » جارية محمود الوراق ، حين كتبت للمعتصم قصيدة طويلة تقترح فيها عليه شراءها فما كان منه إلا أن خرق رسالتها إليه ، فقالت قصيدة منها :

ما للرسول أتاك منك بياس
أحدثت بعد رجاء جفوة القاسى
فهبك ألحقت بى ذنبا بظلمك لى
فما دعاك إلى تخريق قرطاسى
يا مُتبع الظلم ظلما كيف شئت فكن
عندى رضاك على العينين والراسى
إنى أحبك حبًا لا لفاحشة
والحب ليس به فى الله من باس
قل للمشارك فى اللذات صاحبها
ومُدمن الطاس يحسوها مع الناس
إن الأمام الذى أرفا إلى بلد
أرفا إليه بعمران وإيناس[47]

ولقد كانت أعينهن دائما على بيت الخلافة ، وعلى أبناء الطبقة العليا ، وكانت وسيلتهن إلى ذلك الجمال والأناقة والشعر ، على نحو ما كانت ما تفعل الجارية نيران - وهى فى أدنى السلم الاجتماعى حين كانت تكتب شعرا إلى محمد بن جعفر بن موسى الهادى ، ولقد دخلت « مراد » حياة ابن هشام ، ودخلت « مُتيّم » حياة المأمون ، ودخلت « عنان » حياة الرشيد ، عن طريق الشعر الخ ، ويبدو أنهن كن أُنس المجالس ، وقادرات على التأثير على الرجال ، وعلى التعامل مع المرح بصورة لا تُمل ، من غير أن يكون لذلك تأثير عليهن ، فقد خلقن كما يقال لِيُعشقن لا ليعشقن[48] ، وقد كان معنى هذا الاقتراب بالشعر من مفردات الحياة المترفة ، ومن التكسر والرقة والحلاوة والمباشرة فى البحور القصيرة والقوافى الشادية ، التى تصلح للغناء - والرقص أحيانا - فى المقام الأول ، وهذا التأثير لم يقف عند حد شعرهن ، ذلك لأنه أثر فى الوقت نفسه على أساليب الرجال فى تناول الشعر .

- ٨ -

إذا كان هذا هو تعامل المرأة مع قضية الحب ، والتعبير عنها ، وإذا كان هناك قصور فى بعض الظاهرة حين أصبحت الكلمة الأولى للجارية ، بعد أن كانت للحرة ، فإن الملاحظ أن قضية الحب قد ابتذلت حين دخلت فى دائرة الترفيه والتطلع إلى المكان الأعلى والأسمى ، وحين أصبحت المرأة الجارية هى « المتوجة » فى عالم الحب واللذة والشعر ، وقد تنبه كثيرون إلى هذه الظاهرة ، وسيادتها فى الحياة ، وحين احتجوا لهذا « الأنموذج » احتجوا بأنموذج يمكن القول بأنه أنموذج عالمى ، أو بعبارة أخرى يمكن القول بأنه أنموذج المرأة الجارية[49] التى لها صلة - وثقافة - بأكثر من وطن والتى كانت فى موطن التحدى ، وكانت على مستواه فى الوقت نفسه .

وما يهمنا هو أنه إذا كانت فى هذا الجانب بَقْيا فإن الشعراء تكفلوا بها ، حين أخذوا على عاتقهم التعبير عن عواطف المرأة ، وفترات اشتعالها بالحب ، وإذا كنا سنتخطى فى هذا العصر ظاهرة « الغزل بالمذكر » ، فإنه

٤٧ - المحاسن والأضداد للجاحظ ١٢٨

٤٨ - طبقات الشعراء لابن المعتز . تحقيق عبد الستار فراج ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ويلاحظ أنها تعرضت لخاطرة « مُرّ من رأى » والقورة بابك وأخيه ، ومدح العباسيين .

٤٩ - تأمل اليزيدى حين قال لعنان . وقد تنفست بعد سماع شعر : هذا والله تنفس عاشق لما كان منها إلا أن قالت : أنا أعشق ؟ والله لقد نظرت نظرة مريبة فى مجلس قدماها من أهل المجلس عشرون رقيبا . الأغانى ٢١ / ٩٢

لابد من وقفة عن ظاهرة أخرى اندلعت في هذه الفترة وهى « الغزل بالغلاميات » ، ذلك لأننا لا نجد نصوصا لمن يمثلون هذه الظاهرة ، ولكننا نجد النصوص التى تعبر عن العالم الذى كان يعيش فيه هؤلاء ، وكيف أنه وجد من يقدمهن ـ كالأمين ـ على الجوارى ، ومن تغزل فيهن كخديق الأمين المثلين في الشاعرين : أبو نواس والخليع « وفي هذا دليل قاطع على شيوع هذا الصنف منذ عهد الأمين ، ثم غدا يستخدم بعد ذلك في قصور الأمراء والسادات »(٥٠) ، وعلى كل فقد أتى أبو نواس في هذا الباب بالعجب العجاب ، كهذا الحوار الذى كان بينه وبين إبليس :

بِتُّ إلى الصبح وإبليس لى
في كل ما يُؤلمنى خصم
رأيته في الجو مستعليا
ثم هوى ينقضه نجم
أراد للسمع استراقا فما
عنم أن أتبعه الرجم
فقال لى لما هوى : مرحبا
بتائب توبته وهم
هل لك في عذراء ممكورة
يزينها صدر لها فخم
ووارد جثل على متنها
أسود يحكى لونه الكرم
فقلت : لا : قال ـ فى أمرد
يرتج منه كفل فعم
كأنه عذراء في خدرها
وليس في لُبته نظم
فقلت لا : قال : فى مسمع
يحسن منه النقر والنغم
فقلتُ : لا : قال : ففي كل ما
شابه ما قلت لك الحزم
ما أنا بالآيس من عودة
منك على رغمك يا فدم

٥٠ ـ انظر مثلا ما جاء في البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي ـ وهو من هو ـ م ٢ ـ ص ٦٢٠ و . . قال الناشيء في كتاب نقد الشعر ، « وغلاميات النساء تعلو في الشعر ، وتغلب في القريض ، لا سيما غلامية قد أطر الفتاة شاربها ، وروى الأبناء حاجبيها ، وأشط اعتدال قوامها ، وأفرد الحسن تمامها ، وأنحل الهوى جفنيها وأزاحت الصبابة ألفاظها ، وفتر الفتور أخلاقها ، وأرهف أعطافها ، وألانت النعمة أطرافها ، ولذ الترشف مبسمها ، وأطرد ماء النعيم بين رياضها ، وجناها وترقرق جريال الشباب على سحناتها ، وجلل القسم [illegible] ، ومالت للجاذب جائرها ودالت للقاضب [illegible] ، وشخصت للوتور ماكنها ، وطمحت [illegible] ، وسهلت للعيون [illegible] ، ووطئت للمتيم ملامسها ، وأرعت للمتستم فواغمها ، فكيف إذا هي برزت من حجابها ، وسفرت عن نقابها ، وتهادت بين أترابها ، وقد هز الريح أردافها واستمر المراح أكنافها ؟ بل كيف هي إذا أتتها سائلها وأكلها مقاوها ، وأعرضت عنه صدوفا ، وتلوعت منه عزوفا ، وقد قطب اليه جبينها » .

وقد جاء هذا الأنموذج في الشعر حين قص أبو نواس رؤيا على جارية ، فما كان منها إلا أن قالت هذا الشعر :

خيرا رأيت .. وكل ما عاينته
متقبله مني برغم الحاسد
[illegible]
ليس المروءة على الهوى بمساعد
يا من يلوم على الهوى أهل الهوى
هل يستطيع صلاح قلب فاسد
لم يخلق الرحمن أحسن منظرا
من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما حلل الهوى
متوسدين بمعصم وبساعد
إني لأرجو أن تصير مضاجعي
وتبيت مني فوق ثدي ناهد
وتكون بين خلاخل ومسالح
في ثنى أرباط ، وبين مجاسد
فتبيت أسعد عاشقين تعاطيا
حلو الحديث بلا مخافة حاسد

وتأمل قول فضل الشاعرة :

يا ويك .. إن الغيد كالشرك الذ
منصوب بين الغرور والعطب
لا يتصيدن للفقير ، ولا
يرتشفن إلا معادن الذهب
يلحظن هذا ، وذا ، وذاك ، وذا
لحظ محب بطرف مكتسب؟

ولنتأمل تلك الصورة التى رسمها « الحسين بن الضحاك » لغلام كان يحمل نرجسا :(٥١)

وصف البدرُ حسن وجهك حتى
جِئْتُ أن - لما أراه - أراكا
وإذا ما تنفَّس النرجسُ الغضُّ
توهمته نسيم شذاكا
وأخال الذى لثمت أنيسى
وجليسى ، ما باشرته يداكا
فإذا ما لثمتُ لثمك فيه
فكأنى بذاك قبّلْتُ فاكا
خِدَعُ للمنى تعلّلنى فيك بإشراق
ذا ، وبهجة ذاكا
لأقيمنّ يا حبيبى على العهد لهذا ،
وذاك ... إذْ حكياكا

ولغلام كان يسقى

يسقيك من طرفه ومن يده
سقْى لطيف مجرّب داهى
كأسا بكأس ، كأنّ شاربها
حيران بين الذُّكور والساهى

. . ولعل هذا النوع مؤشر إلى عشق الذات ، وإلى ما يسمى بالجنسية المثلية في المجتمعات المغلقة وما يهم أن نذكره هو أن المعانى المبتكرة في الغزل لم تعد مقصورة على الحرائر، أو الجوارى ، وإنما تقاسمها في ذلك جنس جديد هو « جنس الغلاميات » ، وقريب من هذا المجال ماذكره الجاحظ في المفاخرة بين الجوارى والغلمان كقوله « لو نظر كثير وجميل وعروة ، ومن سميتَ من نظرائهم إلى بعض خدم أهل عصرنا ممن قد اشترى بالمال العظيم فراهة وشطاطا ، وتقاالوْنٍ وحُسْن اعتدال ، وجودة قد وقوام ، لنبذوا بثينة وعزة وعفراء من خالِف ، وتركوهن بمزجر الكلاب » وعلى كل فخيرٌ من يطلعنا على هذا الجانب العابث من المرأة « بشار بن برد » ، وتأمل قوله :

لما رأت لمحة منى مرعشة
خُضْرا وحُمْرًا وصُفْرا بيها جددا
قالت فشرب هنا كانت موطّنة
جاء المرعَّثُ فأنى عندك الوسدا
واحتسنى حين تلقيه تحيتَهُ
ولا تكونى إذا حدَّثتنا وتدا
خفّى وعودى .. إن حاجتنا
دون القريبة في قلبين قد كمدا

---

٥١ - من اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري . يوسف حسين بكار ١٢٨ ، ولك أن تتأمل قول أبي نواس في جارية غلامية :

حتى إذا السكرُ كفّ نخوتها — وكان من بعدها حواشيها
وأمكنتني منها مخاتلة — صدت رفقا كفى إلى فيها
وأعرضت عند ذاك وارتعدت — ثم تناولتها لأرضيها
قالت : لما زرتنا فقلت لها : — يا أحسن الناس كلهم تيها
لولا بلائي لما تجاسرت أو — حولا ترى الموت في لمالها
ولا تعرضت للحتوف بنفسى — من كان يحظى الغرام يسقيها
أهلا وسهلا بمن تنبيهه — نفسي ، ومن كان من أماليها
فبتُّ في ليلة تنعمت بها — ألثمها تارة وأسقيها
واجتني الحُبَّ من أطايبها — وأمكن النفس من أمانيها

وهو يعلل حب الغلاميات فيقول :

أشبهك خلفا من يدى وعنات — حلّتني حبُّ غلاميات
وذوات أصداغ معقربات — مقرونات القد مهضومات
يمشين في أشعر مزرورات — يصلحن للاطة والزناة !

وقول « المؤمل بن أميل المحاربي » (٥٢)

فقمت أسعى إلى محجبة
تضيء منها البيوتُ والحُجَرُ
فقلت لما بدا تحفزها
: جودي ولا يمنعك الحفر
قالت : توقَّرْ ودع مقالك ذا
أنت امرؤٌ بالقبيح مُشْتهر
والله لا نلتَ ما تحاول أو
ينبتُ في بطن راحتي الشعر !
لا أنت لي قَيِّمٌ فتخبرني
ولا أمير عليّ مُؤْتَمر
قلت : ولكن ضيف أتاك به
تحت الظلام القضاءُ والقدر
فاحتسبي الأجرَ في إنالته
أو ياسري قد تطاولَ السهر
قالت : فقد جئت تبتغي عملا
تكاد منه السماء تنفطر
فقلت لما رأيتها حَرِجَتْ
وغشيتها الهمومُ والفِكَر :
لا عاقب اللهُ في الصبا أبدا
أنثى ، ولكن يعاقب الذكر
قالت : لقد جئتنا بمُبْتدعٍ
وقد أتتنا بغيره النذر
قد بين الله في الكتاب فلا
وازرةٌ غير وزرها تزر

قلت : دعي سورة لهجتِ بها
لا تحرمنا لذاتِنا السُّوَر
وجهك وجه تُمتُ محاسنه
لا وأبي لا تمسّه سقر

ويلاحظ أن أغلب هذا الشعر الحسي يدور في جو قصصي ، ويعتمد أكثر ما يعتمد على الحوار ، وعلى وضع اليد على عواطف المرأة في حالة اشتعالها ، ولا نرى هذه الظاهرة في الشعر العفيف كما نعرف من شعر علي بن أديم ، وابن رهيمة ، والعباس بن الأحنف الذي يشتط أحيانا ولكن في حدود كقوله

طال ليلي بجانب البستان
مع جواري المهدي والخيزران
أيها العاشقون قوموا جميعا
نشتكي ما بنا إلى الرحمن
إن فزرنا لما أتاها الجواري
يتباكينني لما قد شجان
ويستعطفنها عليّ ، ويحلفن
على ماذكرن بالأيمان
أرسلت بالكُبان قد مضغته
فوق تفاحة على ريحان

ويسواكها الذي اختاره الله لفيها من أطيب الأغصان ولعل ماله صلة بالمرأة ـ كاللبان والتفاح والريحان ـ إشارة إلى الحرمان والخوف القديم من الجنس .

٥٢ ـ مات في حدود ١٩٠ هـ ، وقد كان هناك دور هام للجانب في الموشحات ، ففي خرجة لابن شرف ترى الفتاة تطالب بالفرار من أمها لأنها تمنعها من الحب :

فشدت لنا دعاها بين ذل وعناء
« هكذا يا أم تشقى والحبيب ساكن جواري
إن أمت يا قوم عشقا فخذوا أمي بثاري ! »

وما هو « التطلي » يقدم لنا فتاة تدعو حبيبها إلى الوصل ، غنت على رأسها في العود :

« عل سواري وعند حبالي حبيبي أحمد
واطلع معي للسرير حبوبي تسرقة بجسرُه »

ـ في أصول التوشيح . د . سيد غازي ١٠٣ ، ١٠٤ .

- ٩ -

تلك صورة عامة للتعبير عن عواطف المرأة ، من خلال الحرائر ، والجوارى ، والغلاميات ، والرجال ، نلاحظ فيها اختفاء دور العربية الى حد كبير ، وظهور المرأة الأجنبية إلى حد كبير كذلك ، وأنهن نافسن الرجال في التعبير عن أشواقهن ، ونظرتهن إلى الرجل ، ويبقى بعد ذلك جانب لا يلتفت اليه كثيرا وهو جانب المرأة عند المتصوفة ، فقد تحول عند بعضهم إلى معراج ، وأصبح رمزا لقضايا كبيرة ، فالواضح أن المتصوفة المسلمين أسقطوا رمزية الجوهر الأنثوى على أشياء كثيرة ، منها مثلا بعض الحقائق اللغوية الخاصة بالتأنيث وصيغه في العربية ، فابن عربي مثلا يرى أن المصطلحات التي تدل في العربية على « الأصل والعلة » مؤنثة ، ذلك لأنه يدل على أصل الأشياء بكلمة « الأم » ، وهناك من تكلم عن أمهات الكتب ، ومن تكلم عن « الأمهات السفليات الأربع » باعتبارها موازية للاسطقسات الأربعة . والأم السارية الأمومة ، ومن هذه المصطلحات : الذات . الماهية . النفس . العلة . القدرة . الصنعة ، ولتأكيد هذا الجانب كانت وقفة ابن عربي في نصوص الحكم عند الحديث « حبب الى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاث ولم يقل ثلاثة ، ومن المعروف أن العرب يغلبون التذكير على التأنيث ، ولكن النبي غلب هنا التأنيث على التذكير ، ثم إنه جعل الخاتمة نظير الأولى في التأنيث ، وأدرج بينها المذكر ، فالطيب مذكر بين مؤنثين .

وبصفة عامة فالعالم عندهم في وضع « تعشق وتوالج تبادل » فكل مؤثر - كالسماء - وكل مؤثر فيه - كالأرض - فإذا أخذنا آدما باعتباره فاعلا ، فان حواء تكون المنفعل ، ولكن يجب أن نذكر أن هذا يتغير حين تذكر « مريم » فهى فاعل ، أما المسيح فمنفعل ،

وهكذا تكون المرأة تجسيدا للنفس ، ومدخلا للألوهية ، ثم إنها من ناحية أخرى مظهر للتجلى الإلهى في الصور العينيّة المحسوسة التى تعتبر عندهم « من أكمل صور التجلّ » . . فإذا كان لابد من التطبيق في هذا المجال ، فإن المثال الواضح لما نحن فيه هو الاقتراب من شهيدة العشق الإلهى « رابعة العدوية » ، وبالطبع لن يدخل في بحثنا تدرجها في مراحل العشق ، ووصولها إلى الذروة العليا من الإشعاع والنقاء والتّسامى ، وذلك حين استغرقت الاستغراق الكامل في الله « بحيث أقفلت أبواب الحواس » وبحيث يمكن القول : بأنها ماتت من الدنيا - كما قيل - وبخاصة في تلك الفترة التى قالت فيها هذه الأبيات بأكثر من صورة ، وأكثر من إيقاع :

أحبك حبين : حب الهوى
وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حبّ الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ، ولاذاك لى
ولكن لك الحمد في ذا وذاكا !

ذلك لأن وقفتنا عندها ، ستكون في فترة التحول من الحياة العابثة ، إلى الحياة النقية ، وبالطبع ما كان لنا أن نقف على نزواتها في الفترة الأولى لقلة النصوص ، أما الفترة الثانية فعليها نص ، وابتداء فهناك شواهد على أنها سارت في طريق الشهوة حين احترفت العزف على الناى والأطراب « ويخيل الى أنها قطعت شوطا طويلا في طريق الإثم ، وغرقت في بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها تابت بعد ذلك ، فهذه التوبة نفسها هى أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد في طريق الشهوة ، فالأطراف في تماس كما يقولون والاعتدال لا يمكن مطلقا أن يؤدى الى التحول

الحاسم Conversion فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائما نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة في الطرف الأول المنقلب عنه ، وعلى كل فالنص الذي كان في فترة النقلة من الغواية إلى الانابة يقول :

يا سروري ، ومُنيتي ، وعمادي
وأنيسي ، وعدّتي ، ومُرادي
أنت روح الفؤاد ، أنت رجائي
أنت لي مؤنسٌ ، وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأنسي
ما تشتّت في فسيح البلاد
كم بدت مِنةٌ ، وكم لك عندي
من عطاء ونعمة ، وأيادي
حبّك الآن بُغيتي ونعيمي
وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ـ ما حييتُ ـ براحُ
أنت مني ممكّنٌ في السّواد
إن تكن راضيا علىّ فإني
يا مُنى القلب . قد بدا إسعادي .

فهناك من يفترض أن هناك دافعا لما تقول وهو خيبة الأمل في قضية حب بشرى ، وأن التعبير هو عن هذه القضية أصلا ، حتى ولو كان الخطاب موجها إلى الله ، وذلك أنها لا يمكن أن تتحدث عن حبها الإلهي من فراغ ، فقد كانت وراء ذلك نار بشرية ألقت فيها نفسها إلقاء » . ولهذا فإذا صادف المؤرخ إخلاصا في التعبير عند الصوفى فيجب عليه دائما أن يفترض وجوب تجارب حية صدر عنها فقلب موضوعها من المحسوس الإنسانى إلى الكائن الأعلى الإلهى ، ويمكن تأريخ ما يدخل في هذا الباب وفقا لتضاؤل التعبير الحسى الظاهر ، وتزايد التعبير المجرد الباطن »[٥٣] . . تلك صورة للدوافع وراء الحب الإلهى ، وبخاصة حين تكون قصة حب لمخلوق من المخلوقات ، وحين لا تنتهى هذه القصة إلى ما تنتهى اليها القصص ، يكون من الضرورى أن ترفد الشعر فيما يذهب إليه من مسارات ، وأن تظل دائما في « الخلفية » حتى ولو كان العشق سيتحول الى الله ، وفي كلا الحالين تكون قضية « البوْح » قد تحققت ، ومثل هذا يمكن أن يقال في زميلات لها كميمونة ، وكحيونة التى كانت توقظها بالليل قائلة : قومى ! قد جاء عُرّس المهتدين !

- ١٠ -

يمكن القول بأنه بعد سقوط بغداد ٦٦٥هـ قد سقطت أشياء كثيرة ، أو بعبارة أخرى قد تجمدت أشياء كثيرة ، ويجىء في مقدمة هذا ضياع دور المرأة ، بل وانعدامه في بعض الأزمنة ، فإذا ذهبنا إلى الشعراء للتعرف على عاطفتهم ، وجدنا أن هؤلاء الشعراء لا يعرفون التعبير عن أنفسهم ، فضلا عن التعبير عن الآخرين أو الأخريات ، ومن هنا يمكن القول بأن تعبير المرأة عن عواطفها كاد أن يكون معدوما[٥٤] ، فلما كان

٥٣ - أنظر الرمز الشعري عند الصوفية د . عاطف جودة نصر ١٥٠ وما بعدها ٥٣ - ٥٤ شهيدة العشق الإلهي د . عبد الرحمن بدوي ط ص ١٧ ، ٧٥

٥٤ - تأمل مثلا هذا النص لشاعرة من شعراء القرن التاسع عشر :

كيف الخلاص ؟ وفي الملاحظ نصول — والسيف من جفنيك لي مسلول
وعقاربُ الأصداغ لما أن سعت — ليقنتُ منها أنني مقتول
يا ظبي هل تنتمو ليسعد ناظري — بلقاك إن بك للقاء سبيل ؟
لا تخل من نظري فإن حديثك أن — يبدى جراحا والبكاء تسيل
شهدت عيونك في إباحة سائلي — فاحكم قصاصا فالشهود عدول

« في هذه الأبيات لا نعثر على أي معنى جديد ولا على مفردات غير واردة في شعر القدماء فهي خالية من الشخصية ، كما أنها تخلو تماما من الصدق والواقعية ولون العصر . نسمات وأعاصير في الشعر النسائي العربي المعاصر . روز غريب ص ٣٤ .»

الدخول في العصر الحديث ، وجدنا أن المرأة قد بدأت في التعرف على حقوقها ، وعملت في الوقت نفسه على استعادة الحقوق الضائعة ، ولكنها كانت تلقى المقاومة العنيفة من الرجال ، بل ومن بعض النساء .

وابتداء من القرن التاسع عشر بدأ الشعر النسائى يتنفس على يد شاعرات مثل وردة اليازجى ، وزينب فواز ، ولعل أول ديوان نسائى في هذه الفترة كان « حلية الطراز » لعائشة التيمورية ، ومع أنه يسير في الدروب القديمة ، إلا إنه لا يُخفى إحساس المرأة بقضية الحب في مجتمع ضاغط ، فهى تؤكد أن ما قالته من غزل كان في غير إنسان « والقصد تمرين اللسان » ، وعلى كل فلما كانت مقيدة بالتراث وبالأخلاقيات السائدة ، فإنها لم تعط شيئا ذا بال(**) ، وقد هبت أنفاس أخرى على الشعر من خلال شاعرات مثل ميّ زيادة ، وملك حفنى ناصف ، ومارى عجمى التى كانت تتخذ من الطبيعة وسيلة لتعبر عن عواطفها كامرأة ، فمع أنها تتكلم في قصيدتها عن وردة ، إلا أننا نحس أنها كانت تعنى بالمرأة نفسها :

يـاوردة مـن ذا سـقـاك الـنـدى
وبـثّ أسـرارَ الهـوى في العـيـونْ
وأيـقـظت أنـفـاسـه سُـحـرةً
هـذى الأقاحى الساحرات الجفون ؟
مـن ذا الـذى وافى عـلى غـرّة
فـهـاجـت الأرواح بـعـد الـسـكـون
وأفـرغ الأطـيـاب في روضـة
عـطـفـا عـلى العـود الشجىّ الحـزين
واشـعـل الأضـواء فـوق الـرّبى
وأنعش الصّادى وفكّ السجين ؟
مـن ألبـس الـوادى وشـاح الـبـهـا
وعـلم الأطـيـار هـذى الـفـنـون
وفـضّض الأمـواج كـى تـنـجـلى
مرآتها عند انحناء الغصون ؟(٥٦)

ومثل هذا يقال في أمينة بنت محمد نجيب المولودة في القاهرة عام ١٨٧٧ م ، والتى نحسُّ في كلامها عن نخلة أنها تعنى نفسها ، وهى القصيدة التى أولها :

في غـربـة مـثـلى أراكِ ، وإنمـا
لم تـيـأسى مـثـلى من الـصّحـراء !

- ١١ -

ثم تكون نقلة حقيقية للشعر النسائى ، والتعبير عن عاطفة الحب من خلال شاعرتين هما : نازك الملائكة وفدوى طوقان ، وإذا كان ما يهمنا منهما هو جانب التعبير عن عاطفة الحب ، فإننا نلاحظ أن نازك الملائكة ـ كأية أنثى ـ قد تعلقت بحبال الحب ، ولكنها لم تكن تفعل شيئا لهذا الحب ، وإنما كانت تتركه ليذبل ثم يموت ، على نحو ماتذكر في أول قصيدة في ديوان عاشقة الليل :

وجْهك أحققهُ السِّنين
وضَمّهُ الماضى إلى صدره
ألقى عليه من شبابى الحزين
أحزانَ قلب تاهَ في ذُعره
. . لم يعد الحبّ أسىً مُحرقا
يُشعل أيّامى بأحزانه

٥٥ ـ نفسه ٥٩ ، ويمكن أن يكون البحر الذي تتكلم عنه رجلا :

هديرك لم ألفن القاصدينا ، وموجك لم صرع الغابرينا
ألا يا بحر حدثني فأنكر حسانا تشفي روحا ودينا

٥٦ ـ ديوان نازك الملائكة ـ المجلد الأول ٤٦١

ولم يعد جفني مغرورقا
يحرقه الدَّمعُ بنيرانه
. . لم يبق إلّا ثورة واحتقار
ملء حياتي المرّة الخالة
النّار ذابت وتبقّى الشرار
تشربه أحلامي الواهمة(٥٧)

بل إنها كانت تهرب من الحبيب ، وتتمنى ألا يجيء في موعده حتى لا يكون كالآخرين

ولو كنت جئت . . وكنّا جلسنا مع الآخرين .
ودارَ الحديث دوائرَ ، وانشعبَ الأصدقاء
أما كنت تصبحُ كالآخرين . . وكان المساء
يمرُّ ونحن نقلّب أعيننا حائرين
ونسأل حتى فراغَ الكراسي
عن الغائبين وراء الأماسي
ونصرخ إنَّ لنا بينهم زائرا لن يجيء

وبصفة عامة فتجاربها في الحبّ كانت مُحبطة ، وهي التي كانت تعمل على إحباطها ، فهي تحسّ دائما أنّها والفراق على موعد .

لنفترقْ الآن
أسمع صوتا وراء النّخيل
لنفترق الآن
أشعر بالبرد وبالخوف
دعنا نغادر هذا المكان
ونرجع من حيث جئنا
غريبين . . نسحب عبء إدكاراتنا الباهته
وحيدين نحمل أصداء قصّتنا المائتة
لبعض القبور

ورغم أنها تردد كلمة « إننا جبناء » وكلمة « مازلنا غرباء » إلا أنها تقف دائما وسط الطريق وربما من أوله تنتهيا للعودة « إنها عاجزة عن أن تتوأم أو تذوب في جو أحد » (٥٨) على أنها طورت شعرها بعد ذلك في اتجاه الحب الصوفي ، والتغني بجوهر نقي مشع .

أما الشاعرة « فدوى طوقان » فقد التحمت عالم الحب ، وعاشت أفراحه وأحزانه ، ففي شعرها أكثر من حبيب ، وأكثر من تجربة ، وهي تصور واحدة من هذه التجارب بحس الأنثى ، وخجل العربية .

---

٥٧ ـ في الشعر والشعراء جدا من ٦٠ وما بعدها ، عبده بدوي .

٥٨ ـ الأعمال الكاملة لفدوى طوقان ، وتأمل قولها :

أعطنا حبا ، فبالحب كنوز الخير فينا تتفجر
وأغانينا ستخضر على الحب وتزهر
وستنهل عطاء ، وثراء ، وخصوبة
أعطنا حبا فنبني العالم المنهار فينا
من جديد ، ونعيد
فرحة الخصب لدنيانا الجديبة

بينما تقول نازك الملائكة :

حتى الأغصان المتشابكة
صارت تشبه عين السمكة
وشروع خطانا المرتبكة
والأنجم صارت كالأحداق
والغد، والماضي، والدنيا، وعرانا في تلك الأحداق
رمسك وتوارت في الأعماق !

والتقينا . . لم أدر أي قوى
ساقتك حتى عبرت درب حياتي
كيف كان اللقاء ؟ من ذا هدى
خطوك ؟ كيف انبعثت في طرقاتي
بالعينيك !! أي نقضة بعث
أوجدتها عيناك في أعماقي
فإذا بالحياة عارمة النبض
يفيض الحنين . . بالأشواق
ومضت بي الأيام . . لا
أنا صرحت ، ولا خفق الحية تبدو
كم حديث حدثتني ؟ كم قصيد
هز روحي . . وأنت تروي وتشدو
وافترقنا وملء نفسي - لو
تدري - أحاسيس هائمات حيارى
وهواي المكبوت يجهش في
صمت . وتهمي دموعي أشعارا

وهي تتكلم عن لقاء أعدت له ، ولم يكن محض صدفة

هم يحسبون
لقاءنا محض صدفه
هل كان صدفه ؟
من قال ؟ من أين هم يعلمون ؟
أنت الذي يعلم
وأحمر الشفاه
والعطر ، والمرآه
وزينتي هي التي تعلم
لاهم !
وتطالب بالعبودية من الحبيب
حبيبي . . بما بيننا من عهود
بضحكة عينيك
إذا أنا ضقت بأغلال حبّي
وثرتُ عليها ، وثرتُ عليك
فلا تعطني أنت حريتي
فقلبي قلب امرأه
من الشرق . . يعشق حتى الفناء
ويؤمن في حبة بالقيود !

وهي تطير طيرانا حين قال لها الشاعر الإيطالي « سلفاتور كوازيمودو » في استوكهلم « أنت حلوه » وهي تؤكد أنها حين تكون على موعد حب لن يقف في طريقها حتى الموت نفسه !

وفي ضوء هذا يمكن القول بأن « نازك الملائكة » إذا كانت قد أجادت في التعبير عن عواطف الحب المُحبطة وسارت في هذا الطريق خطوات ، فإن فدوى عبرت عن التجارب غير المحبطة ، وسارت في هذا الطريق خطوات (٥٩) ، ومهما يكن من شيء فهما الملمحان الواضحان في المجال الذي نتحدث فيه ، وإن كان هناك من يدور برفق ، حول هذه القضية مثل ملك عبدالعزيز ، وعاتكه الخزرجي ، وثريا ملحس ، ولميعه عباس عمارة .

- ١٢ -

. . أما اللاتي يكتبن بالفرنسية فلهن تصور آخر للحب وللحياة ، ومع أن هذا الشعور يبدو هادئا ومتأملا كما هو معروف عن « أندريه جيد » حين تقول في مجموعة « أخوة الكلمة »

. . فاتحين قلوبنا للحب
تُلهينا حمم البراكين

٥٩ - كل النصوص الواردة في القسم رقم - ١١ - من كتاب نسمات وأعاصير في الشعر النسائي العربي المعاصر . روز غريب . بيروت .

تصطرع في نفوسنا الآمال
نعب من الحياة ملء أفواهنا
نخترق قلب الصمت
نعشنا الكلمة المبذولة
ملازمين النار الهادية

إلا أن المرأة العربية سرعان ماتتفجر بالحب ، وتركب العاصفة ، وتصرخ في قلب العاصفة ، على حد ما تكتبه « هدى أديب » ، فقد بدأت تقول

سأحبك حتى الأعصار
سوف أبني بيتا فوق بيت
بحيث تغلق في وجهك الأبواب
نور قاتم ينزلق من يدي مثل وحل
يدمر ذاكرتك
حجارة فوق حجارة تجتازها
وأنا ألعق الحجارة حتى يذهب عطشي
راكعة أجتاز جسمك اللا متجسد
أسلبك عاريا . الأمواج تهدد ، تصرخ عن
لعجزي عن الوصول إليك ، أرقص الشكوى
لوح زجاج منحطم مرتعب بالحلم الذي يسحقني

ثم رأيناها في مجموعتها الثانية بالفرنسية التي عنوانها « وقفة قلقة » تقول بجسارة :

أود لو تكون طريقا أتدحرج عليها بصبر
بإشارات مكسورة تملؤها المسافة
أرقص مجنونة ، تعبة ، منسية
غنِ . غنِ إيقاعي الذي ينظم خطواتك
غنِ هذا الإلحاح على أن نكون وحدنا
في حين يجب أن نكون هناك . أود أن أقتلعك
أدخل ، أضم ، مثل شعاع يدور حولي

طويلا ، طويلا ، مع جسم معين
طويلا على صدرك ، أصنع دوائر تتأرجح طويلا
طويلا خنقتك على صدري
حتى أنني فجأة احتجْتُ إلى ألف فضاء
سوف أضجع جسدك التعب المعطل
أمشي عليه حتى أحرق نفسك
أتلفع بهذه السحابة التي لاتشبع
أضربك بالسوط ظلا . . حتى أحطم سكوتك
حتى الرغبة في أن أرى خيالك يعيش !

وتقول من غير ايماءات أو رموز أو أساطير أو مقتبسات أو كل مايواري جسد الحب :

الأرض متجمدة متصخرة . . مثل صلوات قديمة
السماء على شفاه خيمة ، وأنا أحملك على شفق
بسمة وحيدة تلتهم نجوما
ياشجرة ! أحب قوتك التي تخدر الريح
وأنت تخترق حتى النظرة التي تصاب بالحذر
يانسرا ذا أجنحة لانهاية لها ، أنت الذي تسيطر على الزمن
الذي يخفق ، ويخضع للنظام
بستان مقفر يتوقف فيه البشر
أما أنت . . فمزق البساتين
أهرب !

ثم تصل الى مايسمى « الصدمة » للقارىء ، وبخاصة حين يكون القارىء عربيا ، فتقول .

جاري يمارس عادة
يصلي . ينحني . يرتفع . ينحني
علموه كيف يصلي ؟ كيف يحب
على ركبته ؟

ثم تبالغ في الصدمة حين تبارك الثمرة غير الشرعية

ماهو الولد اللاشرعي ؟
شريعة لاتجد تفسيرا
جميع الناس أبي ، ولدت من غير أبي
مافائدة هذا ؟ لاأدري . . كل انسان يقول : إن له أبا
ومع هذا أراهم جميعا منفردين
منعزلين ، عاجزين عن التفاهم مع آبائهم !! . .

وقريب من هذا يمكن أن نجده عند « فينوس خوري » حين تتعرض للرجال الذين مروا في حياتها في مجموعتها الفرنسية « وجوه غير مكتملة »

يتماسكون بالأيدي ، يقودون رقصتهم حول نار منطفئة
رجال عمري . . وتكبر الدائرة
تلفظ منهم فريقا ، وتغص بالداخلين الجدد
لن يزيدوا مطلقا عن الحاجة ، أريدهم جميعا . جميعا .
أتفهمون ؟
يمرون يتجاوزون ، يتقارضون ملامح وجوههم .
ملامح سواهم
بالله عليكم ، ضعوا حدا لهذه الرقصة التي بدأت منذ بدء الخليقة
هذه الجلبة التي يتمازج فيها البكاء والضحك
هؤلاء الذين يمثلون الحب وأولئك الذين يحتضنون الفراغ
رحماكم . أوقفوها ! سئمت البحث عن عيون الواحد في محاجر الآخر
الأنكم ترددون نفس الكلمات ، نفس الحركات ، ويتلقاكم جسد واحد
تصبحون هكذا . . شخصا واحدا

فإذا وصلنا إلى الشاعرة « سامية تونتجي » نرى في مجموعتها الفرنسية التي ترجمها والدها بعنوان « حضور من كل فج » فهما لدور المرأة ، ولدور الحب معا ، فهي تفتتح المجموعة بقولها :

جميع النساء تتكلم بفمي
وتبعيتهن الطويلة الأمد تسوق البحر إلى مضاجعنا
القمح في السهل يتحرك كما يتحرك شعري وحده
وعلى شرفات السمع هذا الحرير
يتحدث عن اعتراف دائم
والبحر ، البحر حامل مفاتنه
يردد السلام المقتنص من المتع الطويلة
والنهد الذي أخضع كبرياءه

وتنطلق أكثر فتقول :

أنت عند أبواب السكوت
وأنا أحمل جسدك في عيوني
أعضائي مثقلة بالعناق
خدي كل يوم يزداد تجوفا من أثر القبلة التي تطبعها عليه
الرخام بقوالب ذراعي (كناية عن النمو والنضج)
المرجان يزهر
هذه الأوهام التي تراودني كمستنقعات كبيرة
الصدى في ينحفر على وقع معول القلب
على الأضلاع . هذا القلب قاطع حجارة لايشبع
يصب جسمي على إيقاع أصواتك
كأنه يبحث عن الحفرة العميقة التي تخلد أفراحنا

وتتمرد على كل شيء فتقول :

لتكن أيامك لي ، وأنا فديتك
في عطشي إليك أريد
أن أثمل منك وأموت
أنا المرأة ، أحمل المعادن والحجارة الكريمة
أنا امرأة ، أحمل تحولات النساء

ازين صدرى بشقائق النعمان الفاخرة اللباس
أتقوس مغلوبة ، في مشيق تتعثر الفضيلة
.. أخلع مالدى من أمتعة الأمس
اطرح جميع سيورى الجلدية الملونة والخفيفة ، أعطيها للميشرين
.. أريد أن أكسر صندوقى السلحفالى
الحل والمصاغ نوع من الموت
الشمس على ظهرى شقاوة
.. أريد أن أتبرج بالطبيعة ورودا ورياحين
أريد أن أزحف كالهرة بين غُلالات الموسلين
وأمارس الألاعيب ، وألوان الشقاوة
أريد عقد أوراق الشجر
والركبة المصنوعة
وثوب النشوة ، والمعطف المريش
مزينة بالظلال
بأصابع عارفة بملامس عاقلة
على العربة البيضاء العارية
في زحمة المواسم الحمر
موسيا لمر !

فاذا جئنا للشاعرة « أسل جنبلاط » وجدناها في مجموعتها الفرنسية تقول :

أريد أن ادمى .. أيها الحب
وفي عناقك أفنى .. أيها الحب
وفي نظرتك أندفن !

وقريب من هذا شعر « مى مر » التى تسمى شاعرة الحب والورود ، والتي يلتهب ديوانها الأول« لم الورود ؟ » بالحب التهابا فتقول مثلا :

حبيبى بستان
فيه الريح الغريبة
مجنونة بالورود
تسقيه بضعة جداول متوجة
نعيم .. قبلاتك الخمرية

وتقول بوله :

لاتحرم عيني نصيبها من شفتيك
لتكن أيامك لى ، وأنا أبديتك
في عطشى إليك أريد
ان أتلق منك وأموت
أموجعة لأنى ما استطعت أن أولد فيك
وأن أتفتح في أفكارك
.. أطفىء النور
ليلف الغموض مداعبتنا
تحرك في ليل !
.. عبثا انتظرت
أين النجمة ؟ مطفأة
وأراك مضطجعا فيَّ .. في متاهة (٦٠)

---

٦٠ ـ تأمل مثلا قوله :

لو أننا كنا نجمتين جارتين
في خيمة واحدة مضجعنا
نحو ديار العشق والمحبة
وحين يأفل الزمان يا حبيبي
ويستطيع غرامنا الطويل بانطفائنا
بين حصى الكثير
ولد يرانا ملك إلا يعبر السبيل
يلقطنا ، يمسحنا في ريشه ، يحجبه بريقنا

من شرفة واحدة مطلتنا
تغني، للعشاق وصدهم والساهرين
وللحيارى الساهرين الحافظين موثق الأحبة
بتركة الأقوال
يبعثنا الإله في مسارب الجنان ثُرَيّتين
فيستحي حين تشد عينيه إلى صفائنا
يرشقنا في الطرق الظهور

(الأعمال الكاملة)

.. تلك صورة عامة للحب وقضاياه وممارسته مما كتبته شاعرات عربيات يكتبن شعرهن بالفرنسية ، وللوهلة الأولى ندرك أن هناك طلاقة في العواطف ، وهذه الطلاقة تعطينا صورًا نامية مزهرة مضفرة بالموسيقى ، فنحن لانحس أن هناك كبْتًا للعواطف ولا صحوا يقف بالشاعرة بين الحين والحين لتدارى وهجا ، وتخفى عاطفة ، وتدس ميلا ، ومعنى هذا أن الشعر الرائع لابد أن يتعامل مع الحرية حتى ولو كانت هذه الحرية خطرة .. فلا خطر للحرية ، ومالم يتحقق هذا الجانب فانه لن يكون هناك إبداع حقيقى ، وإنما تكون هناك حالة حرب خفية بين الحرية والعبودية في الشعر ، وبين الجسارة والخوف عند الشاعر بالاضافة الى وجود المشاركة في الحب بين الرجل والمرأة ، بعكس الإحساس القديم القائم على توفير المتعة للرجل على حساب المرأة !

والقضية هنا لم تحققت حرية المرأة الشاعرة في اللغة الفرنسية ، ولَمْ تتحقق في اللغة العربية ؟ صحيح أن الشاعر قد كسر إلى حد كبير جانب الخوف على حد ماتعرف مثلا من شاعرين كبيرين هما بشار وأبو نواس ، وشاعرين عابثين كابن سكرة وابن الحجاج ، ولكن يبقى أن الشاعرة العربية قد حولت حالات الحب إلى حالات حزن وخوف ورعب والقضية هنا ليست قضية اللغة ـ فاللغة أساسا محايدة ـ ولكنها قضية المجتمع ، وتقاليد المجتمع ، بل وطبيعة المتلقى للمكتوب بالفرنسية والمكتوب بالعربية ، فالمتلقى في العربية تغلب عليه المحافظة ، والارتدادية ، وتأكيد كل ماهو طاف على وجه المياه الثقافية ، ومن هنا يتقاطع في الصميم مع طبيعة الشعر الوثابة كالشرر ، والمتخطية دائما لكل ماهو جديد ، وفي الوقت نفسه تتحرك إلى الأعمق ، وتندفع إلى الأمام .

- ١٣ -

وفي الوقت نفسه كان للشاعر المعاصر دوره في التعْبير عن عواطف المرأة ، وقد تعددت هذه الأدوار ، وتشابكت ، فقد ظلت « المرأة المثال » مما يشغل الشاعر المعاصر على حد مانعرف من المرأة عند إبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، وأبو القاسم الشابي ، وقد تطور هذا الجانب في الشعر الجديد عند صلاح عبدالصبور [٦١] ويمكن أن نقترب من المرأة التى من لحم ودم ، فنتعرف على خصائصها ، وطريقة حياتها ، وملامحها الحقيقية ، لا في طبقة واحدة من المجتمع ولكن في العديد من الطبقات ، وإن كنا نلاحظ أن الشعر الواقعى قد أضاء هذا الجانب ، إلا أننا نلاحظ أن الذي برز في هذا الميدان ، وركز على المرأة في الطبقة العليا من المجتمع كان نزار قبانى ، فقد وصل به الأمر إلى القول بأنه يحسن التعبير عن المرأة المعاصرة إلى حد لم تقترب منه

---

٦١ ـ الحب لا يقف على الضوء الأحمر ص ١١٦ .

يمطر على كحلك الحجازي
وأنا في وسط « الكونكورد »
فأراك
وتشرئبك مني باريس
.. وتطلب العصافير اللجوء السياسي
الى جيبك العربيّ
.. يا ذات الشفتين المتكتين كحبتى فاكهة
كم هو استفزازي نزوع المطر الذي تضعينه
وكم هو رائع إفطار الصباح معك ..
وأنت تشربين قطعة « الكرواسان » كعصفور

الشاعرات في هذا الزمان ، فقد تعرض للأنثى الخائنة ، والحبلى ، والمستأجرة ، والمساحقة . . الخ ، ودواوينه الغزيرة تشهد بهذا ، ولنتأمل مثلا حديثه عن فاطمة العربية في آخر أعماله (٦٢) فإذا جئنا إلى « المرأة الأطار » التي من خلالها يتحدث الشاعر عن القضايا التي تهمه ، كقضايا الحرية ، والأمومة ، والخصوبة . . الخ وجدنا أن هناك شعراء كثيرين برعوا في هذا المجال ، وإن كان يجيء في مقدمتهم الشعراء الفلسطينيون (٦٣) ، وليس معنى هذا أن النظرة من الشعراء تكون دائما نظرة إعجاب وانبهار ، ذلك لأنه وجد من ينظر إليها

ويتفرين فمي كعصفور
أيتها السنجابة الأسيوية
التي تطأ من أعلى « برج إيفل » إلى صدري
ولا تخشى الدوار
وتستحم بنوافير « قصر فرساي »
ولا تخشى الغرق
وتنام عارية على أعشاب حديقة « التويلري »
ولا تخشى الفضيحة
. . أيتها العربية التي يقطر الصمغ الأسود من جبينها
نقطة . . نقطة
ويقطر الشعر من شفتها السفلى
قصيدة . . قصيدة
ويرد حلقها الطويل صباح يوم الأحد
كناقوس كنيسة
. . صباح الخير
أيتها السمكة التي تتكلم اللغة العربية
وتتهجى كلمات الحب باللغة الفرنسية
وتتهجاني بكل لغات الأنوثة

٦٢ ـ تأمل مثلا في ديوان سميح القاسم . على وجه الخصوص ، قصيدة « ليلى العدنية » التي يتكلم من خلالها عن ثورة الجنوب اليمني ص ١٥٣ .

شامها الله شهية
شامها الله . . فكانت . . كبلادي العربية
شعرها . . ليلة صيف بين كثبان تهامة
مقلتاها . . من مهاة يمنية
فمها . . من رطب الواحة في اليد الصبية
عنقها . . زوبعة بين رمالي الذهبية
صدرها . . نجد السلامة
إصل البشرى إلى نوح ،
فهودي يا حمامة !
ولدى خاصرتيها ، بعض شطآني القصية
شامها الله فكانت كبلادي العربية
نكهة التوطة والموصل فيها .
ومن الأوراس . . عنف ووسامة
وأبوها شامها أنثى صبية
شامها اسما وشكلا
فدعاها الوالد المعجب : ليلى
والكم أيها الأخوان ليلى العدنية !

٦٣ ـ عن شهيدة العشق الإلهي . د . عبدالرحمن بدوي ٢٦ ، ٥١ ، ٥٤ .

كخائنة ، وكشيطان ، على نحو ماهو معروف مما كتبه عباس محمود العقاد ، وإلياس أبوشبكة ، وكيلاني سند .

ـ ١٤ ـ

وأخيرا :

فقد مربنا أن الأنثى ـ بصفة عامة ـ كانت كتومة ، وكانت تجد حرجا في إظهار عاطفة الحب عندها بطلاقة ، ولعل مما نضيفه في هذا المجال الآن ، هو أن المرأة لم تخلص تماما لقضية الشعر المتصل بجانب الحب ـ فقد شغلت بأشياء كثيرة عن الحب ـ والتعبير عنه ، ذلك لأن الحب باعتبارة قائما على التكافؤ بين إرادتين لم يكن متوفرا تماما في المجتمع العربي ، فالمرأة كانت دائما مستضعفة ، ومستلبة ، ولاتقبل منها المجاهرة في الحب .

. . فإذا نظرنا إلى المرأة كمعشوقة ، وجدناها ترفض أساسا فكرة الزواج كرابعة العدوية البصرية التي كانت تقول لمن يخطبها « ياشهواني أطلب شهوانية مثلك » ذلك لأنها ماكانت تحب أن تشتغل عن الله « طرفة عين » والمعروف أن الصوفيين بصفة عامة كانوا يفضلون « العزوبة » ومما يؤكد هذا أن الحسن البصري ، كان يقول لمن يطلب منه الزواج « أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج مني إلى التزوج » المهم أن الشاعرات قد عبرت عنهن « حيونة » حين ذكرت أنهن في عرس مع الله ، فقد قيل أن النوم غلب على رابعة ، فما كان من « حيونة » إلى أن ركلتها برجلها وهي تقول : قومي ! فقد جاء عرس المهتدين يامن زين عرائس الليل بنور التهجد ! (٦٤)

فإذا جئنا إلى حبيبات العذريين ، وجدنا أنهن كن يخضعن للتقاليد التي كانت تقول : إن من يشبب بمحبوبته يحرم منها ، وقد كن يفضلن كلمة الأب على كلمة الحبيب ، حتى ولو كان الحبيب في طريق الجنون ، أو جن بالفعل ، ومعنى هذا الخضوع لما يسمى مفاهيم

---

٦٤ ـ في ديوان « الله والليل والحب » ترجم الشاعر صالح جودت عن الفرنسية بعض القصائد للشاعرة « سلوى حجازي » ، فكان منها هذه الأبيات ص ٢٠٨ .

وباب الوكر مفتوح بلا قيد ولا خطر
وهذا الطائر المحبوس لا يمضي مع الطير
لقد عاش به دهرا فألفه مع الدهر
ومازال جناحاه يرفان على الشجر
ولو طارا به انطلقا من عالم الأسر
ولكنهما تبلوان مشلولان بالصبر

وهناك نص آخر بعنوان « بعد السنين »

لم أنس يوم التقينا في مسرح للخيال
وزحت تنظم شعرا منتشيا في جلال
أكنت حقا تراني وحيدة في الشمال
وبين فيض الأماني وبين زهر النوال
رأيتني يا حبيبي أنيقة في اختيال
فريدة في شبابي كنجمة الشمال
ألا تزال تراني شأن الليالي الخوالي ؟
أم أنني كنت سحرا ساقته كف الظلال
أو حلم ليلة صيف مصيره للزوال
أو كنت مثلي وحيدا بين الصفوف الطوال
وترى أني سلوى تنسيك هم الليالي

« المجتمع الأبوى الذى من أولى ملامحه خضوع المرأة للرجل !

فإذا جئنا إلى العربيات بصفة عامة وجدنا أنهن كن ضد المجاهرة كاتجاه عام فإذا كان ولابد فقد كان التعامل مع الرمز ، والتورية ، ومع أن العصر الحاضر قد فتح أعين النساء على العديد من الحريات ، إلا أنهن لم يقعن في تناقض حاد مع الحبيب بسبب الجهر في الحب ، هذا بالإضافة إلى أن الرجل العربي يصدف عادة عن الزواج بالشاعرات .. بله المتغزلات ؟ فهو لم يستسغ أبدًا أن تحب زوجته إنساناً غيره ، أو تعجب بإنسان غيره ، وعلى الطبيعة نجد في الغالب أن الشاعرات المعاصرات إمّا « عانسات » أو « مطلقات » أو متزوجات لرجال طاعنين في السّن أو كانوا متزوجين من نساء قبلهن ! .. صحيح أنه كان هناك استثناء واحد في إظهار عاطفة المرأة ، والتعبير عنها بجسارة وطلاقة ، ولكن هذا كان من شاعرات عربيات يكتبن بالفرنسية ، فالأنثى العربية في المجتمع العربي ، ـ والكلمة العربية إلى جانب ذلك ـ لم تكن تتحمل طاقة التعبير بطلاقة وبجسارة في العالم العربي ! مع ملاحظة أن الشاعر حين يتدخل لتوصيل عاطفة المرأة إلى القارىء العربي ، نراه يرجع بها إلى المحافظة وإلى الخوف القديم ، على نحو ما نعرف من تجربة الشاعر صالح جودت حين ترجم لشاعرتين بعض ما كتبتا بالفرنسية ، وقد صرح هو بأنه ما كان يستطيع تقديمها إلا في هذا الإطار المحافظ(٦٥) ... ومن ثم جاء التعبير عن ظاهرة الحب في أغلب الأحيان محدودًا ، وشاحبًا ، وبائسًا ، ويكاد يكون خاليًا من الدفء والحرارة والصدق ، حتى فيما كانت تتخذ من بدائل عن طريق الرموز والتورية أو حب الأخ ، ومن ثم لم نجد في شعرهن نماذج متهللة ، ورحبة بحيث تتوهج توهجا ، وترف رفيفا ، ذلك لأن المجتمع كان يقف لهن بالمرصاد حين كانت العربية صاحبة الكلمة في البيت العربي ، ولأنها لم تقو على المنافسة مع موجات الجمال المتمثلة في الجواري ، ثم إنها كانت عاجزة عن تثقيف لغتها وتجربتها لأنها لم تتغلغل بعيدًا في أسرار العربية ، ولأنه لم يكن يسمح لها بممارسة الرواية ، والاشتراك في عملية إلقاء الشعر مع الرجال .. وقبل كل شيء بممارسة الحب ! والمطالبة برفع الوصاية !

ثم إنها كانت ذات نفس قصير في الحب ـ إن صح

---

(٦٥) ويقدم الشاعرة « علية فهمي » بما لا يخرج عن هذا الإطار المحافظ ، والمقبول في المجتمع العربي.

يا حبيبي اصغ لي يوما ودعني أتكلم
فأنا في كل أنفاسي بعمقي أتألم
كيف لي بعدك حتى لشجوني أتكتم
لا شفاهي عندك صماء ولا قلبي أبكم
أنا في بعدك لا أعرف للبهجة موسم
وأرى الأيام من قسوتها لا تتبسم
وأرى الجو الذي شعشعه بالنور أظلم
يا حبيبي اصغ لي يوما ودعني أتكلم
يا حبيبي ليس لي في حبك الشاغل مغنم
إنما أهواك روحا هي من روحي توأم

وفي مقالة للديوان ذكر الشاعر أنه أضاف من عنده للنصوص التي قدمها ليكون القبول من القارىء ، ثم أنه كانت للوزن والقافية بعض الأحكام ، ومن قبل هذا الخضوع لمفاهيم مجتمع يحجم المرأة .

التعبير - ولهذا لم نجد في الحب مجنونة باسمه ، وإن كان من المعروف أن العديد من الرجال قد جنوا حبا لقد كانت تؤثر الطاعة لولي الأمر ، وكانت في الوقت نفسه تجد أنسها في البيت الهادىء في ظل أي زوج بعيدًا عن عواصف الشعر الهوجاء ، وبعيدًا عن حياة الشعراء غير المستقرة ، وبعيدًا - كما يقال حتى الآن - عن القيل والقال ! ويمكن أن يقال هذا بالنسبة للرواة فما أكثر ما نجد نسيانًا لاسم الشاعرة مثل : قالت امرأة طائية ، أو من بني عامر ، أو عربية ، أو غاب عنها زوجها ، أو تهجو زوجها ، أو تتودد إلى زوجها ، أو زوجت بشيخ ، أو ترثي أباها ، أو أعرابية ماجنة ، أو من أجمل الناس . . الخ . وكثرة هذا تدل على الظلم الواقع على المرأة من أكثر من جانب !

* * *

الأغاني الشعبية المناضلة
فلسطين في أغانيها حتى بعيد نكبة ١٩٤٨
دراسة ميدانية

عبداللطيف البرغوثي

بيت عتابا :

على سهولك يارملة ملتقانا
تتغسل بالدمار عار لقانا
فلسطين ابشرى قرب لقانا
السبع يعود ، مهما غاب ، للغاب

١ - تمهيد :

بانتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م كان قد مضى على فلسطين أربعمئة عام من الحكم التركى الذى كان أسوأ آثاره اعتماد سياسة التجهيل ، مما أدى إلى ارتفاع نسبة الأمية إلى درجة أصبح معها الجهل بالقراءة والكتابة هو القاعدة السائدة ، والمعرفة بهما هي الشذوذ ، وما أن سكتت نيران تلك الحرب حتى حلت حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين محل الأتراك ، وبدأت تعمل على تنفيذ بيان بلفور الخاص بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، مما أدى إلى بدء الثورات الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى للحيلولة دون ذلك . فقامت الثورة في القدس سنة ١٩٢٠ م ، وفي يافا سنة ١٩٢١ م ، ١٩٢٤ م ، ١٩٢٥ م وفي سائر البلاد سنة ١٩٢٩ م ، ١٩٣٥ م ، ١٩٣٦ م . ثم اندلعت الثورة من جديد سنة ١٩٣٧ م ، ولم تزل مستمرة حتى نشبت الحرب العالمية الثانية في أواخر ١٩٣٩ م ، فتوقفت الثورة الفلسطينية في مطلع سنة ١٩٤٠ م تحت تأثير ظروف الحرب العالمية الثانية التي انتهت سنة ١٩٤٥ م ، وما أن مضت سنتان على انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى اتخذت الأمم المتحدة (شكلت هيئة الأمم المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أي سنة ١٩٤٥ م لتحل محل عصبة الأمم السابقة) قرار تقسيم فلسطين في ١٩٤٧/١١/٢٩ م . وآنذاك راح اليهود في فلسطين ينظمون المذابح بين العرب لإشاعة الرعب والفزع في صفوفهم من أجل حملهم على الهجرة تحقيقا للمقولة الصهيونية : إن فلسطين أرض بلا شعب . ولذلك فهي الموطن المناسب لشعب بلا أرض ، أي للشعب اليهودي . وفي الوقت ذاته أخذ الإنجليز من جانبهم يجردون المدن العربية من السلاح على قلته ، ثم يجلون عنها ويسلمونها للعصابات اليهودية المسلحة . وانسحب الإنجليز من فلسطين في ١٩٤٨/٥/١٤ م ،

ودخلت بعض الجيوش العربية النظامية لفلسطين بقرار من مجلس جامعة الدول العربية في ١٩٤٨/٥/١٥ م . وأخذت الولايات المتحدة الأمريكية على عاتقها تنفيذ الاستعمار الصهيوني الهادف لإقامة دولة إسرائيل ، ثم عقدت الهدنة الأولى بعد أربعة أسابيع من القتال ، وبعدها استؤنف القتال في ١٩٤٨/٧/٩ م ، واستمر حتى ١٩٤٨/٩/١٨ م ، حينما عقدت الهدنة الثانية التي كرست النكبة على يد أمريكا وبريطانيا والمتآمرين معهما . وترتب على تلك النكبة تهجير معظم العرب الفلسطينيين عن الأجزاء التي احتلت سنة ١٩٤٨ م ، فلم يبق فيها إلا حوالي مئة وخمسين ألف نسمة من العرب موزعين بين الجليل والنقب والمدن الكبرى المحتلة ، مثل حيفا وعكا ويافا واللد والرملة . أما من طردوا فقد استقرت أعداد كبيرة منهم في الأرض الفلسطينية التي ظلت خارج الاحتلال ، والتي صارت تعرف بالضفة الغربية التي ألحقت بالأردن منذ سنة ١٩٥٠ م ، وقطاع غزة الذي أتبع للإدارة المصرية ، واستقر الباقون في البلدان العربية ، لا سيما المجاورة منها لفلسطين . وهي : سوريا والأردن ومصر ولبنان .

وترتبت على نكبة ١٩٤٨ م خضة سكانية كبيرة ، أدت إلى نشوء المخيمات الفلسطينية . وإلى حالة من الفقر المفاجىء المدقع ، لم يخفف من وطأتها إلا جهود الإغاثة الدولية المحدودة التي جاءت في البداية على يد منظمة الصليب الأحمر ، ثم على يد وكالة الغوث الدولية « الأنروا » التابعة للأمم المتحدة ، والتي لا تزال تقوم بمهام الإغاثة للاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي لبنان وسوريا والأردن . وكان أكثرية المثقفين بين من هُجِّروا من بلدانهم المحتلة ، مما أورث تلك البلدان فقرا ثقافيا أدى إلى معرفة عرقلة مسيرتها الثقافية ، وتأخير تطورها ، وتهديد هويتها الثقافية العربية . وكانت تسيطر على عقول الفلسطينيين المهجرين منهم وغير المهجرين ، أفكار تتلخص في الحزن على ضياع الجزء المحتل من الوطن ، وفي الذهول مما حدث بسبب انتصار العصابات الصهيونية على جيوش الدول العربية السبع ، وهو ذهول حمل الفلسطينيين على عدم تصديق ما حدث ، وعدم التسليم به ، طيلة السنوات العشر التي تلت نكبة ١٩٤٨ م ، مما جعلهم يتصرفون وكأنهم عائدون إلى ديارهم بعد أشهر معدودة ، فإذا ما استضيف أحدهم في مناسبة ، أو قدمت له القهوة ، فإنه كان يشكر المضيف قائلا : « إن شاء الله نشربها في البلاد » . حالة الذهول هذه ظلت تخيم على العقول والمشاعر الفلسطينية طيلة سنوات الخمسينات ، إلا أن قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م في مصر ، وما ترتب عليها من بروز المرحوم جمال عبد الناصر كزعيم للأمة العربية ، وما بدأ يتبلور على مستوى الوطن العربي من مد قومي عارم ، بعث الأمل في الوحدة والنصر والتحرر ، وأسهم في رفع معنويات الشعوب العربية بعامة والشعب العربي الفلسطيني بخاصة ، بالرغم من أن الفلسطينيين وجدوا أنفسهم ممزقين ومشتتين : فبعضهم تفرض عليهم أنظمة إسرائيلية صارمة ، وبعضهم تفرض عليهم أنظمة عربية تخضعهم لسياسات أنظمتها ، ولا تسمح لهم بتنظيم أنفسهم تمهيدا لمحاولة جديدة لتحرير أرضهم المحتلة ، وبعضهم الآخر يقبعون في مخيمات لا تليق بكرامة الإنسان .

٢ ـ تعريف الأدب الشعبي :

حتى منتصف القرن الحالي كان مصطلح الأدب العربي يعني أدب اللغة العربية الفصحى المعربة ، ويستثني أي نتاج أدبي بأية عامية عربية . وفي أعقاب نجاح الثورة المصرية ، توجه قادتها ، بوحي من جمال عبد الناصر ، إلى العناية بكل ما يعبر عن الحياة

الشعبية ، من منطلق احترام الشعب والإيمان به . وتحقيقا لتلك الغاية ، استحدث قسم « الأدب الشعبي » في جامعة القاهرة ، وصار مصطلح الأدب العربي يشمل الأدب الشعبي ، وبدأت الجامعات في مصر ثم في السودان تعمل على دراسة حياة الشعب من خلال تراثه ، وفي مقدمة ذلك التراث الأدب الشعبي الذي هو كل المتون القولية المنشأة باللهجة العامية ، والمجهولة المؤلف ، والمروية مشافهة من جيل إلى جيل ، والمعبرة عن وجدان الشعب . وقد ميز المختصون المصريون بين هذا الأدب الشعبي وأدب العامية ، فراحوا يسمون كل نتاج أدبي بلهجة عامية يصدر عن شاعر أو فنان أو شخص معروف مثقف ، كما هي الحال بالنسبة لمواويل أمير الشعراء أحمد شوقي ، راحوا يسمون ذلك « أدبا عاميا » . واستكمالا لتعريف الأدب الشعبي نقول : إنه كأدب الفصحى ينقسم إلى قسمين كبيرين : ١ ـ **المنظوم** ، ويشمل الشعر الشعبي أي القصيد ، والأغاني الشعبية وأبرزها في فلسطين: العتابا والدلعونا وزريف الطول ومشعل واغزيل وهو يدلى ؛ وأغاني النساء كالزغاريد والبكائيات والأغاني الدينية . ٢ ـ **والنثور** ، ويشمل السير والملاحم الشعبية ، كسيرة بني هلال وتغريبتهم ، وسيرة عنترة بن شداد وحمزة البهلوان ، والظاهر بيبرس ، والأميرة ذات الهمة ، ثم الحكايات الشعبية بأنواعها ، والأمثال والأقوال والنكت والألغاز والحزازير ونداءات الباعة ولغة المخاطبة اليومية .

سوف أقصر حديثي في هذه الدراسة على دور الأغاني الشعبية من الجانب المنظوم في خدمة قضايا الوطن وفي النضال من أجل نصرته وتحريره ، تجنبا لتشعب الموضوع حول المجالات العديدة المذكورة ضمن تعريف الأدب الشعبي ، لكن قبل الدخول في هذا الموضوع أرى أنه لابد من استذكار بعض الملاحظات الأساسية ، ذات العلاقة بالشق المنظوم من أدبنا الشعبي :

أ ـ هذا المنظوم منشأ بالعامية الفلسطينية التي هي ابنة اللغة العربية الفصحى ، وشقيقة العاميات العربيات الأخرى ، وهذه العاميات جميعها تختلف عن الأم الفصحى في أبرز ما تختلف به ، في إسقاطها للإعراب ، وفي بقائها ـ على الرغم من ذلك ـ قادرة على أداء وظيفتها كوساطة للتعبير الفعال .

ب ـ هذه العاميات وثيقة الصلة بالأم الفصحى في ضمائرها ومفرداتها ومشتقاتها وأساليبها البلاغية من تشبيه واستعارة وجناس وسجع وطباق . . . الخ .

ج ـ والأدب الشعبي المنشأ بالعامية وثيق الصلة بأدب الفصحى من حيث موضوعاته من وصف ومدح وفخر وهجاء ، ومن حيث موسيقاه وغنائيته ، لكنه يتميز عنه بجماعيته وبعفويته وبساطته وارتجاليته ، ولذلك فهو بعيد عن الصنعة والتصنيع ، ويتصف بالتالي بمصداقية عالية في تمثيل حياة منشئيه ونفسيتهم .

د ـ الأدب الشعبي ، حسب التعريف السابق ، يندر أن تكون نصوصه مؤرخة ، لأنها شفوية ومتوارثة ، ولذلك فإن من الصعب تحديد الزمن الذي نشأت فيه القصيدة أو الأغنية الشعبية إلا إذا اشتمل نصها على اسم شخص نعرف تاريخه ، أو اسم أو حادثة نعرف تاريخها كذلك .

هـ الدورة الدموية للأدب الشعبي هي المشافهة . أي دورانه على الألسن ، إذ أن توقفه عن الدوران على الألسن هو شبيه بتجميد الدورة الدموية ، وبالتالي سلبه حيويته .

و ـ ولأن نصوص الأدب الشعبي متوارثة جيلا عن جيل بالمشافهة ، فإنها تسمح أن يغنى بها ، وأن يتمثل

بها ، في أي زمن ، شريطة توافر ظروف تلائم ترديد القصيدة أو الأغنية المعينة ، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر ، كانت النساء العربيات في فلسطين تغنى في وداع الشباب الذين كانت الحكومة التركية تسوقهم للخدمة الإجبارية « السَّفَرْبَرْلِك » أغنية « دولى سفر دولى » ، وما زالت النساء العربيات ، لا سيما في الريف ، تتغنى بتلك الأغنية في مناسبات الوداع ، كوداع العروس التي ستغادر بيت والدها إلى بيت عريس في الغربة - حتى ولو كانت الغربة إلى قرية مجاورة : -

امبيرحا يـا رفيقـا كنت أنـا وأنتِ
دولـى — سفـر — دولـى
كيف العمل يـا رفيقـا نـارتجـوزتِ
دولـى — سفـر — دولـى

أو في وداع مسافر عزيز إلى بلد بعيد تاركا أسرته وراءه فتتغنى زوجته في وداعه :

يا مسافر خذني معك يفطر على دقا
دولـى — سفـر — دولـى[1]
بصبر على الجوع ما بصبر على الفرقا
دولـى — سفـر — دولـى

ز - موضوع الوطن وما يتعلق به هو دائما من أبرز الموضوعات التي يعالجها الأدب الشعبي الفلسطيني ، ولأن تاريخ الوطن الفلسطيني مليء بالأحداث المفجعة والنكبات والنكسات والثورات ، فإن الأدب الشعبي الفلسطيني - كغيره من آداب الشعوب الأخرى - يصور حياة شعبه ويعاصر أحداثها أولا بأول ، لكن كونه أدبا يُروى مشافهة فيعيش منه ما يجد له صدى في نفوس أكثرية الشعب ، ويموت منه ما لا يجد مثل ذلك الصدى ، جعل الكثير منه عرضة للضياع والنسيان ، بسبب تغير ظروف الحياة وأحوال الناس . وخير دليل على ذلك ، أننا نجد معظم ما قيل في نكبة ١٩٤٨ م ، رغم كثرته قد طواه النسيان . لاسيما أن مسجلات الصوت لم تكن شائعة في بلادنا عند حلول تلك النكبة .

في ضوء ما تقدم يمكن الدخول إلى موضوعنا في محاولة لإجلاء دور المنظوم من أدبنا الشعبي في النضال ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني في المعارك التي خاضها شعبنا العربي الفلسطيني ، طيلة عهد الانتداب البريطاني (١٩٢٠ م - ١٩٤٨ م) ، وخلال نكبة ١٩٤٨ م ، وما خلفته من حُزْن وذهول ، وما واجهت به شعبنا وأمتنا من نكد عالجته الزعامة العربية ، بزرع أوهام النصر والتحرير في نفوس الشعوب العربية بمن فيها شعبنا . لذلك فإننا سنجد أن من أبرز الموضوعات التي تناولها أدبنا الشعبي خلال مسيرته النضالية التي أصيبت في سنة ١٩٤٨ م بالنكبة المفجعة ، وما ترتبت عليها من مآسٍ ، سنجد أن من أبرز تلك الموضوعات ما يلي :

البكاء على أحداث النكبة ومآسيها والوطن المحتل . استذكار الانتصارات والأمجاد السابقة ، ورثاء الشهداء ، والافتخار بذلك كله . التعلق بآمال العودة . تذكر الديار والحنين إلينا ، لوم الدهر على غدره ومصائبه . هجاء الزعماء العرب واتهامهم بالتآمر مع الامبريالية والصهيونية . الاعتداد بالنفس والاعتزاز بأمجاد الأمة العربية وبالانتماء لها . تهديد العدو الصهيوني ومن هم وراءه . التبشير بأن النصر قريب وبأن ليل الظلم سوف يجلوه عن وطننا فجر النصر والتحرير . « فدولة الظلم ساعة ، ولكن دولة الحق والعدل إلى قيام الساعة » . وإلى جانب هذه الموضوعات

(١) الدقة : هي أوراق الزعتر (الصعتر : صعتر) تجفف وتدق أو تطحن ويضاف إليها قليل من مسحوق السماق والحامض والسمسم وتقدم الطعام الفطور مع زيت الزيتون . أما إذا قدمت وحدها فهي رمز للفقر والجوع .

الرئيسة التي دارت على ألسنة فنانينا الشعبيين وجماهير شعبنا ، استمرت الحياة الفلسطينية الشعبية في مناحيها الأخرى على نحو ما كانت عليه ، فظل شعبنا ملتزمًا بتقاليده الموروثة في السراء والضراء : فهو يندب موتاه وشهداءه ، فيبكيهم حينا ويتغنى ببطولاتهم حينا آخر ، وهو يقيم الأفراح والليالي الملاح ، ويغنى بما اعتاد أن يغنى به من المناسبات السعيدة ، سواء أكانت مناسبات اعراس أو طهور ، او حج أو بناء ، أو موسم قطف زيتون ، أو غيره من المواسم والأعياد ، مع التنبيه إلى أن نكبة ١٩٤٨ م ألغت إلى حين - الاحتفالات الشعبية الحاشدة التي كان شعبنا يقيمها سنويا بمناسبة موسم النبي موسى ، وموسم النبي صالح ، وموسم النبي شعيب ، والنبي روبين ، وعلي بن عليم وموسم الحسين . وإن كان شعبنا قد استأنف من جديد إحياء بعض تلك المواسم التي نأمل أن تسترد زخمها القديم ، لتعود كما كانت ميادين لقاء لجماهير شعبنا ، تسوى من خلالها خلافاتهم ، وتتوثق عرى الأخوة بينهم ، ويعبرون فيها عن عراقة شعبنا وأمتنا بما يتغنون به من أغانٍ شعبية ، وما يبدعون في أدائه من رقصات ودبكات عربية فلسطينية ، تبعث الأمل في نفوسنا ، ونفوس أصدقائنا ، وتثير الخوف والرعب في قلوب أعداء شعبنا ، ومغتصبي وطننا .

وسأحاول فيما يلي استجلاء الدور الحيوى الذي لعبه منظومنا الشعبي في النضال في سبيل الوطن طيلة عهد الانتداب البريطاني على فلسطين ، وفي أحداث نكبة ١٩٤٨ م ، وخلال العقد الذي تلا تلك النكبة ، مؤكدا في الوقت ذاته أن هذا المنظوم الشعبي كان دائما ، وسيظل أبدا ، شديد الالتصاق بقضايا الوطن وأحداثه . وسأكتفي للتدليل على صحة هذا القول بإيراد أمثلة تذكرنا بأبرز الأحداث الفلسطينية خلال الفترة المذكورة ، كثورة ١٩٢٩ م في القدس ، ثم سائر البلاد ، وإعدام الثوار الثلاثة في سجن عكا يوم ١٧ حزيران ١٩٣٠ م ، واستشهاد الشيخ عز الدين القسام في نزلة الكيلاني بجوار أحراش يَعْبد ، يوم ١٩٣٥/١١/٢٠ م ، والمعركة الأولى في ثورة ١٩٣٦ م عندما حاصرت قوات الانتداب البريطاني مدينة نابلس ، وثورة ١٩٣٧ونكبة ١٩٤٨م .

ثورة ١٩٢٩ م : دلعونا :

صارت الثورا في القدس صارت
ياديوك العرش في السما صاحت
شباب العرب عليها صاحت
بسحب الخناجر عل الصهيونا

• • •

صارت الثورا بباب الخليل
ودم الصهيونية عالأرض يسيل[٢]
شباب العرب شيلو المرتينق
نحمى وطنا من هالصهيونا

• • •

يما يايما اوعى تنهمى
فدا للوطن ضحيت بدمي
مع القرايب وأولاد العم
شباب الوطن لاتنهمونا

• • •

إعدام الثوار الثلاثة : دلعونا :

في مناسبة إعدام الثوار الثلاثة محمد جمجوم وعطا الزير من الخليل وفؤاد حجازى من صفد ، وهي

(٢) باب الخليل هو باب يافا : وهو بوابة في سور القدس القديم يذهب الخارج منها إلى مدينة الخليل في الجنوب أو إلى مدينة يافا في الغرب . الراوية : البدقية .

المناسبة التي أوحت للشاعر المرحوم إبراهيم طوقان بقصيدته المشهورة «الثلاثاء الحمراء»، تغنى شعبنا بأبيات دلعونا كالتالية [٣]:

١- من بابك عكا طلعت جنازى
محمد جمجوم وعطا وفؤاد حجازى
مندوب السامى ربك يجازى
تصبح حريمو عليه ينعونا

• • •

٢- ثلاثى ماتو موت الأسودى
لا تشمت فيهم ولك يهودي
وكانوا بعصابه وأنت يا رودي
وظليتك تشكى يا ابن الملعونا

• • •

٣- زوروا المقابر يوم الأعيادى
امشوا لعكا زوروا الأمجادى
أهل الشهامى عطا وفؤادى
لا يهابوا الردى ولا المنونا

• • •

استشهاد الشيخ عز الدين القسام : طلعة من المربع [٤]

اللازمة : يا خسارة يا عز الدين

عز الدين يا مرحوم   موتك درس للعموم
أه لو أنك كنت تدوم   يا رئيس المجاهدين
اللازمة
عزالدين ياخسارتك   رحت فدى لأمتك
مين بينكر شهامتك   يا رئيس المجاهدين
اللازمة
أسست عصبه للجهاد   لاجل تحرير البلاد
تاتخلصها من الأوغاد   صهاينة ومستعمرين
اللازمة
لعبت الخيانة لعبة   قامت وقعت النكبة
وسال الدم للركبة   وماكنت تسلم وتلين
اللازمة

حصار جنود الإنجليز لمدينة نابلس في ثورة ١٩٣٦ م :

عندما طوق الإنجليز مدينة نابلس للقبض على من فيها من الثوار قدمت إليها نجدات من مختلف أنحاء البلاد، وضرب الثوار طوقاً حول الطوق الإنجليزى على جبال نابلس والتلال المجاورة لها فوقع الإنجليز بين نارين مما اضطرهم إلى الاستنجاد ببعض طائراتهم التي شاركت في المعركة بقصف مواقع الثوار. وكان الثوار وهم في طريقهم لنجدة نابلس يتغنون بأهازيج كالتالية :

١- يا طير ما عندك علوم
عن وقعة صارت شمال

---

(٣) الدلعونا : أغنية شعبية فلسطينية شائعة في كل أرجاء بلاد الشام، وهي في فلسطين تحتل المرتبة الثانية بعد العتابا من حيث الشهرة وكثرة الاستعمال، وهي تغنى في كل الأوساط العربية في فلسطين بمرافقة الشبابة أو الأرغول وتؤدى الدبكة الشعبية على ألحانها. وبحر الدلعونا هو البحر البسيط مع حذف النون من أواخر التفعيلات، وتسكين لام التفعيلة، بحيث يصبح الوزن : مستفعل فاعل مستفعل فاعل :

زوروا المقابر يوم الأعيادي
....
مستفعل فاعل مستفعل فاعل

ويتكون بيت الدلعونا من بيتين من الشعر تلتزم فيه الشطرات الأولى والثانية والثالثة رويّاً وتأتي الشطرة الرابعة على رويّ هو غالباً النون أو الميم المتبوع بألف مد للإشباع.

(٤) الطلعات أو الحداوي من الألوان الشعبية الحربية يشترك في أدائها «الحدا» و«القاد» والجمهور يكرر اللازمة أو يشترك في أدائها اثنان من «الحدية» بينما يكرر الجمهور اللازمة بعد كل غصن. وغصن الطلعة من المربع يتكون من أربع شطرات أي بيتين من الشعر تلتزم فيها الشطرات الأولى والثانية والثالثة بروي بينما تختم الشطرة الرابعة بروي مغاير لكنه يلتزم في كل الطلعة. ويأتي ضمن هذا اللون من الغناء الشعبي في الطلعات المثمن أي الذي يتكون غصنه الواحد من ثماني شطرات أي أربعة أبيات من الشعر.

وتعلقت بعد العمر
ما فكها غير الظلام

• • •

٢- بين بلعا وبيت امرين
تسمع ضرب القبازين[5]
بين بلعا والتلته
تسمع للموزر ديه[6]
بين بلعا والمنطار
صار اشي عمره ما صار[7]
بين بلعا والمنطار
ذبحنا جيش الكفار

• • •

٣- صهيون خذ ريعك وروح
هاذي البلاد بلادنا
صهيون منك ما نهاب
راياتنا فوق السحاب
مندوب خبر دولتك
لندن مرابط خيلنا

ثورة ١٩٣٧ : طلعة من المثمن :

اللازمة

فلسطين المنكوبة | اشرف بقعة محبوبة
في جهاد الاستعمار | رفعت راس العروبة

• • •

ام الدنيا القديمة | بلادي الرسل بنتها
الها في العالم قيمة | كتب السما بتثبتها

بريطانيا الملعونة | للصهيوني باعتها
بيت الرب صار غنيمة | شو هالدنيا المقلوبة

اللازمة

هذا الوطن الصابر | مهد المحبة والسلام
مهد المسيح الناصر | وأول قبلة للاسلام
مهد المسيح الطاهر | مهد الأنبيا الكرام
صارت دار المخاطر | مع هولندوق المندوبة

اللازمة

فيها من العرب أبطال | لا بتميل ولا بتفزع
مهما عظمت الأهوال | عن غايتها ما بترجع
ما بيعرفوا الاستقلال | لو حطوهم بالمدفع
ضربوا للعالم أمثال | في الشهامة المحبوبة

اللازمة

اجتمعت كل العرب | من الخليج حتى تطوان
واقفة تحت الطلب | نسا وشيوخ وشبان
صهيوني وين الهرب | إذا اتفقت العربان ؟
تبرك في الشرق اكتب | يا ابن الأمة المغضوبة

اللازمة

ياما أحلا جيش الثوار | لما يقوم بجماتو
ذبح جيش الاستعمار | وأخذ سلاحو وآلاتو
الثائر يهجم عالنار | وما يسأل عن حياتو
يحيا الشباب الأحرار | والبوادر ملهوبة[8]

اللازمة

(٥) بلعا وبيت امرين : قريتان قريبتان من نابلس . القبازين : جمع قبزات وهو نوع من القنابل شديدة الانفجار كانت الطائرات الانجليزية تستخدمها ضد الثوار في فلسطين في الثلاثينات من هذا القرن .
(٦) التلته : تلة الجبل عند مفرق بلعا : الموزر : نوع من المسدسات والبنادق الألمانية الصنع والتي كانت مشهورة يومها . ديه : دويا .
(٧) المنطار : موقع قريب من بلعا .
(٨) البوارد : البواريد جمع بارودة وهي البندقية . ملهوبة : ملتهبة لشدة الطلق .

وهذه طلعة من الربع :

اللازمة

صهيوني ارحل عنا   هذا الوطن وطنا
ماظني إنك تتهنا   في أراضي فلسطين

●●●

ياصهيوني ياغشاش   في بلادنا مالك معاش
قصدك تتملك بلاش   في وطننا يالعين

اللازمة

فلسطين لاتذلي   ارجالك مابتسولي
والأقصى عم بيهلي   في شبابك فلسطين

اللازمة

وبيجيك سعيد العاص   راعي الهمة والحماس
ارجالو تضرب رصاص   في جيوش الكافرين

اللازمة

سعيد القائد المغوار   مايهاب إطلاق النار
نادوا ياخواني الثوار   اهجموا عالكافرين

اللازمة

والموت في يوم الجهاد   أكبر شرف ياأجواد
من أجل نحمي البلاد   من كيد المستعمرين

اللازمة

سعيد البطلْ الأمجد   عن مرامو مابيرْتد
في أرض الخضر استشهد   من أجلك يا فلسطين(٩)

اللازمة

وبالطبع كان للثورات الفلسطينية المتعاقبة صداها في البلدان العربية ولاسيما المجاورة منها . وكانت مشاعر الحماس والتفاؤل الذي يصل إلى حد الثقة المطلقة بحتمية النصر تسيطر على الأجواء الفلسطينية والعربية بالرغم من سوء الأنظمة العربية آنذاك ، وبالرغم من قلة الأسلحة في الأيدي الفلسطينية . فمن لبنان مثلا انطلقت الأهازيج والشروقيات الحماسية التي كانت تشيع في فلسطين فور صدورها . والقطعة الشروقية التالية مثال واحد فقط على الأمثلة الكثيرة التي كانت تفد إلى ساحات القتال مع المتطوعين العرب القادمين لفلسطين للمشاركة في الدفاع عنها ، وهذه القطعة منسوبة لفنان شعبي لبناني اسمه درويش السيد :

يا بن فلسطين صوتك زعزع الوديان
ناديت عاملوكنا حتا تلبيها
يا أيها العرب هبوا انصروا الأوطان
شيلوا فلسطين من قبضة أعاديها
سلوا المواضي وخوضوا حومة الميدان
وجولوا المعارك على أربع نواحيها
ها الأمر مايتم لو تتخرب البلدان
والدم يجري إلى حفة شواطيها
مفتي العرب صاح صوتو من ربا لبنان
لاتهملوا الخصم يتملك أراضيها
ما فيه فرق بين إسلام ومسيحيين
ودروز أهل الشرف إخواننا في الدين
واجب علينا الجميع انكون متحدين
وجيوش صهيون نسحقها ونمحيها

وكان شعبنا يتغنى بهذه الشروقية وبأمثالها كالمقطوعة التالية المنسوبة لفرحان سلام ، والتي يقال إنه تغنى بها في احتفال كبير أقيم في احراش قرية النبي صالح / قضاء رام الله ، مبينا دور العالم الغربي في الإصرار على التنكر لنا وعلى معاداة شعبنا وأمتنا :

ناديت باسم الإله الواحد الديان
من ذكر هذا الاسم فرّوا الشياطينا
في مهد عيسى واسراء النبي العدنان
من ظلمك يا غرب ثارت براكينا

(٩) الخضر : قرية بعد بيت لحم على طريق الخليل ، استشهد عندها البطل السوري المتطوع سعيد .

ياعرب احنا عرب من نسل قحطان
تاريخنا يعلمك أحوال ماضينا
نطرب لصوت الموازر في رحا الميدان
كصوت نايٍ بها شاعر يسلينا
كتيبة المهد من كان بيك طمعان
حولك يلاقي نصارى مع مسلمينا
يوم الكريها أسود مايقبلوا الخذلان
تثبا الضيم العرب تحمي الميادينا
وأن كان بلفور يجهل قيمة الأوطان
احنا بأرواحنا نفدي أراضينا
ياصخرة القدس كوني في رضا وآمان
واذا هجرناك للرحمن اشكينا
حولك تلاقي بواسل باللقا شجعان
يسقون أعداك زقوما وغسلينا

وفي وسط هذا الحماس الغامر ، كانت أغانينا الشعبية تصور أيضا الموقف السياسي بين العرب ممثلين بزعامة الحاج أمين الحسيني ، واليهود ممثلين بوايزمن هذه أغصان من طلعة مربعة :

ويزمن قال للحج أمين
خللك أربع ملايين
المفتي جاوب لو بتموت
ما بتتملك فلسطين

●●●

ويزمن قلو يا حجي
من جنابك مترجي
بس أمضي عا هالحجي
ويكن منكم ممنونين

●●●

الحجي قلو يا دكتور
في مالك لا تكن مغرور
سيبك من وعد بلفور
وعيشو عندنا ذميين

●●●

يا حجي لا تحوجني
احنا خمرنا العجني
أيد تقسيم اللجني
والكل منا رضيانين

●●●

مازالوا عربي موجود
تقسيم اللجني مردود
ملوك العرب هالأسود
بها لقسمي رضيانين

●●●

حرب ١٩٤٨ م والنكبة التي نتجت عنها :

لعلي أبدأ هذه الفقرة بإثبات قطعة شعرية فصحى كنت قد نظمتها أثناء الحرب ، وهي تكتسب في نظري أهمية خاصة لأنها تصور نفسيتي كشاب عربي دخل في الحادية والعشرين من العمر أثناء المعارك الأولى في حرب ١٩٤٨ :

ثار الحماس فقر منه هجوعي
ونزا الفؤاد فلم تسعه ضلوعي
حتام أقعد والجهاد يهيب بي
وبه تزايد رغبتي وولوعي
هذي بلادي والنداء نداؤها
أسمعت يا قلبي ؟ ألست مطيعي ؟
لماه لا تبكي وجيدك خشية
وحليلتي لا ترقبي لرجوعي
بدماي لست أنا الضنين لتربة
قد طالما أرويتها بدموعي
قل الفخار إذا صرعت بأرضها
ليس الصريع مجاهدا بصريع

ها قد بدأنا الحرب صهيون اصمدي
إياك أن تتضعضعي فتضيعي
مسكينة جئت البلاد لتحكمي
أم جئتها كي تنظمي وتجوعي
أنت الشريدة في الدنا لم تحكمي
في موطن منها ولن تستطيعي
فسعيت لشرومان لاتئذة به
فغدوت شر خليعة لخليع

كانت معنويات الفلسطينيين عالية هكذا في بداية حرب ١٩٤٨م ولاسيما بعد دخول الجيوش العربية ، وكانت آمالهم كبيرة في أن النصر أمر محتوم وتحقيقه تحصيل حاصل . هاهو أحد فنانينا الشعبيين يتغنى ببعض أبيات من العتابا أمام قوة من الجيش العراقي في طيرة المثلث بفلسطين على مسمع من قوة العدو المقابلة على الشريط الساحلي :

١ - عدانا ما تقولوا عزكم دام
ولازمكم تجونا بذل وندام
واحنا رجال شرابين للدم
وكونوا في حذر غداً الضحا(١٠)

●●●

٢ - عدانا ما تقولوا إنا بلينا
بلى البولاد واحنا ما بلينا
وأنتو الزرع واحنا المنجلينا
ونحصدكم على طول المدا(١١)

●●●

وكان الحضور يردون بغناء الميجنا والأهازيج ويكررون من حين إلى حين شعارات كالشعار التالي :

دبر حالك يا شرتوك
جينا لحربك جينا(١٢)
وان كان العالم نسيوك
احنا العرب ما نسينا

وعلى اثر سقوط قرية مسكه ورحيل أهلها الى قرية الطيرة والبلدان المجاورة، سجل أحد فنانينا الشعبيين من أبناء مسكه هو عبدالرحمن الجيوسي إثر تلك الواقعة في قصيدة شعبية له شاعت في حينها في المنطقة ووصلتنا منها الأبيات التالية :- .

عالالف ألفنا بيوت موزنه
حرف الألف ألقى ع قلبي آه
عاليا بليت ماصر شوفنه
يوم الرحيل ياناس ما أقساه
عالتا تاه العقل مني وآنجدا
وانسكب حزني في القلب واعماه
عالثا ثلاثي من عروقي انقطعت
علمي وعزمي والدموع قناه
عالجيم قد جادت عيوني بدمعها
ياجاري ما أحلى الوطن ما أحلاه
عالحا حلاة العيش برجوع الوطن
اقمر مرت هالعيش من فرقاه
عالخاء خاب الظن في ملوك العرب
وين مانظرتم هالملوك طغاه

(١٠) غد الضحا : غدا وقت الضحا . والعتابا هي الأغنية الشعبية الفلسطينية الأولى من حيث مكانتها وشهرتها وكثرة استعمالها في المناسبات . وبيت العتابا يتكون من أربع شطرات أي بيتين من الشعر ، وبحرها هو بحر الفصحى الوافر . وتلتزم شطراتها الأولى والثانية والثالثة رويا واحدا بينما تنتهي الرابعة بروي مغاير مشبع بألف مد أو ألف مد متبوعة بباء ساكنة والعتابا في صورتها المتقنة تنتهي شطرات البيت الثلاث الأولى بكلمات متجانسة جناسا كاملا لكن معانيها مختلفة .
(١١) البولاد : الفولاذ . بلى : بلي . المنجلينا : المناجل .
(١٢) شرتوك : موشيه شاريت ، رئيس وزراء اسرائيل ١٩٥٣ م - ١٩٥٥ م .

عالدال دلّوني عالمصير يا الأهل
مادام يوم الظالمين النقاه
عالدال دلّونا وذلت سقوفنا
قتلوا الولد بعدين قتلوا أبداه
عالراء ريت اللي سبب تـرحيلنا
يارب تجعل في الجحيم مأواه
عالزين زينات العيون انهتكت
ياحسرا هتك العرض ما أقساه
عالسين سُم الموت ما أنشربه
سبنا الوطن إحنا وذليناه
عالشين شاب الراس مني وعارضي
شاب الطفل ، ياناس ، قبل آباه
عالصاد صرنا شبه مجنون حاير
ماله عقل يرجع على مأواه
عالضاد ضرب هالحروب جمعها
أصله طمع ، والطمع منا أرداه
عالطاء طارت أغنياء بلادنا
أما الفقير حب الوطن أخلاه
عالظاء ظنيناه والظن خايب
أواه من غدر الملوك أواه
عالعين عار قد كسا العرب كلهم
عار وهيهات الدهر يمحاه
عالغين غاب السعد والجو أظلم
ياحسر يوم السعد وين ألقاه !

وفي معركة الطيرة نفسها تغنى أبناؤنا فيها بقولهم :

أول هجمه من الشمال
ضرب الطوب عليهم هال
نبتت فيها أبطال
الطيرة ربي حاكي

●●●

وأول هجمه من الجنوب
صاروا يضربوا بالطوب
صاروا يحسو من العرقوب
الطيره ربي حاكي

●●●

وبالرغم من تلك الوقفة الباسلة التي وقفتها الطيرة في معارك ١٩٤٨ م إلا أنها سلمت لليهود مع المثلث إثر هدنة رودس ١٩٤٩ م ، تلك الهدنة التي كرست الهزيمة العربية من ناحية ، وسمحت بقيام الأساس الأول للدولة اليهودية من ناحية ثانية .

وبعد تدمير قرية كفر بُرعم في الجليل (وصل عدد القرى العربية التي دمرتها اسرائيل في حرب ١٩٤٨ م وبعدها إلى حوالي ٤٠٠ قرية) ، نظم المرحوم مارون إلياس وهبه ، شاعر الجيش ، قضاء صفد ، الطلعة التالية بناء على طلب الخوري يوسف اسطفان ، وقد بنى الشاعر طلعته من منظور تصوره أن أهالي كفر برعم قد تمكنوا من العودة إليها (لا تزال القرية مهدمة وأهلها مازالوا ممنوعين من العودة إلى موقعها) :

بعدما كنت فاقد لصوابي
ورايح جاي عاروس الروابي
أجيت اليوم تاهني احبابي
هذا انسبينا وهذا صديقي
وهذا نسيبنا وغيره قرابي
هذا أشبينا وهذا صديقي
الكل اخوان في المبدا الحقيقي
ان كنت في البيت أو ماشي بطريقي
أقول ياربنا اعمل عجايب
على نذرنا أو في حسابي
أقول يا ربنا اعمل عجايب
عن السكان خفف ها لمصايب

لحتا يعود كل من كان غايب
لبرعم أهلنا وهمي سندنا
لا فرق بين عيناوي وفؤ ابي[١٣]

برعم أهلنا وهمي سندنا
وقطعة حب من مهجه كبدنا
ولوما الروح ما يحيا جسدنا
الله فوق شاهد عا كلامي
وما تعودت أجاري أو أحابي

الله فوق شاهد عاكلامي
هذي منيتي وغاية مرامي
إله الخير حقق لي أحلامي
شفت برعم والسكان فيها
وخف كثير من قوة مصابي

شفت برعم والسكان فيها
والأغنام ترعى في واديها
يهني شعبها بحبي خوريتها
بحلف دين عالمكا ما برجع
لخوفي ان يتجدد عذابي

بحلف دين عالمكا ما برجع
ولو حطو بدارنا ألف مدفع
من حيث كان للخلان مجمع
ويشوفوا الدور والعمرات هدمت
والدخان يتصاعد سرابي

ويشوفوا الدور والعمرات هدمت
ما فيه غرفه من التدمير سلمت
وناس من المسلوب غنمت
وشربوا كاس وغنوا صوت مرحا
ع دقت العود وأوتار الربابي

وشربوا كاس وغنوا صوت مرحا
عل برعم من التاريخ تمحا
ما فكروا أن فيها رجال تصحا
عل الضربات ويشكوا للعدالي
من حكام أقواد ونيابي

عل الضربات ويشكوا للعدالي
ويعيدوا الديب يمشي والغزالي
مابين التين وأغصان الدوالي
والزيتون ينادي أصحابو
يقوموا يجددوا عهد الحوابي

والزيتون ينادي اصحابو
رجع الأمن عاود لنصابو
برعم أهلها من الدور غابوا
لكن بحقهم بقيوا أشد
مثل مع عمل زغلول وغرابي

لكن بحقهم بقيوا أشدا
بعين ساهري وأصوات تندا[١٤]
« بلدنا عندنا بالروح تفدا »
وقالوا احنا ما بنقبل عوضها
لو بقيت كل هالعمر خرابي

قالوا احنا ما بنقبل عوضها
إن بقيت ساخنة وأزمن جرحها
أنت لجان ما أحد فاوضها
وقالوا لهم قرار الحكم معنا
ما عندنا رد سلبي ولا إيجابي

وقالوا لهم قرار الحكم معنا
مظلومين والعالم سمعنا

(١٣) عيناوي وفؤ ابي : نسبة لخربة العيني وخربة فؤاب في برعم .
(١٤) تندا : تنادي ، تهتف .

إن عـزّبوا أولادنـا الكـل جعنـا
أجـسـامنـا فـيـهـا مـنـاعـه
مهما تشددوا علينا الرقابي

وقـالـوا أجـسـامنـا فيهـا منـاعـه
خلقت معنـا من سن الـرضـاعـه
بشفـاعـه الـطاهرة أم الشفـاعـه
مـريم قـدرهـا في الكـون عـالي
من فوق القباني والفضايي

وكان شعبنا كعادته ، يتغنى ممجدا للقادة والأبطال المنخرطين في حركة الجهاد المقدس بقيادة الشهيد عبدالقادر الحسيني :

عبـد القـادر يـامنصور سبـع الفلـسطينـيـة
لمـا ثـرت بـفلـسـطين اهتـزوا ملوك الغربيـة
ولمـا رتـبـت الـثـوار في نـظام الحـربيـة
أسـرع ملك الانجليـز بعـث جنـه ملكيـة
ولمـا ضـايقت الجـنـود للـمدن بعثـوا برقيـة
وضـايقونـا هـالثّـوار وذبحـوا نُص الجنديـه
وكل مانقـول ضايقنـاهم ونقـول صـاروا أقليّـة
نسمـع هـديـر الثـوار لا عـاشـوا الصهيـونيـة
ارشدوا انتو يـا عسكـر وانتـو يـا اسكتلـنـديـة
ودّوا شـرتـوك أو يـزمن مـع كل الحاخـاميـه(١٥)
واحنـا هينـا والقـين اينـتـحـدا للـمنـيـه
بلادنـا بـدمنـا نحميهـا لـو صـارت الـدمـاميـة

وعندما توالت أنباء زحف جيش الإنقاذ في شمالي فلسطين بقيادة فوزي القاوقجي ، ارتفعت المعنويات الشعبية وارتفع صوت الشعب يردد الأغاني الحماسية المبشرة :

١ ـ صهيوني دبِّر حـالك نفـذوا الثـوار
معهم فـوزي القـاوقجي الأسـد المغـوار
لـما نـزلـوا عـالـغـارة هـالأمـارة
هجمـوا على الـدّبـابـة واشعلوا النـار

●●●

٢ ـ اللازمـة

نـادت كـل الكـونيـة بـأصـوات ربـانـيـة
فلتسقط أمـة صهيـون ولتحيـا العـربيـة

●●●

نـادت كـل الكـونيـة بـأصـوات ربـانـيـة
فلتسقط أمـه صهيـون ولتحيـا العـربيـة
يـا صهيـون امس ودور بكـرا جـاي القـاوقجي
بـدور يملي اطنمشـريوم في دم الـصـهـيـوني

اللازمـة

أمـر أصغب بـدّويهـون يـاعرب إوعـو تهابـوا
فـارسنـا يلقى مليـون إن سل السيف من جرابـوا
نصر ماكـد بـدّويكـون الله قـايـل في كتـابـو
واحنا من ملينا سيوف النصـر إلنـا جـابـو

اللازمـة

يـاعرب كـونـوا أحـرار لا ترضـوا العيش بـالذل
يـاليـذبحْ شعب الكفـار يـا من فلسطين يـغِـل
الله خـالـق جني ونـار يـا مؤمن بفكـارك حـل
ترضـا اجهنم مأوى ودار ولا الجـنـه الـعـليـق

اللازمـة

إن كـان ترومـان بـدّو يجـود ويـبـيـن اسـتـعـدادو
خـايف عـاذبـح اليهـود حـاسبهـم مثـل أولادو
بلادو وبيماماها حـدود يسكّنهم جـوّا بـلادو
قبـل نحمـل البـارود ونفتـح جبهـا حـربيـة

اللازمـة

(١٥) حاييم وايزمن : أول رئيس لدولة اسرائيل .

٣ ـ وعندما وصل جيش الإنقاذ لرام الله وتوجه عدد من جنوده بمدفعيتهم وتمركزوا في قرية النبي صمويل المشرفة على القبانيات (المستوطنات) الخمس وطريق القدس تل أبيب ، تغني شعبنا مرددا :

أجا القاوقجي في الليل
المركز في النبي صمويل
وأمر عالمدفعية
تضرب أحيا إسرائيل
راحو جماعة خاينين
للقاوقجي مسرعين
قالوا له من بعد أمرك
تنسحب من فلسطين

●●●

يا عالم لا تلمونا
زعما الحرب باعونا
وبالمصاري باعونا
للدول الغربيين
ان متنا ما علينا عار
أولادنا بيكملوا المشوار
تحية ليها للثوار
هاللي في المعارك صامدين

●●●

بعد هذا واللي صار
الكل منا لهذا محتار
قلنا ما إجلي هالعار
إلا جيوش المسلمين
أكثر من هيك مافي تصريح
عمل العرب كلو قبيح
لو قصدوا هي صحيح
لتحررتي يا فلسطين

٤ ـ وكانت نساؤنا تؤدي دورا مشابها في أغانيها في المناسبات المختلفة أثناء احتدام معارك ١٩٤٨ م ، هذه قطعة من أغنية نسائية اشتهر لونها مع بدء الحرب العالمية الثانية تحت عنوان « يالابس مطوع » ـ أي المتطوع للالتحاق بالقوات الانجليزية ـ فطورتها النساء في معارك ١٩٤٨ م لتلائم الظروف الجديدة :

أضرب ولاتهاب   أضرب ولاتهاب
يللي عالبرنجن   أضرب ولاتهاب
يافا والقباب   يافا والقباب
يامناي تروح   يافا والقباب
حيفا والمغار   حيفا والمغار
يا مناي تروح   حيفا والمغار
صد لي الكركزن   صد لي الكركزن
يللي عالبرنجن   صد لي الكركزن
عكا وبيت دجن   عكا وبيت دجن
يا مناي تروح   عكا وبيت دجن
صد لي الغزالين   صد لي الغزالين
يللي عالبرنجن   صد لي الغزالين
كل اللاجئين   كل اللاجئين
يا مناي تروح   كل اللاجئين[١٦]

●●●

٥ ـ وكان الشباب الغاضب يتغنى بأمثال الطلعة الآتية وهي من المربع :

اللازمة

فلسطين احنا أصحابك   بارواحنا نفدي ترابك
كل الشعب عاحسابك   يحموك من الخواتين

●●●

(١٦) البرنجن = برنْ جن : رشاش خفيف مصنوع في انجلترا .
الأسماء المذكورة في الأغنية كلها مدن وقرى فلسطينية احتلها اليهود ، واللاجئون هم أبناء ، تلك المدن والقرى الذين رحلوا عنها إثر سقوطها في أيدي الصهاينة .

مهما جرى ومهما صار   لازم نحقق لانتصار
ايمة كل الأحرار   نحميك يا فلسطين
السلازمة

لازم النعود الأيام   يا صهاينة بالشام
وتذبحكم ذبح الأغنام   في أراضي فلسطين
السلازمة

فلسطين عندك رجال   بشيلو الحمل لن مال
يدعسوك تحت النعاله   يا صهيوني بالعين
السلازمة

فلسطين عندك أسود   عادتهم حمل البارود
ما بخافوا من اليهود   وللحرب مستعدين
السلازمة

رجالنا أهل الهمات   إلهم عالحرب عادات
ياما خاضوا مَعْمَعات   في أراضي فلسطين
السلازمة

وبعد تكريس النكبة والهزيمة في معاهدة رودس ١٩٤٩ م ، ران الحزن على القلوب ، وبهتت مرارة الموقف النفوس فصارت تردد على الألسن أغان حزينة كالأغنية التالية :

١ ـ فلسطين عما تتعذب كثير
ياما شُهدا راحت ورجال كثير
حالتها والله تْبْكي وأمر خطير
قضية مالها فكي وأمر عسير

وفي الوقت ذاته كان يوازي حزن النكبة غضب على الجيوش العربية وعلى ملوك العرب وتآمرهم وتخاذلهم ، وهو غضب يصل إلى حد مدح أحد زعماء الصهاينة « موسى شرتوك = موشه شاريت » لا إعجاباً به وإنما نكاية بهم :

٢ ـ دخلت جيوش العرب   وتباشرنا فيها
لكن لَبستْنا العار   الله يخزيها

٣ ـ طلعة من المربع :
السلازمة

لى في الحبس مشنوف   بِدّ أحكي عالسبع ملوك
هالظّالم هالملك فاروق   بلادنا شو سَوّى ليها

●●●

وأنا بحكي مش خايف   ضيّعنا أبو نايف
وأنا بالنظر شايف   بلادنا شو سوى ليها
السلازمة

ملكنا ياابن سعود   عندو ألف من الأسود
باعث لي عشر جنود   فكرو تنو يحميها
السلازمة

ملكنا الإمام يحيى   وهُنا بكبير اللحيا
ضربنا لو قلتحيا   وبلادنا شو سوى ليها
السلازمة

فليحيا موسى شرتوك   عيب عاهالسبع ملوك
قصدهم على فاروق   ولحاهم الله يخزيها
السلازمة

وظل شعبنا يرثي شهداءه ويبكيهم ، ويستثير الهمم بذكرهم وبتمجيدهم ، فقد رثى شعبنا الشهيد عبدالقادر الحسيني (استشهد في معركة القسطل غربي القدس يوم ١٩٤٨/٤/٨) بطلعات كالتالية (وهي من المربع) :

السلازمة
احنا رجالك فلسطين   للحرب مستعدين

●●●

فلسطين سعدك أفل   يوم أبوموسى أنقتل
لكنه قرب الأجل   حكم رب العالمين
السلازمة

رحمه من الله عليك   ياعبدالقادر موسى بيك
نادى للوطن لبيك   نحميك من الغدارين
السلازمة

يالقصى من أنفرط فيك بالدم والروح بنفديك
ولرجالك لن صار الضيق يحموك من الكافرين
السلازمة
يا أقصانا لا تنهم والشعب حولك ألتم
نفديك بالروح والدم من جيوش الكافرين
السلازمة

وفي مجال الحزن على البلدان التي سقطت في أيدي الصهاينة والمذابح التي نفذتها عصاباتهم في أماكن متعددة تجد مثل هذه الأغاني :

١ - لأبكي وأنوح عادير ياسين
عالذبحوهن بالسكاكين[١٧]
وفي أيا شرعه وفي أياديني
يدوسوا شرفنا الصهيونا

●●●

٢ - لابكي واعيط عاكفرعنانا
هللي تولاها جيش الهاجانا
وملوك العرب هي ياحبابنا
ليش تخليتوا عن فلسطينا

●●●

٣ - حام السهل يبكي وينوح
ريت المهاجر عابلادو يروح
والله ياربي الغربة بتجرح
إيذبح شرفنا حُكم الصهيونا

●●●

وبعد سقوط مجدل غزة وترحيل أهلها عنها ، كانت تدور على ألسنتهم ، وألسنة الكثيرين من أبناء القطاع واللاجئين إليه أغان حزينة كالتالية :

أبكي على اللي جرى لك يوم لثنين
يوم الثلاثا لشحر شويكت عيني
ويوم الأربعا الله أتاني بأربعة
بالصد والرد والهجرات والبين
يوم الخميس الله ما أحلا الخميسين
ويوم الجمعة الله جمعني بأحبابي
عالحوض والروض وفراش المُحبين
ويوم السبت سبتو اليهودْ في كنايسهم
هما على دينهم وأنا على ديني
ويوم الأحد ما عدت أكلم حد
وآخر وداعي ليتني يوم لثنين[١٨]

وفي مجال الحنين للديار وتذكر أحوالها سمعت القطعة التالية في سنة ١٩٤٩ م على لسان أب وابنته الصغيرة :

هالغربة كان يارب مالنا وما لها
مالت علينا وانقلب دولابها
وأحبابنا ما بين الخلايق شتا
وديارنا نادى عليها غرابها
وصار الحنين لربوعنا يكوي الضلوع
نار ولا النمرود شب الهابها[١٩]
ولما الشتا أبرق علينا وأرعد
وسحت دموع الغيث في تسحابها
زادت عذابي طفلتي بتسآلها
عن دارنا الإلي وعن أعشابها :
ياهل درا يابوي بيسيح المطر
عادارنا اللي فارقت أصحابها ؟
ياهل درا هالحون حسب العادة
بشقع في جانب دارنا مزرابها ؟

---

(١٧) إشارة لمذبحة دير ياسين يوم ٩/٤/١٩٤٨ ، وهذه الأغاني من الدلعونا .
(١٨) لثنين : يوم الاثنين . لشحر : الأسود ، من الشحار وهو سواد شعلة السراج .
عالحوض والروض : في نعمة وجوه الله والمكان المريح كالروضة .
(١٩) النمرود : الذي أوقد النار وألقى فيها النبي ابراهيم (سورة الأنبياء ، آية ٦٩) .

وفي التعليق على أعمال الإغاثة التي كان يقدمها الصليب الأحمر في البداية ثم تسلمتها منه وكالة الغوث الدولية (الأنروا) شاعت في البلاد ولا سيما في المخيمات ألحان ساخرة ناقدة على غرار الطلعة التالية (وهي من المربع) :

يقولوا عنا مهاجرين ويعدونا مساكين
بسلموا النفركيلوطحين صدقه منْ الاستعمار[٢٠]

●●●

بنروح مركز التموين بنلاقي الناس مُصطَفّين
على شان أشوية طحين يا للمصيبة والعار

●●●

ولما بنيجي الشتويه لكل سبعه بطانيه
ويقولوا هذي هديه لكن ما بتحمي من الأمطار

●●●

ويسلمونا هالفول خلا الكل منا مهبول
داير مش عارف ايش يقول دايرلي مثل الحمار

●●●

كل يوم بنسمع أخبار كل يوم بتخذوا قرار
والله ما في خيار إلا بيدنا مجتمعين

وقال أحد اللاجئين بعد أن عين زبالا يشكو وظيفته ويذمها ويهجو المسؤول عنه وهو محمد النجار من غزة :

سلموني عربيه منها وقفت أيديه
والكل بضحك عليه بيقولو شايب خرفان[٢١]

●●●

أما محمد النجار داير لي مثل الحمار
بيراقبني دار بدار بيحسب إني كسلان

●●●

لابس لي هالنظارات زي بغال البيارات
ويقضي وقته في البارات ويتهمني اني فلتان[٢٢]

●●●

مش عارف إني بو زقوت بكسّر راسو بالتّبوت
وما بخلي نهارو يفوت وما أحسب لعيلتو حسبان

وبعد قيام الثورة المصرية (٢٣ يوليو ١٩٥٢ م) وبروز جمال عبدالناصر كزعيم قومي تتجاوب الجماهير العربية معه من المحيط إلى الخليج ، بدأت معنويات الفلسطينيين ترتفع ، كما أن آمالهم في التحرير بدأت تقوى وتشتد ، وقد سجل المنظوم الشعبي الفلسطيني هذا الانتعاش فبدأنا نسمع غناء كالتالي (طلعة من المربع) :

١ ـ علم أردنا ياتيل دلو عالطريق منين[٢٣]
كيف رضينا اسرائيل تعمل دولي بفلسطين

●●●

علمهم كيف الثبات بطوله مع تضحيات
يحكيها للزعبيات أذناب الأمريكيين

٣ ـ عتابا :

بلادي كنزي وأنا حماها
وزندي من أعاديها حماها
واذا باغي عدا يبغى حماها
أذقنا أنفه طعم التراب

●●●

على مهولك يا رمله ملتقانا
تغسل بالدما عار لقانا
فلسطين أبشري قرب لقانا
السبع بيعود مهما غاب ، للغاب

●●●

---

(٢٠) النفر : الفرد ، الشخص الواحد . كيلو : كيلو جرام . طحين : دقيق .
(٢١) عربية : عربة يد لنقل النفايات . وقفت أيديه : تشنجت من التعب .
(٢٢) البيارات : كروم البرتقال والحمضيات عموما ، البارات : الخمارات (من بار الانجليزية) ، فلتان : منحل ، متهتك .
(٢٣) منين : من أين ، من أي الجهة .

بني صهيون جوكو العرب ولكن
لحلكم يخرب البلدان والكون[٢٤]
متى ما انتصب سوق الحرب والكون
عند عطس البرود الموت طاب

●●●

على صهيون تباهي أسرها
وابن غريون تجيبو أسرها
ياناصر اذبح ديار بأسرها
وارفع للعلم بأعلام الهضاب[٢٥]

●●●

شَهَرنا السيف هوى الحق عينو
ابن غريون بدنا تشيل عينو
أسود ناصر بيوم الحرب عينو
تنهض للأبد قوم العصاب[٢٦]

ومع تعاظم المد القومي في الخمسينيات ، وتحت ضغط القوى الوطنية في الأردن ، نحي جلوب باشا « أبو حنيك » البريطاني عن قيادة الجيش الأردني سنة ١٩٥٦ م وأبعد عن الأردن فأحدث ذلك نشوة نصر شعبي عبر عنها شعبنا بأغان وأهازيج كالتالية :

قد زلزلت أحقادنا زلزالها
وعن النفوس تساقطت أثقالها
ويُصدر لُندن أحكمت طعناتنا
فعوت ، وواشنطن تنادت : مالها ؟

●●●

بَلغْ اليزابث عنا يا سفير
اللي أنعمت عاجلوبها بلقب « سير »
انحضر لنوريها قشاط كبير
قريب مايهز الذباب عاذ يالها[٢٧]

●●●

يا أيها الشعب الذي خضت الغمار
وأرجعت تزهو بالنصر اكليل غار
حاذر ولا يتمثل بكاس الانتصار
قوة الخصم من العبث اغفالها

●●●

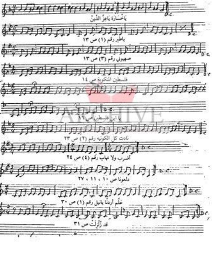
لا تتمن من الوحش ان ألخنته
سيعود لفتك إذا اغفلته
الجهر عليه ومتى اخفته
غنى على أم الزلف مُوّالها[٢٨]

---

(٢٤) جوكو : جلّ وكم . ولكن : يا أنتم . عطس البرود : اطلاق النار من البنادق .
(٢٥) أسرها : قولها . أسرها : أسيرها . بأسرها : كلها . بن غورين : دافيد بن غوريون تولى رئاسة وزراء اسرائيل من ١٩٤٩ - ١٩٥٣ ثم من ١٩٥٥ - ١٩٦٣ . ادبح : ادعى .
(٢٦) شهرنا السيف : جردنا السيف . ناصر : جمال عبدالناصر . عينو : ساعدوا . العصاب : العصابات .
(٢٧) اليزابث : ملكة بريطانيا . نوريها : نوري السعيد الذي كان وصيا على عرش العراق آنذاك . قشاط : سير كبير من الجلد ، والتورية واضحة في الاشارة الى معنى « سير » في الانجليزية (أي سيد ، ورتبة معينة) وسير في العربية يعني الحزام من الجلد .
(٢٨) ام الزلف = لون من الغناء الشعبي ، تبدأ مواله بعبارة : « عالعين يا أم الزلف » .

نوته لبعض الألحان الشعبية للأغاني الواردة في هذه الدراسة :

من إعداد جاك لحّام أعدها مشكورا بناءً على الألحان الشعبية الشائعة بين الناس كما غنيتها له أنا . .



المراجـــع

معظم الأغاني الواردة في هذه الدراسة تمنع الرقابة الاسرائيلية نشرها وتلاحق الفنانين الشعبيين الذين يغنون بها .

المراجع من الناس :

١ ـ الفنان الشعبي حربي خالد محمود / فرعتا / نابلس .
٢ ـ الفنان الشعبي راجح غنيم / سلفيت / نابلس .
٣ ـ الفنان الشعبي عبدالرحمن حسان عفانة / البيرة .
٤ ـ الفنان الشعبي ياسر سعيد البرغوثي / كفرعين / رام الله .
٥ ـ عصر عبد العاطي / كفرعين / رام الله .
٦ ـ روحي حسن عبدالرحمن / كفرعين / رام الله .
٧ ـ رشاد المدني / غزة .
٨ ـ سليمان محمود / البيرة .
٩ ـ السيدة فاطمة الوالد البرغوثي / كفر عين / رام الله .
١٠ ـ السيدة خديجة مصطفى حمدان البرغوثي / كفر عين / رام الله .

المراجع من الكتب :

١ ـ برغوثي ، عبداللطيف ، الأغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن ، مركز أبحاث جامعة بيرزيت ، ط ، ١٩٧٩ .
٢ ـ برغوثي ، عبداللطيف ، ديوان العتابا الفلسطيني ، مركز أبحاث جامعة بيرزيت ط ١ ، ١٩٨٦ .
٣ ـ لجنة الأبحاث ، انعاش الأسرة ، البيرة ، مجلة التراث والمجتمع ، [illegible]

* * *

محتدم حول أحقية دفنه . ولقد فطن الأستاذ كيتو إلى أن مركز الثقل في مسرحية أنتيجونى لاتحتله شخصية واحدة بل تتقاسم بطولتها شخصيتان وأن أكثرهما أهمية لدى سوفوكليس هي شخصية كريون . (٤)

أما الأستاذ ألبن ليسكى Albin Lesky فيتفق مع كيتو في أن مسرحية أنتيجونى تطرح فكرة رئيسية مؤداها أن الكراهية ـ وهى أمر مفزع يؤدى إلى اضطراب شامل في سلوك البشر ـ لابد وأن تظل داخل حدود معينة ولاينبغى أن تستمر إلى مابعد موت الخصم . (٥) ويوضح الأستاذ ليسكى أن أنتيجونى تعكس صورة البطل السوفوكلى بإرادته القوية وبتصميمه الذي لايقبل الحل الوسط ، وباعتقاده أن المساومة أو الانسحاب نوع من الاغراء لاينبغى الخضوع له . ويرى كذلك أن تخلى إسمينى عن أختها وتركها لتتصرف بمفردها قد منح أنتيجونى إحساساً بالوحدة والعزلة التى تميز كل شخصيات سوفوكليس العظيمة . (٦) ولايوافق ليسكى على تفسير هيجل Hegel الذي يرى فيه أن مسرحية أنتيجونى تقدم صراعاً موضوعياً بين موقفين صحيحين أحدهما موقف الأسرة (أنتيجونى) والثانى موقف الدولة (كريون) ، ويستند ليسكى في اعتراضه هذا على ما استنتجه من المسرحية : ومؤداه أن سوفوكليس يدين موقف كريون صاحب القرار المتغطرس ويبين في الوقت نفسه أن ماتقاتل أنتيجونى من أجله في الحقيقة هو قوانين الأرباب غير المدونة ، وهى قوانين لاينبغى للدولة أن تعارضها أو تتصارع معها مطلقاً ، كما أن كريون في الوقت نفسه ليس ممثلاً للدولة بمفرده فالدولة في الحقيقة كانت تقف في صف أنتيجونى . (٧)

ولكن قبل أن نمضى قدماً في مناقشة القضية يجدر بنا أن نعرض في ايجاز لحبكة المسرحية حتى يتسنى لنا أن نحكم من خلالها على الفكرة المطروحة ومدى وضوحها .

■ حبكة المسرحية :

يرجع تاريخ عرض مسرحية أنتيجونى الى عام ٤٤١ ق . م . (٨) ويدور موضوعها حول الأحداث التى قدمها أيسخيلوس من قبل في مسرحية « سبعة ضد طيبة » بعد تخلص المدينة من الأخطار التى كانت تتهددها . تبدأ المسرحية بعد موت الأخوين المتنازعين

---

(٤) ibid., p. 126.

ويرى الأستاذ كيتو أن أوديسيوس وأياس يتقاسمان بطولة مسرحية أياس بصورة تكاد تقترب من مسرحية أنتيجونى التي يتقاسم بطولتها كل من كريون وأنتيجونى . ولكن يجب أن نلفت النظر الى أن هناك اختلافاً بيناً في البناء والمغزى بين كل من المسرحيتين وأن التشابه قاصر فقط على توزيع مركز الثقل بين شخصيتين دون أن يكون مركزاً على شخصية واحدة .

(٥) Albin Lesky, Greek Tragedy, translated by H.A. Frankfort, London (1967), pp. 103, 106. Cf. H.D.F. Kitto, op. cit., pp. 123, 128, 149.

(٦) A. Lesky, op. cit., p. 104

(٧) ibid., p. 108f.

(٨) يرى الأستاذ ليسكي أن تاريخ عرض المسرحية كان عام ٤٤٢ ق . م . دون أن يقدم لنا المبررات التي حدت به الى تحديد هذا التاريخ ، أما الأستاذ باورا :

C.M. Bowra, Sophoclean Tragedy, Oxford University Press (1970), p. 63.

فيحدد تاريخ عرضها بعام ٤٤١ ق . م . مستنداً في ذلك الى أن انتخاب سوفوكليس قائداً ثم اشتراكه بعدها مع بريكليس في الحملة ضد ساموس كان بعد نجاح مسرحية أنتيجونى التي كانت آراؤه فيها مثار اعجاب رجال السياسة في أثينا . قارن :

A.H. Allcroft-B.J. Hayes, Sophocles' Antigone, London (1889), introd. p. vii.

. إتيوكليس (المشهور بلا جدال) (٩) المدافع عن المدينة وبولينيكيس (كثير التشاحن) الذي هاجم وطنه بالتحالف مع أرجوس ، وبعد أن سقط كل منهما صريعاً بيد أخيه تحقيقاً للعنة التى صبها عليهما والدهما الراحل أويد يبوس .

وفي المشهد الأول من المسرحية نرى أنتيجون (الابنة المعارضة) وهى تتحدث مع أختها اسميني (التى عرفت) حول القرار الذي أصدره كريون (الحاكم) الذي آل إليه عرش طيبة ، وهو قرار يقضى بدفن جثة إتيوكليس الذي قضى نحبه وهو يدافع عن وطنه طيبة ضد الغزاة ويترك جثمان بولينيكيس في العراء دون دفن ولاطقوس جناز لأنه كان معتدياً على وطنه مهاجماً له . وترجع خطورة هذا القرار - وفقا لرأى الأستاذ ألبن ليسكى - إلى أنه يفتقر إلى الاعتدال : لايمحى أنه صورة من صور التطرف النبيل يرمى إلى تحقيق الذات بطريقة لاسبيل إلى إيجادها في إطار الحياة ، ولكن لأنه صادر من منطلق إثم وعصيان للأمر الإلهى الذي يقضى بدفن الميت وتكريمه ، وهو أمر انصاع له أود يسيوس في مسرحية « أياس » فنجا من العقاب . (١٠)

وكان من الطبيعى أن تفزع أنتيجون لدى علمها بهذا القرار الجائر في نظرها فتصمم على معارضته حتى ولو كان الموت هو الثمن ، إذ كانت شخصيتها تضعها على النقيض تماماً من أختها إسمينى التى ما أن عرفت حتى استبد بها الخوف ولم تتغاض فقط عن قرار كريون بل أذعنت له وشرعت تحذر أختها من معارضته حتى لاتتعرض للهلاك . لكن أنتيجون لاتلقى بالاً لتحذيرات أختها وتقدم على مخالفة قرار الملك ، ومن ثم يضبطها أحد الحراس وهى تهيل حفنات من الثرى على جثة أخيها ، فيقوم بإحضارها لتمثل أمام كريون وأمام الجوقة المكونة من شيوخ طيبة . وكان من الطبيعى أن تنحاز الجوقة في مبدأ الأمر إلى كريون وأن تقف في صفه أنتيجون حينما تبدى الأخيرة عنادها وتتباهى بفعلتها . وإزاء هذا التحدى السافر من جانب أنتيجون تستبد الغطرسة بكريون ويلجأ إلى التهور خوفاً على هيبته التى توشك على الضياع بسبب العبث بقراراته . وبعد نقاش عنيف وجدل محتدم مع أنتيجون يأمر الملك باقتيادها مكبلة بالأغلال إلى السجن إلى أن تنفذ فيها عقوبة الرجم حتى الموت كما يقضى القرار .

وهنا تندفع إسمينى مولولة صارخة وملقية بالتبعة على عاتقها وحدها ومتوسلة الى كريون أن يبقى على حياة أختها ، راغبة في مشاركتها العقاب على اعتبار أنها شريكتها في الجرم . غير أن كريون لايرى في مسلك إسمينى سوى الطيش والجنون فيأمر بسجنها مع أختها ، وفي الوقت نفسه ترفض أنتيجون بشدة أن تشاركها أختها تبعة فعلة قامت هى بها حيث إن ذلك لم يصدر بناء على إيمان بالواجب الحق منذ البداية بل تم بدافع العطف وحده ، لذلك فهى لاتقبل حباً يأتى في غير وقته أو عطفاً يأتى بعد فوات الأوان . ثم يدخل هايمون (الدموى) خطيب أنتيجون وابن كريون في الوقت نفسه ، ويبدأ النقاش مع أبيه في تعقل وهدوء أول الأمر ، مفنداً قراره الجائر ومحاولاً إقناعه بأن الصواب قد

(٩) لفت نظري أن معظم أسماء شخصيات مسرحية أنتيجوني ذات معنى يشتمل على دلالات خاصة تشير في الغالب الى سمات بارزة لكل شخصية على حدة . وربما كان هذا المعنى قد نشأ قديماً مع الأسطورة ذاتها ومع ذلك فقد رأيت الاشارة الى هذه الحقيقة لعلها تكون ذات فائدة في فهم ما يختص بطبيعة الشخصيات داخل الاطار الأسطوري . وإن كنت في الوقت ذاته لا أزعم أن سوفوكليس في بنائه لكل شخصية على حدة قد عول كثيراً على دلالات الأسماء هذه .

(١٠) A. Lesky, op. cit., pp. 103-104.

جانبه وأن عليه التروى والتدبر حتى لايعض بنان الندم . لكن هذا النقاش الهادىء بين الوالد والابن مايلبث أن يحتدم ويصبح ساخناً ، فيثور كريون في حالة المطاف ويستبد به الغضب ويستنكف من أن يتلقى دروساً من شاب غرير في نظره فيهدد بقتل الخطيبة أمام ولده ، وعندئذ يخرج هايمون من القصر والغضب يملأه معلنا أنه يفضل الموت مع أنتيجون على الحياة مع أبيه .

وتخشى الجوقة من حدوث مالا تحمد عقباه نتيجة لغضبة الشاب وخروجه محزونا يائساً ، أما كريون فيعدل عن قرار الرجم ويأمر بدلاً من ذلك باقتياد أنتيجون إلى كهف منعزل وأن تقبر فيه حتى تلقى حتفها فلا يتحمل هو وزر قتلها . ثم يفد إلى القصر العراف الأعمى تيريسياس (المتنبىء عن طريق علامات السماء) وينذر كريون بسوء المآب حيث إنه قد تحدى قوانين الأرباب السامية بتركه لجثة رجل ميت دون دفن وبإزهاق روح فتاة بغير حق ، وأن ذلك التحدي سوف تترتب عليه آثار وخيمة . ومن جديد يشتبك كريون في مشاحنة جدلية عنيفة مع العراف يخرج الأخير على أثرها بعد أن يفضى إلى كريون بنبوءات مفزعة وبعد أن يعلن أن السماء قد غضبت عليه . وبعد انصراف تيريسياس ينتاب كريون الفزع ويساوره الشك لأول مرة في مدى صواب تصرفاته فيلجأ إلى الجوقة كي يلتمس منها النصح . وكانت الجوقة في هذه اللحظة قد بدأت في التزحزح عن موقفها الموالي له بعد أن لمست بنفسها جموح إرادته ، لذلك فما أن قصدها حتى حثته على الفور بالاسراع إلى الكهف عساه يتمكن من إنقاذ أنتيجون قبل هلاكها ودفن جثة القتيل تنفيذاً لرغبة الآلهة .

غير أنه عندما يصل إلى الكهف - بعد فراغه من مواراة الجثة الثرى - يجد أن الفتاة التعسة قد أزهقت روحها شنقاً لتهرب من مصيرها المؤلم ، ويشاهد ابنه هايمون وقد تشبث بجسدها وهو ينتحب . وفي غمرة اليأس القاتل يندفع هايمون نحو أبيه مجرداً سيفه من غمده محاولاً قتله ، لكنه يخطئه فيجهز بدلاً من ذلك على حياته حزناً وكمداً ويسقط إلى جوار جسد أنتيجون جثة هامدة . وحينما يعود كريون إلى قصره حاملاً جثة ابنه هايمون وهو غارق في لجة من الأسى يجد أن زوجته يوريديكى (الجزاء الوافي) قد انتحرت بعد سماعها نبأ هذه الفاجعة المريرة التي حرمتها من فلذة كبدها . بعد هذه الأحداث الجسام يتزلزل كيان كريون ويغرق في طوفان من الأحزان ، لأن وجوده كله قد انتهى إلى دمار ولأن حياته فقدت مغزاها ، وصار أشبه بالموتى رغم أنه مازال على قيد الحياة .

ويسير النص الاغريقى للمسرحية عند تقسيمه إلى مشاهد تمثيلية وأناشيد جوقة على النسق التالي : [١١]

١ - المقدمة prologos وتقع في الأبيات من ١ - ٩٩ .

٢ - مدخل الجوقة parodos الافتتاحى الذي تؤدى فيه أنشودة المدخل في الأبيات من ١٠٠ - ١٦٢ .

٣ - المشهد التمثيلي epeisodion الأول وذلك في الأبيات من ١٦٣ - ٣٣١ .

٤ - الفاصل الانشادى stasimon الأول للجوقة وذلك في الأبيات من ٣٣٢ - ٣٨٣ .

٥ - المشهد التمثيل الثاني ويقع في الابيات من ٣٨٤ - ٥٨١ .

٦ - الفاصل الأنشادى الثاني ويقع في الأبيات من ٥٨٣ - ٦٣٠ .

٧ - المشهد التمثيل الثالث ويشمل الأبيات من ٦٣١ - ٧٨٠ .

---

(١١) A.H. Allcroft-B.J. Hayes, op. cit., introd. p. x.

٨ ـ الفاصل الإنشادى الثالث ويشمل الأبيات من ٧٨٠ ـ ٨٠٥ .

٩ ـ المشهد التمثيل الرابع الذي يشمل الأبيات من ٨٠٦ ـ ٩٤٤ ويتضمن داخله نشيد النواح kommos الذى تلقيه أنتيجون بالتبادل مع أفراد الجوقة وذلك في الأبيات من ٨٠٦ ـ ٨٨٢ .

١٠ ـ الفاصل الانشادى الرابع وذلك في الأبيات من ٩٤٥ ـ ٩٨٧ .

١١ ـ المشهد التمثيل الخامس وذلك في الأبيات من ٩٨٨ ـ ١١١٤ .

١٢ ـ الفاصل الانشادى الخامس وهو إنشاد مصحوب بالرقص nyporcnema ويقع في الأبيات من ١١١٥ ـ ١١٥٢ .

١٣ ـ الخاتمة exodos وهى الجزء الذي تغادر فيه الجوقة مكانها وذلك في الأبيات من ١١٥٣ ـ ١٣٥٣ .

• مفهوم الثنائية :

في الحق أن مسرحية أنتيجون تناقش داخل حبكتها قضية معقدة ليس من السهل حسمها بوجهة نظر فردية أو من خلال تفسير أحادى ، ذلك أنها تتميز بثنائية البناء القائمة عل التقابل بين شخصيات متعارضة ، كما أنه لاسبيل إلى المصالحة في الصراع الذى قام داخلها بين كريون وأنتيجون . ولقد لاحظ الأستاذ كيتو أن هناك تطوراً فنياً في البناء عند سوفوكليس وأن البناء الدرامى عنده قد بدأ بالازدواجية bipartite structure في مسرحية « أياس » ، ثم تطور الى « الثنائية » double foundation ـ وهى صورة أكثر تطورا ومهارة من الازدواجية ـ وذلك في مسرحية « أنتيجون » ، ثم وصل الى « الوحدة » الرائعة splendid unity في مسرحيتى « أوديب ملكا » و « إلكترا » . ولكن كيتو يلفت النظر إلى حقيقة هامة وهى أن الامر ليس مجرد تطور في « التكنيك » بقدر ما هو رغبة من جانب سوفوكليس هدفها البحث عن وجهة نظر صائبة وبعد فكرى سليم . (١٢)

وفي رأى الأستاذ إنجرام — R .P winnington Ingram أن « الثنائية » dualityفي المسرحية تقوم عل المواجهة أو التقابل بين الشخصيات ، فنحن نلتقى فيها بخصمين لدودين (كريون وانتيجوني) واختين مختلفتين (انتيجوني واسميني) وأخوين عدوين (إتيوكليس وبولينيكيس) . وينقسم كل هؤلاء في الواقع الى فريقين متضادين : الأحباء philoi في مواجهة الأعداء echthroi ، وهذا هو التضاد الذي اسس عليه الاغريق كل افكارهم الأخلاقية والسياسية . وفي الوقت نفسه نجد ان الصراع بين الأحباء والأعداء يدور على مستوى كل من الأسرة genos والدولة polis ، بحيث لا تنظر انتيجوني الى اعتبارات المحبة والعداوة الا على نطاق الاسرة وحدها بينما يقصر كريون هذه الاعتبارات نفسها على نطاق الدولة دون ان يأبه بالاسرة(١٣) .

أما الاستاذ والدوك A.J.A. Waldock فيتتبع بداية ظهور مصطلح « الازدواجية » diptych أو « البناء الازدواجي » diptych construction عند النقاد المحدثين ، ويعتقد ان الاستاذ وبستر T.B.L. Webester ـ على الأرجح ـ هو اول من استخدم هذا المصطلح فأكسبه صفة الشيوع والانتشار . ومن رأيه ان

(١٢) H.D.F. Kitto, op. cit., p. 127.

(١٣) R.P. Winnington-Ingram, op. cit., pp. 128-130.

المسرحيات ذات البناء الازدواجي هي المسرحيات التي لا تتحقق فيها بشكل أو بآخر « الوحدة » unity التي هي خاصية اساسية من خصائص الدراما الاغريقية . ويعترض الاستاذ والدوك على اولئك النقاد الذين يلتمسون الاعذار ويسوقون المبررات من اجل اثبات ان المسرحيات ذات البناء المزدوج تحوي صعوبات ظاهرية تجعل فهمها عسيرا ، وانه لو تم ايجاد حلول تفسيرية لهذه الصعوبات فان من اليسير اثبات الوحدة التي تتمتع بها هذه المسرحيات[١٤] . ويضرب والدوك مثلا على الازدواجية بمسرحيتين : « أياس » لسوفوكليس و« هيبوليتوس » ليوريبيديس ، حيث تختفي في الاثنتين الشخصية الرئيسية (أياس وفايدرا) قبل نهاية المسرحية بوقت طويل ليدور ما تبقى من كل مسرحية حول شخصية أخرى تستحوذ على الاهتمام (أوديسيوس وهيبوليتوس)[١٥] .

ومن رأى والدوك أن مسرحية أنتيجوني ازدواجية ايضا في بنائها ، ولكنها تتميز بان الازدواجية فيها قد تم اخفاؤها بمهارة وان الانتقال فيها من موضوع الى موضوع يسير على نحو أكثر سلاسة . ففي النصف الأول من المسرحية تحتل انتيجوني مركز الاهتمام بينما لا يظفر كريون خلاله بالأهمية بنفسها ، أما في الثلث الأخير من المسرحية فان التركيز كله كان منصباً على كريون حتى لنكاد ننسى خلاله أنتيجوني .[١٦]

ويتساءل الاستاذ والدوك « أليس من حق الكاتب الدرامى أن يختار لمسرحيته بناء مزدوجاً ؟ » ثم يضيف : « وماذا إذا بدأت مسرحية مابشخصية ما وجعلتها في مكان الصدارة ثم انتهت بشخصية أخرى تتصدر المقام بدلاً منها ؟ هل هناك قانون أو عرف يمنع ذلك ؟» ويرد والدوك على السؤال الأخير بقوله : « نعم هناك مايمنع » ، ويستدل على هذا بفقرة اقتبسها من سومرست موم somerest Maugnam « إن من السمات النفسية للطبيعة الانسانية أن ينصب الاهتمام بصورة مركزة على الشخصيات التى يقدمها الكاتب المسرحى في بداية مسرحيته ويؤكد عليها للدرجة التى يصاب فيها المشاهدون بخيبة الأمل عندما يلاحظون أن هذا التركيز قد انتقل إلى شخصيات أخرى ظهرت بعد فترة من بداية المسرحية . » وانطلاقاً من هذا الرأى يرى والدوك أن المبدأ الذي رسمه سومرست موم يعد في نظره من أهم المبادىء التى تصلح للتطبيق على النتاج الأدبي سواء في مجال القصة أو الملحمة أو الدراما .[١٧]

ومن ناحية أخرى يرى الأستاذ باورا C. M. Bowra أن تحليل « هيجل لم يفهم داخل سياقه ، لأن الفيلسوف الشهير كان يفكر في مجال أرحب من مجال المسرحية وهو مجال خاص بمنطق التاريخ . وفي مثل هذا

---

(١٤) A.J.A. Waldock, Sophocles the Dramatist, Cambridge (1966) p. 50.

(١٥) ibid., pp. 50-51.

(١٦) ibid., pp. 52-53.

(١٧) ibid., pp. 53-54.

ثم يورد والدوك المرجع نفسه ص ، (٥٩-٦٠) اختفاء شخصية محورية مثل فايدرا قبل نهاية المسرحية بوقت مبكر بأنه لم يكن في مقدور التراجيديا الاغريقية أن تواجه صراعاً ثلاثياً تشترك فيه الشخصيات الثلاث مجتمعة على خشبة المسرح ، وبحيث تكون هذه الشخصيات معا الأهمية نفسها والارتباط نفسه مثل : فايدرا وهيبوليتوس وثيسيوس في مسرحية « هيبوليتوس » ليوريبيديس . ومن رأيه أن وجود فايدرا مع الشخصيتين الآخرين كان من شأنه أن يؤدي الى صدام ثلاثي حيث لم تكن التراجيديا الاغريقية مهيأة لدخوله . ومع تسليمه بأن الدراما الاغريقية قد قدمت نماذج عديدة لمشهد ثلاثي لاصدام فيه ، إلا أن هذا لا ينفي كراهية كتاب الدراما الاغريق للصدام الدموي ثلاثي الأطراف .

المجال فإن صراع الأضداد ينتهي بإيجاد تركيبة جمعية synthesis صحيحة في حد ذاتها ، ذلك أن مايهم هو النتيجة . ومن الواضح في رأي باورا أن هـذا الأمر مختلف عن مقولة هيجل التي يرى فيها أن كلا من طرفي الصراع على صواب . وبناء عـلى ذلك يمكن اعتبار النتيجة التراجيدية عـلى أساس أنها درس من دروس التاريخ ، وهي حقيقة لا يمكن انكارها وبالتالي تكون صحيحة . غير أن الصراع الذي يسبق هـذه النتيجة لايمكن فصله أو عزله عند الحكم عليه ، وبالتالي فليس هناك طرف من أطرافه على الصواب أو على الخطأ فهذا أمر نسبي . ويعتقد باورا أن آراء هيجل ليست بطبيعة الحال هي آراء سوفوكليس نفسها ، وأن هيجل لايمكنه أن يدعي أحقية طرفي الصراع (كريون وأنتيجون) أو تساوي موقفهما من الصحة في نظر مؤلف التراجيديا . (١٨)

ويرفض الأستاذ باورا فكرة « الازدواجية » ويرى أن الصراع في المسرحية ينحصر بين شخصيتين رئيسيتين هما كريون وأنتيجون ، وأنه كان في الأصل صراع مبادئ ثم تحول الى صورة من صور الصراع الشخصي بين الطرفين . ويعتقد باورا أن سوفوكليس قد بنى مسرحيته على تضاد لابين باطل صريح وحق واضح ، بل بين غطرسة كريون التي لاجدال عليها وبين مايبدو لنا أنه غطرسة في سلوك أنتيجون . (١٩) ويعتقد كذلك أن سوفوكليس كان من المهارة بحيث قدم في مسرحيته صراعا لا يتمكن المشاهد فيه لأول وهلة من معرفة الطرف المخطىء حقاً ، لكن المشاهد بالتدريج يتمكن من معرفة أين يوجد الحق ، غير أن ذلك لايتم دون التعرف على الطرف المقابل والتأثر به . (٢٠) ولكي يدلل على صحة رأيه يبين باورا أن الجوقة نفسها قد وقعت في هذا الخلط في الحكم عندما ظنت أن خطأ أنتيجون يكمن في أحادية تفكيرها وفي عدم ادراكها للمعنى الحق للتوقير ، وأن مزاجها الحاد هو الذي جلب عليها الدمار . (٢١) ويعتقد الأستاذ باورا أن حقيقة الخلاف بين كريون وأنتيجون تكاد تنحصر حول ماهية القانون ، حيث إن لكل منهما تفسيره الخاص لما يعنيه القانون ولمفهوم التعارض بين القوانين غير المدونة (الدينية) والقوانين البشرية : فأنتيجون تعتقد أن مايزعم كريون أنه قانون ليس في الحقيقة سوى مجرد قرار صادر عن حاكم . وهي بذلك تفرق تفرقة صارمة بين القرار البشري وقوانين الآلهة ، وهي ترى أن القوانين غير المدونة وجدت على ذرى جبل الأوليمبوس حيث مقر كبير الآلهة زيوس ، الذي تقطن معه ربة العدالة ابنة ثيميس ويرى باورا أن أنتيجون بهذا الاعتقاد تعارض وجهة نظر العديد من رجال السياسة والفلاسفة الذين يعتقدون بعدم وجود تعارض بين قوانين الارباب وقوانين البشر ، حيث إنها تؤمن بإمكانية وجود صراع بين القوانين غير المدونة والقوانين الصادرة عن البشر . (٢٢) وكان سوفوكليس يقدم لنا من خلال المسرحية نظرية خاصة به يفسر بها معنى القانون مؤداها أن قوانين البشر يجب أن تتوافق مع قوانين السماء وإلا فإنها تكون باطلة ، وستحيق الكارثة بمن يقدم على انتهاك حرمة شرائع الآلهة . وإذا كان أفلاطون يفترض أن هناك

(١٨) C.M. Bowra, Sophoclean Tragedy, Oxford (1970), pp. 65-66.

(١٩) ibid., pp. 65, 67, 90.

(٢٠) ibid., p. 68.

(٢١) ibid., pp. 89-90.

(٢٢) ibid., pp. 97-100.

توافقاً بين قوانين الأرض وقوانين الأرباب ، فإن سوفوكليس يرى أن هذا التوافق ليس محتوماً لذلك فهو يقدم لنا في مسرحيته مثالاً على الاختلاف القائم بينها . (٢٣)

ويفسر الأستاذ باورا رحيل أنتيجونى المبكر في المسرحية بأنه وسيلة قصد عن طريقها سوفوكليس تخصيص الجزء الباقى من المسرحية لتصوير العقاب الذي حل بكريون جزاء معاملته الفظة لها . فلو أن المسرحية توقفت برحيل أنتيجونى فإن استنكارنا لنهايتها غير العادلة سيكون فوق الاحتمال ، لكن سقوط كريون سوف يخفف من ذلك الشعور عندما يكفر عن جرمه . إن موت أنتيجونى كارثة تراجيدية ولكنه كان نتيجة لحمق كريون وعناده . وهذا هو السبب الذي من أجله يعتقد الأستاذ باورا أن المسرحية تتميز بوحدة أروع من مجرد الوحدة الشكلية . (٢٤)

من خلال ما سبق يتضح لنا أن النقاد ينقسمون في واقع الأمر إلى طائفتين : إحداهما تؤكد وجود الازدواجية ، على حين ترى الأخرى أن « الازدواجية » أمر ظاهري وأن الوحدة هي الطابع المميز لمسرحية أنتيجونى ، ويأتي الأستاذ باورا في طليعة الطائفة الأخيرة . ومن ناحية أخرى نجد أن الطائفة الأولى التي تؤكد وجود الازدواجية تختلف في وجهات نظرها : فمن أفرادها من يعتقد أن « الازدواجية » عيب درامي مثل والدوك ، ومنهم من يرى أنها ليست « ازدواجية » بل « ثنائية » تتبدّى فيها مقدرة سوفوكليس ومهارته المتطورة مثل كيت ، ومنهم من يفسرها على أنها « ثنائية » في البناء « وتقابلية » في الشخصيات مثل إنجرام .

هذه هي المشكلة التي نجد أنفسنا إزاءها ، والتي تضع على عاتقنا بعد عرض وجهات النظر المختلفة حولها مهمة التوصل إلى نظر بصددها .

● ثنائية البناء :

أحب أن ألفت النظر من البداية إلى أن سوفوكليس في معظم مسرحياته يركز على الفعل الدرامي بأكثر مما يركز على الشخصية ، وأن اختياره لم يكن للشخصيات المتفردة من أجل تفردها كما كان يفعل يوريبيديس أحيانا ، بل كان للمواقف التي تخلق الصراع وتفجر القضية . وبهذا فإن سوفوكليس يلتقي مع وجهة نظر أرسطو التي يرى فيها أن الدراما هي الفعل وليست الشخصية وأنه لو وجدت الشخصية دون فعلها لما قامت الدراما . (٢٥) وبالتالي ، فإن خطة سوفوكليس ومنهجه الدرامي لا يستدعيانه أن يضع على خشبة المسرح - شخصية محورية تكون بمثابة البطل بحيث تستولي على الاهتمام وتحتل مكان الصدارة منذ بداية المسرحية حتى نهايتها - ، لكنه يستخدم في الموقف الدامي الذي يعالجه الشخصيات الكفيلة بتصعيد المشكلة حتى ذروتها بغض النظر عن وجودها الدائم على المسرح .

ومن هنا فنحن لا نتفق مع الرأى القائل بأن ازدواجية البناء في مسرحية أنتيجونى بمثابة هفوة درامية انزلق الكاتب إليها لأن مادته الأسطورية قد كبلت مقدرته . وفي الوقت نفسه لا نوافق على وجهة النظر التي ترى أن الوحدة كامنة خلف البناء الازدواجي الظاهرى ، ونكاد نتفق مع رأى الأستاذ إنجرام الذي يرى أن المسرحية

---

(٢٣) ibid., p. 101

(٢٤) ibid., pp. 113-114.

(٢٥) محمد حمدي إبراهيم ، دراسة في نظرية الدراما الإغريقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة (١٩٧٧) ، ص ٣٤ .

تقوم على التضاد الثنائي في كل من الموضوع والشخصيات . ومن رأيي أن مسرحية أنتيجوني مؤسسة على « ثنائية » فريدة ليست اضطرارية بل أرادها سوفوكليس عن عمد ، وقصد أن يصل عن طريقها إلى التعبير عن مشكلة معقدة لا سبيل إلى طرحها دون هذا البناء الثنائي . ونأمل في الصفحات التالية أن نثبت أن هذه « الثنائية الفريدة » لا توجد بمواصفاتها هذه إلا في مسرحية أنتيجوني دون غيرها من مسرحيات سوفوكليس ، أما « الازدواجية » التي أشرنا إلى آراء النقاد بصددها قبلاً والتي توجد بالفعل في بعض المسرحيات الأخرى مثل « أياس » فهي بناء جد مختلف قام كثير من النقاد بشرحه وتفصيله ، فضلاً عن أنه يحتاج إلى دراسة خاصة لسنا هنا بصددها .

إن الصراع في مسرحية أنتيجوني يدور بين إرادتين حازمتين عنيدتين ترتكز كلاهما على وجهة نظر مختلفة يعتقد صاحبها اعتقاداً جازماً أنها الأصوب ، لكن كل إرادة منها تصر على موقفها بتهور وفردية حتى النقطة التي تصطدم فيها مع الطرف الآخر صداماً لا سبيل فيه إلى المصالحة . وكان هذا الصدام حتمياً لأن كل طرف منهما يتميز بالوعي الزائد للنفس والعناد المتأصل الذي يدفع صاحبه إلى تجاهل وجهة النظر المعارضة تماماً ، وإلى التعامي عن مزاياها بل إنه يرفض أن يرى فيها المزايا أو أن يناقش هذه المزايا بموضوعية لو وجدت . وبسبب هذا الصدام ـ لا بسبب كون الموقف صحيحاً أو خاطئاً ـ تقع الكارثة على الطرفين : فتلقى أنتيجوني حتفها ويظل كريون على قيد الحياة ليتعذب بمصارع من يحبهم ، ويقف على المغزى بعد أن تنزاح الغشاوة عن بصره ولكن بعد فوات الأوان . وليس من منهج كاتب درامي مثل سوفوكليس أن يبلور مشكلة عسيرة كهذه بحيث يعلن وجهة نظره فيها منذ البداية ، لأنه يعلم حق العلم أن هناك قضايا معقدة ليس للانسان مهما بلغ من الحكمة أن ينفرد فيها برأى ، وذلك بسبب كونها قضايا ذات طبيعة خاصة تركيبية تجمع بين ما يخص البشر وبين ما يخص الآلهة في وقت واحد . إن هدف سوفوكليس هو أن يجعلنا نتأرجح في الحكم على أفعال الشخصيات تبعاً لتصرفاتها وردود أفعالها : ففي مبدأ الأمر نُصدم مع الجوقة حينما ترى مسلك أنتيجوني وخشونة طبعها بينما نميل إلى الاعجاب بكريون لعقلانيته ومنطقه المحكم ، لكننا تدريجياً نشعر بالأسى ونتعاطف مع الفتاة التعسة حتى مع تسليمنا بتجاوزاتها ونحس في الوقت ذاته بأن منطق كريون المحكم ينطوي على تجاهل للمشاعر الانسانية وللقوانين الالهية .

غير أن سوفوكليس في هذه المسرحية لا يدين بقدر ما يعلق ولا يبرر بقدر ما يفسر ، لأنه كفنان درامي يعرف أكثر من سواه أن مجاله هو عرض المشكلة بأمانة وواقعية وليس مجرد اصدار الأحكام . ومصداقاً لقولنا هذا نلاحظ أن الجوقة في مسرحية أنتيجوني ـ مع تسليمنا بالتحفظات التي ساقها النقاد بشأن صحة موقفها ـ بدأت في أنشودتها الأولى التي ألقتها قبل أن تعرف أن أنتيجوني هي التي قامت بانتهاك القرار الملكي ، بدأت بالحديث عن الانسان ذلك الكائن العظيم الذي رغم نجاحه عن طريق العقل في كافة الميادين ورغم قهره للطبيعة وبسط سلطانه عليها ، إلا أن هذا العقل نفسه ـ وهو أداة نجاحه وسيادته ـ هو الذي يشكل العقبة الكئود أمامه حينما يفرض عليه الاختيار وحينما يصير لزاماً عليه أن يستخدم ارادته . وبالاضافة إلى ذلك ترى الجوقة أن الموت هو لغز الحياة الوحيد الذي قهر الانسان فجعله يقف أمامه عاجزاً عن التصرف وعن التفكير . ومن أجل ذلك فإن الجوقة في ختام المسرحية لا تجد ما تقوله تعليقاً على ما حدث سوى كلمات تنم بصفة

العمومية ، تطالب فيها الانسان بتوقير الأرباب والتمسّك بالحكمة ، حيث إنه ميال للغطرسة مفتون بعقله ولا يتعلم إلا بعد فوات الأوان وبعد أن تدركه الشيخوخة .(٢٦)

وقبل أن نحلل أنشودة الجوقة عن الانسان ونعلق عليها نرى من الأوفق أن نوردها هنا بنصها الكامل نظرا لأهميتها في نظرنا :

« كثيرة هي العجائب (في الحياة) ولكن لا أكثر مدعاةً للعجب من الانسان . فهو يمخر عباب البحر المزبد تسوقه ريح الجنوب العاصفة ، ويشق طريقه عبر وديان اليم ذات الأمواج المتلاطمة . بكده ينهك الأرض أقدم الأرباب والتي لا سبيل إلى إفنائها ، ويقلب تربتها بالمحراث والخيل عاماً بعد عام .

قنص في قبضته طيور الفضاء الرشيقة ووحوش الفلاة الضارية والكائنات التي تتخذ المحيط مقراً لها ، وأوقعها في براثن شباكه دقيقة الصنع . إنه الانسان ذو الدهاء البالغ ، سيد الوحوش التي تجول في الحقول أو تجوس فوق الجبال . روض الجواد البري ووضع النير على عنق الثور الذي يتناثر الزّبد من شدقيه .

تعلم استخدام اللغة والأفكار التي تماثل الريح في سرعتها ، وابتكر القرارات الحاسمة التي تنظم الحياة الجماعية في المدن ، وعرف كيف يتقي لدغات الصقيع القارسة وشر الجو العاصف . ليس هناك أمر بعيد عن سلطانه أو (معضلة) تستعصي على مقدرته ودهائه .

وجد لكل داء دواءً ما خلا الموت الذي لم يجد منه مفراً أو مهرباً . لديه قدرة على الابتكار والابداع تصل به إلى مدى أبعد من متناول آماله ، وهذه القدرة تدفعه طوراً إلى الشر وطوراً إلى الخير . وهو عندما يبجل قوانين بلده ويوقّر عدالة الأرباب يعيش سامياً ويحيا شامخاً في مدينته ، أما حينما ينغمس في الشر بسبب صلفه وتهوره فلن تكون له مدينة . الا ليت من يقترف مثل هذه الفعال يحرم من مشاركتي نار موقدي ومن مشاركتي أفكاري . » (المسرحية : أبيات ٣٣٢ ـ ٣٧٥) إن الجوقة التي تشاهد مثلنا هذا الصراع المرير ترى أنه ليس في مقدور البشر الفانين التوصل إلى حسم هذه القضية عن طريق قوانينهم أو وجهات نظرهم العقلية وحدها ، وأنه لا حل لها إلا بالاستجابة لقانون الآلهة الذي يمكنه وحده أن يحقق العدالة بين الرغبات الانسانية حين تتعارض وتتصارع . فكل ما لدى البشر من عقل أو قوة أو عاطفة يجنح بهم نحو الشر مثلما يهديهم إلى الخير ، وإن فكر الانسان وحده عاجز عن تحقيق العدالة في كافة الأمور كما أن الحقيقة الكاملة بالنسبة له سراب .(٢٧)

إن وضع الأنشودة السابقة في هذا الجزء من المسرحية قبل تصاعد الأحداث له مغزى عميق ودلالة هامة : فالأنشودة من ناحية تشير إلى أن المشكلة الأساسية التي فجرت الصراع هي مشكلة الدفن بعد الموت ؛ فالانسان ذلك العظيم الذي أخضع الطبيعة من حوله وجعلها طوع بنانه ما زال رغم عظمته وتفوقه يقف حائراً أمام لغز الموت . ومن ناحية أخرى توضح الأنشودة أن

(٢٦) المسرحية ، أبيات : ١٣٤٨ ـ ١٣٥٣ . ولقد اعتمدت في هذا البحث على النص الاغريقي المنشور على يد كل من أولكروفت وهيس :
A.H. Allcroft -B.J. Hayes, Sophocles' Antigone, London (1889), Univ. Corr. Coll. Tutorial Series.

(٢٧) أعتقد أن الأستاذ ألبن ليسكي (المرجع المشار إليه ، ص (١٠٤ ـ ١٠٦) من بين النقاد القلائل الذين لفتوا النظر الى أهمية أنشودة الجوقة عن الإنسان ، وذلك رغم أنه لم يتبين ما فيها من جوانب خفية ودلالات ذات مغزى . أما الأستاذ باورا (المرجع المشار إليه ، ص ٨٤ ومابعدها) فقد وضعها في مكانها الصحيح وكشف عن صلتها بمجرى الأحداث في المسرحية . وإليه يرجع الفضل في لفت انتباهي الى أهميتها وبالتالي في صياغة آرائي واستنتاجاتي عنها .

البشر رغم قدرتهم الفكرية وتفوقهم العقلي ما زالوا عاجزين عن توجيه فكرهم نحو ما يحقق لهم السعادة وما زالوا قاصرين عند اضطرارهم للاختيار بين البدائل . أمران إذن ـ لا أمر واحد ـ أعجزا الانسان العظيم : الموت واختيار الارادة ، وهما أمران وجدا مع الانسان منذ بداية وجوده في الكون لكنهما مع ذلك ما زالا يشكلان التحدي الأكبر الذي تواجهه أجيال البشر المتلاحقة .

ونلاحظ أن الأمر الأول وهو الموت سبب المشكلة في المسرحية يمثل ما هو أساس الصراع فيها ، أما عن الأمر الثاني وهو اختيار الارادة بين البدائل فإن الجوقة في أنشودتها تلمح دون أن تصرح بأنه سيحدث بعد قليل في المسرحية وأن أطراف الصراع سوف يتعرضون له ، وأن مصائرهم سوف تتحدد بناء على اختيارهم ، وأنهم رغم سموهم الفكري وتفرد سلوكهم قد يتنكبون الصواب ويجنحون إلى الشطط . إن هذه الأنشودة الهامة توضح للمشاهد منذ بداية المسرحية أن الانسان يتعرض لعقبتين أساسيتين تنبع منهما سائر مشاكله : احداهما تصادفه في حياته وهي اختيار الارادة ، والثانية تنتظره في ختام حياته وهي الموت .

وانطلاقاً من هذا المعنى فإن سوفوكليس يربط بين هذه المشكلة الثنائية التي تتغنى بها الجوقة وبين المشكلة الثنائية ذات البعدين (البشري والالهي) التي تعالجها المسرحية . إن المسرحية تضعنا بلا جدال أمام مشكلة ثنائية بكل أبعادها سواء في طبيعتها أو في توقيتها أو في درجة تعقيدها ؛ وسوفوكليس يلفت نظرنا بمهارة إلى ثنائية الفكرة المطروحة في المسرحية وإلى ثنائية بنائها الدرامي القائم على ثنائية البطولة لا على فرديتها أو محوريتها . وإذا كان ما تعالجه المسرحية يبدو للبعض قضية واحدة ذات وجهين فإنه من الطبيعي أن تفسر على يد المؤلف من خلال وجهتي نظر متعارضتين تمثلهما بالضرورة شخصيتان متضادتان لا تقل احداهما أهمية عن الأخرى في نظره . إن الوحدة لها قضاياها التي تتركز فيها المعالجة على مشكلة أحادية يمكن تفسيرها من خلال شخصية محورية تستقطب الأحداث وتصبح الشخصيات الأخرى بالنسبة لها كما لو كانت مرآة عاكسة نرى على صفحتها الموقف البطولي المتفرد ، أو تغدو بمثابة النقيض الذي ما وجد إلا من أجل ابراز وتجسيم نقيضه . غير أن هذه ليست طبيعة القضية التي تعالجها مسرحية أنتيجوني التي لا تتركز فيها الأحداث حول شخصية واحدة بل توزع على شخصيتين متكافئتين في الأهمية لدى المؤلف كي نرى نحن من خلالهما تفسيراً للمشكلة المعقدة التي يعجز بطل واحد عن نقلها إلينا . أما الشخصيات الأخرى في المسرحية فتمثل أيضاً وجهات نظر متضاربة للمشكلة ، وتشكل فيما بينها محاور للصراع ، وتشترك مع الجوقة في تشخيص الموقف من خلال وجهات نظرها ؛ ولم يكن ما حدث من طرفي الصراع أمراً بعيداً عنها أو متعكساً عليها بل كانت مشاركة فيه متفاعلة معه لدرجة أن بعضها ذهب ضحيةً لهذه المشاركة .

ان البناء يقوم على الفكرة الأساسية وتتحدد طبيعته بناء على بساطة الفكرة أو تركيبها ، ومن الواضح مما سبق أن فكرة مسرحية أنتيجوني ذات طابع تركيبي على درجة من التعقيد الجدلي وإلا ما وجدت صدىً واعجاباً عند فيلسوف ديالكتيكي مثل هيجل . من أجل ذلك فيما أعتقد تعمد سوفوكليس أن يختار لها هذا البناء الثنائي الفريد ؛ وهو لم يلجأ لمثل هذا البناء لأن مادته الخام الأسطورية كانت تكبل قدرته ككاتب درامي ، أو لأنه اضطر في لحظة ضعف درامية إلى « الازدواج » يصلح به مسرحيته بسبب ما اعتراها من هنات ، بل لجأ إليه عن وعي وإرادة كي يقدم من خلاله هذه القضية

الفريدة في المسرح الاغريقي. ولا أظن أن هناك بناءً آخر كان يصلح كإطارٍ تقدم من خلاله مثل هذه المشكلة التي بلغ من كمال معالجتها على يد سوفوكليس ما جعلها تُعلي من شأنه قديماً وتمنحه الخلود حديثاً ولا يوجد توازن مدهش بين الفكر والفن الدرامي مثل التوازن الذي حققه سوفوكليس في مسرحية أنتيجوني، فهي زاخرة بالأفكار السامية ونابضة بالشخصيات الحية والحركة المسرحية، وهي تمتاز بالاقتصاد المدهش في الألفاظ والحوار غير الممل ولا المخل بالاضافة إلى نبل شخصياتها وجلال موضوعها. وفي مقابل هذه الميزات الدرامية نجد البناء الثنائي الفريد الذي لا يقحم فيه المؤلف ذاته ولا يسفر عن وجهات نظره، بل يترك لنا الحكم على ما يدور من خلال مواقف كل شخصية وأقوالها.

البناء الثنائي إذن وفي حقيقة الأمر مقصود لذاته في المسرحية من أجل أن تتحقق عن طريقه فكرة التضاد التي لاقت هوىً في نفس الاغريق، وفكرة التضاد هذه سمة أساسية لموضوع المسرحية. كذلك فإن ثنائية الفكر الاغريقي هي التي مكنته من اقامة حضارة قائمة على التوازن بين النظر والتطبيق، ومن انشاء فلسفة ذات طابع عقلي جدلي تتوالد فيها الأفكار بمنطق الطبيعة نفسه. وما دامت ثنائية الفكر هي طابع القضية التي تثيرها المسرحية فإن البناء الذي يناسبها أكثر من سواه هو البناء الثنائي المؤسس على التقابل بين الشخصيات.

● تقابلية الشخصيات :

يتضمن بناء المسرحية الثنائي مجموعة من الشخصيات المتقابلة نجد في بدايتها أختين هما إسميني وأنتيجوني، تختلف كل منها عن الأخرى في مفاهيمها وبالتالي في سلوكها. ومن بعدهما يدور الحديث حول أخوين هما إتيوكليس وبولينيكيس: أولهما، محب للدولة والثاني عدو لها؛ وهما في الوقت ذاته عدوان لدودان رغم رابطة الدم التي تجمع بينهما. ولدينا فضلا عن ذلك شخصيتان رئيستان تعارض كل منهما الأخرى هما أنتيجوني وكريون، وينشب بينهما صراع لا سبيل إلى المصالحة فيه نظرا للاختلاف الجذري بين فكر كل منهما ومعتقداته وتكوينه العاطفي والنفسي. وفي الوقت ذاته لدينا مواجهات عاصفة بين الشخصيات مثل المواجهة التي تتم بين كريون وابنه هايمون، والمواجهة التي تدور بين كريون والعراف تيريسياس. وأخيرا لدينا شخصية ذات صلة مزدوجة بقطبي الصراع هي شخصية هايمون الذي تتمثل فيه مأساة الموقف برمته: فهو خطيب لأنتيجوني معجب بشجاعتها وبرها بأخيها المقتول، وهو في الوقت نفسه ابن للملك كريون يحترمه ويرغب في الاستمرار في هذا الاحترام. وهايمون معذب بسبب هذه الصلة المزدوجة التي تدفعه في النهاية إلى تدمير نفسه يأساً وقهراً.

● أنتيجوني :

وتكاد أنتيجوني في اندفاعها المخيف تشبه «أياس» أكثر من أية شخصية سوفوكلية أخرى، لذلك فإن الجوقة تعلق على حدة طبعها في أكثر من وضع: فبعد ردها العنيف على كريون في المواجهة الأولى علقت الجوقة قائلة:

« إن الابنة الوليدة تبدي حدة الطبع التي كانت لوالدها، فهي لا تعرف اللين في مواجهة ما يحيق بها من شرور.» (المسرحية: أبيات ٤٧١ - ٤٧٢) وبعد انتهاء المواجهة بينها وبين كريون تحس الجوقة بتهورها وتخشى أن يكون مبعث ذلك هو اللعنة المتوارثة التي استهدفت أسرتها، فتقوم بإلقاء هذه الأنشودة ذات الكلمات الموحية:

« سعداء هم أولئك الذين لم يذوقوا طعم الشر في حياتهم ، فاللعنة لا تترك أحداً من أسرة زلزلتها السماء بل تحل على كثير من نسلها . . . ومنذ عهد قديم وأنا أرى الأحزان تحدق بأبناء لابداكوس والمعاناة تعصف بهم جيلاً بعد جيل ، إذ قذف بهم أحد الأرباب إلى الهاوية دون كفارة . والآن يبزغ الضوء فوق آخر جذور أسرة أوديبوس ، وإن منجل آلهة العالم السفلي ليحصد هذا الجذر باندفاع العقل وخطيئة اللسان . . . .

فني الحاضر والماضي وفي ما هو آت من الزمان حسبنا هذا القانون : على قدر عظمة الفانين في الحياة يكون مقدار المكابدة والمعاناة . حقاً إن الطموح العريض يحقق الغنم لكثير من الرجال ، ولكنه ينحدر بكثيرين أيضاً إلى الرغبات التافهة الرخيصة إلى أن يدهمهم (الاخفاق) دون أن يشعروا وتزل أقدامهم إلى حيث النار المستعرة . ويبدو لي أن هذا القول المأثور قد قيل عن حكمة : « إن الشر ليبدو أحياناً خيراً لمن يصيبه الاله باللعنة ، وإن تلك اللعنة لتحل به دون ابطاء . »

(المسرحية : أبيات ٥٨٢ ـ ٦٢٥)

في هذا النشيد تردد الجوقة معتقداتها عن اللعنة المتوارثة وتخشى أن تستهدف هذه اللعنة أنتيجوني بسبب تهورها في القول والمسلك ، ثم تلفت نظر المشاهدين بعد ذلك إلى قانون آمن به الاغريق وهو التعلم عن طريق المعاناة Pathei mathos . ولكن سوفوكليس هنا يسوق على لسانها تفسيراً جديداً وهو أن المعاناة في الحياة تكون على قدر عظمة الانسان ، وهذه الفكرة الرائعة تتفق مع مقولة أثرت عن الشاعر الرومانسي الفرنسي ألفريد دي موسيه « لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم » . فمكابدة المعاناة مثل ضريبة يدفعها الأبطال العظام في طريقهم نحو خلود الذكر وذيوع الصيت .

وحينما تساق أنتيجوني إلى مصيرها المفزع وتنشد أنشودتها الحزينة الباكية يحس أفراد الجوقة بالألم لمأساتها ويشعرون بالتعاطف تجاهها . ولكن حين تشبه أنتيجوني مصيرها بالمصير الذي لاقته ابنة تانتالوس العذراء الفريجية ، تعمد الجوقة إلى تنبيهها في لطف إلى أن الأخيرة كانت من الأرباب وليست من البشر :

« أجل ولكنها كانت ربة من الآلهة الخالدين ، اما نحن فبشر من نسل الفانين . »

(أبيات : ٨٣٤ ـ ٨٣٥)

ولكن هذا القول من جانب الجوقة كان انعكاساً لاعتقادها الديني ، لم يمنع اعجابها بالفتاة الشجاعة التي تمضي في طريقها لتلاقي مصيراً لمصير الأرباب . وحينما تندب أنتيجوني حظها العاثر لأنها تفارق الحياة دون زواج ودون زفاف ودون أن يذرف أحد الدمع لرحيلها ، تواسيها الجوقة ولكنها تذكرها في الوقت نفسه بأنها ساهمت بسلوكها في الوصول إلى هذا المصير :

« يا بنيتي ، لقد مضيت في طريقك إلى أقصى حد من التجاسر فأخطأت بذلك ضد عرش العدالة السامق . ولكنك دون جدال تكفرين عن إثم والدك (الراحل) » .

(أبيات : ٨٥٣ ـ ٨٥٦)

وحينما تصف أنتيجوني ذنبها بأنه جرم مقدس Hosia Panourgésasa فإنها كانت تبغي أن تلفت نظر أختها إسميني إلى أن عصيانها لقرار كريون كان من أجل إرضاء الآلهة ، وأنه كان عملاً من أعمال التقوى في حد ذاته . وهذه هي النقطة التي أفلحت الجوقة في تبينها في وقت لاحق أثناء « نشيد النواح » بينها وبين البطلة ؛ ومع اقتناع الجوقة بنبل هدف البطلة إلا أنها ما زالت غير مستريحة إلى حدة طبعها وصدامها بالسلطة :

« إن احترامك (لحق الدفن) أمر ينطوي على التقوى . ولكن لا ينبغي تجاوز الحدود ولا المساس بالسلطة في شخص من يملك السلطة . إن حدة طبعك قد جرت عليك الوبال » .

(أبيات : ٨٧٢ - ٨٧٥)

لكن النقاد - وهم على حق في ذلك - يفسرون عنف أنتيجوني على أنه اندفاع في الحق ، ونلاحظ أن الجوقة كما هو واضح في الاستشهادات التي سقناها أعلاه تكره الاندفاع والتطرف حتى في الحق ، لأنها مثلنا تصل إلى الفهم المطلوب للموقف تدريجياً وليس منذ بداية الصدام .

يحمل الأمر أن أنتيجوني تمضي في طريقها منذ بداية المسرحية وهي تحمل بين جوانحها كثيراً من الرفض لكل ما يجري حولها ، والثورة على كل ما يمثل في نظرها انتهاكاً للتوازن الطبيعي ؛ بل إن رفضها يمتد ليشمل إنكار التوازن المنطقي الذي تعكسه كلمات أختها إسميني أو المنطق المحكم الذي تعكسه كلمات كريون .[٢٨] ويرى الأستاذ إنجرام أن مسرحية أنتيجوني تعكس التضاد الذي قامت فوقه أفكار الاغريق الأخلاقية والسياسية ، حيث أنها تظهر لنا الأحباء Philoi في مواجهة الأعداء echthroi: فأما أنتيجوني فتنحاز في موقفها إلى المحبة Philia التي تمثلها قرابة الدم مع أخيها ، وهذه القرابة تفرض عليها أن تؤدي واجب الدفن لأخيها المقتول ؛ أما الدولة Polis التي يعلن كريون أنه يمثلها فهي لا تعني شيئاً بالنسبة لها لأن المحبة والعداوة اللتين تهتم هي بهما تدوران داخل نطاق الأسرة genos فقط . هذه المعارضة الجذرية لم تسمح لأنتيجوني بالوصول إلى صيغة وسط ، بل إنها اعتبرت ومنذ البداية أن أختها إسميني تقف في المعسكر المعادي لها بمجرد رفضها مد يد المساعدة لها .[٢٩] إن التضاد ما بين المحبة والعداوة يعلن عن نفسه في كثير من مسرحيات سوفوكليس وفي مسرحية أنتيجوني على وجه الخصوص .

وأما كريون فهو يتحرك على المستوى نفسه في موقفه سواء في المحبة أو العداوة : فهو في البداية موقن بأن أحد الأخوين (إتيوكليس) محب للدولة أما الآخر (بولينيكيس) فهو عدو لها ، وهي حقيقة أصر على ارغام أنتيجوني على الالتفاف إليها . ولا يهتم كريون في هذا المقام إلا بالدولة التي يعتقد أنه يمثلها ، والأحباب philoi بالنسبة له يكتسبون وليسوا أحياناً بالمولد ، فالذين يحبون الدولة ويخدمونها بإخلاص هم فقط أحبابه . وعلى العكس منه فإن أنتيجوني لا تعترف بالحب إلا على نطاق الأسرة فحسب والمحبة عندها تقوم على رابطة الدم التي تقوم عليها صلة القرابة ، أما المحبة على مستوى الدولة فهي أمر خارج نطاق تصورها ولا تلزم نفسها بالالتفات إليه . إن الأحباب فقط هم الذين لهم مكان الصدارة في نفسها ، وإن الدفن حق لمن يموت منهم ومن يعتدي عليهم فهو عدو بكل المقاييس في نظرها .[٣٠]

إن عاطفة أنتيجوني المركبة تجعلها تنظر إلى الدفن على أنه عمل خير Kalon اجتماعياً ومقدس hosion دينياً في الوقت نفسه ، بينما لا يرى فيه كريون إلا الجانب الذي يمس الدولة ويغفل عن الجانب الديني أو يتجاهله .

(٢٨) Cf. R.P. Winnington - Ingram, op. cit., p. 128

(٢٩) ibid., pp. 128- 129.

(٣٠) ibid., pp. 129-130.

وأنتيجوني لا تفرق بين الأموات من أسرتها وبين أرباب العالم السفلي ، ولهذا تنشد الموت وتتعلق به بعد أن فقدت آخر أمل لها في الحياة . وهي فضلاً عن ذلك تتمتع بعاطفة قوية وانفعال صادق ، ذلك أن ما يدفعها للموت في سبيل قضيتها ليس مجرد حسابات باردة أو شعور زائف بالبطولة . وهي تهتدي إلى الصواب وتتوصل إلى الحقيقة تدريجياً من خلال مأساتها : فمن خلال حبها لأخيها ـ وهو أمر شخصي بحت ـ تصل إلى الاحساس بعدالة قوانين الأرباب التي تجب وتنسخ قرارات الساسة والحكام ، ثم ترتفع إلى طلب الاستشهاد رغم حبها للحياة ؛ فهي تنشد الموت وتفضله على الحياة لأن كل من تحبهم صاروا في عالم الموتى .(٣١)

وحينما يركز كريون على مظاهر العداوة التي كانت قائمة بين أخويها قبل موتهما ترفض لأنها تؤمن بأن العداوة لا تظل مستمرة إلى مابعد الموت ، ولأن الموت يسوي بين جميع الأمور (كما يقول الرومان : Omnia Mors Aequat) . وعندما يصر كريون على وجوب استمرار الكراهية حتى بعد الموت ترد عليه أنتيجوني بأجمل الأبيات قاطبة في المسرحية :(٣٢)

« لقد جبلت على المشاركة في المحبة لا على المشاركة في الكراهية » .

(بيت رقم ٥٢٣)

إن أنتيجوني لا تسعى إلى الموت ـ كما قلنا ـ مدفوعة بشعور زائف بالبطولة أو بسبب شجاعة غير عادية ، بل بسبب أن هناك مسعى ساميا من جانبها لفرض الارادة البطولية على عالم متمرد خارج عن الاتزان . ومن أجل ذلك فإن موقف أنتيجوني يعتبر أكثر المواقف بطولة بلا جدال في مسرحيات سوفوكليس .(٣٣) أما لماذا حل الدمار بأنتيجوني رغم سموها فهو أمر فسره النقاد بإسهاب : فالأستاذ كيتو يرى أنه ليس هناك في الدراما قانون يحتم أن تكون المعاناة من نصيب المذنبين وحدهم ، وأن الكارثة في الدراما كالكارثة في الحياة حينما تحل تطيح بالأخيار والأشرار دون ماتفريق .(٣٤) أما الأستاذ باورا فيعتقد أن هلاك أنتيجوني وكذلك هلاك هايمون ويوريديكي جزء من الخطة الالهية الرامية إلى عقاب كريون ، فهم أدوات بريئة من أجل لحظة تنوير يظفر هو بها ، وأن الدمار الذي حل بهم يتفق مع ماقاله سولون من أن العدالة الالهية حينما تشرع في عملها يقع العقاب على الأبرياء والمذنبين ، وفي حالة كريون وحده تجد العدالة الالهية تسير جنباً إلى جنب مع المسئولية البشرية . إن سوفوكليس لا يحاول أن يبرر موت أنتيجوني إنه فقط يفسره ، إن موتها كان نتيجة لحمق تصرفات كريون وعناده : فهناك من يرتكبون الأوزار وهناك الأبرياء الذين يذهبون ضحية لها .(٣٥)

● كريون :

اتفق معظم النقاد على أن كريون هو الشخصية التي ينطبق عليها قانون الاثم hamartia الأرسطي : فهو الذي تجاوز الحدود بانتهاكه حرمة الدفن وبإرسال نفس

(٣١) Ibid., pp. 130 - 131.

(٣٢) يلاحظ الأستاذ الجرام (المرجع المشار إليه ، ص (١٣٢ - ١٣٣) أن سوفوكليس قد استخدم كلمة ephyn (وهو فعل اشتق من لفظ الطبيعة physis) ليشير إلى أن رأي أنتيجوني ليس رأياً عاماً بل رأياً خاصاً يدل على طبيعتها الخاصة ، وهي طبيعة تؤثر المحبة على الكراهية .

(٣٣) Cf. Albin Lesky, op. cit., p. 107

(٣٤) H.D.F. Kitto, op. cit., pp. 101-102, 185-186.

(٣٥) C.M. Bowra, op. cit., p. 113.

حية إلى حتفها دون جريرة ، وبالتالي كان حضوره على المسرح مستمراً حتى ختام المسرحية من أجل أن تستمد المغزى مما حاق به من مصير . غير أن هذا لايفسر بحال من الأحوال ماذهب إليه بعض النقاد من احساس بالاختلال في بناء المسرحية ، أو من عدم احساس بالارتياح أو التوازن لطول دوره عن دور أنتيجوني التي اختفت مبكرا من مسرح الأحداث ، فكل هذه أمور لا تفهم إلا في نطاق « الثنائية » التي شرحنا مفهومها آنفا . ولقد سبق القول بأنه لاتوجد بطولة فردية ولاشخصية محورية واحدة في المسرحية ، بل تتقاسم بطولتها شخصيتان هما أنتيجوني وكريون وكلتاهما تلقى من المؤلف الدرجة نفسها من الاهتمام .

وأيا كانت آراء النقاد فمن الواضح أن كريون لدى ظهوره لأول مرة على خشبة المسرح يتحدث عن سياسته بلهجة تتسم بالتواضع وفي كلمات تتصف بالعقلانية رغم عموميتها[٣٦] ، ذلك أن سوفوكليس لايريد للمشاهد أن يكتشف منذ البدء طبيعته المتغطرسة . ويرى الأستاذ باورا أن اختبار السلطة أو ابتلاء الحكم ـ كما تقول ـ جدير بتكذيب كل ادعاء ، وأن أرسطو كان على حق في ترديده للقول المأثور : « السلطة تكشف عن (معدن) الرجل » :

arche andra deixi كي يدلل به على وجود اختلاف بين الفضيلة فيما يتعلق بالمسائل الشخصية والفضيلة فيما يمس الأمور العامة .[٣٧] ومن أجل هذا فإن التوفيق لايحالف كريون منذ البدء لأن قراره السياسي لم يكن متسما بصفة الاحاطة أو الشمول ، ولأنه لم يضع في اعتباره حينما أصدره امكانية تعارضه مع نواميس الطبيعة أو مع القوانين الالهية الثابتة . ومن العسير في نظري أن يقيس الانسان الثابت بالمتغير نظرا للتعارض القائم في طبيعة كل منها ولاختلاف مقاييس الحكم وأدواته . وكريون يصر على فعل مايراه صحيحا من وجهة نظره ومايعتقد أنه في صالح الدولة مثلما فعل بنثيوس في مواجهة الديانة الباخية الجديدة ، كما أن الشك لا يتطرق إليه لحظة واحدة في سلامة قراراته لأنه على يقين تام بصحتها ، وليس لديه أدنى استعداد لمناقشة آرائه سواء من جانب الجوقة التي تقف في صفه أو من جانب أنتيجوني المتمردة العاصية . ثم يخبرنا باورا بأنه وفقا للاعتقاد الديني الاغريقي ليس في مقدور الانسان الفاني أن يطلع على مايدور في أذهان الآلهة ، وأن أولئك الذين يزعمون أنهم أذكى من الأرباب متغطرسون ومتكبرون يعانون من الافتتان بالذات كما جاء على لسان ثيسيوس في مسرحية « الضارعات » ـ ليوريبيديس :[٣٨]

« إن المهارة في الفكر تدفع صاحبها إلى السعي من أجل تأكيد تفوقه على الإله . وإن الخيلاء الزائف في قلوبنا الخاوية يجعلنا نعتقد أننا أحكم من الأرباب » .

(الضارعات : أبيات ٢١٦ ـ ٢١٨)

(٣٦) لو استعرضنا آراء النقاد فيما يخص المونولوج الذي ألقاه كريون بوصفه حاكماً جديداً آلت اليه مقاليد السلطة في طيبة لوجدنا اتجاهات متباينة : فالأستاذ والدوك (المرجع المشار إليه ، ص (١٢٣ ـ ١٢٤) يرى اجمالاً ان كريون شخصية تعبر بالكاد تراجيدية وأن كلماته وآراءه متحجرة تبعث على السأم تماماً من مسلكه الطفولي مع ابنه هايمون . ومن رأي الأستاذ كيتو (المرجع المذكور ، ص ١٣٠) أن كلمات كريون تعكس ثقة الزائدة بالنفس وتبين أن اهتماماته محصورة في الجوانب التي تخص أو تمس الدولة فحسب . بينما يعتقد الأستاذ باورا (المرجع المذكور ، ص ٦٩) أنه ينتقل في حديثه هذا من المبدأ العقلي الى التطبيق العملي وأن أفكاره تحمل عمقاً محدوداً وتصوراته قاصرة على المجال السياسي لا المجال الانساني . أما الأستاذ الجرام (المرجع المشار اليه ، ص ١٢٣) فيلفت النظر الى استخدامه لضمير المتكلم المفرد بصورة متكررة مما يدل على وعيه الزائد لنفسه . ولكن الجرام لا يعتبر كريون وضيعاً أو خاملاً بحال من الأحوال لأنه رجل مبادئ .

(٣٧) C.M. Bowra, op. cit., pp. 71-72.

(٣٨) C.M. Bowra, op. cit., p. 69.

وكريون يسير في مسلكه نحو الغطرسة والاستبداد سواء على المستوى الشخصي أو على المستوى العام ، فهو يبدي السخط والتبرم لأن من عصت قراره وجرؤت على تحدي سلطته kratê امرأة ، وهو لا يخفي شعوره بالضيق من ذلك حينما يعلق في احتداد : « طالما أحيا فلن تحكم هاهنا امرأة . »

(المسرحية : بيت رقم ٥٢٥)

إن كريون يتحدث كثيرا عن سلطته بينما يستغرقه التفكير في ذاته ، ولهذا السبب نجد قراراته مطلقة ونتبين في مسلكه الاستبداد[٣٩] خصوصا حينما تدفعه روح التسلط إلى أن يقول لأنتيجوني :

« ليس خليقاً بمن هو عبد عند جيرانه أن يغالي في الأنفة والكبرياء » .

(المسرحية : ابيات ٤٧٨ ـ ٤٧٩)

ولو غضضنا النظر عن اندفاع أنتيجوني وحدة طبعها في مواجهة القرار الجائر المتعسف باعتبار أن الأمر متعلق بأخيها الذي تحبه وتدافع عن حقه في الدفن ، وعلى اعتبار أن سلوكها نابع من عاطفية شخصية ، فبماذا يمكننا أن نفسر لجوء كريون إلى التهور والاحتداد وإلى النظر لأنتيجوني ـ وهي من البيت المالك ـ على أنها أمة من العبيد ؟ إن تجاوز المحكوم أمر له ما يبرره حتى ولو كان عملا من أعمال العصيان ، ولكن بماذا نفسر تجاوز الحاكم الذي ينتظر منه أن يفسح صدره لتجاوزات الرعية بصفته الأكثر تعقلا ولأنه المسئول الذي يلجأ اليه الكافة للاحتكام فيما هم فيه يختصمون ؟

ولا يجنح كريون إلى التهور مع أنتيجوني وحدها ، بل نجده عاجزا عن التصرف الحكيم وعن ضبط النفس مع ابنه هايمون أيضا ، رغم تعقل الأخير وميله للمسالمة في بداية حديثه ، فكلمات كريون له تدل ومنذ البدء على روح الاستبداد التي تحرك تفكيره سواء حينما يعلن لابنه هايمون أنه :

« ينبغي طاعة من يقوم على أمر الدولة حتى في أصغر الأمور سواء أكانت عادلة أم على العكس من ذلك » .

(أبيات ٦٦٦ ـ ٦٦٧)

أو حينما يحاول أن يلفت نظر هايمون إلى العصيان وحده مجردا من دوافعه :

كريون : أمن الصواب أن تكرم عملا من أعمال العصيان ؟

هايمون : لست بالذي يسمح لمخلوق أن يحترم الأشرار .

(أبيات ٧٣٠ ـ ٧٣١)

أو عندما يصيح في انفعال وغضب ينمان عن روح الطاغية الكامنة فيه ، والتي تهتز أمام صدق ابنه وبساطته :

كريون : اوليست الدولة ملكا لمن يحكمها ؟

هايمون : خير لك إذن أن تحكم بمفردك أرضا مقفرة (من سكانها) .

كريون : (للجوقة) إنه فيما يبدو لي يقف في صف المرأة (التي يحبها) .

هايمون : (لا) إلا إذا كنت أنت المرأة ! إنني أهتم بك أنت .

كريون : وتأتي ، يا أشد (الناس) خسة ، كي تحاكم والدك !

هايمون : أجل لأنني أرى أنك تخطىء ضد ماهو عادل .

كريون : أخطىء أنا لأنني أحترم سلطتي ؟

هايمون : إنك لا تحترمها بأية صورة حينما تطأ بقدمك مايقدسه الأرباب .

(أبيات ٧٣٨ ـ ٧٤٤)

---

(٣٩) R.P. Winnington-Ingram, op. cit., p. 125.

أين هذه الأقوال المتغطرسة من سماحة الديمقراطية الأثينية ، التي تتجلى في كلمات بريكليس عن انتساب الدولة إلى الكثرة لا إلى القلة ؟ أو في كلمات الرسول الفارسي في مسرحية « الفرس » لأيسخيلوس ، والتي تصف الأثينيين بأنهم ليسوا عبيدا لحاكم ؟ أو في مقولة ثيسيوس في مسرحية « الضارعات » ليوريبيديس : « لا حاكم فرد يحكم مدينتنا لأنها مدينة حرة » ؟(٤٠) . . . ولذلك نجد هايمون يعي هذه الحقيقة ويدرك أن والده يسلك الطريق الوعر الذي سيودي به ، فيحذره من مغبة الشعور بالتفرد أو التفوق في الفكر لأن هذه ستكون بداية السقوط بالنسبة له :(٤١)

« إن ذلك الذي يحسب نفسه الوحيد في رجاحة الفكر أو في ذرابة اللسان أو في (سمو) النفس ، وأنه ما من شخص آخر يضارعه في هذا أو يدانيه ، إنما **يكتشف في النهاية أن مابداخله خواء** . وليس من الشائن بالنسبة للرجل حتى ولو كان حكيما أن يتعلم الكثير وألا يسرف على نفسه فيجاوز الحد »

(أبيات ٧٠٧ ـ ٧١١)

وأيا كان حكمنا على كريون فمن الملاحظ أن سوفوكليس في المسرحية يحشد الأحداث ضده ، وهذا يؤكد لنا أنه مهما بدت قضيته قوية ومنطقه محكما وكلماته رصينة إلا أنه سرعان مايتنكر لعقله ويخون حقيقة فكره : فهو يبشر بالنظام والقانون ويطرح كل ماعدا ذلك جانبا . وهو يطلب الطاعة العمياء كما لو كان جنديا صارما يطبق القوانين العسكرية على أمور السياسة ، ومهما كانت درجة الدوافع التي تحركه فهو يبدو لنا أحيانا شخصا ضيق الأفق يتبرم لأن امرأة تتحدى سلطته ، أو لأن ابنه هايمون يفند قراره .(٤٢) ومن خلال حديث كريون مع العراف تيريسياس ـ وهو حديث سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد ـ نجده يسوق دوافع خاطئة لأفعال الناس وتصرفاتهم لأن هذا هو مستوى الدوافع الذي يتوقعه من الآخرين . فلا يحرك الناس في نظره سوى الغنم misthos أو المصلحة kerdos ، مع أن هذه نظرة تعميمية خاطئة . وكريون يتقبل الموت كحقيقة ولكن مملكة الموتى غير المرئية لا تعني شيئا بالنسبة له ، والموت أمر بعيد عن خبرته : فهو لايفهم لماذا يقدم شخص كأنتيجوني على اختيار الموت معارضة للدولة لا دفاعا عنها ، ومن أجل العاطفة والمبدأ لا من أجل الغنم والمصلحة .(٤٣)

ومع ذلك فإن كريون ذلك الرجل القوي المتماسك الذي بدا لنا مسلكه مستبدا طاغيا ينهار في النهاية ، ومع كل خبرته السياسية وأقواله الزاخرة بالتعقل ويقينه الذي لم يجعله لحظة واحدة يشك في صحة قراراته يدرك أن عناده وإصراره على الخطأ قد جرا عليه الوبال والتعاسة . وعلى حين تمضي أنتيجوني ـ كما يقول الأستاذ كيتو(٤٤) ـ إلى أمل ثابت ووطيد لأنها ستقابل من تحبهم في العالم السفلي ، فإن كريون لايجد مايتشبث به في النهاية سوى السراب :

---

(٤٠) « الضارعات » : أبيات ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ، : apud C.M. Bowra, op. cit., p. 75.

(٤١) يذكرنا الأستاذ باورا (المرجع المشار إليه ، ص ٧٧) بأن هناك مقولة تعكس هذا الرأي نفسه للشاعر الغنائي ثيوجنيس :

« إن من يعتقد أن جاره عاطل من المعرفة ، وأنه هو وحده الذي يهيمن على معرفة شتى الأمور لأحمق ما في ذلك شك . لأنه يسيء بذلك إلى عقله النبيل حيث إننا جميعاً سواء في معرفتنا لأمور شتى » .

(٤٢) R.P. Winnington-Ingram, op. cit., p. 124, Cf. also H.D.F. Kittop op. cit., p. 127.

(٤٣) R.P. Winnington-Ingram op. cit., p. 127.

(٤٤) H.D.F. Kitto, op. cit., p. 131.

« كل شيء في يدي صار معكوسا ! أما رأسي فمثقل بمصير لا قبل لي باحتماله » .

(أبيات ١٣٤٤ ـ ١٣٤٧)

وكريون هو الذي يصل وحده ـ وليست أنتيجون ـ إلى نهاية المسرحية وهو مازال حيا ، لكنه لكان مجرد جثمان يتحرك : فقد كان ينشد الموت ولكنه مجبر على البقاء في الحياة .(٤٥)

إن السلطة التي كانت مطمحا لكريون وهدفا يسعى للحافظ عليه سوف تبقى له ، ولكنه في مقابلها سوف يفقد سعادته بفقده من يحبهم .(٤٦) وهذا يذكرنا بنهاية أوديبوس الذي حاز كل مايصبو إليه الانسان من شهرة ومعرفة وسلطان ، ولكنه بسبب هذه الميزات نفسها انحدار إلى الشقاء .

إن الكلمة الختامية للجوقة في نهاية المسرحية تشير ما في ذلك شك الى كريون دون غيره :

« إن الشطر الأكبر من السعادة يكمن بادىء ذي بدء في الحكمة ، وفي أن لا يقصر المرء في توقير الأرباب . إن الأقوال التي تنطوي على المباهاة والتي ينطق بها المزهوون المتفاخرون ترتد إلى نحورهم في (صورة) ضربات قاصمة يكفرون بها عن إثمهم ، ويتعلمون في شيخوختهم كيف يتمسكون بأهداب الحكمة » .

(أبيات ١٣٤٨ ـ ١٣٥٣)

ذلك أن افتقار كريون إلى الحكمة قد جلب عليه التعاسة ، وأن عدم توقيره للأرباب قد دفعه إلى انتهاك حرمة الدفن وإلى التفاخر بسلطانه في أقوال تتسم بالغطرسة ، ولذلك تلقى ضربات قاصمة جعلته يشعر بجسامة اثمه ويتعلم في شيخوخته كيف يركن للحكمة ويستمسك بالتعقل .(٤٧)

إسميني :

يبدي الأستاذ إنجرام ملاحظة تنطوي على قدر كبير من الحصافة ، وذلك حينما يحس بالضيق إزاء إصرار نقاد المسرح الاغريقي على الانتقاص من قدر إسميني كما لو كان المفروض أن نكون جميعا من الأبطال . فهو يرى أن إسميني التي أرادها سوفوكليس لا ترغب في أن تغدو بطلة بحال من الأحوال ، وأنها بسبب هذا لم تقر ومنذ البداية اختيار أنتيجون للموت في سبيل دفن أخيها ،(٤٨) وأنتيجون تعي هذه الحقيقة جيدا حين تصارحها بقولها :

« لقد اخترت وكان اختيارك للحياة ، أما أنا فكان اختياري للموت »

(بيت رقم ٥٥٥)

وعند ذلك ترد إسميني على أختها قائلة :

« لكن ليس على الأقل دون أن تصغي لكلماتي » .

(بيت رقم ٥٥٦)

إن إسميني لا تهتم بمن مات ولقي حتفه بقدر اهتمامها بمن بقي على قيد الحياة وهو أختها أنتيجون ، وهي بهذه المواصفات فتاة عادية ليس بوسعها أن تستوعب معنى البطولة وتحركها فقط العاطفة الأسرية نحو الأحياء . وبالتالي فإن بناء شخصيتها جاء على المستوى الواقعي المتعارف عليه في عصرنا هذا ، وكان هدف سوفوكليس من تصويرها على هذا النحو هو تحقيق فكرة الثنائية وإبراز التقابل بين الشخصيات . إن

(٤٥) Cf. Albin Lesky, op. cit., p. 108.

(٤٦) R.P. Winnington-Ingram, op. cit., pp. 127-128.

(٤٧) C.M. Bowra, op. cit., p. 66

(٤٨) R.P. Winnington-Ingram, op. cit., p. 133

إسميني عند سوفوكليس هي المقابل الذي يوضح أبعاد شخصية أنتيجوني ويبرز بطولتها بالقياس إلى المستوى الواقعي ، وبالتالي يتزاح عن كاهلها عبء المواصفات النقدية التي تخضع سلوكها لشروط البطولة .(٤٩)

ولكن رأي الأستاذ إنجرام أن التقابل بين الأختين -

رغم ارتباطه بمفهوم البطولة - لا يتقلص إلى مجرد تضاد غير ناضج ، ولا يقتصر على مجرد كون إسميني نقيضا يبرز نقيضه . فإسميني لاتتفق مع أنتيجوني في أفكارها عن الموت الذي استحوذ على الأخيرة وصار بمثابة الهاجس الذي يدفع بها نحو العالم الآخر ، بل كانت مشاعرها مرتبطة بعالم الأحياء الذي تنتمي إليه ومتجهة إلى حسم العداء والكراهية بين أفراد أسرتها . وإسميني لم تسع إلى الموت إلا حينما أحست أن الحياة لاتستحق الاستمرار فيها بدون أختها التي تحبها والتي هي آخر شخص بقي على قيد الحياة من أسرتها . ولكن المشكلة أن أنتيجوني ترفض ذلك النوع من الحب وتلك الطريقة من الاندفاع نحو الموت ، لأن تصرف أختها تجاه الحب وتجاه الموت يأتي في اللحظة الخاطئة وفي الوقت غير المناسب ، ولا ينبع من التركيبة النفسية والانفعالية التي توجه أنتيجوني وتتحكم فيها ، ألا وهي مشاعرها تجاه أفراد أسرتها في الحياة وبعد الموت وتجاه الدفن كقضية مقدسة لاتقبل الجدل ولا انقسام الرأي .(٥٠)

من أجل هذه الاعتبارات ترفض أنتيجوني حب أختها حينما يأتي في صورة أقوال لا أفعال :

« انني لاأحب الصديقة التي يكون حبها حب كلام »
(بيت رقم ٥٤٣)

فلقد رفضت إسميني في البداية أن تمد يد المساعدة لأختها ، وهذا الرفض يعني تخليها عن واجب المحبة لأسرتها ويعني في الوقت نفسه بطريقة آلية انتماءها إلى المعسكر المعادي الذي يمثله كريون . إن أنتيجوني التي تتصرف في هذا الموقف المركب بدافع من وحي مشاعرها العميقة تنال الأفضلية الأخلاقية على كريون الذي لاتتسع مداركه لتشمل عالم العاطفة الرحب والعالم غير المرئي من حوله ، والذي يصر على عداوته ويتمادى في كراهيته رغم موت خصمه . وأنتيجوني في حبها وكراهيتها على السواء تسير وفق قاعدة تراجيدية ترتبط بمفهوم المأساة عند سوفوكليس : فحيثما تكن يكن هناك محبة يكون هناك العداء أيضا ، وكلما قويت مشاعر الحب كلما قويت في مقابلها مشاعر البغض .(٥١) إن أهم مايميز الشخصية التراجيدية دون جدال هو العنف في الحب والعنف في الكره ،(٥٢) حيث إن الشخصيات العادية فقط هي التي تخلو من هذا التضاد التراجيدي في مشاعرها . ولذلك فإن إسميني هي وحدها التي تحس داخلها بعاطفة أحادية الطابع ذات اتجاه واحد فقط ، ومن أجل هذا - في رأس الأستاذ إنجرام - يتهمها كريون بالخبل والجنون lyssôsan حيث إنها من ناحية تخلو من التضاد التراجيدي الذي يألفه هو في ذاته ، وحيث إنها من ناحية أخرى غير قادرة على التحكم في أفكارها

(٤٩) Cf. H.D.F. Kitto, op. cit., p. 147.

(٥٠) R.P. Winnington-Ingram, op. cit., p. 134.

(٥١) ibid., p. 135.

(٥٢) ومما ينهض دليلاً على وجود هذا المفهوم للشخصية التراجيدية لدى سوفوكليس أنه يتكرر على لسان كريون في مسرحية « أوديب ملكاً » على النحو التالي :
« متعسف في رحمتك بقدر جبروتك في غضبك . إن مثل هذه الطباع تجلب على أصحابها العذاب الأليم عن استحقاق » . (أوديب ملكاً : أبيات ٦٧٢ - ٦٧٥) وكان هذا القول موجهاً إلى الشخصية المحورية في المسرحية وهي شخصية أوديبوس .

بسبب وقوعها تحت سيطرة عاطفتها القوية تجاه أختها في تلك اللحظة .(٥٣).

● هايمو :

يرى الأستاذ ألبن ليسكي أن الدافع الذي حدا بهايمون إلى مخاطبة والده كان حبه الشديد لأنتيجوني رغم أنه لم يذكر هذا على الاطلاق على لسانه ، لأن التقاليد المسرحية لدى سوفوكليس لم تكن لتسمح باظهار عاطفة الحب على هذا النحو من التعبير الذاتي . ومن رأيه أن أنشودة الجوقة عن قوة أروس Eros كانت تشير إلى إروس الكوني الذي يبسط سلطانه على الانسان وعلى اجناس الحيوان وحتى على الأرباب ، أي على الكون بأسره بما فيه من موجودات .(٥٤) ويعتقد الاستاذ باورا أن أهمية هايمون لاتكمن في أنه ابن كريون بقدر ماتكمن في أنه ينطق بما يردده الرأي العام في طيبة حول قضية انتيجوني ، وأن سوفوكليس يجسد من خلاله رأي المواطن البسيط في الأمور الأخلاقية العامة ، وهو رأي يبدي سوفوكليس ثقته في سلامته الفطرية . ولذلك كان الأجدر بكريون أن يصغي بعقل مفتوح وأن يفسح صدره لابنه هايمون ، حينما نقل إليه الأخير رأي الشعب في قراراته ، ولكنه لم يفعل ذلك بسبب كبريائه الزائفة .(٥٥).

وبسبب تعنت كريون ورفضه لتفهم الدوافع التي حدت بابنه هايمون لمناقشته يخسر ذلك الابن المتعقل ، الذي يعتقد أن أفدح مأساة هي في تنكب الحاكم للصواب ومجافاته الرحمة أما المأساة الأقل خطراً فهي أن تفقد فتاته حياتها . ولكن أمام تعنت والده الذي أصم أذنيه عن سماع النصيحة المخلصة يقرر هايمون الوقوف الى جوار أنتيجوني ومشاركتها مصيرها . ورغم ثورة كريون وغضبته العارمة يبدو أنه قد تأثر على نحو ما بالنقاش الذي دار بينه وبين هايمون ، لأنه بعد انصراف الابن غاضباً يخبر الجوقة بأنه سيعفو عن اسميني لأنها بريئة وسيغير عقوبة أنتيجوني من الرجم الى الحبس في كهف بعيد(٥٦) . ويرى والدوك أن هايمون ليس صريع العاطفة بل توضح كلماته أنه ناضج فكرياً بما فيه الكفاية ، لدرجة أنه يشكو من أن آراء والده تبدو مضحكة وغير مقنعة : فهايمون على سبيل المثال يتعجب لأن ما يزعج والده هو أن تقدم امرأة على تحدي سلطته . إن الطابع التراجيدي لمسرحية أنتيجوني ـ وفقا لما يقوله والدوك ـ يزداد ويتضح أكثر بدخول هايمون ذي الصلة المشتركة بكل من طرفي الصراع(٥٧) .

ولقد فسر معظم النقاد أنشودة إروس التي ألقتها الجوقة عقب المواجهة الحادة بين هايمون وأبيه كريون بأن سلطة الحب التي لا تقهر والتي وقف كريون في وجهها هي التي عجلت بدمار كريون وأوصلته الى نهايته

(٥٣) R.P. Winnington-Ingram, op. cit., p. 136.

(٥٤) Albin Lesky, op. cit., p. 107.

كذلك يلفت الأستاذ والدوك (المرجع المشار إليه ص ١٠٧ وما يليها) النظر الى حقيقة ماثلة وهي أن أنتيجوني في المسرحية تتجاهل تماما أمر عاطفتها نحو هايمون ولا تشير اليها بكلمة واحدة . وهو يرجع ذلك الى أن الكاتب الدرامي يبعد عن عمله قدراً كبيراً من الوقائع الحقيقية ، وأن آخر شيء يريده سوفوكليس داخل حبكة مسرحيته هو تفصيل قصة الحب بينهما .

(٥٥) C.M. Bowra, op. cit., pp. 102-103.

(٥٦) ibid., p. 103.

(٥٧) A .J.A. Waldock, op. cit., pp. 123-124.

المأساوية(٥٨) . ونجد أبرز هذه التفسيرات عند الأستاذ إنجرام الذي يفسر أكثر من سواه تأثير الحب على تفكير هايمون ، رغم أن الأخير لم يصرح بعاطفته تجاه أنتيجوني في المسرحية . ويعتقد إنجرام أن انفجار هايمون في وجه أبيه بسبب تهديد الأخير بقتل خطيبته لم يكن راجعاً إلى استيائه من رفض أبيه لنصيحته العاقلة ، بل بفعل قوة عاطفته تجاه الفتاة وتعلقه بها ، وكان هذا هو الدافع أيضاً وراء هجومه على أبيه في الكهف وشهر سيفه في وجهه بقصد قتله .

العشق إذن يسبب الجنون لمن يقاومه أو يتصدى له لأنه لا سبيل لمقاومة أربابه ، وكريون هو الذي استثار عليه سطوة إروس عندما منع زواج ابنه من خطيبته وعندما وقف في وجه رابطة القرابة والحب الأسري ، وبذلك عارض القوى الكونية التي تضافرت على إنزال الدمار به في النهاية(٥٩) . إن الأفعال البشرية جزء من النظام الكوني ، وهذا النظام يقضي بأن المادي والمعنوي لا ينفصلان وأن الإخلال بالتوازن الذي ترتكبه شخصيات الدراما سواء عن دوافع نبيلة أو دنيئة لا يستمر الى مدى لا ينتهي ، فهناك شخصيات أخرى تتّصف بالعظمة والبطولة تتصدى لهذا الإخلال بالتوازن وتقاومه مهما بلغت درجة المخاطر التي تتهددها(٦٠) .

إن هايمون ضحية من ضحايا مكابرة أبيه وعناده ، وهو معذب لأنه يناضل ضد قوتين تتصارعان داخله : احداهما قوة إروس الكوني الذي يربطه بأنتيجوني ، والأخرى عاطفته التي توجب عليه البر بأبيه . وإذا كانت الجوقة لم تمتدح صراحةً كلمات هايمون بمثل ما استحسنت من قبل كلام والده كريون ، إلاّ أن حديثه التلقائي الواضح ورغبته المخلصة قد مسا قلبها ودفعاها الى التفكير وامعان النظر في معتقداتها السابقة ، بحيث صارت أكثر استعداداً عن ذي قبل للحكم الصائب على الأمور .

● تيريسياس :

ويرى الأستاذ باورا أنه إذا كان هايمون يمثل المواطن العادي البسيط فإن تيريسياس يمثل في المسرحية الآلهة . ويبدأ تيريسياس حواره مع كريون بتحذيره من انتهاك حرمة الموتى لأن الآلهة من دأبها أن تسوق التحذير قبل أن تنزل العقاب . ورغم أن الفرصة بكاملها متاحة للبشر من قبل الأرباب إلا أن البشر يتجاهلون التحذيرات رافضين الاعتراف بخطأ مسلكهم ، لذلك لا يحق للبشر أن يجاروا بالشكوى حينما ينزل بهم العقاب(٦١) . وتيريسياس يعلم أن هناك انتهاكاً لقانون الأرباب ، وهو يخبر كريون بما يشبه الانذار بأن الآلهة غضبت من قراره الجائر ومن مسلكه الأثم ، ولكن كريون يفشل في فهم التحذير الذي ساقه تيريسياس ، وبدلاً من أن يشك في سلامة قراراته وصحة تفكيره يعتقد أن العراف يهاجمه :

« أيها الشيخ ، أنتم جميعاً مثل حملة الأقواس تتخذون مني هدفاً لكم . وها أنذا عرضة لهجومك حتى عن طريق النبوءة » . (أبيات ١٠٣٣ - ١٠٣٥) .

---

(٥٨) Cf. H.D.F. Kitto, op. cit., p. 128, Albin Lesky, op. cit., p. 107, C.M. Bowra, op. cit., pp. 74 ff., A.J.A. Waldock, op. cit., pp. 107 ff.

(٥٩) R.P. Winnington-Ingram, op. cit., pp. 92-97, Cf. also Albin Lesky, op. cit., p. 107.

(٦٠) H.D.F. Kitto, op. cit., pp. 147-148.

(٦١) C.M. Bowra, op. cit., pp. 106-107.

لقد ألقى تيريسياس بتحذيره إلى كريون الذي نبله ، وبذلك أتاح لربة القصاص العادل Nemesis أن تمضي في طريقها تجاهه . ولو أن كريون كان قد أصغى للنصيحة لأمكنه تفادي سوء المصير ، ولكن تيريسياس يعلم حق العلم أن عناد كريون واصراره سيلازمانه إلى أن ينتهي الأوان[٦٢] . ولكن الآلهة لا تريد فقط أن تقتص من كريون ، إنها تهدف من وراء العقاب إلى أن يعي كريون الدرس وأن يدرك بنفسه نقائصه وسبب سقطته[٦٣] .

لذلك فإن العراف تيريسياس يختتم حديثه مع كريون بالفقرة التالية :

« هذه الضربات العنيفة التي صوبتُها من قوسي إلى فؤادك في ثورة غضبي ـ حيث إنك قد استثرتني ـ ليس في مقدورك الإفلات منها . فدلني يا بني إلى منزلي ولنتركه يصب جام غضبه على من هم أصغر مني سناً ، وعساه يتعلم كيف يجعل لسانه أكثر لطفاً وكيف يصبح في حال من الهدوء والتروي غير الحال التي هو عليها الآن » . (أبيات ١٠٨٤ ـ ١٠٩٠)

هذه الكلمات الأخيرة التي نطق بها تيريسياس تحمل كل خلاصة تحذيره ، فهو لا يطلب من كريون سوى التعقل والحكم الصائب على الأمور . وماذا لو فشل الإنسان في فهم المغزى بنفسه عن طريق التحذير ؟ لا ريب أن الآلهة سوف تفسره على ذلك رغماً عنه . لذلك فما أن يغادر تيريسياس المسرح حتى تتوالى النكبات على كريون بكل ثقلها وعنفها ، لأن لحظة التنوير عند حلولها تقترن بمكابدة المعاناة وإلا فقدت المعاناة قيمتها . وإن التصرف الإلهي قد يبدو بطيئاً أو تبدو حركته متوانية عند من يتعجلون الأمور ، غير أن التمهل في توجيه العقاب يعكس رغبة الأرباب في منح الفرصة للآثمين الذين أخلوا بالتوازن الطبيعي لمراجعة أنفسهم من أجل أن يثوبوا الى رشدهم ، ولكن الآلهة في الحقيقة حينما تنفذ مشيئتها وتجري قوانينها فانها تفعل ذلك بسرعة وحسم كي تؤكد قدرتها وترسخ هيبتها في نفوس البشر .

إن تيريسياس يجسد بوجوده الواضح في الدراما السوفوكلية الآلية التي تصاحب تطبيق النواميس الكونية على من يخلون بالتوازن أو ينتهكون قوانين الطبيعة غير المدونة[٦٤] . ورغم الاتهامات التي توجه في مسرحيات سوفوكليس ـ وكذلك في مسرحيات يوريبيديس ـ على لسان بعض الشخصيات للعرافين ومهنتهم ، إلا أن العراف في الواقع بمثابة رمز دال على القدرة الإلهية التي لا تتدخل بنفسها بل تؤكد ذاتها من خلال البشر أنفسهم[٦٥] . ومصداقاً لهذا يعترف كريون بأن ما حدث له من كوارث كان سببه العناد والمكابرة وعدم الاقرار بالخطأ .

« واحسرتاه ! يا لها من خطايا مهلكة لتفكيري الآثم ومكابرتي في العناد » . (أبيات ١٢٦٠ ـ ١٢٦٢) .

● **كلمة أخيرة :**

لقد حشد سوفوكليس طاقاته الفنية والابداعية من أجل أن يفسر لنا مشكلة معقدة داخل اطار مسرحية أنتيجوني ، تلك المسرحية التي حفلت بالصراع على عدة

(٦٢) Cf. Albin Lesky, op. cit., p. 108

(٦٣) C.M. Bowra, op. cit., pp. 108-109

(٦٤) Cf. H.D.F. Kitto, op. cit., pp. 127-128.

(٦٥) Cf. R.P. Winnington- Ingram, op. cit., p. 126.

محاور لا على محور واحد . ومن أجل ذلك الطابع التركيبي الفريد اختار لها سوفوكليس هذا البناء الثنائي الذي يقوم على التضاد بين المواقف وعلى التقابل بين الشخصيات : فالمسرحية زاخرة بالمواجهات العنيفة ذات المغزى : إسميني في مواجهة أنتيجوني أو موقف الفتاة العادية في مواجهة البطولة الفطرية . . أنتيجوني في مواجهة كريون أو موقف الحب الأسري والعاطفة الدينية في مواجهة واجبات الدولة وقوانينها . . إتيوكليس في مواجهة بولينيكيس أو موقف المدافع عن الوطن في مواجهة المتمرد عليه . . هايمون في مواجهة كريون أو موقف المواطن العادي البسيط من الحاكم المستبد . . تيريسياس في مواجهة كريون أو موقف الدين وتعاليمه من الدولة وقراراتها .

كل هذه المواقف المتقابلة تدور كلها حول القضية الأساسية التي يجسدها الصراع بين أنتيجوني وكريون ، لتوضح لنا أنه ما من رأي واحد أو بطل واحد أو وجهة نظر واحدة يمكنها الاحاطة بكل دقائق المشكلة ، لأن تفسيرها من زاوية واحدة أو برأي فردي إنما هو تفسير محدود يفتقر إلى النظرة الشاملة .

***

صَدرحَديثًا

المواءمة - الاتصال والمعرفة ◆

عبده الراجحي

هذا واحد من الكتب الهامة التي صدرت في الشهور الأخيرة ، يعرض لواحدة من أعقد المشكلات التي لاتزال تثير العقل الانساني ، وهي مشكلة « الاتصال الكلامي » ، وكيف يكون ، وكيف يتم . ومن الملاحظ أن التطور أخذ يتلاحق على الدرس اللغوي تلاحقا لم يكن يخطر على بال أحد ، وكلما تقدم البحث اللغوي الى الأمام - في محاولة لمعرفة الطبيعة اللغوية - ازداد الأمر تعقيدا ، اذ يتبين أن الأمر يتصل بأغوار « النفس » الانسانية ، مما يقتضي استثمار المعارف الانسانية المتاحة بما قد يلقي الضوء على مايجري داخل هذه الأغوار . ومن نافلة القول اذن ، أن نؤكد الآن أن العمل اللغوي يستحيل أن يكون مقصورا على اللغويين ، وانما هو منوط بكل مايتصل بالحدث الكلامي من علوم .

وفي صدر هذا العرض الذي نقدمه عن هذا الكتاب الهام ، أود أن ألفت الى نقطتين : -

١ - ان الكلمة التي تتصدر عنوان هذا الكتاب من الكلمات التي قد يستحيل ترجمتها ، وهي كلمة RE-LEVANCE ، فهي تفيد معنى الملاءمة ، والمناسبة ، والاتفاق ، والتعلق الوثيق بالموضوع ، وقد اعترف المؤلفان بصعوبة استعمالها (انظر ص ١١٩ من الكتاب) ، وقد اخترنا لترجمتها هنا كلمة « المواءمة » لما وجدناه في الكلمات الأخرى من شبهة الخلط أو اللبس ، ولأن « المواءمة » فيها معنى مناسبة الفكرة وشدة الالتصاق بها . (لاحظ أن من هذا الجذر جاءت لفظة التوأم) .

٢ - ان هذا الكتاب يجسد ما أشرنا اليه آنفا من ادراك الباحثين لخطورة التعرض للمشكلة اللغوية ، ومن ثم

◆ Dan Sperber and Deidre Wilson, Basil Blackwell, 1986.

يجسد سعيهم الى استثمار العلوم المختلفة للاقتراب من فهم هذه المشكلة ، والكتاب كله معالجة للاتصال اللغوي على اساس من علمين كبيرين ، هما علم النفس والمنطق ، على ماسيظهر بعد ذلك في عرضنا لفصوله بالاضافة الى علوم أهمها التأثر بالحاسب الآلي .

ان المشكلة الكبرى التي لاتزال تواجه البحث اللغوي هي مشكلة « المعنى » فنحن نتكلم ، أي نتصل كلاميا ، كي ننقل معنى ما ، ولايزال السؤال بلا جواب حقيقي ، ماهو المعنى ؟ وكيف يتم نقله ؟ وكيف يتم استقباله ؟

ويهدف هذا الكتاب الى محاولة الدخول الى المشكلة في اطار علوم الاتصال .

في مقدمة الكتاب يؤكد المؤلفان أنهما يحاولان أن يقدما تناولا جديدا لدراسة الاتصال الانساني ، وذلك بأن يلقيا الضوء على « العمليات » الانسانية المعرفية Cognitive التي تهدف الى الوصول الى أكبر تأثير معرفي بأقل جهد ممكن ، وعلى ذلك فان الانسان يركز دائما على مايبدو له النقطة « الموائمة » ، أي التي تتعلق بالموضوع .

والاتصال هو أن تسترعي انتباه شخص ما ، ومن ثم أن تضع بين يديه « المعلومات » التي توائمه .

وهذا العنصر العام هو الذي يمكن تسميته مبدأ المواءمة The Principle of relevance . وهذا المبدأ لايمكن تناوله الا على المستوى البراجماتي Pragmatics (1) والبراجماتية هي دراسة العوامل السياقية في الاتصال الكلامي .

والحق أن معظم اللغويين يؤكدون الآن أن مشكلات الدلالة قد لايمكن حلها الا على المنهج البراجماتي .

ويضم الكتاب بعد هذه المقدمة فصولا أربعة : يعالج الفصل الأول موضوع « الاتصال » .

هل يمكن أن نصل الى نظرية عامة للاتصال ؟

من المعروف أن كل نظريات الاتصال ـ منذ أرسطو حتى السيميوتيكا الحديثة ـ تنهض على اطار واحد ، هو مايعرف باطار التشفير ، فالاتصال ليس الا تشفيرا لرسائل ، وحلا لهذا التشفير (2) : Encoding and decodingmessages .

على أن عددا من الفلاسفة قدموا اطارا آخر ، هو الاطار الاستدلالي ـ inferential ، وعليه يكون الاتصال تقديم دليل ثم محاولة تفسير هذا الدليل .

ويرى المؤلفان أن هذين الاطارين غير متعارضين ، ويمكن الربط بينهما وصولا الى صيغة جديدة للاتصال .

ـ ان فكرة « تشفير » الافكار فكرة غربية سائدة ، ويفضل المؤلفان أن تظل هذه الفكرة « فرضية » ، ذلك أن الأصوات تنجح في توصيل الأفكار ، لكن الفهم يتضمن أكثر من مجرد فك العلامة اللغوية .

ـ لقد انتشرت السيميوتيكا فترة طويلة في دراسات كثيرة ، لكنها ـ في الحقيقة ـ فشلت في تفسير الاتصال اللغوي ، وبخاصة بعد أن قدم تشومسكي نظريته عن

(1) يترجم اخواننا المغاربة مصطلح Pragmatics في علم اللغة ، وفي المنطق بلفظة « التداولية » ، ونحن نفضل تعريب اللفظة في الوقت الحالي على الأقل « البراجماتية » ، عطية الليبي .

(2) يترجم بعض زملائنا encoding بالترميز ، أو بالتكويد ، ونفضل استعمال كلمة شفرة « ومشتقاتها للابتعاد عن كلمة « رمز » بدلالاتها الأخرى .

« البنية العميقة » للعلامات ، اذ كيف نفسر قدرة اللغة على نقل الأساطير ، والأدب والفن ، بل كيف نفسر قدرتها على تقديم ماهو أكثر مما تحمله العلامة اللغوية .

ان المسألة لاتفهم في اطار التشفير وحده ، بل لابد معه من اطار الاستدلال .

واذا كانت العمليات الاستدلالية ضرورية ، فانها بلاشك تنهض على أساس مشترك من « المقدمات » بين المتكلم والسامع . ولكن كيف يمكن أن نجعل المقدمات مشتركة بينها ؟ ان ذلك يفضي الى أن نعرض لما يعرف بفرضية « المعرفة المتبادلة » .

اننا نفترض وجود « معرفة متبادلة » بين المتكلم والسامع كي نتحاشى الوقوع في « سوء الفهم » . على أن المعرفة المتبادلة يجب أن تكون أكيدة ، كي تكون موجودة ، وحيث انها لايمكن أن تكون أكيدة ، فانها لايمكن أن تكون موجودة . (لاحظ مثلا أن المتكلم لايعرف أن مستمعه يعرف أن بينهما معرفة متبادلة عن كل جملة ينطقها) .

ويرى المؤلفان أن نظرية المعرفة المتبادلة غير صحيحة ، ومن ثم فان اطار التشفير غير صحيح ، وعلينا أن نبحث عن بدائل أخرى .

يقدم الكاتب عرضا لجهود Grice [٣] عن المعنى والاتصال ، وذلك في تقريره أن الاتصال يتضمن أساسا نقل « نوايا » المتكلم الى السامع ، وكيفية معرفة السامع « بنوايا » المتكلم ، ولذلك فان المسألة في حقيقتها « استدلاليه » ، واذن فان المعنى عنده هو « نوايا » المتكلم ، وهذه النوايا نوعان : نوايا اعلامية ، تعلم السامع عن شيء ما ، ونوايا اتصالية ، تعلم السامع عن « النوايا » الاعلامية لشخص ما . وكل ذلك يفضي الى حقيقة هامة ، هي وجود « بنية عميقة » مركوزة في النفس الانسانية ، تفسر طريقة الاتصال بين البشر ويرى grice انه لابد من مبادىء للتعاون كي يتم الاتصال ، وقد استخلص لها عددا من القواعد هي : قاعدة الكمية ، والكيفية ، والعلاقة ، والطريقة . وهذه القواعد تنبني على نوع من « المعلومات المشتركة » بين المتكلم والسامع تفيد في البحث عن المواءمة . ولكن أي شكل للمعلومات المشتركة ، متاح للانسانية ؟ وكيف تستثمر في الاتصال ؟ وماهي المواءمة وكيف تتم ؟

ان المعرفة المتبادلة بناء فلسفي دون مقابل واقعي ، ولكن ذلك لايعني أن ننكر وجود معلومات مشتركة .

اننا جميعا نعيش في العالم الطبيعي نفسه ، ونستخلص المعلومات من هذه البيئة العامة ، ونقدم اظهارات ممكنة لها ، لكننا لانقدمها بطريقة واحدة ، بسبب الاختلاف في بيئاتنا الأضيق من ناحية ، وفي قدراتنا المعرفية من ناحية أخرى ، فالقدرات المعرفية تختلف من شخص لآخر ، وكذلك القدرات الاستدلالية . والناس يتكلمون لغات مختلفة ، وهم

---

(٣) راجع على سبيل المثال :

Grice, H.P., (1) Utteres's meaning, sentence meaning and word meaning.
(2) Utterers meaning and intentions. Philosophical Review, 1957, 78 : والمقالات في
(3) Logic and conversation 1975.

تصورات مختلفة ، ولهم ذاكرة مختلفة ، ومن ثم فانهم حتى اذا كانوا يتشاركون في بيئة طبيعية ضيقة فان مانسميه البيئة المعرفية ، لابد أن تظل مختلفة .

وعلى ذلك فان الاتصال يقتضي درجة من « التنسيق » بين المتكلم والسامع في اختيار الشفرة والسياق . وفكرة « المعرفة المتبادلة » تفسر كيف يمكن أن يتم هذا التنسيق .

ويمكننا أن نعرف « البيئة المعرفية » بأنها مجموعة من الافتراضات التي يكون الفرد قادرا على اظهارها عقليا وعلى قبولها باعتبارها صادقة . ولكن ماهي هذه الافتراضات وكيف يتوصل اليها الفرد ؟

وهذا الكتاب ـ في أساسه ـ محاولة لاستكشاف الاجابة عن هذين السؤالين انه يؤكد أن هناك خاصية واحدة تجعل الاتصال الانساني ممكنا ، هي خاصية « المواءمة » . ان الانسان « جهاز ذو كفاءة عالية لعمليات المعلومات » (لاحظ التأثر بالحاسب الآلي) . وقد تكون هناك « معلومات » قديمة أو حديثة لاصلة لها بما يريده الفرد ، ولكن حين توجد معلومات حديثة ، لها صلة بمعلومات قديمة ، لهما معا صلة بالموضوع ، فعندها تنشأ « المواءمة » . والسامع لايعرف ـ على وجه الدقة ـ ما « يعنيه » . المتكلم ، وانما يحاول أن يصل الى « افتراضات » عن « نية » الاتصال الاشاري ، أو الاتصال الاشاري الاستدلالي ، وهي جميعا ـ عندهما ـ شيء واحد ، ولها عمليات واحدة .

واذا كان هذا الاتصال يحاول أن يظهر الى السامع « النية » في « اظهار » الطبقة الاساسية من « المعلومات » ، فان علينا أن نعرف أن « النية » نوعان : نية اعلامية ، وأخرى اتصالية . أما الأولى فهي أن تظهر للسامع مجموعة من الافتراضات ، وأما الثانية فهي أن يكون هناك « اظهار » متبادل بين المتكلم والسامع أي أن المتكلم لديه نية اعلامية .

تركز هذا الفصل الهام من الكتاب على الطبيعة الاشارية الاستدلالية للاتصال ، وينتقل المؤلفان في الفصل الثاني الى « الاستدلال » ليعالجا الطبيعة الاستدلالية « للفهم » . وهذا الفصل كله مبني على افتراضين : ـ

(١) أن عملية الفهم الاستدلالي عملية غير إشارية .

(٢) أن المعلومات المقدمة الى السامع يستخدمها باعتبارها « مقدمة » في عملية الاستدلال .

ويبدو أن المسألة كلها ترجع الى « عمليات التفكير المركزية » التي لانعرف عنها الا القليل . على أن الشيء الذي يكاد يكون ظاهرا أن للعقل « أنظمة » يتخصص كل منها في عمل ما ، ويبدو أن هذه الأنظمة تندرج تحت قسمين كبيرين ، قسم يمثل انظمة الادخال input systemوهي التي تعمل بصريا وسمعيا ولغويا ، وقسم يمثل « الأنظمة المركزية » ، وهي التي تمزج المعلومات الواردة من أنظمة الادخال المختلفة ، ومن الذاكرة ، ثم تؤدي أعمالا استدلالية .

(الحاسب الآلي مرة أخرى) .

واذا كانت العمليات المركزية عمليات استدلالية ، فان ذلك يؤدي الى التمثل التصوري « والى « الصور المنطقية » .

و « الصورة المنطقية » صياغة مبنية بناء جيدا ، من مجموعة من المكونات التي تجري العمليات المنطقية

الصورية . والصورة المنطقية قائمة على « القضايا » ، فهي اذن صادقة أو كاذبة .

فاذا افترضنا أن « للذاكرة » مخزنا اساسيا ، فان أي تمثل مخزون فيه يتعامل معه العقل على أنه « وصف صادق » للحياة « الواقعية » ، ويؤدي ذلك الى أن الافتراضات التي يصوغها العقل لابد أن تكون افتراضات واقعية .

على أن قيمة تمثلنا للعالم لا تعتمد على الافتراضات التي تكونها فحسب ، ولكن ـ كذلك ـ على درجة ثقتنا بهذه الافتراضات ، وعليه فان أي تطور في هذا التمثيل لا يكون باضافة افتراضات ، ولكن بتغيير مستوى الثقة بها ،

والافتراضات ـ حين تأتي من الذاكرة ـ تأتي ومعها قدر من القوة ، وعلى ذلك يمكن أن نزعم أن تكوين الافتراضات عن طريق الاستنباط هو مفتاح الاتصال الاستدلالي غير الاشاري .

ويورد المؤلفان في الفصل الثالث عن « المواءمة » ، تعريفها ، ودرجاتها وشروطها . ومع ما أشرنا اليه في صدر هذا الحديث من أن « المواءمة » تستعصي على التعريف ، فان المؤلفين يؤكدان حاجة علم النفس الى تصور نظري لها وهما يقترحان التعريف التالي لها : ـ

« ان افتراضا مايكون موائما في سياق ما اذا كان ـ واذا كان فقط ـ ذا تأثير سياقي في ذلك السياق » .

وهذا التعريف ذاته غير جامع ، لأن المواءمة ليست على درجة واحدة ، كما أن تحديدها باعتبارها علاقة بين افتراض وسياق لم يوضح كيف يتحدد السياق .

ان التأثيرات السياقية لافتراض ما في سياق ما ليست العامل الوحيد الذي يوضع في الحسبان لتحديد درجة المواءمة ، وذلك أن التأثيرات السياقية تستحضرها عمليات عقلية ، وهي : ـ ككل العمليات البيولوجية ـ تتضمن جهدا ما ، وانفاقا لطاقة ما ، وهذا الجهد هو العامل الثاني في تحديد درجة المواءمة ، وهو عامل سلبي ، فكلما زاد الجهد قلت المواءمة .

وعلى ذلك يمكن تعريف المواءمة على النحو التالي : ـ
« ان افتراضا مايكون موائما في سياق ما الى الدرجة التي تكون التأثيرات السياقية في هذا السياق كبيرة . »

« وافتراض مايكون موائما في سياق ما الى الدرجة التي يكون الجهد الذي يبذل في هذا السياق صغيرا . »

وعلينا أن نشير الى ان الجهد العقلي ، والتأثيرات العقلية ، خصائص غير تمثيلية ، أي أنها لاتظهر العمليات العقلية ، ومن ثم فان المواءمة التي هي وظيفة للتأثير والجهد انما هي خصيصة غير تمثيلية أيضا ، أي أن المواءمة خصيصة لاتحتاج الى « اظهار » وانما هي « تحسب » فقط لكي تتم .

لكن اذا كان « السياق » لايُقدّم للسامع كما يبدو الآن في عملية « الفهم » ، فكيف يمكن تحديد مواءمة افتراض ما ؟

ان السامع يجد ـ في نهاية أية عملية استنباطية ـ عدداً من السياقات الملحقة رهن إشارته ، وهي سياقات منظمة يحتوي كل منها على سياق اصغر وهكذا ، وهو ما يعرف في علم النفس بنظام الضم . وعلى ذلك فان كثيرا من الظواهر تلوح أمام الانسان ، ولكنه لا يلتفت الا الى

الظواهر المواءمة ومن ثم فإن المواءمة خصيصة الافتراضات في العقل ، ولكنها أيضا خصيصة الظواهر « المثيرات » في البيئة التي تؤدي الى صياغة الافتراضات .

وفي الفصل الأخير تحدث المؤلفان عن جوانب من الاتصال الكلامي ، وهما يعرضان مجموعة من الموضوعات التي كثر فيها البحث من قبل ، لكنها جميعا لاتزال موضع نظر ، من نحو الكلام عن « الموضحات » و « التضمن » ، و « الأسلوب » و « الحقيقة والاستعارة » و « الحدث الكلامي » .

غير أن أهم مايقرره المؤلفان هو أن « نظرية المواءمة تعرض اطارا براجماتيا يفضي الى أسئلة جديدة ، والى اجابات جديدة » . وهما يرفضان المقولة السائدة التي تذهب الى أن الاتصال واللغة « وجهان لعملة واحدة » ، ويريان أن الاستعمال اللغوي ليس « اتصاليا » في أساسه ، وانما هو معرفي Cognitive .

وبعد ، فان هذا الكتاب - على ماذكرنا - يمثل حلقة من حلقات السعي البشري نحو محاولة فهم الظاهرة الانسانية الكبرى ، ظاهرة الاتصال الكلامي . واذا - كان علم اللغة الحديث قد تطور منذ بدأ دي سوسير محاضراته عن علم اللغة العام أوائل القرن ، من البنائية الى التحويلية التوليدية عند تشومسكي ، فان التركيز على البراجماتية - الاستعمال السياقي للغة - قد فتح آفاقا جديدة نحو البحث ، وفي الوقت نفسه فتح طريقا من الأسئلة والمشكلات ووجهات النظر نحو اختيار الزوايا التي تنظر منها الى النشاط الكلامي للانسان .

***